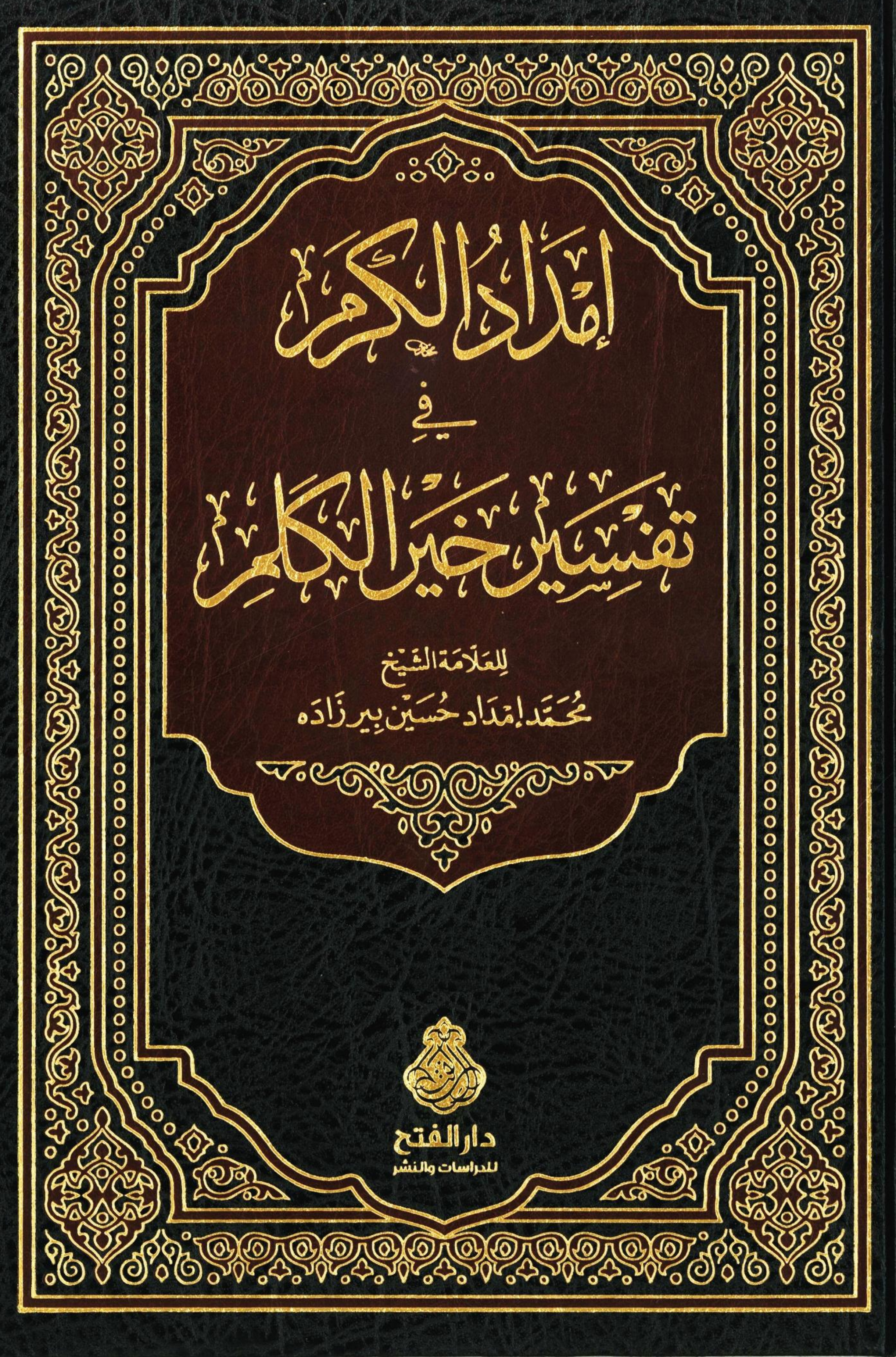


إمداد الكرم
في
تفسير خير الكلم
للعلامة الشيخ
محمد إمداد حسين بير زاده
دار الفتح
للدراسات والنشر

# إمداد الكرم

في

# تفسير خير الكلم

للعلامة الشيخ

محمد إمداد حسين بيرزاده

إمداد الكرم في تفسير خير الكَلِم
للعلامة الشيخ محمد إمداد حسين بيرزاده
نقله عن الأردية أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم السيد
الطبعة الأولى: ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

قياس القطع: 17 × 24
الرقم المعياري الدولي: ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-٤٢١-٨ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: ( ١٧٥٧/٤/٢٠١٧ )







هاتف: 4646199 6 (00962)
جوال: 777925467 (00962)
ص.ب: 183479 عمّان 11118 الأردن
البريد الإلكتروني: info@daralfath.com
الموقع على الشبكة الإلكترونية: www.daralfath.com

الناشر بالمملكة المتحدة:

AL-KARAM PUBLICATIONS

Al-Karam Publications
Eaton Hall
Retford
Nottinghamshire
DN22 0PR
England, United Kingdom
Tel: +44 (0) 1777 702555
Email: info@alkarampublications.com
Website: www.alkarampublications.com




للعلامة الشيخ

محمد إمداد حسين بير زاده

نقله عن الأردية

أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم السيد

الجزء السادس



دار الفتح
للدراسات والنشر


بسم الله الرحمن الرحيم

# فهرس مضامين

## المجلد السادس

❁ ❁ ❁

# فهرس مطالب
# المجلد السادس

❃ ❃ ❃

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# (٥٢) سُورَةُ الطُّورِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها «الطُّور»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

## مضامين السورة

- في بدايةِ هذه السُّورةِ أَقْسم اللهُ تعالى بأشياءَ مختلفةٍ مؤكِّدًا على أنّ القيامةَ ستقومُ يقينًا، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يمنَعَ قيامَها، وفي ذلك اليوم سيُلقَى بمُنكري القيامة في جهنَّم، وسيُقالُ لهم: هذه هي جهنَّمُ التي كنتُم تُنكرونَها.

- بدايةً من الآية ١٧ جاء بيانٌ لسلسلةِ الأَجْرِ العظيم الذي سيَلقاهُ المتَّقُون، يعني: أنّ اللهَ تعالى سيُنعِمُ عليهم بنِعَمٍ متنوِّعةٍ في الجِنان، وسيَلحَقُ بهم أولادُهم المؤمنونَ أيضًا، وسيَشكُرونَ اللهَ تعالى في الجنّةِ على أنه نَجّاهم من عذابِ جهنَّم.

- بدايةً من الآية رقم ٢٩ جاءتِ التسريةُ عن قلبِ النبيِّ ﷺ بأنْ لا تغتمَّ ولا تحزَنْ من كلامِهم الجارح، فهم يقولونَ: إنك أنت الذي أَلَّفتَ هذا القرآنَ من عند نفسِك، وينبغي لهم أن يأتوا ولو بآيةٍ واحدةٍ من مِثلِه إن كانوا صادقينَ في دعواهم.

- يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، ليس لدى هؤلاءِ المنكِرينَ أيُّ دليلٍ على إنكارِهم التوحيدَ والقيامةَ، وهم مستغرِقونَ في مخالفتِك بسببِ تعصُّبِهم، ولكنْ لا يَحزُنْك هذا، فأنت بأعيُنِنا، ونحن الحافظونَ لك، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يمَسَّ ولو شعرةً واحدةً

منك بسُوء، فاصبِرْ على كلامِهِمُ الجارح، واستمرَّ في تسبيح ربِّك وحَمْدِه من أَجْل اطمئنانِك وسكينةِ قلبِك، وخاصّةً حين تنهَضُ من نومِك، أو تقفُ لصلاتِك، أو تذهبُ من مجلسٍ كنتَ فيه، وسواءٌ في صلاةِ التهجُّد أو صلاة الفجر، انشَغِلْ دائمًا بحَمْدِ ربِّك والثناءِ عليه.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعة الكرَم، إنجلترا**
**بعد صَلاة المغرب من يوم الاثنين ٩ أغسطس ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٨ شعبانَ ١٤٣١هـ.**

❊ ❊ ❊

# سُورَةُ الطُّورِ (٥٢)،

## مكية (٧٦)، آياتها (٤٩)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

﴿وَٱلطُّورِ﴾

١ ـ المرادُ بالطُّورِ هنا: ذلك الجَبَلُ الذي كَلَّم اللهُ تعالى مِن فوقِه سيِّدَنا موسى

عليه السَّلامُ[١]، ويقالُ لهذا الجَبَل: «طُورُ سَيْناءَ» و«طُورُ سِينِينَ» أيضًا.

﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾

٢ ـ المرادُ بالكتابِ المسطورِ هنا: القرآنُ المَجيدُ الذي يقرأُه أهلُ الإيمان[٢]، وهو واضحٌ وبيِّنٌ تمامًا مِثلَ الصفحةِ المفتوحة، مَن شاء قَرَأه وحَصَّل منه الهدايةَ.

﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾

٣ ـ مثلَما أنّ بيتَ الله في الأرض، حيث يَعبُدُ بنو الإنسانِ فيه ربَّهم، كذلك يوجَدُ فوقَ السماءِ السابعةِ البيتُ المعمورُ، حيث يَعبُدُ الملائكةُ فيه ربَّهم.

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «البيتُ المعمورُ في السّماءِ السّابعة يَدخُلُه كلَّ يومٍ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ لا يعودونَ إليه حتّى تقومَ السّاعة»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أُتيتُ بالبُراق... ثمّ عُرِج بنا إلى السّماءِ السّابعة فاستَفْتَح جِبريلُ، فقيل: من هذا؟ قال: جِبريلُ. قيل: ومَن معَك؟ قال: محمّدٌ ﷺ. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففُتح لنا، فإذا أنا بإبراهيمَ ﷺ مُسنِدًا ظهرَه إلى البيتِ المعمورِ وإذا هو يَدخُلُه كلَّ يومٍ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ لا يعودونَ إليه»[٤].

﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾

٤ ـ المرادُ بالسَّقفِ المرفوع هنا: السَّماءُ. يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «يعني:

---

(١) «الطور: اسم الجبل الذي كلّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام». تفسير القرطبي.

(٢) «يعني: القرآن يقرأه المؤمنون من المصاحف». تفسير القرطبي.

(٣) المستدرك للحاكم، ٢: ٥٠٨: تفسير سورة الطور (٥٢).

(٤) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٧٤ برقم ٤١١.

السماءَ، سَمّاها سَقْفًا؛ لأنها للأرضِ كالسَّقفِ للبيت»[١].

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾

٥ - أَقْسم اللهُ تعالى بخمسةِ أشياءَ مختلفةٍ مؤكِّدًا على أنّ عذابَ القيامةِ الذي تُنذَرونَ به سيتحقَّقُ يقينًا، ولا يمكنُ لأحدٍ أن يمنَعَه من الوقوع.

يقولُ سيّدُنا جُبَير بنُ مُطعِم رضي اللهُ عنه: قَدِمتُ المدينةَ لأسألَ رسولَ الله ﷺ في أُسارى بدر، فوافَيْتُه يقرأُ في صلاةِ المغرب ﴿وَٱلطُّورِ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ فكأنّما صَدَع قلبي، فأَسْلمتُ خوفًا من نزولِ العذاب[٢].

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾

٦ - وقتَ وقوع الساعةِ وحينَ تبدَأُ سلسلةُ تدميرِ هذه الكائنات، ستهتزُّ السَّماءُ، وتتناثرُ الجبالُ ذرّاتٍ وتتطايَرُ كالعِهْن المنفوش، فإذا كان هذا هو مصيرَ السماءِ القوّية والجِبال الصُّلْبة الصَّلْدة، فإنك تستطيعُ أن تتصوَّرَ كيف يكونُ حالَ الدَّمار الذي سيُصيبُ الأشياءَ العاديَّة البسيطة.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾

٧ - الذين يَستغرِقُونَ في اللَّهوِ التافهِ والأمورِ التي لا طائلَ من ورائها ويَشغَلونَ أنفُسَهم بها، ويُكذِّبونَ بالآخِرة، سيكونُ مصيرُهم الدَّمارَ الذي ما بعدَه دمار.

﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

٨ - حين يُدفَعُ بمُنكري الآخِرة دفعًا إلى نارِ جهنَّمَ فستقولُ لهم الملائكةُ

---

(١) تفسير القرطبي.
(٢) المرجع السابق، سورة الطور (٥٢): الآية ٨.

عندئذٍ: هذه هي نارُ جهنَّمَ التي كنتُم تكذِّبونَ بها في الدنيا.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾

٩ ـ دَعا الأنبياءُ الكرامُ عليهِمُ السَّلام الناسَ إلى التوحيدِ والإيمانِ بالآخِرة، ولكنّ المتعصِّبينَ المتعنِّتينَ من الناسِ أنكَروا ما يقولُه الأنبياءُ عليهِمُ السَّلام، كما أنكَروا معجِزاتِهم بدَعوى أنها سِحرٌ، وحين يُقرَّبونَ يومَ القيامة من نارِ جهنَّم ستَسألُهم الملائكة: أخبِرونا، هـذه النارُ التي ترَوْنَها الآنَ، هـل هي سِـحرٌ فعلًا أم من أفعالِ الحُواة؟ أم أنّكم لا تستطيعونَ رؤيةَ هذا العذابِ الآنَ مثلَما كنتُم عُمياناً عن رؤيةِ الحقِّ في الدنيا؟

﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

١٠ ـ الذين ظَلُّوا يُكذِّبونَ بالتوحيدِ وبالآخِرة في هذه الدُّنيا سيُلقَى بهم في جهنَّمَ يومَ القيامة، وسيقالُ لهم: الآنَ سواءٌ عليكم أصبَرتُم أم استَغثتُم وصَرَختُم، لا فائدةَ تعودُ عليكم من كلِّ هذا، وستذوقونَ يقيناً عقابَ ما ارتكبتُم من أفعالٍ قبيحة.

﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾

١١ ـ الذين يتَّقونَ اللهَ تعالى ويخشَوْنَه ولا يعصُونَه، سيُنجِّيهِمُ اللهُ تعالى من جهنَّم ويُدخِلُهم الجنةَ، وسيُنعمُ عليهم بنِعَمٍ متنوِّعة، وسيَسعَدُ أهلُ الجنّةِ بهذه العناياتِ من الله تعالى عليهم ويشكُرونَه عليها.

﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

١٢ ـ سيقالُ للمتَّقينَ في الجنة: كُلوا واشربوا وتمتَّعوا بنِعَم اللهِ تعالى في الجنة؛ لأنكم كنتُم تعمَلونَ الصالحاتِ في الدنيا.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾

١٣ ـ ستوضَعُ السُّرُرُ في الجنةِ للمتَّقينَ في صفوفٍ متقابلة، وسيجلسونَ متَّكئينَ عليها في اطمئنانٍ بالغ، كما أنّهم سيُزوَّجونَ من حُورٍ ذواتِ أعيُنٍ جميلة أيضًا.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾

١٤ ـ سيُنعِمُ اللهُ تعالى على عبادِه المقبولينَ المتَّقينَ بالدَّرجاتِ الرَّفيعة في الجنّة، وسيَلحَقُ بهم من أولادِهم مَن كان يتَّبعُ آباءهم، فإذا كانت درجاتُ الأولادِ في الجنّة أقلَّ، رَفَعَهم اللهُ تعالى ببركةِ أعمالِ والدَيْهم إلى الدَّرجةِ الأعلى حتى يكونوا معَ والدَيْهم، يعني: أنّ درجاتِ الوالدَيْنِ تكونُ عاليةً طبقًا لأعمالِهم، ولا ينقُصُ ذلك من أَجْرِهم وثوابِهم شيئًا، لكنّ اللهَ تعالى سيتفضَّلُ على الأولادِ من أَجْل إسعادِ الآباء، ويَرفَعُ درجاتِهم ليُلحِقَهم بآبائهم.

## فائدة حسنات الوالدين

ـ يَروي سيّدُنا سعيدُ بن جُبَير رضي الله عنه، عن سيّدِنا عبدِ الله بن عبّاس رضي الله عنهما، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ اللهَ عزّ وجلّ لَيرفَعُ ذرّيّةَ المؤمن معهَ في درجتِه في الجنّة وإن كان لم يَبلُغْها بعمَلِه لِتَقرَّ بهم عَيْنُه» ثمّ قرأ الآية[1].

ـ يقولُ سيّدُنا سعيدُ بن جُبَير رضي الله عنه: إنّ سيّدَنا عبدَ الله بنَ عبّاس رضي الله عنهما قال، فيما أظُنُّه عن النبيِّ ﷺ: «إذا دَخَل الرّجلُ الجنّةَ سأَلَ عن أبوَيْه وزوجتِه ووَلَدِه (أي: قائلًا: أين هم؟)، فيقال: إنّهم لم يَبلُغوا درجتَك (ولهذا فإنّهم في مقام مختلفٍ في الجنة). فيقول: يا ربِّ، قد عَمِلتُ لي ولهم. فيؤمَرُ بإلحاقِهم

(١) تفسير القرطبي.

به»[(١)]، ولهذا ينبغي لكلِّ مسلم أن يشمَل أبوَيْه وزوجتَه وأولادَه أيضًا في نيّتِه عندما يُخْرِجُ صدَقةً أو زكاةً، ولن ينقُصَ هذا من أجرِ وثوابِ صَدَقاتِه وزكواتِه.

ـ يقولُ العلّامةُ ثناءُ الله باني بتي: «فعلى هذا معنى الحديث: كلُّ نَسَبٍ وسَببٍ منقطِعٌ إلّا سَبَبي ونَسَبي ولو بواسطة، يعني: نَسَبي ونَسَبِ أبنائي وإن سَفُلوا وسَبَبي ومَن له منِّي سببٌ، فكأنّ المرادَ أنّ قراباتِ الكفارِ ومُوالاتَهم تنقطعُ دونَ قراباتِ المؤمنينَ ومُوالاتِهم، نظيرُه قولُه تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] إنّ المؤمنينَ كلَّهم أبناءٌ لرسولِ الله ﷺ، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الزخرف: ٦]»[(٢)]، وبنفسِ الطريقة، فإنّ الأساتذةَ المسلمينَ والمشايخَ الرُّوحانيِّينَ أيضًا يكونونَ بمثابةِ الأبِ الرُّوحانيِّ والإسلاميِّ، ومَن يعملُ من الناسِ الصالحاتِ اتِّباعًا لهم، فإنّ هؤلاءِ الأساتذةَ والمشايخَ سيفيدونَ تلامذتَهم ومُريديِهم أيضًا.

## فائدة حسنات الأولاد

يقولُ الحافظُ ابنُ كثير في تفسير هذه الآية بأنه مثلَما أنّ الأولادَ يستفيدونَ ببركةِ الأعمالِ الصّالحةِ للآباء، فإنّ الآباءَ كذلك يستفيدونَ بالأعمالِ الصّالحةِ للأبناء، مثلَما رُوي عن سيّدِنا عبدِ الله بن عَبّاس رضي الله عنهما، أنه قال: «إن كان الآباءُ أرفعَ درجةً رَفَع اللهُ الأبناءَ إلى الآباء، وإنْ كان الأبناءُ أرفعَ درجةً رَفَع اللهُ الآباءَ إلى الأبناء، فالآباءُ داخِلونَ في اسم الذُّرّيّة»[(٣)]، «هذا فَضْلُه تعالى على الأبناءِ

(١) تفسير ابن كثير، سورة الطور (٥٢): الآية ٢١.
(٢) التفسير المظهري، سورة الرعد (١٣): الآية ٢٣.
(٣) تفسير القرطبي، سورة الطور (٥٢): الآية ٢١.

ببركةِ عمَلِ الآباء، وأمّا فَضْلُه على الآباءِ ببَركةِ دعاءِ الأبناء»[١]، وقد أورَدَ الحافظُ ابنُ كثيرِ الحديثَيْنِ التاليَيْنِ تأييدًا لهذا الكلام:

- رُوي عن سيّدِنا أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ الرّجلَ لَتُرفَعُ درجتُه في الجنّة فيقولُ: أنّى هذا؟ فيقال: باستغفارِ وَلَدِك لك»[٢].

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا مات الإنسانُ انقطَعَ عنه عمَلُه إلّا من ثلاثةٍ: إلّا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفَعُ به، أو وَلَدٍ صالحٍ يدعو له»[٣].

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾

١٥ - قال مُقاتِلٌ: «كلُّ امرىءٍ كافرٍ بما عَمِلَ من الشِّرك مرتَهنٌ في النار»[٤]؛ لأنّ المؤمنَ لن يَخلُدَ في جهنَّم إذا دَخَلها، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الحشر: ٣٨-٣٩] (أي: أهلَ الإيمان).

يَنقُلُ العلّامةُ القُرطبيُّ في هذا الخصُوص هذا القولَ: «هو عامٌّ لكلِّ إنسانٍ مرتهَنٌ بعمَلِه فلا يَنقُصُ أحدٌ من ثوابِ عملِه، فأمّا الزّيادةُ على ثوابِ العمَل فهي تفضّلٌ من الله»[٥]. وهذا فضلٌ منه، ولا يُنافي العدلَ والإنصافَ.

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾

١٦ - كلُّ ما تشتهيهِ أنفُسُهم من فواكهَ ولحوم ستُقدَّمُ إليهم. يقولُ العلّامةُ

---

(١) تفسير ابن كثير.
(٢) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ١ برقم ٣٦٦٠.
(٣) مسلم، كتاب الوصية، باب ٣ برقم ٤٢٢٣.
(٤) تفسير البغوي.
(٥) تفسير القرطبي.

إسماعيلُ حقي في تفسيرِ هذه الآية: «وفي الخبر: إنك لَتشتهي الطيرَ في الجنة، فيَخِرُّ بين يَدْيك مَشْوِيًّا»[١].

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾

١٧ ـ سوف يتسابقونَ في الجنّةِ إلى الشّرابِ الطَّهورِ فيما بينَهم من بابِ التسرِية عن النَّفْس، ولكنّ هذا الشرابَ الطَّهورَ لن يكونَ مُسكِرًا مثلَ خمرِ الدنيا، وإنّما هو طاهرٌ منعشٌ، فلا يَهذي الإنسانُ بشُربِه، ولا يرتكبُ ذنبًا بسببِه.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾

١٨ ـ سيُعطَى أهلُ الجنةِ أيضًا خَدَمًا من الغِلمانِ صغارِ السِّن يَطُوفونَ حولَهم لخدمتِهم، وهؤلاءِ الخَدَمُ في قمةِ النَّظافةِ والنَّقاء والجَمال مثلَ اللآلئ التي احتُفِظ بها بعيدًا عن الترابِ والغُبار، وقد نَقَل الإمامُ البَغَويُّ في تفسيرِ هذه الآيةِ ما يلي:

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن عُمَرٍو رضي اللهُ عنهما: «وما مِن أحدٍ من أهل الجنّة إلّا يسعَى عليه ألفُ غلامٍ، وكلُّ غلامٍ على عمَلٍ ما عليه صاحبُه».

ـ يقولُ سيّدُنا أبو قَتادةَ رضي اللهُ عنه: ذُكِر لنا أنّ رجلًا قال: يا نبيَّ الله، هذا الخادمُ فكيف المخدوم؟ قال: «فَضلُ المخدوم على الخادم كفَضْل القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكب»[٢].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾

١٩ ـ حينَما يلتقي أهلُ الجنّة معَ بعضِهم بعدَ تناوُلِ طعام الجنّة وشرابِها

---

(١) تفسير روح البيان، سورة الطور (٥٢): الآية ٢٢.
(٢) تفسير معالم التنزيل، سورة الطور (٥٢): الآية ٢٤.

يقولونَ: لقد كنّا في الدنيا في غايةِ القلقِ بشأنِ آخرتِنا، وسواءٌ كنا في وحدتِنا أم بينَ أهلينا، كنا نخافُ دائمًا من أنه لو غَضِبَ اللهُ تعالى علينا فسنحترقُ في نارِ جهنَّم، لكنّ فضلَ الله تعالى علينا عظيمٌ، إذ إنه وفَّقنا إلى العمَلِ الصالح، ونَجّانا من عذابِ جهنَّم.

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾

٢٠ ـ كُنّا في الدُّنيا نقولُ أيضًا: إنّ اللهَ تعالى رحيمٌ غايةَ الرحمة، وسوف يعفو عن أخطائنا، وكنّا ندعو بهذا الدُّعاءِ كثيرًا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة: ٢٠١]، وهكذا أحسَنَ اللهُ تعالى إلينا، ونَجّانا من العذابِ بفَضْلِ رحمتِه، إنه ـ بالفعل ـ ذو الفَضْل العظيم والرحيمُ غايةَ الرحمة.

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾

**٢١ ـ مَن هو المجنون؟**

المجنونُ يقالُ لذلك: الشّخصِ الذي يقَعُ في عقلِه فتورٌ، فلا يستطيعُ التمييزَ بينَ الصِّدقِ والكذبِ، وبينَ الحِكمةِ والحَماقة، وبينَ الخِيانةِ والأمانة، ثم إنه يتحدَّثُ بكلام غيرِ مترابطٍ، ويأتي أفعالًا بلا طائلٍ.

**مَن هو الكاهن؟**

الكاهنُ يقالُ لذلك: الشَّخصِ يتحدَّثُ بحديثِ المستقبَل بغيرِ وَحْيٍ يأتيه، واعتمادًا على التخمينِ والظنِّ.

وكان كفّارُ مكةَ يقولونَ عن النبيِّ ﷺ أحيانًا: إنه كاهنٌ، وأحيانًا أخرى يقولونَ: إنه مجنونٌ، وفي هذه الآية تسرِيةٌ عن قلبِ النبيِّ ﷺ بأنْ لا تهتمَّ يا رسولَ الله ﷺ بما يقولونَ من كلام جارحٍ عنك؛ لأنك ـ بفَضْل الله تعالى ـ لست بكاهنٍ ولا مجنون، وإنما أنت رسولُ الله ونبيُّه، ولهذا استمِرَّ في تبليغ دعوتِك والنُّصح لهم.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾

**٢٢** ـ كان كفّارُ مكةَ يقولونَ: إنّ النبيَّ ﷺ شاعرٌ، وعندَما يموتُ النبيُّ ﷺ سينتهي معَه دينُه وشعرُه، مَثَلُه مَثَلُ مَن سَبقوه من الشعراء، ولهذا فإنّهم ينتظرونَ أن يموتَ بشكلٍ طبيعيٍّ، أو أن تَحِلَّ به المصائبُ بسببِ دعاءِ الآلهةِ عليه، وعندَها ينتهي تفرُّقُ أهلِ مكة.

﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾

**٢٣** ـ يعني: انتظِروا أنتم نهايتي، وأنا أنتظرُ نهايَتكم، وسيَظهَرُ قريبًا مَن منّا كان

على الحق، ومَن منّا كان على الضَّلال؟ وهكذا رَأَتِ الدُّنيا كلُّها أنّ الكُفرَ والشِّركَ قدِ انتهى تمامًا من شبهِ الجزيرةِ العربيّة في خلالِ عدةِ سنواتٍ قليلة، ورَفرَفَت فوقَ كلِّ أرجائها رايةُ الإسلام.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾

٢٤ ـ لم يكنْ كفّارُ مكةَ يستطيعونَ الرّدَّ على تعاليم النبيِّ الكريم ﷺ المليئةِ بالعلم والحِكمة، فكانوا أحيانًا يقولونَ عنه: إنه كاهنٌ، وأحيانًا أخرى يقولون: إنه مجنونٌ، وأحيانًا ثالثةً يقولون: إنه شاعرٌ، معَ أنه لا يمكنُ لشخصٍ واحدٍ أن يكونَ كاهنًا ومجنونًا وشاعرًا في وقتٍ واحدٍ؛ لأنّ الكاهنَ يكونُ في غايةِ المكرِ ودقيقًا في نظرتِه، وبالتالي يستطيعُ أن يُخمِّنَ حولَ مستقبَل الناس، أما الشاعرُ فيكونُ ماهرًا في لغتِه، فيَصُبُّ أفكارَه في قالَبِ الأشعار، في حينَ أنّ حديثَ المجنونِ يكون غيرَ مترابِطٍ ولا معنى له.

ألا تُدركُ عقولُ كفّارِ مكّةَ هذا الفَرْقَ الواضحَ بينَ الكاهنِ والمجنون، بحيث يقولونَ عن شخصيّةٍ تتَّصفُ بالصِّدقِ والأمانة والعلم والحِكمة بأنّ صاحبَها مجنونٌ وكاهنٌ؟ الحقيقةُ أنّ هذا ليس قرارًا من عقولِهم، وإنّما هم أُناسٌ طُغاةٌ متمرِّدون، ومتمسِّكونَ بضَلالِهم بدافع من تعصُّبِهم وتعنُّتِهم ليس إلّا.

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾

٢٥ ـ يقولُ كفّارُ مكّةَ: إنّ القرآنَ الكريمَ ليس كلامَ الله تعالى، وإنّما هو كلامُ النبيِّ ﷺ. والحقيقةُ أنّ هذا الكلامَ مجرَّدُ حِيلةٍ يختلقونَها لكي لا يؤمنوا، ولو أنّهم صادقونَ في دعواهم هذه، فهم أيضًا من البشَر، وبالتالي عليهم أن يأتُوا ولو بحديثٍ واحدٍ من مِثْل هذا القرآن.

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾

٢٦ ـ السُّؤالُ هنا لمُنكري التوحيد، هو: هل خُلِقوا هم من أنفُسِهم هكذا بغيرِ خالقٍ، أم أنهم هم الذين خَلَقوا أنفُسَهم؟ وعندئذٍ يُجيبونَ بأنّ الذي خَلَقَهم هو اللهُ تعالى، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فإذا كان كفّارُ مكةَ يعترفونَ بأنّ اللهَ تعالى هو الذي خَلَقَهم، فماذا دَهَى عقولَهم إذًا حتى يترُكوا نُورَ التوحيد ويَضِلُّوا في ظُلُماتِ الشِّرك؟

﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾

٢٧ ـ يقولُ منكِرو التوحيد: إنّ اللهَ تعالى هو الذي خَلَقَهم، وهنا يُوجَّهُ إليهم سؤالٌ ثانٍ، يعني: مَن خَلَق السماءَ والأرضَ؟ وواضحٌ أنّهم سيُجيبونَ بأنّهم لم يَخلُقوا السماءَ والأرضَ، وإنّما خَلَقهن اللهُ تعالى، والآنَ السؤالُ هو: إذا كان هؤلاءِ يعترفونَ بأنّ اللهَ تعالى هو خالقُ كلِّ شيء، فلماذا لا يعبُدونَه وحدَه؟ الحقيقةُ أنّهم يعترفونَ بألسنتِهم فقطْ بأنّ اللهَ تعالى هو خالقُ الكلِّ، لكنّهم لا يؤمنونَ من قلوبِهم بهذا الكلام، ولهذا لا يعُبدونَ الله تعالى.

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾

٢٨ ـ اللهُ تعالى هو خالقُ خزائنِ العلم والحِكمة والرِّزق والنُّبوة، فهل هؤلاءِ الكفّارُ هم الذين يَملِكونَ هذه الخزائنَ؟ وهم الذين يُقسِّمونَ هذه الخزائنَ كما يريدون، ولهذا فإنّهم مُستَغْنُونَ عن اللهِ تعالى ويُعرِضونَ عن أحكامِه؟ معَ أنّ الحقيقةَ ليست هكذا، فاللهُ تعالى هو المالكُ الحقيقيُّ لكلِّ الخزائن وحاكمُها، فيجعَلُ من يشاءُ نبيًّا، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يمنَعَه من ذلك، فلماذا لا يَفهَمُ الكفّارُ هذه الحقيقةَ إذًا، ولماذا لا يؤمنونَ بها؟

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾

٢٩ ـ في هذه الآية يُسألُ الكفّارُ بأنّهم لا يؤمنونَ بالنبيِّ الكريم ﷺ، ويعتقدونَ بصحّةِ اتِّباعِهم لآبائهم وأجدادِهم، فما الدليلُ لديهِم على صحّةِ هذا الكلام؟ هل لديهم سُلَّمٌ ـ مَثلًا ـ يصعَدونَ عليه ويستمعونَ إلى حديثِ الله تعالى والملائكةِ في الملأِ الأعلى، ويتيقّنونَ من أنّ اعتقادَهُم صحيحٌ؟ إن كان الأمرُ هكذا فلْيتقدَّم منهم ذلك الشّخصُ الذي له علاقةٌ مباشرةٌ بالملأِ الأعلى، ويُقدِّمْ دليلًا واضحًا على هذا الادِّعاء، وإنْ لم يكنِ الأمرُ هكذا ـ وهو بالتأكيدِ ليس هكذا ـ فلا ينبغي لهم إذًا أن يُنكروا نُبوّةَ هذا الصّادقِ الأمينِ الذي أرسَلَه اللهُ تعالى نبيًّا لهدايتِهم.

﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾

٣٠ ـ كان أكثرُ الناسِ في شِبهِ الجزيرةِ العربيّة يكرَهونَ البناتِ، في حينَ كانت بعضُ القبائل تَدَّعي أنّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى، وفي هذه الآياتِ يُوجَّهُ السؤالُ إلى مشركي الجزيرةِ العربيّة بأنه ما الدَّليلُ لدَيْكم على أنّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى؟ هل كنتم موجودينَ حينَما خَلَق اللهُ تعالى الملائكةَ ورأيتُم أنهم بالفعل بناتٌ؟ أم هل لدَيْكم دليلٌ مكتوبٌ ذَكَره نبيٌّ من الأنبياءِ أو كتابٌ سَماويٌّ؟ وإذا لم يكنْ لدَيْكم أيٌّ من الدَّليلَيْن ـ ومن المؤكَّدِ أنه ليس لديكم فعلًا أيُّ دليل ـ فكم هو أحمقُ ومسيءٌ حُكمُكم بأنْ تُحِبُّوا لأنفُسِكم البنينَ وتُحبُّوا لله تعالى البنات، معَ أنّ الحقيقةَ هي أنّ اللهَ تعالى منزَّهٌ عن الوَلَد، ولهذا فإنّ القولَ بأنّ له وَلَدًا كذبٌ خطيرٌ وافتراءٌ عظيم.

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾

٣١ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لو أنك تَطلُبُ منهم أجرًا على دعوتِك إيّاهم إلى الإسلام ممّا لا يُمكِنُهم تحمُّلُه أو أداؤه، لَكان إنكارُهم ذا وَجْه وسبب، ولكنّك تسعَى لخيرِهم بلا أجرٍ منهم، فما أحمقَ هؤلاءِ حينَ لا يسمعونَ ما تقولُ ولا يُطيعونَه!

﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾

٣٢ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، هؤلاءِ الكفّارُ لا يؤمنونَ برَغْم آياتِ القرآنِ ومعجزاتِك، فاسألْهم ما هو الدَّليلُ لديهِم على إنكارِهم هذا؟ هل يأتيهم خبرٌ من الغيبِ فيكتبونَه، فإنْ كان الأمرُ كذلك فلْيُقدِّموا هذه الوثيقةَ المكتوبةَ، ولكنّ الحقيقةَ هي أنه ليس لديهِم أيُّ شيءٍ مكتوبٍ من العلم الغَيْبيِّ، وهم لا يؤمنونَ بك بسبب تعصُّبهم وعنادِهم ليس إلّا.

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾

٣٣ ـ لم يُكذِّبْ سادةُ قُريش بدافع مِن تعصُّبِهم وتكبُّرِهم النبيَّ ﷺ فقطْ، بل حاوَلوا أيضًا التآمرَ على قَتْلِه ﷺ، لكنّهم نَسُوا حقيقةَ أنّ مَن حَفَر لأخيه حُفرةً وَقَع فيها، وهكذا نجّى اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ من أهل مكةَ، وجاء به إلى المدينةِ المنوَّرة، بينَما قَتَل سادةَ قُريشٍ في بدرٍ، ومن نَجَا منهم تَجرَّع مرارةَ الهزيمة يومَ فتح مكةَ.

## التآمر على قتل النبي الكريم ﷺ في دار الندوة

حين وَصَل نورُ الإسلام إلى المدينةِ المنوَّرة بعدَ فترةٍ من المعارضةِ الشَّديدةِ له من قِبَل مُشركي مكةَ، استمرَّتْ ثلاثةَ عشرَ عامًا، وهاجَرَ معظمُ المسلمينَ من مكةَ إلى المدينة، شَعَر أهلُ مكةَ بخَطَرٍ، وهو: أنه إذا هاجَرَ النبيُّ ﷺ أيضًا، فمن الممكنِ جدًّا أن يُهاجِمَ مكةَ بعدَ فترةٍ ويفعَلَ بنا الأفاعيلَ، ولذا علينا أن نأخُذَ قرارًا حاسمًا قبلَ أن تَخرُجَ الأمورُ عن سيطرتِنا، وهكذا عَقَد سادةُ مكةَ اجتماعًا سرِّيًّا في قاعةِ الاجتماعاتِ العامة بمكةَ (دارِ النَّدوة)، وتفصيلُه موجودٌ في كُتبِ التاريخ والتفاسير المختلفة.

وقد روى ابنُ أبي حاتِم في تفسيرِه عن ابن عَبّاس رضي الله عنه «أنّ نفرًا من قريشٍ ومن أشرافِ كلِّ قبيلةٍ، اجتَمَعوا ليَدخُلوا دارَ النّدوة، واعتَرَضَهم إبليسُ في

صُورةِ شيخ جليلٍ، فلمّا رأَوْه قالوا: من أنت؟ قال: شيخٌ من أهل نَجْدٍ، سَمِعتُ بما اجتَمعتُم له فأردتُ أن أَحضُرَكم، ولن يَعدِمَكم منّي رأيٌ ونصحٌ، قالوا: أجَلْ، فادخُل، فدَخَل معَهم، قال: انظُروا في شأنِ هذا الرجل، فو الله لَيوشِكَنَّ أن يُواثبَكم في أمرِكم بأمرِه، فقال قائلٌ: احبِسوه في وِثاقٍ ثمّ تَربَّصوا به المنونَ حتّى يَهلِكَ كما هَلَك مَن كان قبلَه من الشُّعراء زهيرٌ ونابغةُ، فإنّما هو كأحدِهم، فقال عدوُّ الله، الشّيخُ النَّجْديّ: لا والله، ما هذا لكم برأيٍ، والله لَيُخرجَنَّ رأيُه من مَحبِسِه إلى أصحابِه فلَيوشكُنَّ أن يَثِبوا عليه حتّى يأخُذوه من أيديكم، ثمّ يمنَعوه منكم، فما آمَنُ عليكم أن يُخرِجوكم من بلادِكم، فانظُروا في غيرِ هذا الرّأي، فقال قائلٌ: فأَخْرِجوه من بينِ أظهُرِكم فاستريحوا منه فإنّه إذا خَرَج لم يَضُرَّكم ما صنعَ وأين وَقَع، وإذا غابَ عنكم أذاه استرحتُم منه وكان أمرُه في غيرِكم، فقال الشّيخُ النَّجْديّ: والله ما هذا لكم برأيٍ، ألم تَرَوْا حلاوةَ قولِه وطلاقةَ لسانِه وأَخْذَه للقلوبِ بما يُستمَعُ من حديثِه؟ والله لئن فَعَلتُم ثمّ استَعرضَ العربَ لَيجتمِعُنَّ عليه ثمّ لَيسيرَنّ إليكم حتّى يُخرِجَكم من بلادِكم ويقتُلَ أشرافكم، قالوا: صَدَق والله، فانظُروا رأيًا غيرَ هذا، فقال أبو جهلٍ: والله لَأُشيرَنّ عليكم برأيٍ ما أرى أَبْصَرتُموه بعدُ، ما أرى غيرَه، قالوا: وما هذا؟ قال: نأخُذ من كلِّ قبيلةٍ غلامًا سِبْطًا شابًّا نِهْدًا، ثمّ نُعطي كلَّ غلامٍ منهم سيفًا صارمًا، ثمّ يضربونَه، يعني: ضربةَ رجلٍ واحدٍ، فإذا قَتَلتُموه تَفرَّقَ دمُه في القبائل كلِّها، فلا أظنُّ هذا الحيَّ من بني هاشمٍ يَقْوُونَ على حربِ قُريشٍ كلِّهم، وأنّهم إذا رأَوْا ذلك قَبلوا العقلَ واسترَحْنا وقَطَعْنا عنّا أذاه، فقال الشّيخُ النَّجْديّ: هذا والله هو الرّأيُ، القولُ ما قال الفتى، لا رأيَ غيرُه، فتَفرَّعوا على ذلك وهم مُجْمِعونَ له»[1].

وقدِ اجتَمَع شبابٌ مختارونَ من قبائل قُريش بسيوفِهم أمامَ بيتِ النبيِّ ﷺ ليلةَ الهجرة، فأَطْلَعَ سيّدَنا جِبريلُ عليه السَّلامُ سيّدَنا محمدًا ﷺ على مؤامرةِ

(١) تفسير ابن أبي حاتم، سورة الأنفال (٨): الآية ٣٠.

الكفّارِ ضدَّه قائلًا: لا تنَم اليومَ في فراشِك، فقد أَذِنَ اللهُ لك بالهجرة. وعندَئذٍ قال النبيُّ ﷺ لسيّدِنا عليٍّ رضي الله عنه: «نم على فراشي وتَسَجَّ ببُردي هذا الحَضْرَميِّ الأخضر، فنَمْ فيه، فإنّه لن يَخلُصَ إليك شيءٌ تكرَهُه منهم»[1].

وعَهِدَ النبيُّ ﷺ بأماناتِ أهل مكةَ التي كانت عندَه إلى سيّدِنا عليٍّ رضي اللهُ عنه، وخَرَج من المنزل، وقَبَض قبضةً من التراب، وألقَى بها على أعدائه الشبابِ وهو يقرَأُ هذه الآيةَ من سُورة يسٓ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٩].

وهكذا غَشِي النّومُ الشبابَ جميعًا، وخَرَج النبيُّ ﷺ من بَيْنِهم، وذَهَب إلى بيتِ سيّدِنا أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه، واصْطَحَبه إلى غارِ ثَوْر[2]. ولمزيدٍ من التفصيل عن أحوالِ غارِ ثَوْر راجعْ حاشيةَ الآية رقم **٤٠** من سُورة التوبة **(٩)**.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

**٣٤** ـ في الآياتِ السابقة أَفْهم اللهُ تعالى الكفّارَ بالأدِلّةِ المختلفة أنه لا أحدَ غيرُ الله تعالى يستحِقُّ العبادةَ، وبرَغْم ذلك إن أصَرُّوا على أن يعبُدوا أحدًا غيرَ الله تعالى، فهذا بمثابةِ طُغيانٍ واعتقادٍ فاسدٍ منهم، فاللهُ تعالى واحدٌ أحدٌ، وهو منزَّهٌ عن كلِّ شيءٍ يشرِكونَه معه.

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾

**٣٥** ـ كان كفّارُ مكةَ يطالبونَ النبيَّ ﷺ قائلين: إن كنت نبيًّا حقًّا فأْتِنا بقطعةٍ

---

(١) سبل الهدى والرشاد، **٣**: **٣٢٦**.

(٢) ضياء النبي، **٣**: **٥٨**.

من السماء، وفي هذه الآيةِ أبطَلَ اللهُ تعالى ما يُطالبونَ به قائلًا بأنّ كفّارَ مكةَ قد توغَّلوا في تعصُّبِهم وعنادِهم إلى درجةِ أننا لو أتَيْناهم - فرَضًا - بقطعةٍ من السماء، وأسقَطْناها أمامَهم، ورأَوْا - بالفعل - أنّ قطعةً من السماءِ تسقُطُ أمامَهم، فإنّهم معَ ذلك لن يؤمنوا، وإنما سيقولون: إن هذه ليست قطعةً من السماء، وإنّما هي سحابةٌ تتَدلَّى إلى أسفلَ.

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾

٣٦ - في هذه الآيةِ تسريةٌ عن قلبِ النبيِّ الكريم ﷺ بأنه إذا لم يَقبَلِ المشركونَ الحقَّ برَغْم وضوحِه، وأصَرُّوا على نظريّاتِهم الباطلة، فلا تهتمَّ بتعنُّتِهم هذا، ولا تغتمَّ ولا تحزَنْ على عَدَم إيمانِهم، فهؤلاءِ لن يؤمنوا فعلًا، وحين يرَوْنَ عاقبةَ أفعالِهم القبيحة يومَ القيامة، سيطيرُ صَوابُهم، ولن يُفيدَهم في شيءٍ يومَ القيامة كلُّ مكرٍ أو خِداع ارتكبوه في الدُّنيا ضدَّ الإسلام، كما أنه لن يستطيعَ أحدٌ أن يمُدَّ لهم يدَ العونِ والمساعدة.

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

٣٧ - يرَى سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما أنّ المرادَ بالعذابِ الذي سيلقاهُ الظالمونَ قبلَ عذابِ يوم القيامة إنّما هو عذابُ القبر[١]، ولمزيدٍ من التفصيل عن عذابِ القبر راجع الحاشيةَ رقم ٣٨ للآية رقم ٤٦ من سورة غافر (٤٠).

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾

٣٨ - يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، ليس لدى هؤلاءِ المُنكرينَ أيُّ دليلٍ على إنكارِهم القيامةَ والتوحيدَ، وهم يَسْعَوْنَ جاهدينَ في مخالفتِك بسببِ تعصُّبِهم،

---

(١) «عن ابن عباس، هو عذاب القبر». تفسير القرطبي.

ولكنْ لا تقلَقْ ولا تهتمَّ، فإنك بأعيُننا، ونحن نحفَظُك، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يمَسَّ ولو شعرةً واحدةً منك بسُوءٍ، فاصبِرْ على كلامِهم الجارح، وواصِل التسبيحَ بحَمْدِ ربِّك من أَجْل سَكِينةِ قلبِك وطُمَأنينتِه، وخاصّةً حين تقومُ من نومِك، وحين تقفُ للصَّلاة، وحين تقومُ من مجلسِك، وسواءٌ في صلاةِ التهجُّد أو صلاةِ الفجر، اجتهدْ في حَمْد ربِّك والثناءِ عليه.

**الفقيرُ إلى الله: محمّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعة الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة الظهر من يوم السبت ١٤ أغسطس ٢٠١٠م**
**الموافق ٣ رمضانَ ١٤٣١هـ.**

**والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.**

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# (٥٣) سُورَةُ النَّجْمِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها «النَّجْم»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

هذه أولُ سُورةٍ يُعلنُها النبيُّ ﷺ، فقد تلاها النبيُّ ﷺ في الحَرَم الشّريفِ بصوتٍ عالٍ، وكان المشركونَ يسمَعونَه، وهذه أولُ سورةٍ نَزَلت فيها آيةُ سَجْدةٍ[١]، وكان أعجبَ ما في هذا الأمرِ أنه عندَما سَجَد النبيُّ ﷺ في آيةِ السجدة خرَّ معه في السجودِ الكفّارُ أيضًا وليس المسلمونَ فقط.

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النّبيَّ ﷺ قَرَأ سوُرةَ النَّجْم فسَجَد بها، فما بقيَ أحدٌ من القوم إلّا سَجَد، فأخَذ رجلٌ من القوم كفًّا من حصًى أو ترابٍ، فرَفَعه إلى وجهِه وقال: يكفيني هذا، فلقد رأيتُه بَعدُ قُتِلَ كافرًا[٢].

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن عبّاس رضي الله عنهما: إنّ النّبيَّ ﷺ سَجَد بالنَّجْم وسَجَد معَه المسلمونَ والمشركونَ والجِنُّ والإنس»[٣].

---

(١) «هذه أول سورة أعلن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقراءتها، فقرأها في الحرم والمشركون يسمعون... وهي أول سورة أنزلت فيها سجدة». تفسير روح المعاني.

(٢) البخاري، كتاب سجود القرآن، باب ٤ برقم ١٠٧٠.

(٣) البخاري، كتاب سجود القرآن، باب ٥ برقم ١٠٧١.

## مضامين السورة

ـ جاء في بدايةِ هذه السُّورة إبطالٌ لاتِّهاماتِ الكفّارِ التي قالوا فيها: إنّ النبيَّ ﷺ حادَ عن دينِ آبائه وأجدادِه، ويؤلِّفُ كلامًا من عندِ نَفْسِه، وينسُبُه إلى الله تعالى، فأَقْسم اللهُ تعالى مؤكِّدًا تأكيدًا تامًّا على بطلانِ هذه الاتِّهاماتِ قائلًا: إنّ نبيِّي لم يَحِدْ عن الطريقِ المستقيم أبدًا، كما أنه لا يتكلَّمُ بشيءٍ من عند نفسِه، وإنما كلُّ ما يقولُه وحيٌ منّي.

ـ جاء بعدَ ذلك ذكرُ المعراج، وهو الذي جَعَل اللهُ تعالى فيه النبيَّ ﷺ يطُوفُ بالعالَم العُلْويِّ، وجَعَله يراهُ أيضًا، ولهذا فإنّ كلَّ ما أَخْبر به النبيُّ ﷺ الناسَ بعدَ عودتِه من المِعراج لم يكنْ مجرَّدَ إشاعاتٍ أو كلام نَظَري، وإنما هو مشاهداتُه ﷺ بعيونِه الطاهرة.

ـ في السُّورةِ تنبيهٌ للكفّارِ بأنّكم تتَّبِعونَ آباءكم وأجدادَكم، وتتَّبِعونَ كذلك ظنَّكم وأهواءكم، وليس لديكم أيُّ دليلٍ على كُفرِكم وشِركِكم هذا، والآنَ أمَا وقد جاءتكم الهدايةُ من الله تعالى فعليكم إذًا أن تتخلَّوْا عن ظنِّكم وأوهامِكم، وتتَّبِعوا هذه الهدايةَ.

إن نبيِّي لم يأتِ بدينٍ جديد، وإنّما هذا هو الدِّينُ نفسُه الذي جاء به الأنبياءُ الكرامُ السابقونَ من قبلُ عليهم جميعًا السَّلامُ، والأقوامُ الذين كذَّبوهم أهلَكْناهم، ولهذا لا ينبغي أن تُضيِّعوا وقتَكم في الغفلة، واعبُدوا اللهَ تعالى خالقَكم الحقيقيَّ، وإن لم تَرجِعوا عن طُغيانِكم، فسيكونُ مصيرُكم مثلَ مصيرِ مَن سَبَقوكم من الأُمم.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعة الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة العصر من يوم الأحد ١٥ أغسطس ٢٠١٠م**
**الموافق ٤ رمضانَ ١٤٣١هـ.**

# سورة النجم (٥٣)،

## مكية (٢٣)، آياتها (٦٢)، ركوعاتها (٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾

١ ـ بيَّن المفسِّرونَ في هذا الخصوصِ معانيَ متعدِّدةً للنَّجم المضيءِ، على سبيل المثال:

ـ يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «معنى ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾: والثّريّا إذا سَقَطت معَ الفجر، والعربُ تُسمّي الثُّريّا نجمًا وإن كانت في العددِ نجومًا»[1].

---

(١) تفسير القرطبي.

ـ ويقولُ سيّدُنا مجاهدٌ: «إنّ المعنى: والقرآنِ إذا نُزِّل؛ لأنّه كان يُنزَّلُ نجومًا»[1].

ـ يقولُ الإمامُ جعفرُ الصّادقُ ابنُ محمدِ بن عليٍّ بن الحُسَين رضي الله عنهم جميعًا: «﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ يعني: محمّدًا ﷺ، ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾: إذا نزَل من السّماءِ ليلةَ المعراج»[2]. وقد ترجَم هذا الفقيرُ إلى الله معنى هذه الآيةِ طبقًا لهذا القولِ للإمام جعفرٍ الصّادق، وهو المعنى القريبُ من القياس؛ لأنّ الآياتِ التالية لهذه الآيةِ تتحدّثُ عن القُربِ الخاصِّ من الله تعالى، والوحيِ الخاصِّ من الله تعالى بصورةٍ مباشرة، والرؤيةِ الخاصّةِ لذاتِ الله تعالى، وكلُّها تتعلقُ بليلةِ المعراج.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾

٢ ـ كان كفّارُ مكةَ يتّهمونَ النبيَّ ﷺ بأنه حادَ عن دينِ قومِه وضَلَّ، وقد رَدَّ الله تعالى على هذا الاتّهام في هذه الآيةِ قائلًا: إن نبيِّي دائمًا على الصِّراط المستقيم، ولم يَضِلَّ أبدًا، والدليلُ الواضحُ على ذلك أنه رفيقُكم، ويعيشُ أيامَه ولياليَه معَكم، وقد أحسَنَ النُّصحَ لكم دائمًا في الأمورِ الدُّنيويّة، وهو الآنَ في أمورِ الدِّين يريدُ الخيرَ لكم، ولهذا فإنّ الطريقَ الذي يدعوكم إليه هو الطريقُ المستقيم، وإن كنتُم تريدونَ النَّجاةَ فاترُكوا ضلالَ آبائكم وأجدادِكم واتَّبِعوه هو.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾

٣ ـ يعني أنّ النبيَّ ﷺ لا يتكلَّمُ بهوى نفسِه أصلًا، وإنّما يتكلَّمُ بما يوحَى إليه من الله تعالى، ولهذا فإنّ كلَّ ما يقولُه النبيُّ ﷺ هو الحقُّ، مثلَما قال سيّدُنا عبدُ الله بن عَمْرٍو رضي الله عنهما: كنت أكتُب كلَّ شيءٍ أسمَعُه من رسولِ الله ﷺ

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) المصدر السابق.

أريدُ حِفظَه، فنَهَتْني قُريشٌ، وقالوا: تكتُبُ كلَّ شيءٍ سمِعتُه من رسولِ الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ بشَرٌ يتكلّمُ في الغَضَبِ والرِّضا؟ فأمسَكتُ عن الكتاب، فذَكَرتُ ذلك لرسولِ الله ﷺ، فأَوْمأَ بإصبعِه إلى فيه، وقال: «اكتُبْ، فوالّذي نفسي بيدِه، ما خَرَج منه إلّا حقٌّ»[1].

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾

٤ ـ في الآياتِ من الآية رقم ٥ إلى الآية رقم ١٨ ذِكرٌ لذلك الجزءِ من معجزةِ المِعراج للنبيِّ ﷺ، والذي يتعلَّقُ بِسدرةِ المنتَهى وباللامكان.

## اختلاف المفسرين

في هذه الآياتِ ذِكرٌ لشخصيَّتَيْنِ، مَن هما هاتانِ الشَّخصيَّتانِ؟ اختَلفَ المفسِّرونَ فيما يتعلَّقُ بهما، فقالت مجموعةٌ من المفسِّرينَ: إنّ الشَّخصيَّتَيْنِ المذكورتَيْنِ في الآيات هما: سيِّدُنا جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلام وسيِّدُنا النبيُّ الكريمُ ﷺ، يعني: أنّ النبيَّ ﷺ لم يلتقِ اللهَ تعالى ليلةَ المِعراج، وإنّما التقَى سيِّدَنا جِبريلَ عليه السلام.

وقالتِ المجموعةُ الثانيةُ من المفسِّرين: إنّ المذكورَيْنِ في الآياتِ هما النبيُّ الكريمُ ﷺ واللهُ تعالى، يعني: أنّ النبيَّ ﷺ التقَى اللهَ تعالى ليلةَ المِعراج.

ويمكنُ استنتاجُ المعنيَيْنِ من الآيات، لكنّ هذا العبدَ الفقيرَ تبنَّى موقفَ الجماعةِ الثانية من المفسِّرين، يعني: أنّ المذكورَيْنِ في هذه الآياتِ الكريمة هما: النبيُّ الكريمُ ﷺ واللهُ تعالى، وقد دوَّنتُ الترجمةَ والتفسيرَ طبقًا لهذا.

---

(١) سنن الدارمي، المقدمة، باب ٤٣.

## خلاصة مفهوم الآيات

اللهُ تعالى شديدُ القُوى الحكيمُ العليم، عَلَّم النبيَّ ﷺ القرآنَ المَجيد، مثلَما قال اللهُ تعالى في سُورةِ الرحمن: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: ١-٢].

حين وَصَل النبيُّ ﷺ في رحلةِ المِعراج إلى أعلى حافَةٍ في الكائنات، أراد ﷺ الصُّعودَ إلى المزيدِ من العُلوّ، فأَنْعم اللهُ تعالى على حبيبِه النبيِّ ﷺ بقُربٍ جَعَله منه أقربَ من قوسَيْنِ أو أقلَّ من ذلك، وفي هذا المقام الخاصِّ من القُربِ كَلَّم اللهُ تعالى عبدَه المقرَّبَ سيّدَنا محمدًا ﷺ بما شاء، وهناك رأى النبيُّ ﷺ اللهَ تعالى، وصَدَّق القلبُ هذه الرُّؤيةَ، بمعنى: أنها لم تكنْ منامًا، وإنما كانت رؤيةً حَظِي بها الجسمُ والرُّوحُ والعينانِ والقلبُ، فهل تُجادلونَ النبيَّ ﷺ إن كان قد رآه أم لا؟ معَ أنه لم يرَهُ مرةً واحدة فقط، وإنّما رآه مرةً ثانيةً أيضًا عندَ سِدرةِ المنتهى، في ذلك الوقت غطّى نورُ الحقِّ تعالى سِدرةَ المنتَهى، ورأى النبيُّ ﷺ نورَ الله تعالى بكلِّ اطمئنان، ولم يفقدْ وعيَه مثلَما حَدَث معَ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، وإنما استَغْرقَتْ عيناه في رؤيةِ الحقِّ تعالى بحيث لم تعودا تَريانِ غيرَه، ولم تلتفِتا إلى سواه، وقد شاهد النبيُّ ﷺ في رحلة المِعراج هذه آياتٍ من الله تعالى لا حصرَ لها.

### ١ ـ دورُ سيّدِنا جِبريلَ الأمينِ عليه السَّلامُ في واقعةِ المِعراج

رافَقَ سيّدُنا جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلامُ سيّدَنا محمدًا ﷺ في رحلةِ المِعراج هذه من مكةَ المكرَّمة حتى سِدرةِ المنتَهى كخادم له ﷺ ورسولٍ إليه، على سَبيل المثال: كان النبيُّ ﷺ يستريحُ في الحَطِيم عندَ الكعبةِ المشرَّفة، إذ جاءه سيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ وأَيْقظَه من نومِه، وأخبَره بالإرادةِ الإلهيّة، ثم اصْطَحَبه بالقُربِ من زَمْزم، وشَقَّ صدرَه الشَّريفَ، ثم أَخْرجَ قلبَه منه، فغَسَله، وملأَه بالإيمانِ والحِكمة، ثم

أعادَه إلى موضعِه وأَغْلق صدرَه كما كان، ثم قَدَّم للنبيِّ ﷺ حيَوانًا ليمتطيَه، ويُدعَى «البُراقَ»، وكان البراقُ في غايةِ السُّرعةِ بحيث كان يضَعُ قدمَه حيث يصلُ بصَرُه[١]، وحين وَصَل النبيُّ ﷺ إلى بيتِ المقدِس حيث جُمِع له الأنبياءُ جميعًا عليهم السَّلامُ هناك، فقَدَّم سيّدُنا جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلامُ سيّدَنا محمدًا ﷺ لإمامةِ الأنبياءِ في الصَّلاة، فصَلّى بالأنبياءِ جميعًا عليهم السَّلام[٢]. ثم عُرِج بسيّدِنا محمدٍ ﷺ من بيتِ المقدِس إلى السَّموات (وكان سيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ يقومُ بطَرْقِ أبوابِ كلِّ سماء، ويُخبِرُه بالطريقِ كالخادم)، ووَصَل النبيُّ ﷺ إلى سدرةِ المنتَهى بعدَ لقائه بالأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام[٣]، وعندَ سِدرةِ المنتَهى توقَّف سيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ هناك

---

(١) «عن أنس بن مالكٍ، عن مالك بن صعصعة ـ رضي الله عنهما ـ أنّ نبيّ الله ﷺ حدّثهم عن ليلة أسري به: «بينما أنا في الحطيم ـ وربّما قال: في الحجر ـ مضطجعًا، إذ أتاني آتٍ فقدّ ـ قال: وسمعته يقول: فشقّ ـ ما بين هذه إلى هذه ـ فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته، وسمعته يقول: من قصّه إلى شعرته ـ فاستخرج قلبي، ثمّ أتيت بطستٍ من ذهبٍ مملوءةٍ إيمانًا، فغسل قلبي ثمّ حشي، ثمّ أتيت بدابّةٍ دون البغل وفوق الحمار أبيض». فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنسٌ: نعم، يضع خطوه عند أقصى طرفه. البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ٤٢ برقم ٣٨٨٧.

(٢) «ثمّ دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السّلام، فقدّمني جبريل حتّى أممتهم». النسائي، كتاب الصلاة، باب ١.

(٣) «فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتّى أتى السّماء الدّنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت، فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلّم عليه. فسلّمت عليه فردّ السّلام ثمّ قال: مرحبًا بالابن الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد حتّى أتى السّماء الثّانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت، إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلّم عليهما. فسلّمت فردّا، ثمّ قالا: مرحبًا بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد بي إلى السّماء الثّالثة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت =

وقال: لو تقدَّمتُ أكثرَ من ذلك قَيْدَ أُنمُلةٍ لَاحترَقتُ[١]، كما أنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من نبيٍّ إلّا وله وزيرانِ من أهل السّماءِ ووزيرانِ من أهل الأرض، فأمّا وزيرايَ من أهلِ السّماء فجِبرئيلُ وميكائيل، وأمّا وزيرايَ من أهلِ الأرض فأبو بكرٍ وعُمر»[٢].

ـ وبعدَ قراءةِ الأحاديثِ المذكورة يبدو عجيبًا القولُ بأنّ سيّدَنا جِبريلَ الأمينَ

---

= إذا يوسف. قال: هذا يوسف فسلّم عليه. فسلّمت عليه فردّ، ثمّ قال: مرحبًا بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء الرّابعة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء. ففتح، فلمّا خلصت إلى إدريس قال: هذا إدريس فسلّم عليه. فسلّمت عليه فردّ ثمّ قال: مرحبًا بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء الخامسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ ﷺ. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء. فلمّا خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلّم عليه. فسلّمت عليه فردّ ثمّ قال: مرحبًا بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء السّادسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: من معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قال: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فلمّا خلصت، فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلّم عليه، فسلّمت عليه فردّ ثمّ قال: مرحبًا بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح. فلمّا تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأنّ غلامًا بعث بعدي، يدخل الجنّة من أمّته أكثر من يدخلها من أمّتي. ثمّ صعد بي إلى السّماء السّابعة، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فلمّا خلصت، فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلّم عليه. قال: فسلّمت عليه، فردّ السّلام، قال: مرحبًا بالابن الصّالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ رفعت إليَّ سدرة المنتهى». البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ٤٢ برقم ٣٨٨٧.

(١) ويروى أن جبريل لما وصل إلى السدرة التي هي مقامه تأخر فلم يتجاوز، فقال عليه السلام: «أفي مثل هذا المقام يترك الخليل خليله»؟. فقال: لو تجاوزت لأحرقت بالنور. وفي رواية: لو دنوت أنملة لأحرقت. تفسير روح البيان، سورة الإسراء (١٧): الآية ١.

(٢) كنز العمال، ١١: ٥٦٠ برقم ٣٢٦٤٧.

عليه السَّلامُ قدِ اضْطَحَب سيّدَنا محمدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بكلِّ هذا الاهتمام إلى سِدرةِ المنتَهى لكي يُريَه شكلَه وصُورتَه الأَصْليّة، ويوصلَ إليه العلمَ المعطَى من الله تعالى (أي: الوحيَ)، في حينَ أنّ سيّدَنا جِبريلَ عليه السَّلامُ كان يُبلِّغُ النبيَّ ﷺ بالوحي على الأرض أيضًا، وقد أراه صُورتَه وشكلَه الأصليَّ من قبلُ، مثلَما قال النبيُّ ﷺ وقتَ فترةِ الوحي: «بيْنا أنا أمشي، إذ سمعتُ صوتًا من السّماء، فرَفعتُ بَصَري فإذا المَلَكُ الّذي جاءني بحِراءٍ جالسٌ على كرسيٍّ بينَ السّماء والأرض (أي: على صُورتِه الأَصْليّة)»[1].

## ٢ - الصَّلواتُ الخمس

فَرَض اللهُ تعالى الصَّلواتِ الخمسَ على الأُمّةِ المسلمة أثناءَ القُربِ الخاصِّ منه للنبيِّ ﷺ ليلةَ المِعراج، مثلَما يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه، من أنّ النبيَّ ﷺ قال: «فأوحَى اللهُ إليّ ما أوحَى ففَرَض عليَّ خمسينَ صلاةً في كلّ يومٍ وليلةٍ، فنَزَلتُ إلى موسى ﷺ فقال: ما فَرَض ربُّك على أُمّتِك؟ قلت: خمسين صلاةً. قال: ارجعْ إلى ربِّك فاسأَلْه التّخفيفَ، فإنّ أُمّتَك لا يطيقونَ ذلك، فإنّي قد بَلَوْتُ بني إسرائيلَ وخَبرتُهم. قال: فرجعتُ إلى ربّي فقلتُ: يا ربِّ خفِّفْ على أُمّتي. فحَطَّ عنّي خمسًا، فرجعت إلى موسى فقلتُ: حطَّ عنّي خمسًا. قال: إنّ أُمّتَك لا يطيقونَ ذلك فارجِعْ إلى ربِّك فاسأَلْه التّخفيفَ... قال: فلم أزَلْ أرجِعُ بينَ ربّي تبارَكَ وتعالى وبينَ موسى - عليه السّلام - حتّى قال: يا محمّد، إنّهنّ خمسُ صَلَواتٍ كلَّ يومٍ وليلةٍ لكلِّ صلاةٍ عَشْرٌ، فذلك خمسونَ صلاةً... فنَزَلتُ حتّى انتهَيْتُ إلى موسى ﷺ فأخبرتُه، فقال: ارجِعْ إلى ربِّك فاسأَلْه التّخفيفَ. فقال رسولُ الله ﷺ: فقلت: قد

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٣ برقم ٤.

رجعتُ إلى ربّي حتّى استحيَيْتُ منه (أي: أن أسألَه مزيدًا من التخفيف)»[١].

والآنَ إذا سَلَّمنا بأنّ سيّدَنا جِبريلَ عليه السَّلامُ هو المقصودُ هنا بدلًا من الله تعالى، فهل جبريلُ عليه السَّلامُ هو الذي فَرَض الصَّلاةَ؟ وهل نَصَح سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ سيّدَنا محمدًا ﷺ في ليلةِ المِعراج أن يعودَ إلى سيّدِنا جِبريلَ عليه السَّلام؟ بالقَطْع لا، فهذا الحديثُ واضحٌ تمامَ الوضوح، أي: أنّ النبيَّ ﷺ قد مَثُل في حضرةِ الله تعالى ليلةَ المعراج، وأنّ اللهَ تعالى أوحَى إليه بصورةٍ مباشرة، ومن بينِ هذا الوحي كانتِ الصَّلواتُ الخمسونَ، وأثناءَ العودةِ من هناك قال سيّدُنا موسى عليه السلام لسيّدِنا محمدٍ ﷺ أنِ ارجِعْ إلى ربِّك فاسأَلْه التخفيفَ.

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾

٥ ـ حين تَرَكَ النبيُّ ﷺ خَلْفَه الكائناتِ كلَّها وكـذا سيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ ووَصَل إلى اللامكان، أَنْعم اللهُ تعالى عليه بقُربٍ خاصٍّ بحيث تناقَصَتِ المسافات، مثلَما رُوي عن سيّدِنا أنسِ بن مالك رضي الله عنه: «ثمّ علا به فوقَ ذلك بما لا يَعلَمُه إلّا الله، حتّى جاء سِدرةَ المنتهى، ودنا الجبّارُ ربُّ العزّة فتَدَلّى حتّى كان منه قابَ قوسَيْنِ أو أدنى»[٢]، وليس المرَادَ بهذا القُربِ هو قربُ المسافاتِ والأماكن، وإنّما المقصودُ هو الإخبارُ بقُربِ شَرَفِ وعَظَمةِ النبيِّ ﷺ، يعني: أنّ اللهَ تعالى قد شَرَّف النبيَّ ﷺ باهتمام خاصٍّ، واللهُ تعالى منَزَّهٌ عن المكان، وعندَما يُنعمُ على أحدٍ بالقُرب، أو يَنزلُ في مكان، فمعناه: أنّ اللهَ تعالى يهتمُّ به اهتمامًا خاصًّا، مثلَما أنّ المقصودَ من القُربِ والنزولِ في الحديثَيْنِ التاليَيْنِ هو الاهتمامُ الخاصُّ:

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٧٤ برقم ٤١١.

(٢) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٣٧ برقم ٧٥١٧.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «يقولُ اللهُ تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معَه إذا ذكَرَني، فإنْ ذكَرَني في نفسِه ذكَرتُه في نفسي، وإن ذكَرني في ملأٍ ذكَرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن تَقرَّبَ إليّ بشبرٍ تقرَّبتُ إليه ذراعًا، وإن تقرَّبَ إليّ ذراعًا تقَرّبتُ إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتَيْتُه هَرْولةً»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «يَنزِلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السّماءِ الدّنيا حين يبقَى ثُلُثُ اللّيل الآخِرِ يقول: مَن يدعوني فأستجيبَ له؟ من يسألُني فأُعطيَه؟ من يَستغفرُني فأغفِرَ له؟»[2].

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾

٦ ـ لقد جَعَل اللهُ تعالى عبدَه الحبيبَ يراهُ في حالةِ القُرب الخاصِّ، وأوحَى إليه بصورةٍ مباشرة، فإذا سَلَّمْنا بتفسيرِ المجموعة الأولى من المفسِّرين، بمعنى: أنّ المذكورَيْنِ في الآياتِ هما: سيّدُنا جِبريلُ الأمينُ عليه السلام وسيّدُنا محمدٌ ﷺ، فستكونُ هناك مشكلةٌ في تفسيرِ هذه الآية؛ لأنّ سيّدَنا محمدًا ﷺ ليس عبدًا لسيّدِنا جِبريلَ عليه السَّلامُ، وإنّما عبدٌ لله تعالى، وهو الذي عَرَج به ليُريَه ذاتَه.

## رؤية الذات الإلهية

١ ـ سأل سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما سيّدَنا كعبًا رضي اللهُ عنه في عَرَفاتٍ عن أمرٍ من الأمور، فقال له سيّدُنا كعبٌ رضي الله عنه: «إنّ اللهَ قَسَم رؤيتَه وكلامَه بينَ محمّدٍ وموسى، فكلَّم موسى مرّتَيْنِ ورآه محمّدٌ مرّتَيْنِ»[3].

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب ١٥ برقم ٧٤٠٥.
(٢) البخاري، كتاب التهجد، باب ١٤ برقم ١١٤٥، والترمذي برقم ٤٤٦.
(٣) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٥٣، سورة النجم (٥٣): برقم ٣٢٧٨.

٢ ـ سأل سيّدُنا عبدُ الله بنُ شَقِيق رضي الله عنه سيّدَنا أبا ذرٍّ رضي اللهُ عنه: لو رأيتُ رسولَ الله ﷺ لسألتُه، فقال: عن أيِّ شيءٍ كنتَ تسألُه؟ قال: كنتُ أسألُه: هل رأيتَ ربَّك؟ قال أبو ذرٍّ: قد سألتُ فقال: «رأيتُ نورًا (يعني: ربِّي)»(١).

٣ ـ يقولُ سيّدُنا عِكرِمةُ رضي الله عنه: إنّ سيّدَنا عبدَ الله بنَ عباس رضي الله عنهما قال: رأى محمّدٌ ربَّه. قلتُ: أليس اللهُ يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؟ قال: وَيْحَك! ذاك إذا تَجلَّى بنورِه الّذي هو نورُه، وقد رأى محمّدٌ ربَّه مرّتَيْن(٢).

٤ ـ يقولُ سيّدُنا أبو ذرٍّ رضي الله عنه: سألتُ رسولَ الله ﷺ: هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «نورٌ أنَّى أراه؟»(٣).

٥ ـ يقولُ العلّامةُ بدرُ الدِّين العَيْني في شرح البخاريِّ: «ورَوى ابنُ خُزيمةَ بإسنادٍ قويٍّ عن أنس، قال: رأى محمّدٌ ربَّه. وبه قال سائرُ أصحابِ ابن عبّاس وكعبُ الأحبار والزُّهريّ وصاحبُ مَعْمَر وآخَرون، وحكى عبدُ الرّزّاق عن مَعْمَر عن الحسن، أنه حَلَف أن محمّدًا رأى ربَّه»(٤).

٦ ـ حين سُئل سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حَنْبل: إن كان النبيُّ ﷺ رأى ربَّه، فقال: «(رآه رآه) حتى ينقطعَ نفَسُه ولا يزيدُ على ذلك»(٥).

٧ ـ يُبدي العلّامةُ سيِّد محمود الآلوسيُّ رأيَه الشَّخصيَّ في موضوع الرُّؤيةِ

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٧٨ برقم ٤٤٤.
(٢) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٥٣ برقم ٣٢٧٩.
(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٧٨ برقم ٤٤٣.
(٤) عمدة القاري شرح البخاري، ١٩ : ١٩٨.
(٥) تفسير روح المعاني، سورة النجم (٥٣): الآية ١٨.

الإلهيّةِ هذه قائلًا: «وأنا أقولُ برؤيتِه صلى الله تعالى عليه وسلَّم ربَّه سبحانه وبدُنوِّه منه سبحانه على الوجهِ اللائق»[1].

## كلام المحبة والدلال

يقولُ العلّامةُ سيِّد سُليمان النَّدوي: ثم إنه ربَّما أنّ محجوبَ الأزلِ قد رَفَع الحجابَ عن الوجه، وهكذا كان كلامُ المحبَّة والدَّلال في خَلْوةِ السّرّ، مما لا يمكنُ أن تتحمَّلَ الألفاظُ رِقّتَه ولطافتَه، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠][2].

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾

٧ ـ يقولُ المفتي أحمد يار خان في تفسيرِ هذه الآية: المرادُ بالنَّزلةِ الأُخرى هنا: مراتٌ ومرات؛ لأنّ النبيَّ ﷺ ذَهَب إلى الحضرةِ الإلهيَّةِ مراتٍ ومراتٍ لتخفيفِ الصَّلَواتِ بناءً على طلبِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام[3].

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾

٨ ـ السِّدرةُ هي: شجرةٌ من أشجارِ التُّوت، جُذورُها في السَّماءِ السادسة، وجِذعُها في السماءِ السابعة، والسِّدرةُ هي البَرْزَخُ بينَ مَن في السماءِ السابعة ومَن فوقَها، والأشياءُ التي تصعَدُ إلى أعلى لا تتقدَّمُ فوقَ السِّدرة، والأشياءُ التي تنزلُ من العالَم العُلويِّ لا يمكنُ أن تنزِلَ أسفلَ السِّدرة، مثلَما قال سيّدُنا عبدُ الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: «إنه ينتهي إليها كلُّ ما يهبِطُ من فوقِها ويصعَدُ من تحتِها»[4]، ولكنّ

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة النجم (٥٣): الآية ١٨.

(٢) سيرة النبي، ٣: ٤٢٣.

(٣) تفسير نور العرفان.

(٤) تفسير القرطبي.

نبيَّنا الحَبيبَ ﷺ تقدَّم فوقَ السِّدرةِ في طريقِه ليلةَ المعراج، كما أنه نَزَل أسفلَ السِّدرة أيضًا في عَوْدتِه.

يقولُ القاضي ثناءُ الله: الوصولُ إلى سِدرةِ المنتهى ليلةَ المِعراج ثابتٌ من هذه الآية القُرآنيّة، وهو ثبوتٌ قَطْعيٌّ، ولهذا فإنّ مُنكرَ المِعراج السماويِّ كافر[1].

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾

٩ ـ يُعلَمُ منه أنّ جنّةَ المَأْوى عندَ سِدرةِ المنتهَى «وهي الجنّة الّتي آوى إليها آدم عليه الصّلاة والسّلام إلى أن أخرج منها»[2].

﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾

١٠ ـ يقولُ الإمامُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية:

قال الحَسَنُ البصريُّ: «غَشِيَها نورُ ربِّ العالمينَ فاستنارت».

قال سيّدُنا ربيعُ بنُ أنس: «غَشِيَها نورُ الرّبِّ والملائكةُ تقَعُ عليها كما يَقَعُ الغِربانُ على الشّجرة».

وفي قولٍ آخَرَ: «(غَشِيَها نورٌ من الله حتّى ما يستطيعُ أحدٌ أن ينظُرَ إليها)»[3].

﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾

١١ ـ يعني: أنّ عينَي النبيِّ ﷺ مستغرِقتانِ في رؤيةِ الله تعالى فقط، ولم تلتفِتا إلى أيِّ طرفٍ آخَرَ.

---

(١) التفسير المظهري، سورة النجم (٥٣): الآية ١٤.

(٢) تفسير القرطبي، سورة النجم (٥٣): الآية ١٦.

(٣) تفسير القرطبي.

يقولُ العلّامةُ إسماعيلُ حقّي: «واستُدِلَّ على أنّ رؤيةَ الله كانت بعَيْنِ بَصَرِه عليه السلام يقظةً بقولِه: ﴿مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ إلخ؛ لأنّ وصفَ البصَرِ بعَدَم الزَّيْغ يقتضي أنّ ذلك يَقظةً، ولو كانتِ الرؤيةُ قلبيّةً لقال: «ما زاغَ قلبُه»... وقال البَقْليُّ رحمه الله: هذه الآيةُ في الرُّؤيةِ الثانية؛ لأنّ في الرُّؤيةِ الأولى لم يكنْ شيءٌ دون الله، ولذلك ما ذَكَر هناك غضَّ البصَر، وهذا من كمالِ تمكينِ الحبيب في محلِّ الاستقامة، وشوقِه إلى مشاهدةِ ربِّه، إذْ لم يَمِلْ إلى شيءٍ دونَه»[1]، وقد رأى النبيُّ ﷺ الله تعالى ثانيةً عندَ عودتِه من المِعراج، وكانت أمامَه الجنّةُ وآياتٌ أخرى عجيبةٌ، لكنّه ﷺ لم يَلتفتْ إلى أيٍّ منها، وإنما ظَلَّ مستغرِقًا في رؤيةِ الله تعالى.

١٢ ـ رَغْمَ أنّ مُشركي الجزيرةِ العربيّة كانوا يعبُدونَ أصنامًا لا حصرَ لها، فقد كان في الكعبةِ وحدَها ثلاثُمائةٍ وستونَ صنمًا، لكنّ اللهَ تعالى ذَكَر هنا ثلاثةَ أصنام (آلهة) فقَطْ بالاسم؛ لأنّ هذه الأصنامَ الثلاثةَ كانت مشهورةً أكثرَ من غيرِها في شِبهِ الجزيرةِ العربيّة، وفي هذه الآيةِ نَبَّه اللهُ تعالى مشركي الجزيرةِ العربيّةِ قائلًا: هل تدبَّرتُم ذاتَ مرةٍ في حقيقةِ اللاتِ والعُزّى ومَناةَ الثالثةِ؟ إنكم أنتم الذين تصنَعونَها بأيديكم، وأنتم الذين تُطلقونَ عليها الأسماءَ، ولو لم تصنَعوها أنتم لَما كان من الممكنِ أن يكونَ لها وجودٌ من نفسِها، فكيف يمكنُ أن تكونَ هذه الأصنامُ شركاءَ لله تعالى وهو خالقُ الأرضِ والسماءِ ومالكُها جميعًا؟

## الغرانيق العلى

أدرَجْنا هنا روايةً جاءت في بعضِ التفاسير فَحْواها أنه حينَ تلا النبيُّ ﷺ في الحَرَم الشّريفِ هذه السُّورةِ أمامَ مشركي مكّة، خَرَجت من لسانِه الطاهرِ هذه

---

(١) تفسير روح البيان، سورة النجم (٥٣): الآية ١٧.

الجُملةُ: «**تلك الغَرانيقُ العُلَى، وإنّ شفاعَتُهنَّ لتُرتجَى**» والعياذُ بالله! والحقيقةُ أنّ هذه الجملةَ قالها أحدُ المشركين، ونُسِبت ـ على سَبيل الخطأِ ـ إلى النبيِّ ﷺ؛ لأنّ إجماعَ الأُمّةِ على أن النبيَّ معصومٌ تمامًا في تبليغِه كلامَ ربِّه، ولا يمكنُ أن يخطئَ فيه ولو على سَبيل النِّسيان، لأنه إن كان هذا ممكنًا يتسرَّبُ الشكُّ إلى كلِّ الأحكام والآياتِ بل وإلى الدِّين كلِّه.

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾

١٣ ـ كان المشركونَ يحبُّونَ لأنفُسِهم البنينَ، ويقولون: إنّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى، وفي هذه الآية تنبيهٌ لهم بأنّ اللهَ تعالى منَزَّهٌ عن الولد، ولكنْ على فَرْضِ المستحيل لو أنّ له أولادًا، فكم يكونُ من الظُّلم أن تُحبُّوا لأنفُسِكم البنينَ وتقولوا: إنّ البناتِ لله.

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾

١٤ ـ يعني: أنّ الأشياءَ التي اتَّخذتُموها آلهةً أنتم وأباؤكم ما هي إلا وَهْمٌ منكم وظنٌّ، أو أنّها ما تَهوى أنفُسُكم لا أكثرَ، ولم يُنزِلِ اللهُ تعالى أيَّ دليلٍ على صِدقِها.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾

١٥ ـ أمَا وقد نَزَل القرآنُ المَجيدُ من الله تعالى الآنَ، وأوضَحَ النبيُّ ﷺ غايةَ التوضيح طريقَي: الهدايةِ والضَّلال، فكان ينبغي لهم أن يتخلَّوْا عن أهواءِ أنفسِهم ووَهْمِهم وظنِّهم، ويتَّبِعوا طريقَ الحقِّ والصِّدق.

﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾

١٦ ـ يتمنَّى المشركونَ ويأمُلونَ لو أنّ الأصنامَ التي يعبدونَها تشفَعُ لهم، وأن

لا تفشَلَ في ذلك، ولكن ينبغي لهم أن يعلَموا أنه ليس من الضروريِّ أن يحصُلَ الإنسانُ على كلِّ ما يتمنَّاه؛ لأنّ المالكَ الحقيقيَّ للدنيا والآخِرةِ هو اللهُ تعالى، وأحكامُه لا تَصدُرُ طبقًا لأُمنيّةِ أحد، وإنما تكونُ مطابقةً لحِكمتِه هو.

وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾

١٧ ـ كان المشركونَ يعتقدونَ أنه حتى وإن قامتِ الساعةُ على سَبيلِ الفَرْضِ فإنّ أصنامَهم ستشفَعُ لهم، وستُنجيهِم من عذابِ جهنَّم، في حينَ أنّ الحقيقةَ هي أنه حتى الملائكةُ المقرَّبون أيضًا لن يشفَعوا إلّا فيمَن يأذَنُ اللهُ لهم أن يشفَعوا له، أمّا أمثالُ هذه الأصنام التي لا معنى لها فلا قيمةَ لها هناك.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾

١٨ ـ كان المشركونَ يُنكرونَ القيامةَ، وكانوا يقولون: إنّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى، ولهذا كانوا يُطلقونَ عليها أسماءَ إناثٍ، معَ أنّهم لا عِلمَ لديهِم ولا دليلَ فيما يتعلَّقُ بكونِ الملائكة إناثًا فعلًا أم لا، والحقيقةُ أنّ هذا ليس إلّا وَهْمًا منهم

وظنًّا، وقدِ افتَرَضوا بناءً عليه أنّ الملائكةَ إناثٌ، ولكنْ لا قيمةَ للوَهْم والظنِّ في مقابلِ الحقيقةِ والعلم واليقين.

﴿ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾

١٩ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، كلُّ مَن لا يبالي بدعوتِك، ويَنهَمِكُ فقطْ في الملَذّاتِ الدُّنيويّة، لا تغتمَّ بسببِه ولا تحزَنْ عليه، واترُكْه في حالِه، فهو لن يؤمنَ أبدًا؛ لأن مبلغَه من العِلم والظنِّ هو أنّ هذه الدنيا هي كلُّ شيء فقط، وأنه ليس بعدَها شيءٌ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾

٢٠ ـ كان المشركونَ يَدَّعُونَ أنّهم على الطريقِ القويم، وأنّ المسلمينَ ضالُّونَ، لأنّهم تَركوا دينَ قومِهم، ولكنّ اللهَ تعالى هو الذي سيَحكُم مَن هو المهتدي ومن هو على الضَّلال.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴾

٢١ ـ مالكُ كلِّ شيءٍ في الأرضِ والسّماءِ هو اللهُ تعالى وحدَه، وهو الذي سيَجزي الصالحينَ على صلاحِهم والمسيئينَ على سيّئاتِهم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾

٢٢ ـ الذين يَجتنِبونَ الكبائرَ من الذنوبِ وكذا الفواحشَ، ويؤدُّونَ واجباتِهم وفروضَهم، فإنّ اللهَ تعالى يغفرُ لهم صغائرَ ذنوبِهم، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤].

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنه سمع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «أرأيتُم لو أنّ نَهَرًا ببابِ أحدِكم، يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمسًا، ما تقولُ ذلك يُبقي من دَرَنِه؟»، قالوا: لا يبقي من دَرَنِه شيئًا، قال: «فذلك مَثَلُ الصَّلواتِ الخمسِ، يَمْحو اللهُ بها الخطايا»[1].

- يقولُ سيّدُنا أبو ذرٍّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلَّم خَرَج زمنَ الشّتاءِ والورقُ يتهافت، فأخَذ بغُصنَيْنِ من شجرةٍ، قال: فجَعَل ذلك الورقُ يتهافت، قال: فقال: «يا أبا ذرٍّ»، قلتُ: لَبّيْكَ يا رسولَ الله. قال: «إنّ العبدَ المسلمَ لَيُصلّي الصّلاةَ يريدُ بها وجهَ الله، فتَهافَتُ عنه ذنوبُه كما يَتَهافَتُ هذا الورَقُ عن هذه الشّجرة»[2].

## تعريف الذنب

الذَّنب: اسمٌ لمخالفةِ حُكم الله تعالى وحُكم رسولِه الكريم ﷺ، والكبائرُ من الذُّنوبِ هي: التي عَيَّن اللهُ تعالى لها حَدًّا، أو أنذَرَ بالعذابِ عليها يومَ القيامة، أمّا ما عدا ذلك فهي صغائرُ الذُّنوب.

## كبائر الذنوب

كبائرُ الذُّنوبِ كثيرةٌ، مثلًا: الشِّركُ بالله، والقتلُ بغيرِ حقٍّ، والانتحارُ، والزِّنا واللِّواطُ وقذفُ المحصَناتِ الغافلات، وعقوقُ الوالدَيْنِ وأكلُ مالِ اليتيم، وتركُ الفرائض (الصَّلاةِ والصَّوم والزكاةِ وغيرِها) ونسيانُ القرآنِ الكريم بعدَ حِفظِه، والسِّحرُ، وشربُ الخمر، وشهادةُ الزُّور، وحرقُ الحيَوان، وسبُّ الصَّحابةِ الكرام وإهانةُ العلماء، وأكلُ لحم الخِنزير ولحم المَيْتةِ بلا اضْطِرار.

---

(١) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٦ برقم ٥٢٨.
(٢) مسند أحمد، ٥: ١٧٩.

## صغائر الذنوب

وصغائرُ الذُّنوبِ أيضًا كثيرةٌ، مثلًا: النظَرُ إلى المرأةِ الأجنبيَّة والخَلوةُ بها، ومصادقةُ الفُسّاق، ورَفْعُ الحاجةِ باتِّجاه القِبلة، وتَرْكُ الواجباتِ، وغيرُها.

ولا ينبغي الاستهانةُ بصغائرِ الذُّنوب؛ لأنّ الإصرارَ عليها والمُداومةَ على ارتكابِها يجعَلُ منها كبائرَ، ومَثَلُ كبائر الذُّنوبِ وصغائرِها كمَثَل نارٍ عظيمة وجَذْوةٍ صغيرة، فالإنسانُ لا يستطيعُ أن يتحمَّلَ الألَمَ الناتجَ عن أيٍّ منهما، ويمكنُ أن تكونَ كلٌّ منهما (أي: النارُ العظيمةُ والجَذْوةُ الصغيرة) سببًا في حرقِ البيتِ بالكامل، والفرقُ هو فقط أنّ النارَ العظيمةَ تحرِقُ سريعًا، بينَما لو تغافَلْنا عن الجَذْوةِ الصَّغيرة فقد تحرِقُ البيتَ كلَّه أيضًا.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾

٢٣ ـ في هذه الآية مَنْعُ الإنسانِ من مَدْح نفسِه وإظهارِ صَلاحِه وتقواه، يعني: لا تقُلْ عن نفسِك: إنك صالحٌ وتقيٌّ طاهر؛ لأنك لا تَعلَمُ هل قُبِلَتْ حسَناتُك أم لم تُقبَلْ، فاللهُ تعالى وحدَه هو الذي يَعلَمُ هذا تمامَ العلم، فهو الذي خَلَق أباكم آدمَ من تراب، وخَلَقَكم من نُطفةٍ في بطونِ أُمّهاتِكم، وهو الذي سيَحكُمُ ويقرِّرُ مَن هو التقيُّ ومَن هو الفاسد.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾

وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾

﴿ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴾

٢٤ ـ رُويَ أنّ الوليدَ بنَ المُغيرةِ جلسَ عندَ النبيِّ ﷺ «وسَمِع وَعْظَه، فتأثَّر قلبُه بما سَمع وكاد أن يُسلِمَ، فعيَّره رجلٌ من المشركينَ وقال: تركتَ دِينَ آبائك وضَلَّلتَهم وزَعمتَ أنّهم في النار؟! فقال الوليد: إنّي خَشِيتُ عذابَ الله، فضَمِن له الرَّجلُ إن هو أعطاه شيئًا من مالِه، ورَجَع إلى شِركِه، أن يتحمَّلَ عنه عذابَ الله عزّ وجلّ، فأعطاه بعضَ الذي ضَمِن له ثم بَخِل ومَنَعه الباقيَ، فأَنْزل اللهُ: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ * وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴾ الآيات»[1].

﴿ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾

٢٥ ـ لم يَقبَل الوليدُ بنُ المُغيرةِ الإسلامَ؛ لأنّ صديقَه الكافرَ قال له: إنه لو تقرَّر تعذيبُه يومَ القيامة بسببِ عَدَم إيمانِه فإنه سوف يُقدِّمُ نفسَه للعذاب بدلًا منه، ويُنقذُه هو من العذاب، وعليه نَزَلت هذه الآيةُ، هل كان الوليدُ يَعلَمُ الغَيبَ فرأى أنه يمكنُ لأحدٍ أن يَحمِلَ عنه عذابَه يومَ القيامة ويُنقذَه منه؟ ومعَ أنّ هذا خداعٌ مَحْض، ولكنْ لا نَعلَمُ على أيِّ أساس صَدَّقه الوليدُ بنُ المُغيرة.

﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾

٢٦ ـ في الآياتِ القادمة يجيءُ ذِكرُ تلك التعاليم التي نَزَلت في صُحُفِ سيّدِنا

---

(١) صفوة التفاسير.

إبراهيمَ وسيّدِنا موسى عليهما السَّلامُ، فقد كان اليهودُ يتردَّدونَ على مكَّةَ، وقد سَمع منهم مشركو مكةَ كثيرًا عن سيّدِنا إبراهيمَ وسيّدِنا موسى عليهما السَّلامُ، ولهذا جاء التنبيهُ للوليدِ في هذه الآيات، وهو الذي توهَّم أنه يمكنُ لشخصٍ آخَرَ أن يَحمِلَ عنه ذنبَه، ألم تصلْ تعاليمُ سيّدِنا إبراهيمَ وسيّدِنا موسى عليهما السَّلامُ إليه، وهي التي تقولُ: إنه لا يمكنُ لأيِّ أحدٍ أن يَحمِلَ عن أحدٍ آخَرَ ذنوبَه يومَ القيامة، وإنّ كلَّ شخصٍ سيُحاسَبُ على أعمالِه كاملةً ويُجازَى عليها وحدَه، وأنه لن يُظلَمَ أحدٌ ولو بمقدارِ ذرَّة، وحين يصلُ ذلك الشَّخصُ إلى اللهِ تعالى ستُعرَضُ عليه كلُّ الأعمال التي قام بها في حياته؟

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾

٢٧ ـ المرادُ بصحائفِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام: التَّوراة، ولكنّ صحائفَ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ ليست مذكورةً في أيِّ كتابٍ من كتُبِ اليهودِ والنَّصارى، والكتابُ الوحيدُ الذي ذَكَر صُحُفَ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ هو القرآنُ الكريم، كما بيَّن بعضَ تعاليمِه أيضًا، على سَبيل المثال: لن يستطيعَ أحدٌ أن يَحمِلَ عن أحدٍ ذنوبَه يومَ القيامة، وإنّما كلُّ شخصٍ مسئولٌ عن أعمالِه مسئوليّةً كاملة.

﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾

٢٨ ـ أدَّى سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ حقَّ الوفاءِ بالدعوةِ إلى التوحيد، فلم يتَخَلَّ عن دعوةِ التوحيدِ هذه حتى في أصعبِ الأوقاتِ وأشدِّها على نفسِه، لدرجةِ أنه قَبِل أن يُلقَى به في النار ولكن لا يَتخلَّى عن الوفاءِ بدعوةِ التوحيد.

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾

٢٩ ـ قال عِكرِمةُ في تفسيرِ هذه الآية: «إنّ ذلك كان لقوم إبراهيمَ وموسى، وأمّا هذه الأُمّةُ فلهم ما سَعَوْا وما سَعَى غيرُهم، قاله عِكرِمةُ. واستَدلَّ بقولِ النبيِّ ﷺ

للمرأةِ التي سألتْه: إنّ أبي ماتَ ولم يَحُجَّ، فقال: حجّي عنه»[1].

**العبادةُ ثلاثةُ أقسام:**

١ ـ عبـاداتٌ بَدَنيّةٌ خـالصةٌ مِثلَ: الصَّلاةِ والصّـوم وتـلاوةِ القرآنِ المَجِيد وغيرِها.

٢ ـ عباداتٌ ماليّةٌ خالصةٌ مِثلَ الزكاةِ والصَّدَقاتِ وغيرِهما.

٣ ـ عباداتٌ بَدَنيّةٌ وماليَّةٌ في نفسِ الوقت، مثلَ الحجِّ والعُمرةِ وغيرِهما.

يقولُ الإمامُ مالكٌ والإمام الشافعيُّ: إنّ ثوابَ العباداتِ البَدَنيّةِ الخالصةِ لا يمكنُ أن يذهَبَ لغيرِ مؤدِّيها، أمّا القسمانِ الآخَرانِ من العباداتِ فيمكنُ أن يَصلَ ثوابُهما لغيرِ مَن أدَّاهما، ولكنّ مسلَكَ الأحنافِ هو أنّ أيَّ شخصٍ يستطيعُ أن يَهَبَ ثوابَ أيِّ عملٍ صالح من أعمالِه إلى غيرِه، أيًّا كان نوعُ العبادةِ التي ينتمي إليها هذا العمَلُ الصّالح، يعني: الصَّلاةَ والصَّومَ وتلاوةَ القرآنِ المَجِيد والذِّكرَ والصَّدقةَ والحجَّ والعُمرةَ وغيرَها من الأعمالِ الصّالحةِ التي يقومُ بها العبدُ، فإنه يستطيعُ أن يلتمسَ في حضرةِ الله تعالى أن يَصلَ ثوابُها إلى فلانٍ من الناس.

## الدعاء بالمغفرة للموتى

### بعض الآيات القرآنية

١ ـ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[الحشر: ١٠].

---

(١) زاد المسير، سورة النجم (٥٣): الآية ٣٩.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

٣ ـ قال تعالى: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

٤ ـ قال تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨].

## بعض الأحاديث النبوية

١ ـ رُوي عن سيّدِنا أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ الرّجُلَ لَتُرفَعُ درجتُه في الجنّة فيقولُ: أنّى هذا؟ فيقالُ: باستغفارِ وَلَدِك لك»[1]، ويُعلَمُ من هذا الحديثِ أنّ درجاتِ الأبِ في الجنّةِ تُرفَعُ بفَضْل استغفارِ ابنِه له، فطِبقًا للمذهبِ الحنفيِّ، المسلمُ الذي يؤدِّي الصَّلواتِ الخمسَ، ويقرَأُ في نهاية التشهُّدِ الأخيرِ هذا الدُّعاءَ: «**ربَّنا اغفِرْ لي ولِوالِدَيَّ وللمؤمنينَ يومَ يقومُ الحِسَابَ**»، ولأنّ هذا الدُّعاءَ يُقرَأُ مرَّتَيْنِ في الركعاتِ الأربع من السُّنّة غيرِ المؤكَّدة، فإنه بذلك يَستغفرُ لأبيه تسعَ عشْرةَ مرةً في اليوم الواحد، ممّا يَرفَعُ درجاتِ أبيه في الجنّةِ تسعَ عشْرةَ درجةً في اليوم الواحد، ولهذا ينبغي لكلِّ أبٍ أن يَجعَلَ أبناءه من المصلِّين، فبذلك يكونُ قد أدَّى حقَّ التربية من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَرَ أعَدَّ لنفسِه وسيلةً لرَفْع درجاتِه في الجنّة.

٢ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما الميِّتُ في القبرِ إلّا كالغَريق المتَغَوِّث، ينتظرُ دعوةً تلحَقُه من أبٍ أو أُمٍّ أو أخٍ

---

(١) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ١ برقم ٣٦٦٠.

أو صديقٍ، فإذا لَحِقَتْه كانت أحبَّ إليه من الدُّنيا وما فيها، وإنّ اللهَ لَيُدخِلُ على أهل القبورِ من دعاءِ أهلِ الأرض أمثالَ الجبالِ، فإنّ هديّةَ الأحياءِ إلى الأمواتِ الاستغفارُ لهم»[1].

٣ ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «أُمّتي أُمّةٌ مرحومةٌ، مُتَابٌ عليها، تَدخُلُ قبورَها بذنوبِها، وتَخرُجُ من قبورِها لا ذنوبَ عليها، تُمَحَّصُ عنها ذنوبُها باستغفارِ المؤمنينَ لها»[2].

٤ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا صَلَّيتُم على الميِّتِ فأَخْلِصوا له الدُّعاءَ»[3].

٥ ـ رُوِيَ عن سيّدِنا عبدِ الله بن عُمرَ رضي الله عنهما، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من أربعينَ من مؤمنٍ يشفَعونَ لمؤمنٍ إلّا شَفَّعَهم اللهُ»[4].

٦ ـ تقولُ السيِّدةُ أُمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها: إن رسولَ الله ﷺ قال: «إذا حَضَرتُم المريضَ أو الميّتَ فقولوا خيرًا، فإنّ الملائكةَ يؤمِّنونَ على ما تقولون». قالت: فلمّا مات أبو سَلَمةَ أَتَيتُ النّبيَّ ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله، إنّ أبا سَلَمةَ قد مات، قال: «قولي: اللهُمَّ اغفِرْ لي وله وأَعْقِبْني منه عُقبَى حسَنةً». قالت: فقلتُ فأعقَبَني اللهُ مَن هو خيرٌ لي منه، محمّدًا ﷺ[5].

---

(١) مشكاة المصابيح، باب الاستغفار.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني، ٢: ٥٢٣ برقم ١٩٠٠، ومجمع الزوائد، ١٠: ٦٩.

(٣) أبو داود، كتاب الجنائز، باب ٦٠ برقم ٣١٩٩.

(٤) ابن ماجه، أبواب الجنائز، باب ١٩ برقم ١٤٨٩.

(٥) مسلم، كتاب الجنائز، باب ٣ برقم ٢١٢٩.

## بعض الأحاديث النبوية عن إيصال الثواب

١ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ رجلًا قال للنّبيّ ﷺ: إنّ أُمّي افْتُلِتَتْ نَفْسُها، وأظُنُّها لو تكلَّمت تَصدَّقت، فهل لها أجرٌ إن تَصدَّقْتُ عنها؟ قال: «نعم»[١].

٢ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ امرأةً من خَثْعَم استَفْتَتْ رسولَ الله ﷺ في حَجّة الوداع والفَضْلُ بنُ عبّاسٍ رديفُ رسولِ الله ﷺ، فقالت: يا رسولَ الله، إنّ فريضةَ الله على عبادِه أدرَكَتْ أبي شيخًا كبيرًا لا يستطيعُ أن يستويَ على الرّاحلة، فهل يقضي أن أحُجَّ عنه؟ قال: «نعم»[٢].

٣ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ رسولَ الله ﷺ أمَرَ بكبشٍ أقْرنَ يطَأُ في سَوادٍ ويَبرُكُ في سَوادٍ ويَنظُرُ في سوادٍ، فأُتي به ليُضحِّيَ به، فقال لها: «يا عائشةُ، هلُمّي المُديةَ». ثمّ قال: «اشحَذيها بحَجَرٍ». ففَعَلتْ، ثمّ أخَذَها وأخَذَ الكبشَ فأَضْجعَه ثمّ ذَبَحَه، ثمّ قال: «باسم الله، اللهُمَّ تقبَّلْ من محمّدٍ وآلِ محمّدٍ، ومن أُمّةِ محمّدٍ». ثمّ ضَحَّى به[٣].

٤ ـ يقولُ سيّدُنا حَنَشٌ رضي الله عنه: رأيتُ عليًّا يُضحّي بكبشَيْنِ، فقلتُ: ما هذا؟ فقال: إنّ رسولَ الله ﷺ أوصاني أن أُضحِّيَ عنه، فأنا أُضحّي عنه[٤].

٥ ـ قال سيّدُنا سعدُ بنُ عُبادةَ رضي اللهُ عنه لرسولِ الله ﷺ: يا رسولَ الله، إنّ أُمَّ سعدٍ ماتت، فأيُّ الصَّدَقةِ أفضَلُ؟ قال: «الماء». قال: فحَفَر بئرًا وقال: هذه لأُمّ سعدٍ[٥].

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٩٥ برقم ١٣٨٨.

(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب ٧٨ برقم ٤٣٩٩.

(٣) مسلم، كتاب الأضاحي، باب ٣ برقم ٥٠٩١.

(٤) أبو داود، كتاب الضحايا، باب ١ برقم ٢٧٩٠.

(٥) أبو داود، كتاب الزكاة، باب ٤١ برقم ١٦٨١.

٦ ـ يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسانُ انقَطَع عنه عمَلُه إلّا من ثلاثةٍ: إلّا من صَدَقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفَعُ به، أو وَلَدٍ صالحٍ يدعو له»(١)، أمّا العمَلانِ الأوّلانِ فللميِّت فيهما دَخْلٌ، لكنّ دعاءَ الوَلَدِ فهو من عمَل الوَلَدِ فقط، وهو ينفَعُ الميِّتَ.

٧ ـ قال سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه لرسولِ الله ﷺ: يا رسولَ الله، إنّا نتصدَّقُ عن موتانا ونَحُجُّ عنهم ونَدعو لهم، فهل يَصِلُ ذلك لهم؟ قال «نعم، إنّه لَيصلُ إليهم، وإنّهم لَيفرَحونَ به كما يَفرَحُ أحدُكم بالطَّبَق (المليءِ بالهدايا) إذا أُهدي إليه»(٢).

٨ ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنه: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «ما مِن أهل بيتٍ يموتُ منهم ميّتٌ فيتصدَّقونَ عنه بعدَ موتِـه، إلّا أهداها إليه جِبريلُ عليه السَّلامُ على طَبَقٍ من نُورٍ، ثمّ يقفُ على شَفِير القبر، فيقول: يا صاحبَ القبرِ العميق، هذه هديّةٌ أهداها إليكَ أهلُك فاقبَلْها، فيَدخُلُ عليه، فيفرَحُ بها ويَستبشِر، ويحزَنُ جيرانُه الّذين لا يُهدَى إليهم بشيءٍ»(٣).

٩ ـ يَروي سيّدُنا عبدُ الله بنُ بُرَيدةَ رضي الله عنه، عن والدِه، أنه قال: «بَيْنا أنا جالسٌ عندَ رسول الله ﷺ، إذ أتَتْه امرأةٌ فقالت: إنّي تصَدَّقتُ على أُمّي بجاريةٍ، وإنّها ماتت، قال: فقال: «وجَبَ أَجْرُكِ ورَدَّها عليكِ الميراثُ». قالت: يا رسولَ الله، إنّه كان عليها صومُ شهرٍ، أفأصُومُ عنها؟ قال: «صومي عنها». قالت: إنّها لم تَحُجَّ قطُّ، أفأحُجُّ عنها؟ قال: «حُجّي عنها»(٤).

---

(١) مسلم، كتاب الوصية، باب ٣ برقم ٤٢٢٣.
(٢) رد المحتار، باب الحج عن الغير، ٢: ٥٩٦.
(٣) المعجم الأوسط للطبراني، ٧: ٦٠ برقم ٦٥٠٠.
(٤) مسلم، كتاب الصيام، باب ٢٧ برقم ٢٦٩٧.

١٠ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن مات وعليه صيامٌ صامَ عنه وَليُّه»[١].

١١ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: جاء رجلٌ إلى النّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إنّ أُمّي ماتت وعليها صومُ شهرٍ، أفأَقْضيه عنها؟ فقال: «لو كان على أُمِّك دَيْنٌ أكنتَ قاضيَه عنها؟». قال: نعم. قال: «فدَيْنُ الله أحقُّ أن يُقضَى»[٢].

## تلاوة القرآن عن الميت وعند القبر

١ ـ يقولُ سيّدُنا مَعْقِلُ بن يَسَارٍ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «اقرأوها عندَ موتاكم». يعني ﴿يسٓ﴾»[٣].

٢ ـ يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من ميّتٍ يُقرَأُ عنده ﴿يسٓ﴾ إلّا هَوَّن اللهُ عليه»[٤].

٣ ـ يقولُ سيّدُنا أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن زارَ قبرَ والدَيْه أو أحدَهما في كلِّ جمُعةٍ، فقَرأَ عندَهما ﴿يسٓ﴾ غفَر اللهُ له بعدَدِ كلِّ حرفٍ منها»[٥].

٤ ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن دَخَل المقابرَ فقَرأَ سورة ﴿يسٓ﴾ خَفَّف اللهُ عنهم يومئذٍ، وكان له بعدَدِ حروفِها حسَناتٌ»[٦].

---

(١) مسلم، كتاب الصيام، باب ٢٧ برقم ٢٦٩٢

(٢) مسلم، كتاب الصيام، باب ٢٧ برقم ٢٦٩٤.

(٣) ابن ماجه، أبواب الجنائز، باب ٤ برقم ١٤٤٨.

(٤) تفسير الدر المنثور، تعارف سورة يس (٣٦).

(٥) المرجع السابق.

(٦) تفسير القرطبي، تعارف سورة يس (٣٦).

٥ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: مَرَّ النّبيُّ ﷺ بحائطٍ من حِيطانِ المدينةِ أو مكّةَ، فسَمع صوتَ إنسانَيْنِ يُعذَّبانِ في قبورِهما، فقال النّبيُّ ﷺ: «يُعذَّبان، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ»، ثمّ قال: «بلى، كان أحدُهما لا يَستترُ من بَوْلِه، وكان الآخَرُ يمشي بالنَّميمة». ثمّ دعا بجريدةٍ فكَسَرَها كِسْرتَيْنِ، فوَضَع على كلِّ قبرٍ منهما كِسرةً. فقيل له: يا رسولَ الله، لمَ فعلتَ هذا؟ قال: «لعلّه أن يُخفَّفَ عنهما ما لم تَيْبَسا أو إلى أن يَيْبَسا»[1]، فإذا كان تسبيحُ الغُصنِ الأخضرِ ينفَعُ أهلَ القبور، فكيف لا ينفَعُهم وضعُ الورودِ اليانعة عندَ قبورِهم وتلاوةُ القرآن؟

## إيصال ثواب تلاوة القرآن

١ ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن مَرَّ على المقابِر فقَرأَ فيها ـ إحدى عشْرةَ مرّةً ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثمّ وَهَب أَجْرَه الأمواتَ أُعطِيَ من الأجرِ بعددِ الأموات»[2]، ويقولُ العلّامةُ العَيْني: «اختلف الناسُ في هذه المسألة، فذَهَب أبو حنيفةَ وأحمدُ رضي اللهُ عنهما إلى وصولِ ثوابِ قراءةِ القرآن إلى الميِّت»[3].

٢ ـ يَنقُلُ أبو القاسم سَعدُ بن عليٍّ، عن سيّدِنا أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن دَخَل المقابرَ ثمّ قرَأَ فاتحةَ الكتاب و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ثمّ قال: إنّي جَعَلتُ ثوابَ ما قرأتُ من كلامِكَ لأهل المقابرِ من المؤمنينَ والمؤمنات، كانوا شُفَعاءَ له إلى الله»[4].

---

(١) البخاري، كتاب الوضوء، باب ٥٥ برقم ٢١٦.

(٢) كنز العمال، ١٥: ٦٥٥ برقم ٤٢٥٩٦، وجمع الجوامع، برقم ٢٣١٥٢.

(٣) عمدة القاري، ٣: ١١٨، برقم ٢١٦.

(٤) التفسير المظهري، سورة النجم (٥٣): الآية ٣٩.

٣ ـ جاء في «شَرْح اللُّبَاب»: «ويَقرَأُ من القرآنِ ما تيسَّر له من الفاتحةِ وأولِ البقرة إلى ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والإخلاصَ سبعًا أو ثلاثًا، ثم يقول: اللهُمَّ أَوْصِلْ ثوابَ ما قرَأْناه إلى فلانٍ، أو: إليهم»[١].

٤ ـ يقولُ الشَّيخُ محمدُ قاسم في كتابِه «تحذيرُ الناس»: «ذاتَ مرة، تَغيَّر لونُ أحدِ مُريدي سيّدِنا جُنَيْدٍ فجأةً، فسأله عن السَّبب، فقال له على سَبيل المكاشفة: إنَّني أرى أُمِّي في جهنَّم، وكان سيّدُنا جُنَيدٌ قد قَرأَ الكلمةَ الطيِّبةَ «الشَّهادتَيْنِ» مائةً وخمسةً وسبعينَ ألفَ مرةٍ، فوَهَب ثوابَ قراءتِه للشهادتَيْنِ هذه لأُمِّ المُريدِ بينَه وبينَ نفسِه، معتبِرًا أنها سيُغفَرُ لها بثوابِ هذا القَدْرِ من قراءةِ الشَّهادتَيْنِ طبقًا لما جاء في بعضِ الأحاديثِ الشَّريفة، ولم يُخبِر المُريدَ بذلك، ولكنْ ما أنْ وَهَبَها الثوابَ حتى رأى الشابَّ هاشًّا باشَّ الوَجْه، فسأله عن السَّبب، فقال: إنه يرى والدَته في الجنّةِ الآنَ، وعندَئذٍ قال الشّيخ: لقد عَلِمتُ بكَشْفِ هذا الشابِّ من هذا الحديث، وقد تمَّ تصحيحُ هذا الحديثِ بكَشْفِ هذا الشاب»[٢].

٥ ـ يقولُ سيّدُنا شاه عبدِ العزيز في كتابِه «الفتاوَى العَزِيزيّة»: «لو أنكَ طهَوْتَ طعامًا ولبنًا وأطعَمْتَه الناسَ بقَصْدِ إيصال الثوابِ لروح شيخ من الشيوخ فلا حَرَجَ في ذلك... ولو أعدَدتَ الطعامَ باسم هذا الشيخ، يَجوزُ أن يأكلَ منه الأغنياءُ أيضًا... فإنّ ذلك الطعامَ الذي يُقصَدُ به إيصالُ الثوابِ لسيّدِنا الحَسَن والحُسَين عليهما السلام، وتُقرَأُ عليه الفاتحةُ والإخلاصُ والفلقُ والناسُ، ويُصلَّى فيه على النبيِّ ﷺ، يكونُ مباركًا، وتناوُلُه أمرٌ طيِّب»[٣].

---

(١) رد المحتار، صلاة الجنازة، مطلب في زيارة القبور، ٢: ٢٤٣.

(٢) تفسير تبيان القرآن، سورة النجم (٥٣)، الآية ٣٩.

(٣) تفسير ضياء القرآن، سورة النحل (١٦)، الآية ١١٥.

٦ ـ يقولُ شاه إسماعيلَ الدَّهلَويُّ في «الصِّراطُ المستقيم»: «ينبغي للطالبِ أن يتوضَّأَ ويجلسَ جَلسةَ التشهُّد، ويقرَأَ الفاتحةَ باسم أكابِر هذه الطريقة، يعني: سيّدَنا خَواجَه مُعينَ الدِّين سَنْجري وسيّدَنا قطبَ الدين بَخْتيار كاكي وغيرَهما، ثم يلتجئَ في الحضرة الإلهيَّة بوسيلةِ هؤلاءِ المشايخ، ويَضْرَعَ إلى الله بكلِّ تواضُع وانكسار، باكيًا منتحِبًا وداعيًا اللهَ تعالى أن يَرفَعَ عنه شدائدَه، ثم يَبدَأَ في الذِّكر ضربًا مرَّتَيْن»[1].

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾

٣٠ ـ سوف يتمُّ إظهارُ أعمالِ الإنسان كلِّها في الآخِرة وكَشْفُها، سواءٌ كان قد عَمِلَها في الدنيا خُفيةً أم علانيَةً، وبهذا سيَرى الناسُ جميعًا هذه الأعمالَ، ثم سيُجازَى كلُّ إنسانٍ بشكلٍ كامل طبقًا لأعماله.

## ما الحكمة في إظهار الأعمال يوم القيامة؟

لو قُدِّم بلاغٌ ضدَّ متّهمٍ في محاكم أيامِنا هذه، أو تَقدَّم أحدٌ بالشّهادةِ ضدَّه، فيمكنُ للمتَّهم هذا أن يُنكرَ هذا البلاغَ ويُكذِّبَ هذه الشَّهادة، ولكنْ لو عُرِض في المحكمة تسجيلٌ مصوَّرٌ للمتَّهم يُظهِرُه وهو يرتكبُ جُرمَه فلن يستطيعَ الإنكارَ عندَئذٍ. وبنفسِ الطريقة، لو أنكَر «متَّهمٌ» ـ يومَ القيامة ـ ما جاء في صحيفةِ أعمالِه، وكذَّب شهادةَ اليدِ والرِّجْل، فإنه يُعرَضُ أمامَه ما هو بمثابةِ فيلم بكلِّ أعمالِه، يَظهَرُ فيه وهو يرتكبُ هذه الأعمالَ القبيحةَ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

(١) تفسير ضياء القرآن، سورة النحل (١٦): الآية ١١٥.

وكاميرا الفيديو في هذه الدُّنيا تحتاجُ إلى ضوءٍ وبطاريّات، ولكنّ «كاميرا فيديو» قُدرةِ الله تعالى قويّةٌ ودقيقةٌ إلى درجةٍ تجعَلُها لا تحتاجُ إلى ضوءٍ وبطاريّات، والأهمُّ من هذا أنّها لا تَعرِضُ الأعمالَ الظاهريّةَ فقطْ، وإنّما تَعرِضُ نوايا القلوبِ أيضًا، وحين يَصدُرُ حُكمُ الله تعالى يومَ القيامة ستَعرِضُ «كاميرا فيديو» القُدرةِ الإلهيّة فيلمًا تسجيليًّا للحياةِ الإنسانيّة كلِّها.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾

٣١ ـ سيَرجِعُ الناسُ جميعًا في نهايةِ الأمرِ إلى الله تعالى يومَ القيامة، ولن يستطيعَ أحدٌ الاختفاءَ في أيِّ مكان، ومن يُرِدِ اللهُ تعالى يُنعِمْ عليه ويُضحِكْه، ومن يُرِدْ يبتَلِهِ ويُبْكِهِ، بمعنى: أنه سواءٌ كانت السَّعادةَ أم الحُزنَ، وسواءٌ كانت الحياةَ أم الموتَ، اللهُ تعالى هو الذي خَلَق كلَّ أسبابِها، وبالتالي فإنّ الذي يستطيعُ أن يَخلُقَ الإنسانَ لأوّل مرةٍ ويَخلُقَ له الأسبابَ، يُمكنُه أن يَخلُقَ للمرَّةِ الثانيةِ أيضًا، فهو القادرُ المطلَق، وهو ـ وحدَه ـ الذي يستحِقُّ العبادَة.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾

٣٢ ـ اللهُ تعالى الذي خَلَق ـ من قَطْرةٍ بسيطةٍ عاديّة ـ هذا الإنسانَ العظيم، ثم جَعَل من هذه القطرةِ الذَّكرَ والأُنثى أيضًا، هل يَصعُبُ عليه أن يُعيدَ خَلْقَ مثلِ هذا الإنسانِ ثانيةً يومَ القيامة؟

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾

٣٣ ـ اللهُ تعالى هو خالقُ الأرضِ والسَّماء، وهو مالكُ خزائنِهما، وهُو الذي يُغني مَن يشاء، ويَجعَلُ من يشاءُ فقيرًا، ولكنْ ما الحِكمةُ من وراءِ ذلك؟ اللهُ تعالى

هو الذي يَعلَمُ تمامَ العِلم هذه الحِكمةَ؛ لأنه هو أحكَمُ الحاكِمين، ولا يخلو فعلٌ من أفعالِه من الحِكمة.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾

٣٤ - رَغْمَ أنّ اللهَ تعالى هو ربُّ كلِّ النُّجوم والكواكب، لكنّه ذَكَر هنا اسمَ الشِّعرى (نَجْمٌ) لأنّ بعضَ القبائل العربيّةِ كانت تعبُدُه، والمقصودُ هنا هو إخبارُ هؤلاءِ المشركينَ أنّ نَجْمَ الشِّعرَى أيضًا مَثَلُه مَثَلُ باقي النُّجوم، مخلوقٌ من مخلوقاتِ الله تعالى، ولهذا لا يستحِقُّ هذا النَّجمُ ولا غيرُه من النُّجوم العبادةَ.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾

٣٥ - الأقوامُ التي بَلَغتِ المَدى في الطُّغيانِ والظُّلم أهلَكَهم اللهُ تعالى بسببِ طُغيانهم وظُلمِهم، مثلَما أهلَكَ قومَ عادٍ وقومَ ثمودَ وقوم نُوح.

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾

٣٦ - لقد حَمَل سيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ قُرى قوم لُوطٍ إلى أعلى في الفضاءِ وقَلَبَها رأسًا على عَقِبٍ مُسقِطًا إياها على الأرض، ثم أمطَرَهم بحجارةٍ أهلكَتْهم ودمَّرتْهم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾

٣٧ - الإنسانُ محاطٌ من كلِّ الجهات بأنعُم الله عليه، وفي كلِّ نعمةٍ من هذه النِّعم تَبرُزُ آياتٌ على قُدرةِ الله واضحةً جَلِيّةً، بحيث لو تأمَّلها الإنسانُ وتدبَّرها لم

يُمكنْه إنكارُ أيِّ نعمةٍ منها، وسوف يَصدَعُ قلبُه مُعلِنًا أنّ اللهَ تعالى أرحَمُ الراحِمينَ بالفعل، وهو الذي أَنْعم على الإنسانِ بكلِّ هذه النِّعم التي لا يستطيعُ الإنسانُ عَدَّها ولا حَصْرَها، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾

٣٨ ـ هنا تنبيهٌ لكفّارِ مكّةَ بأنّ بَعثةَ النبيِّ ﷺ ونزولَ القرآنِ المجيد ليس بالأمرِ الجديد، وإنّما مثلَما جاء الأنبياءُ الكرامُ السابقونَ لإنذارِ أقوامِهم من العذاب، كذلك جاء سيّدُنا محمدٌ ﷺ أيضًا باعتبارِه النبيَّ الخاتَمَ، فاتَّبِعوه وأرضُوا اللهَ تعالى عنكم؛ لأنّ عذابَه أليمٌ شديد.

﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾

٣٩ ـ اللهُ تعالى ـ وحدَه ـ هو الذي سيُظهِرُ يومَ القيامة ويأتي بها حينَ يشاء، إلّا أنّ القيامةَ تقتربُ كلَّ ساعةٍ عن سابقتِها، والحقيقةُ أنّ الموتَ في ذاتِه قيامةٌ، وهو يقتربُ من كلِّ نَفَسٍ من أنفاسِنا كلَّ لحظةٍ عن سابقتِها، ولا يَعلَمُ أحدٌ في أيِّ لحظةٍ سينطفئُ مِصباحُ حياتِه، لهذا عليكم أن تَستفيدوا استفادةً كاملةً من هذه المُهلةِ حتى لا تندَموا في الغدِ على شيءٍ.

﴿وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ﴾

٤٠ ـ هنا تنبيهٌ لكفّارِ مكّةَ بأنّ كلَّ آيةٍ من آياتِ القرآنِ الكريم في ذاتِها معجزةٌ ونَبْعٌ للهداية، وكان ينبغي لكم أن تَذرِفوا دموعَ النَّدم على ضلالِكم، وتَقبَلوا هدايةَ القرآنِ الكريم، لكنَّكم تضحَكونَ من القرآنِ وتسخَرونَ منه، وتُثيرونَ ضَجّةً وصَخَبًا بلعِبكم حتى لا يتمكَّنَ أحدٌ من الاستماع إلى آياتِه المعجِزة.

﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾

٤١ ـ وفي النهايةِ جاء الحُكمُ للمسلمينَ بأنه: إذا كان المشركونَ ـ بحُمقِهم وجَهْلِهم ـ يَسخَرونَ من القرآنِ الكريم، فلا تبالوا أنتم بهم، وإنما خُرُّوا ساجدينَ لمعبودِكم الحقيقيِّ، وهكذا خرَّ النبيُّ ﷺ وأصحابُه الكرامُ رضي اللهُ عنهم ساجدينَ، فسَجَد معَهم كلُّ مَن كان موجودًا من الكفّارِ وقتَئذٍ. والسجودُ واجبٌ على مَن يتلو هذه الآيةَ وعلى مَن يسمَعُها في رأي الإمام أبي حنيفةَ والإمام الشافعيِّ رحِمَهما اللهُ.

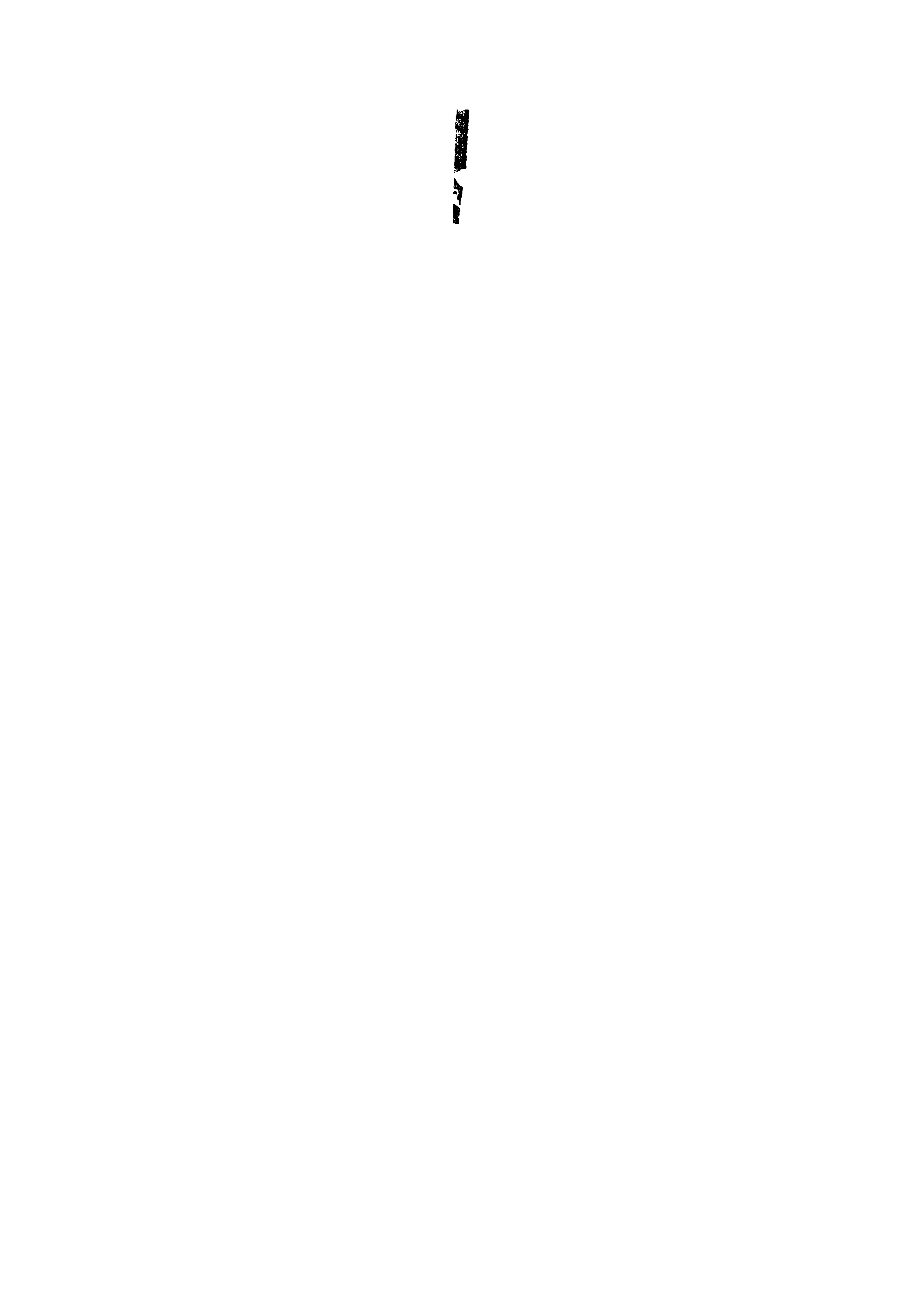
ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النّبيَّ ﷺ قرأَ سُورةَ النَّجم فسَجَد بها، فما بقيَ أحدٌ من القوم إلّا سَجَد، فأخَذ رجلٌ من القوم كفًّا من حصًى أو ترابٍ، فرَفَعه إلى وجهِه وقال: «يكفيني هذا، فلقد رأيتُه بعدُ قُتِلَ كافرًا[1]».

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ النّبيَّ ﷺ سَجَد بالنَّجْم، وسَجَد معَه المسلمونَ والمشركونَ والجِنُّ والإنسُ[2].

**الفقيرُ إلى الله: محمّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعة الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة العشاءِ من يوم الاثنين ٢٣ أغسطس ٢٠١٠م**
**الموافق ١٢ رمضانَ المباركِ ١٤٣١هـ.**

**هذا وقدِ اكتَملَ تفسيرُ سُورة «النَّجم» بفَضْل الله تعالى وكرَمِه في ثمانيةِ أيام فقط، يعني: من ١٥ إلى ٢٣ أغسطس، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.**

(١) البخاري، كتاب سجود القرآن، باب ٤ برقم ١٠٧٠.
(٢) البخاري، كتاب سجود القرآن، باب ٥ برقم ١٠٧١.



بسم الله الرحمن الرحيم

# (٥٤) سورة القمر

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها «القَمَر»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

## خلاصة مضامين السورة

ـ جاء في بدايةِ هذه السُّورة ذِكرُ معجزةِ انشقاقِ القمَر، والتي لم يؤمِنْ أهلُ مكّةَ حتى بعدَ مشاهدتِها، وقالوا: إنّ هذا لَساحرٌ عظيم! وقد تعَدَّى أثرُ سِحرِه الأرضَ ووَصَلَ إلى السماء.

ـ في السُّورةِ إشارةٌ إلى أنه مثلَما انشَقَّ القمرُ، فإنّ ذلك اليومَ ـ الذي ستَنشَقُّ فيه السماءُ والأرضُ ـ يقتربُ أيضًا، وعندَها ستقومُ السّاعةُ.

ـ رَغْمَ أنّ من الصَّعب إنكارَ شيءٍ بعدَ مشاهدتِه عِيانًا، لكنّ هؤلاءِ الناسَ أعمَتْهم أهواؤهم إلى درجةٍ كبيرةٍ بحيثُ أنهم لم يؤمنوا حتى بعدَ أن رأَوْا بأعيُنِهم انشقاقَ القمر، وسوف تفتَحُ أعيُنُهم فعليًّا عندَما ينهَضونَ من قبورِهم، وتُخيفُهم أهوالُ القيامة.

ـ في السُّورةِ ذكرٌ لبعضِ الأقوام السّابقينَ الذين كَذَّبوا أنبياءَهم عليهم السَّلامُ، فأصابَهم بذلك عذابٌ أليم، ولهذا ينبغي لكفّارِ مكةَ أن يَعتبِروا من هؤلاءِ

الأقوام السَّابقين، وأن يقبَلوا نصيحةَ القرآنِ الكريم، حتى لا يُصيبَهم العذابُ الأليم.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعة الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ ظهر يوم الأربعاء ٢٥ أغسطس ٢٠١٠م**
**الموافق ١٤ رمضانَ ١٤٣١هـ.**

❋ ❋ ❋

# سُورَةُ القَمَر (٥٤)،

## مكية (٣٧)، آياتها (٥٥)، ركوعاتها (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾

١ ـ نبيُّنا الحبيبُ سيّدُنا محمدٌ ﷺ هو آخِرُ الأنبياءِ والمرسَلين، ولن يأتيَ نبيٌّ بعدَه، وإنّما ستقومُ الساعةُ، ولهذا فإنّ القيامةَ قدِ اقترَبتْ ـ بالفعل ـ في وقتِنا هذا قياسًا

بزمنِ الأُمم السابقة، كما أنّ كلَّ شيء قادمٍ يقتربُ لمحةً بعدَ أخرى، والأحاديثُ التاليةُ تشيرُ إلى قُربِ قيام الساعة:

ـ يقولُ سيّدُنا بُرَيْدةُ رضي الله عنه: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «بُعِثتُ أنا والسّاعةُ كهاتَيْن»، وضمَّ أُصبُعَيْه: السَّبّابةَ والوُسْطى[١].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّما أجَلُكم فيما خلا من الأُمم، كما بيْنَ صلاةِ العصرِ إلى مغربِ الشّمس»[٢].

﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾

٢ ـ يقولُ المفسِّرونَ في تفسيرِ هذه الآية: إنه ذاتَ مرةٍ اجتَمَعَ كفّارُ مكةَ وقالوا للنبيِّ ﷺ: إن كنتَ صادقًا فشُقَّ لنا القمرَ شَقَّيْن، فسألَهم النبيُّ ﷺ: لو فعلتُ هذا هل تؤمنونَ بي؟ قالوا: نعم ـ وكان القمرُ في ليلةِ الرابعَ عشَرَ من الشهر القمَريِّ ـ ثم دعا النبيُّ ﷺ ربَّه أن يُعطيَه القُدرةَ على إظهارِ المعجِزةِ التي طلَبَها الكفّارُ، وبالفعل، انشَقَّ القمرُ إلى نصفَيْنِ: نصفٌ على جبل أبي قُبَيْس، والنصفُ الآخَرُ على جبلِ قُعَيْقِعانَ، حتّى بدا للناسِ جبلُ حراءٍ بينَ النِّصفين، وعندَئذٍ نادى النبيُّ ﷺ على الكفّارِ بأسمائهم قائلًا: يا فلان، يا فلان، شاهدوا بأعيُنِكم واشهَدوا أنّ طلَبَكم قد أُجيب، وعليه قال المشركونَ: لقد سَحَرَنا محمدٌ ﷺ، لكنّه لا يستطيعُ أن يسحرَ الناسَ جميعًا، فقال أبو جَهْل: اصبِروا، ننتظرُ عابري السَّبيل وأهلَ البوادي ونسألُهم، فإنْ أكَّدوا على انشقاقِ القمرِ فإنّ كلامَ محمد ﷺ يكونُ صحيحًا، وإلّا فإنه يكونُ قد سَحَر أعيُنَنا، وحينَ شَهِد عابرو السَّبيل والبدوُ بأنّهم شاهدوا انشقاقَ القمرِ فعلًا قال أبو جَهْل والمشركون: إنه سِحرٌ يَحدُثُ منذُ الزَّمنِ القديم، وعليه أَنْزل اللهُ

(١) مجمع الزوائد، ١٠: ٣١١.

(٢) المعجم الأوسط، ١: ٣٠٤ برقم ٤٩٨.

تعالى الآيتَيْنِ الأُولَيَيْنِ من هذه السُّورة[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنه مثلما انشَقَّ القمرُ فإنّ ذلك اليومَ ـ الذي ستنشَقُّ فيه السَّماءُ والأرضُ ـ يقتربُ أيضًا، وعندَها ستقومُ الساعة.

وقال العلّامةُ القرطبيُّ: «﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ هذا يدُلُّ على أنّهم رأَوْا انشقاقَ القمر. قال ابنُ عبّاسٍ: اجتَمعَ المشركونَ إلى رسولِ الله ﷺ، وقالوا: إنْ كنت صادقًا فاشقُقْ لنا القمرَ فِرقتَيْنِ: نصفٌ على أبي قُبَيسٍ ونصفٌ على قُعَيْقِعان، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: إن فعلتُ تؤمنون؟ قالوا: نعم؟ وكانت ليلةَ بدرٍ، فسأل رسولُ الله ﷺ ربَّه أن يُعطيَه ما قالوا، فانشَقَّ القمرُ فِرقتَيْنِ، ورسولُ الله ﷺ ينادي المشركيـن: يا فلانُ، يا فلانُ، اشـهدوا. وفي حديثِ ابن مسعودٍ: انشَقَّ القمرُ على عهدِ رسولِ الله ﷺ، فقالت قريشٌ: هذا من سِحرِ ابن أبي كَبْشةَ، سَحَرَكم، فاسألوا السُّفّارَ، فسألوهم فقالوا: قد رأَينا القمرَ انشَقَّ، فنَزَلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾»[2]

وقد حَدَثتْ معجزةُ شقِّ القمرِ قبلَ خمسِ سنواتٍ من الهجرة، وإليك بعضَ الأحاديثِ التي تدورُ حولها:

---

(١) «إن كفار مكة قالوا للرسول ﷺ: إن كنت صادقًا فشقّ لنا القمر فرقتين، ووعدوه بالإيمان إن فعل، وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربّه أن يعطيه ما طلبوا، فانشقّ القمر: نصف على جبل الصفا، ونصفٌ على جبل قعيقعان المقابل له، حتى رأوا حراء بينهما، فقالوا: سحرنا محمد، ثم قالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم! فقال أبو جهل: اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سحر محمد أعيننا، فجاءوا فأخبروا بانشقاق القمر، فقال أبو جهل والمشركون: هذا سحرٌ مستمر، أي: دائم». صفوة التفاسير، ودلائل النبوة، الأصبهاني، ١: ٣٦٨ برقم ٢٠٩.

(٢) تفسير القرطبي.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه: انشَقَّ القمرُ على عهدِ رسولِ الله ﷺ شِقَّتَيْنِ، فقال النّبيّ ﷺ: «اشهدوا»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ أهلَ مكّةَ سألوا رسولَ الله ﷺ أن يُريَهم آيةً، فأراهُمُ انشقاقَ القمر[2].

ـ يقولُ سيّدُنا جُبَيْرُ بنُ مُطعِم رضي الله عنه: انشَقَّ القمرُ على عهدِ النّبيِّ ﷺ حتّى صار فِرقتَيْنِ على هذا الجبلِ وعلى هذا الجبـل، فقالوا: سَحَرَنا محمّدٌ، فقال بعضُهم: لئن كان سَحَرَنا ما يستطيعُ أن يسحرَ النّاس كلَّهم[3].

﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾

٣ ـ لكَ أن تتصوَّرَ مدى تعصُّبِ أهل مكةَ وتعنُّتِهم من أنّهم هم الذين طالبوا بشَقِّ القمر، ووَعَدوا بأنّهم سيؤمنونَ لو انشقَّ القمرُ، ولكنْ عندَما ظَهرت هذه المعجزةُ خَلَفوا وعودَهم وقالوا: إنّ هذا لَسحرٌ عظيم، وقد وَصَل أثَرُه إلى السماء! ولكنْ لا داعيَ للخوفِ والقلق؛ لأنّ مِثلَ هذا السِّحرِ كان السابقونَ أيضًا يقومونَ به، ومثلَما مضَى السَّحَرةُ من قبلُ إلى حال سبيـلِهم، سيأتي يومٌ يمضي فيه هذا هو الآخَرُ إلى حالِ سَبيلِه، ويتحوَّلُ الأمرُ كلُّه إلى قصّةٍ عفَّى عليها الزَّمن.

﴿ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾

٤ ـ كذَّبَ مشركو مكّةَ النبيَّ ﷺ حتى بعدَ أن رأَوْا معجزةً عظيمةً مِثلَ معجزةِ انشقاقِ القمر، وكذَّبوا بيوم القيامةِ أيضًا، وليس لديهم أيُّ دليلٍ على تكذيبِهم هذا،

---

(١) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٧ برقم ٣٦٣٦.

(٢) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٧ برقم ٣٦٣٧.

(٣) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٥٤ برقم ٣٢٨٩.

ولم يكنْ سوى التعصُّبِ الذي أعماهم وهوى أنفُسِهم الذي اتَّبعوه، والذي وَقَف عائقًا في سَبيل اتِّباعِهم الحقَّ، وفي هذه الآية تنبيهٌ للمشركينَ بأنّ الساعةَ ستقومُ لا مَحالةَ، وسوف يُعاقَبونَ على تكذيبِهم هذا، ولكنْ طِبقًا للوقتِ الذي حدَّده اللهُ تعالى لهذا، فإذا حان الوقتُ فلن يجدوا لهم ملجأً من الله.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾

٥ ـ كان لدى مشركي مكَّةَ أخبارُ الأقوام السابقينَ الذين كَذَّبوا أنبياءهم الكرامَ عليهم السَّلامُ، فنزَل عليهم العذابُ، وفي مِثل هذه الأخبارِ عبرةٌ ونصيحةٌ يجبُ أن تَدفعَهم ـ وبقوّةٍ ـ إلى تركِ طريقِ الهلاكِ والدَّمار.

﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾

٦ ـ الأخبارُ التي جاء بها القرآنُ الكريمُ عن هلاكِ الأقوام السابقينَ فيها حِكمةٌ وعِلمٌ لا حدَّ لهما، ولو أنّ المشركينَ استعمَلوا عقولَهم وتدبَّروها وفكَّروا فيها لَكان من الممكنِ أن ينجُوا من مصيرِهم السيِّئ، ولكنْ لأنّهم كانوا عبيدًا لأهوائهم، عُمْيانًا في اتِّباعِهم لها، ولم يكونوا يستمعونَ إلى القرآنِ الكريم بتدبُّرٍ وتمعُّن، لهذا لم يُفِدْهم الإنذارُ بشيءٍ.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾

٧ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، الذين لم يؤمنوا بكَ رَغْمَ مشاهدتِهم معجزةَ انشقاقِ القمر، ورَغْمَ دعوتِك المليئة بالعِلم والحِكمةِ لهم، وظَلُّوا مُصِرِّينَ على عنادِهم، لا تحزَنْ عليهم ولا تغتَمَّ لهم، واترُكْهم في حالِهم، وسيكونُ يومُ القيامة بالنِّسبةِ لهم في غايةِ الصُّعوبةِ والسُّوء؛ لأنّهم كانوا يُنكرونَ يومَ القيامة من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ لن يكونَ هناك من يُنقذُهم من عذابِ يوم القيامة.

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾

٨ ـ حينَ تهجُمُ أسرابُ الجرادِ على منطقةٍ من المناطق تغطِّي هذه الأسرابُ الأرضَ: الفضاءَ والحقولَ من كلِّ جانبٍ في تلك المنطقة، وبنفسِ الطريقة ستكونُ الأرضُ يومَ القيامة خاليةً تمامًا ونظيفةً، ولكنْ حين يَخرُجُ الناسُ من قبورِهم ستمتلئُ الأرضُ بهم من كلِّ جانب، وستكونُ أبصارُهم خاشعةً من أهوالِ يوم القيامة.

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾

٩ ـ حين يَخرُجُ بنو الإنسانِ من قبورِهم ستطرَأُ عليهم حالةٌ من الوَحْشة، وسيتفرَّقُونَ وينتشرونَ مِثلَ الفراشات، وحينَ يُنادَى عليهم بالتوجُّهِ إلى ميزانِ العدل سيُهرِولونَ باتِّجاه مَن يناديهم وهم في حالةٍ من الخوفِ والذُّعرِ الشديد، وسيقولُ الكفّارُ في خوفٍ ورُعب: إنّ هذا يومٌ عسيرٌ مُخيف. لَيْتَهم فَهِموا في الدُّنيا أنّ هذا اليومَ قادمٌ لا مَحالةَ، ولو فَهِموا ما وَصَلوا إلى حالةِ النَّدم الشديدِ هذه.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾

١٠ ـ في الآياتِ التالية ذِكرٌ لطُغيانِ الأقوام السابقينَ وهلاكِهم ودمارِهم، وفي هذه الواقعاتِ درسُ عبرةٍ للمشركينَ من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ فيها تسرِيةٌ منَ الله تعالى لنبيِّه الكريم ﷺ، يعني: يا أيُّها النبيُّ ﷺ، إنّ مخالفةَ مشركي مكةَ ليست بالأمرِ الجديد، فقد كذَّبتِ الأقوامُ السابقةُ نبيَّنا الحَبيبَ سيّدَنا نوحًا عليه السلام، ولم يكتفُوا بقولِهم عنه: إنه مجنونٌ وحسبُ، وإنّما زَجَروه كذلك وهدَّدوه، مثلَما جاء في سُورةِ الشعراء: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾

١١ ـ نَقَل القاضي ثناءُ الله باني بتي هنا قولًا لمجاهد، من أنه كان: «واحدٌ منهم يَلقاهُ فيخنُقُه حتى يَخِرَّ مَغْشِيًّا عليه فيُفيقُ ويقولُ: اللهمَّ اغفِرْ لقومي فإنّهم لا يعلَمون»[١]، وظَل يقابلُ إيذاءَهم له لمدةِ تسعِمائةٍ وخمسينَ عامًا بالدعاءِ لهم، ولكن حين هدَّدوه بالرَّجم، وشَعَر سيّدُنا نوحٌ عليه السلام بأنّهم لن يؤمنوا دَعَا عليهم بالدُّعاءِ الذي بيَّنه القرآنُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾، كما بيَّن القرآنُ الكريمُ هذا الدُّعاءَ في موضع آخَرَ منه، فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧].

﴿ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾

١٢ ـ قَدَّر اللهُ تعالى العذابَ بالماءِ على قوم نوح، وهكذا عندَما حان وقتُ تعذيبِهم أَنْزلَ اللهُ تعالى من السَّماءِ ـ مطرًا ـ سُيولًا لم تتوقَّفْ، وأجرى الماءَ من الأرضِ كذلك عيونًا، حتى أنّ أفرانَ النارِ أيضًا فاضَتْ بالماء، ثم التقَتِ المياهُ النازلةُ من السّماءِ معَ المياهِ النابعة من الأرض، وأعطَتْ حُكمَ الله هذا ـ بتعذيبِ قوم نوح بما تقرَّر لهم ـ الشَّكلَ العمَليَّ، يعني: أنّ هذه المياهَ صارت طُوفانًا وأغرقَتْهم جميعًا.

﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾

١٣ ـ رَكِب سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ ورفاقُه في السَّفينة التي أمَرَ اللهُ تعالى سيّدَنا نوحًا عليه السَّلام أن يصنَعَها من الألواح والمسامير، وكان الطُّوفانُ شديدًا

---

(١) التفسير المظهري، سورة القمر (٥٤): الآية ٩.

لدرجةِ أنّ كلَّ شيءٍ غَرِق فيه، بينَما ظلَّت هذه السَّفينةُ تسيرُ إلى منزلِها بحفظِ الله ورعايتِه، ولم تواجِهْ أيَّ خطر.

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾

١٤ ـ انتَقَم اللهُ تعالى عن طريقِ هذا الطُّوفانِ من أولئك الذين أنكَروا رسولَ الله إليهم، يعني: سيّدَنا نوحًا عليه السَّلام، وسَخِروا من تعاليمِه، وآذَوْه جسَديًّا، بل وهدَّدوه بالرَّجْم كذلك.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

١٥ ـ كان غَرَقُ الناسِ جميعًا في طُوفانِ نوح، ونجاةُ البعضِ منهم، وهمُ الذين رَكِبوا السَّفينةَ، بمثابةِ واقعةٍ غيرِ عاديّة في التاريخ الإنسانيِّ، ولهذا ظلَّ الناجُونَ من الطُّوفانِ يقُصُّونَ على الأجيالِ التالية واقعةَ الطُّوفانِ والسَّفينة، ولا تزالُ هذه الواقعةُ معروفةً حتى اليوم، بل إنّ السفينةَ نفسَها بقِيتْ موجودةً لفترةٍ طويلة، حتى يَعتبِرَ الناسُ من واقعةِ الطُّوفانِ والسَّفينة، ويَقبَلوا نصيحةَ الله تعالى التي أَنْزلَها إليهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾

١٦ ـ يعني: أنّ العذابَ الذي أَنذَرَكم به رسولي، سيأتيكم ـ بالضَّرورة ـ في وقتِه المحدَّد، ومثلَما تعلَمونَ أنتم كيف أنّ اللهَ تعالى أَغْرقَ العُصاةَ في الماء، ونجَّى المُطيعينَ عن طريقِ السفينة.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

١٧ ـ القرآنُ المَجيدُ سهلٌ وميسَّرٌ للغاية فيما يتعلَّقُ بالحصولِ على النَّصيحةِ منه، وفيه بيانٌ بأمثلةٍ سَهْلةٍ وبسيطة على جزاءِ الأعمال الصّالحةِ وعقابِ الأعمالِ

السيِّئة، وإذا تدبَّر إنسانٌ على قَدْرٍ عاديٍّ من الفَهْم والذَّكاءِ هذه الأمثلةَ، استطاع بسهولةٍ أن يَحصُلَ على النُّصح منها، مثلَما مرَّ الآنَ في مثالِ الطُّوفان، وكيف نجَّى اللهُ تعالى الصالحينَ وأَغْرقَ المفسِدين.

ولكنْ لا يَلزَمُ من ذلك أن يكونَ استنباطُ الأحكام من القرآنِ الكريم أمرًا سهلًا وبسيطًا، وإنّما هو فنٌّ مستقِلٌّ وصَعْبٌ في الوقتِ نفسِه، ويحتاجُ إلى عِلم كبيرٍ واطِّلاع واسع.

وهناك مفهومٌ آخَرُ لهذه الآية، يعْني: أنّ حِفظَ القرآنِ الكريم سهلٌ ميسَّرٌ، والدَّليلُ على هذا أنّ هناك آلافَ الحُفّاظِ اليومَ في كلِّ رُكنٍ من أركانِ العالَم الإسلاميِّ، بل إنّ هناك أطفالًا أقلَّ من عَشْرِ سنينَ عمُرًا يَحفَظونَ القرآنَ الكريم عن ظهرِ قلب، بحيث لا يُخطئونَ في فتحةٍ أو كسرةٍ منه.

يقولُ العلّامةُ غُلام رسُول سَعِيدي في تفسيرِ هذه الآية: إنه ذاتَ مرّةٍ ذَهَب رجلُ الدِّين الهِندُوسيُّ رام تشِندر إلى سيّدِنا صَدرِ الأفاضل نَعيم الدِّين مُرادآبادي وقال له: إنّني أحفَظُ أربعةَ عشَر جزءًا من قرآنِكم، فكم تحفَظُ أنت من كتابِ الهندوسِ المقدَّس (فيد)؟ فقال سيّدُنا صدرُ الأفاضل نَعيم الدِّين مراد آبادي: لا تقُلْ مِثلَ هذا الكلام ثانيةً، وإلّا ستلقَى هَوانًا وذُلًّا. قال رام تشِندر: لا تتهرَّبْ من الإجابةِ عن سؤالي، إن كنتَ تحفَظُ شيئًا فأسمِعْني إياه. قال سيّدُنا صدرُ الأفاضل: إنّ مِن إعجازِ قرآنِنا وكمالِه أنه محفوظٌ في صدرِ عدوِّنا، ومن عيبِ كتابِكم (فيد) أنّكم لا تحفَظونَ منه بقَدْرِ ما تحفَظونَ من القرآن. أُسقِطَ في يدِ رجُلِ الدِّين الهندوسيِّ لمّا سَمِع هذه الإجابةَ، فغادَرَ المكانَ وذَهَب.

وبنفسِ الطريقة، فإنّ التَّوراةَ والزَّبورَ والإنجيلَ كتُبٌ سَماويّة، ولكنْ لا يوجَدُ لأيٍّ من هذه الكتُبِ حُفّاظٌ لها في الدنيا، بينَما هذا هو إعجازُ القرآنِ الكريم

فقط، يعني: أنّ حُفّاظَه موجودونَ بأعدادٍ لا تحصَى في كلِّ بلدٍ من البلدان[١].

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾

١٨ ـ أَنْذرَ سيّدُنا هودٌ عليه السَّلامُ قومَه من عذابِ الله تعالى، لكنّهم كَذَّبوا سيّدَنا هودًا عليه السَّلام، فأرسَلَ اللهُ تعالى عليهمُ العذابَ في صُورةٍ عاصفةٍ شديدة. يقولُ العلّامةُ الخازن: «كان ذلك يومَ الأربعاء»[٢]، وكان يومَ نَحْسٍ مستمرٍّ بالنِّسبة لهم.

لا يوجَدُ نهارٌ أو ليلٌ منحوسٌ في ذاتِه، والمرادُ بيوم نَحْس في هذه الآية: أنه كان يومَ نَحْسٍ بالنِّسبة لهم؛ لأنّ العذابَ نَزَل عليهم فيه، ولم يكن اليومُ هو السببَ في عذابِهم، وإنّما كان طُغيانُهم وعِصيانُهم السببَ في ذلك، ولو أنّ اليومَ منحوسٌ في ذاتِه لَنزلَ العذابُ فيه على الأقوام الأخرى أيضًا بجانبِ قوم عاد، وهذا لم يحدُثْ، أو أنّ العذابَ ظلَّ ينزِلُ على قومِ عادٍ كلَّ أربعاءَ، وهذا أيضًا لم يحدُثْ.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾

١٩ ـ كان الناسُ في قوم عادٍ طِوالَ القامة أقوياءَ، ولهذا كانوا يَعتبِرونَ أنفُسَهم أقوياءَ عُظماءَ والآخَرينَ ضُعفاءَ حقيرين، وقد أَفْهمَهم سيّدُنا هودٌ عليه السَّلامُ بأنْ تَعقَّلوا، فالذي خَلَقَكم وجَعَلَكم أقوياءَ هو نفسُه أقوى منكم، ولكنْ عندَما لم يَرجِعوا عن طُغيانِهم، وأَصَرُّوا على الإنكارِ المتواصِل لآياتِ الله تعالى، أرسَلَ اللهُ تعالى عليهم ـ في نهايةِ الأمر ـ ريحًا عاصفًا رَفَعتْهم من الأرضِ إلى الفضاءِ وأسقطَتْهم بكلِّ عُنفٍ على الأرض، فانفَصَلت رءوسُهم عن أجسادِهم، وتناثَرتْ جُثَثُهم على الأرضِ كأنّها جذوعُ نخيلٍ مقطوعةٍ مبتورة.

---

(١) تفسير تبيان القرآن، ١١: ٥٨٥.

(٢) تفسير الخازن.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

٢٠ ـ مرَّ تفسيرُ هذه الآيةِ فارجِعْ إليه في الحاشية رقم ١٧.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾

٢١ ـ كَذَّب قومُ ثمودَ أيضًا نبيَّهم، يعني: سيِّدَنا صالحًا عليه السَّلام، وبَرَّروا ذلك قائلينَ: إنه بشَرٌ مِثلُنا، كما أنه وحيدٌ ولا جماعةَ معه، فإذا ترَكْنا نحن دينَ آبائنا وأجدادِنا، واتَّبعنا شخصًا لا يفوقُنا حَسَبًا ولا نَسَبًا، بل ولا من أيِّ اعتبارٍ آخَرَ، فإنّنا عندَئذٍ لا نكونُ ضالِّينَ فقط، بل ونكونُ مجانينَ كذلك؛ لأنه لن يوافقَ عاقلٌ من قومنا على مِثلِ هذه الخُطوةِ من جانبِنا.

﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾

٢٢ ـ ثم قالوا ـ على سَبيل السُّخرِيةِ والاستحقار ـ: هل هذا فقَطْ هو المؤهَّلُ

من بَـيْـنِنا لكي يَنزِلَ الوحيُ عليه، معَ أن بينَنا أُناسًا أفضَلَ منه بكثير، وهمُ الأكثرُ استحقاقًا لأنْ ينزِلَ الوحيُ عليهم؟ والحقيقةُ أنه لم يَنزِلْ عليه وحيٌ، وإنّما هو كاذبٌ، ويريدُ أن يُعظِّم نفسَه بينَنا عن طريقِ ادِّعائه الكاذبِ هذا (والعياذُ بالله).

﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾

٢٣ ـ اليومَ يقولُ هؤلاءِ الناسُ عن نبيِّ الله تعالى: إنه كاذبٌ ومتكبِّرٌ، لكنَّهم في الغدِ، يعني: يومَ موتِهم أو يومَ القيامة، حين يرَوْن عذابَ الله تعالى، سيَعلَمونَ مَن هو الكَذّابُ ومَن هو المتكبِّر، يعني: أنهم سيتيقَّنونَ عندَئذٍ من أنّهم كانوا هم المتكبِّرينَ الكذّابينَ، وسيندَمُونَ قائلينَ: ليتَهم لم يُكذِّبوا أنبياءَ الله، ولكنّ النَّدمَ في ذلك الوقتِ لن ينفَعَهم بشيء.

﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ﴾

٢٤ ـ طالَبَ قومُ ثمودَ سيّدَنا صالحًا عليه السَّلامُ قائلين: إنْ أَخْرجتَ لنا من الصَّخرةِ ناقةً حيّةً سنؤمنُ بك، وهكذا دَعَا سيّدُنا صالحُ عليه السَّلامُ ربَّه، فقال اللهُ تعالى: يا صالحُ عليه السلام، إنّنا سنُرسلُ الناقةَ ابتلاءً لهم واختبارًا، عليكَ فقطْ أن تَصبِرَ على إيذائهم لك، وانتظِرْ لترى هل يؤمنونَ بك عندَما يرَوْنَ هذه المعجزةَ أم لا؟!

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾

٢٥ ـ أَطْلع سيّدُنا صالحُ قومَه ـ بأمر الله تعالى ـ على أنّ هذه الناقةَ ستشربُ الماءَ يومًا، وفي اليوم التالي يشربُ قومُ ثمودَ، يعني: سيشربُ كلُّ فريقٍ الماءَ في دورِه في اليوم المحدَّد له، ولن يتدخَّلَ فريقٌ في اليوم المحدَّد للفريقِ الآخَر.

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: كان يومُ شُربِهم لا تشربُ النّاقةُ شيئًا من الماء وتَسقيهم لبنًا وكانوا في نعيمٍ، وإذا كان يومُ النّاقة شربتِ الماءَ كلَّه فلم تُبقِ لهم شيئًا[1].

﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾

٢٦ ـ كانت هذه الناقةُ بمثابةِ النِّعمةِ العظيمة لهم، فقد كانوا يشربونَ الماءَ يومًا، وفي اليوم التالي يشربونَ من لبنِ الناقةِ مَجّانًا ودونَ ثمنٍ يدفعونَه، ولكنَّهم لم يُقدِّروا هذه النِّعمةَ حقَّ قَدْرِها، فحَرَّضوا رجلًا أحمقَ من بينِهم على أن يَقتُلَ الناقةَ، وبالفعل قام هذا الأحمقُ بقَطْع سِيقانِ الناقةِ وقَتْلِها.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾

٢٧ ـ لقد حذَّر سيّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ قومَه من عذابِ الله تعالى قائلًا لهم: إنْ آذَيتُم هذه الناقةَ فسيَنزِلُ عليكم عذابٌ عظيمٌ أليم، وهكذا أَنْزلَ اللهُ عليهم العذابَ في صُورةِ صَيْحةٍ عظيمةٍ لَمّا قَتَلوا الناقةَ، وقد جَعَلتْهم هذه الصَّيحةُ العظيمةُ كمِثلِ العُشبِ الذي داسَتْه الأقدامُ مرارًا وتكرارًا، وأصبحوا موتَى مُلقَيْنَ على وجوهِهم.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

٢٨ ـ سبقَ تفسيرُ هذه الآيةِ في الحاشية رقم ١٧ فارجِعْ إليها.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾

٢٩ ـ كَذَّب قومُ لوطٍ أيضًا نبيَّهم، يعني: سيّدَنا لوطًا عليه السَّلام، فدَمَّر اللهُ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة القمر (٥٤): الآية ٢٨.

تعالى قُراهم كلَّها عقابًا لهم على تكذيبِهم هذا، ثم أَمطَرهم بحجارةٍ مطرًا استمرَّ حتى أهلَكَ الكفّارَ جميعًا، وأَخْرج اللهُ تعالى سيّدَنا لوطًا عليه السَّلامُ والمؤمنينَ معَه من آلِ بيتِه من هذه القُرى في الجزءِ الأخيرِ من اللَّيل، وهكذا يتفضَّلُ اللهُ تعالى ويتكرَّمُ على عبادِه الشاكرين.

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴾

٣٠ ـ حَذَّر سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ قومَه من عقابِ الله تعالى وأَخْذِه، لكنَّهم لم يبالوا بتحذيرِه لهم، بل إنّهم شكَّكوا فيه، وأخَذوا يتشاجَرونَ معه.

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾

٣١ ـ أرسَلَ اللهُ تعالى بعضَ الملائكةِ في شكل فتيانٍ حَسَني الصُّورةِ إلى سيّدِنا لوطٍ عليه السَّلامُ بقَصْدِ إنزالِ العذابِ على قوم لوط، وما أنْ سَمِع الفُسّاقُ من قوم لوطٍ بخبَرِ قدوم فتيانٍ حَسَني الصُّورة حتى هَرْوَلوا إلى بيتِ سيّدِنا لوطٍ عليه السلام وقالوا له أنْ سَلِّمْنا هؤلاءِ الفتيانَ الضُّيوفَ حتى نفعلَ بهمُ الفاحشةَ! حاوَل سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ إفهامَهم بأنّ هؤلاءِ ضيوفي، ولن أُسلِّمَهم لكم، ولكنْ لا فائدةَ، ولَمّا شَعَر سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ بأنه لا أثرَ لنُصحِه عليهم، قام بإغلاقِ بابِ بيتِه حمايةً لضيوفِه.

ولمّا بَلَغ الخوفُ مبلَغَه بسيّدِنا لوطٍ عليه السلام، وبَلَغ طُغيانُ قوم لُوطٍ المدى، قال الضُّيوفُ لسيّدِنا لوطٍ عليه السَّلام: نحن رُسُلُ ربِّك، وقد أُرسِلنا لنُنزِلَ عليهم العذابَ، ولهذا لا تخَفْ شيئًا، فإنّ هؤلاءِ لن يستطيعوا الوصولَ إليك مطلقًا، فافتَح البابَ، ونحن سنتولّى أمرَهم، وهكذا فَتَح سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ بابَ البيت، وضَرَب سيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ بجناحِه، فصاحَ الكفّارُ بأعلى

صوتِهم وقد طُمِست أبصارُهم: اهرُبوا من هنا فورًا، فإنّ ضيوفَ لوطٍ عليه السَّلامُ أكثرُ منه سِحرًا[١].

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾

٣٢ ـ عندَ اللّيلةِ الأولى أذاق اللهُ تعالى قومَ لوطٍ عذابًا بسيطًا بسببِ سُوءِ سلوكِهم، يعني: أنه طَمَس على عيونِهم وأعماهم، ثم أذاقَهم العذابَ الأكبرَ عندَ الصَّباح الباكر، يعني: أنه قَلَب قُراهم رأسًا على عَقِب، وأمطَرَهم بحجارةٍ من عندِه أهلكَتْهم إلى الأبد.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

٣٣ ـ راجِعْ تفسيرَ هذه الآية في الحاشية رقم ١٧.

وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ

---

(١) «قال ابن عبّاسٍ وأهل التّفسير: أغلق لوطٌ بابه والملائكة معه في الدّار، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّر الجدار، فلمّا رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنّصب بسببهم، قالوا: يا لوط، إنّ ركنك لشديدٌ، وإنّهم آتيهم عذابٌ غير مردود، وإنّا رسل ربّك، فافتح الباب ودعنا وإيّاهم، ففتح الباب، فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم وعموا وانصرفوا على أعقابهم، وجعلوا يقولون: النّجاء النّجاء! فإنّ في بيت لوطٍ قومًا هم أسحر من على وجه الأرض، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا». تفسير القرطبي: سورة هود (١١): الآية ٨١.

شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾

٣٤ ـ اللهُ تعالى هو القادرُ المطلَق والغالبُ على الجميع، وهُو الذي أرسَلَ سيّدَنا موسى وسيّدَنا هارونَ عليهما السَّلامُ إلى فِرعَونَ وقومِه، وقد أَنْذرا الفِرعونَ وحَذّراهُ من عذابِ الله تعالى، وأَرَياهُ معجزاتٍ دليلًا على صِدقِهما، ولكنْ لمّا أَنْكر فِرعونُ وقومُه المعجِزاتِ كلَّها انتَقَم اللهُ تعالى منهم، وأَغْرق فِرعونَ ورجالَه في البحر.

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾

٣٥ ـ في هذه الآياتِ تنبيهٌ للكفّارِ بأنّنا أخبَرْناكم في الآياتِ السابقةِ أنّ الأقوامَ السابقينَ الذين كَذَّبوا أنبياءهم نَزَل عليهمُ العذابُ، فلماذا تتَّبِعونَهم برَغْم ذلك؟ هل أنتم أكثرُ منهم مالًا وثروةً وقوةً وشوكة، أم أنه جاء في كتابٍ سماويٍّ أنِ افعَلوا ما شئتُم فلن يَنزِلَ العذابُ عليكم أبدًا، أم أنكم أكثرُ عددًا وجماعةً بحيث لا يمكنُ لأحدٍ أن يَهزِمَكم، في حينَ أنّكم لستُم أفضَلَ منهم من أيِّ جانب، فمَن ـ يا تُرى ـ سيُنقذُكم من عذابِ الله تعالى؟

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾

٣٦ ـ أَخْبر اللهُ تعالى في هذه الآيةِ أنّ كفّارَ مكّةَ عمّا قريبٍ سيُهزَمون، وسيُوَلُّونَ الأدبارَ ويَفِرّون، وهاتانِ نُبوءتانِ من القرآنِ الكريم تحقَّقَتا في سبع سنواتٍ فقط، بمعنى: أنّ هذه السُّورةَ نَزَلت قبلَ الهجرة بخمسِ سنوات، وهُزِم

الكفّارُ في غزوةِ بدرٍ التي وَقَعت في العام الثاني للهجرة، والتي قُتِل فيها العديدُ من سادةِ كفّارِ مكّةَ، ووَلّى الباقونَ هارِبين.

يقولُ سيّدُنا عِكرِمةُ رضي الله عنه: «لمّا نَزَلت ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ قال عُمرُ رضي الله عنه: جَعَلتُ أقولُ: أيُّ جَمْع سيُهزَمُ؟ حتّى كان يومُ بدرٍ رأيتُ النّبيَّ ﷺ يَثِبُ في الدِّرع وهو يقول: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ فعَرَفتُ تأويلَها يومَئذٍ»(١).

ويقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ بعدَ أنْ نَقَل روايةً مشابِهةً للرِّوايةِ السابقة: «وهذا من معجزاتِ النبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم؛ لأنه أَخْبر عن غيبٍ، فكان كما أَخْبر»(٢).

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾

٣٧ ـ يعني: أنّ هزيمةَ بدرٍ ليست نهايةَ عقابِهم، بل إنّ الوعدَ الأصليَّ بعقابِهم سيتحقَّقُ كاملًا يومَ القيامة، حيث سيُعاقَبونَ عقابًا شديدًا وأليمًا.

﴿ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾

٣٨ ـ الكفّارُ اليومَ مُصِرُّونَ على ضَلالِهم متمسِّكونَ به إلى درجةِ الجنون، وسوف يعودُ إليهم رُشدُهم حينَ يُلقَوْنَ على وجوهِهم في نارِ جهنَّم، ويقالُ لهم: ذوقوا الآنَ الاحتراقَ بالنارِ عقابًا لكم على جرائمِكم.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾

٣٩ ـ كلُّ شيءٍ مقدَّرٌ منذُ البداية في عِلم الله واللَّوح المحفوظ، ويَظهَرُ إلى

---

(١) تفسير الدر المنثور، سورة القمر (٥٤): الآية ٤٥.

(٢) تفسير القرطبي، سورة القمر (٥٤): الآية ٤٥.

حيّزِ الوجودِ في وقتِه المحدَّدِ له طبقًا لِما هو محفوظ. وقد فَهِم أكثرُ المفسِّرينَ القَدَر من هذه الآية على أنه: التقدير، ورَغْم أنّ الحديثَ عن التقديرِ قد مَرَّ بشكلٍ متنوِّع في الحاشية رقم ١٠ من سُورة البقرة، وفي الحاشية رقم ٣٦ من سُورة الأنعام، ولكنْ نظرًا لأهميّةِ الموضوع فإنّنا نعيدُ بيانَ ما قُلناه مجتمِعًا هنا، حتى يَفهَم القُرّاءُ موضوعَ التقديرِ هذا بشكلٍ صحيح.

## مسألة التقدير

كَتَبَ اللهُ تعالى كلَّ حسَنةٍ وكلَّ سيِّئةٍ في عِلمِه الأَزليِّ قبلَ أن يَخلُقَ الكائناتِ مثلَما سيَقَع، وكلُّ ما سيفعَلُه الإنسانُ برضاهُ ومَحْضِ إرادتِه كَتَبه اللهُ بعِلمِه الأَزليِّ عندَه في اللَّوح المحفوظ، وهذا هو ما نُطلقُ عليه القَدَرَ أو القضاءَ، وليس معناه أبدًا أنّ ما كَتَبه اللهُ تعالى نُضْطَرُّ للقيام به، وبالتالي نحن مجبورونَ على أفعالِنا، وإنّما كلُّ فعل سنفعَلُه نحن بمَحْض إرادتِنا هو الذي كَتَبه اللهُ عندَه، وهذا هو القَدَر، ونَذكُرُ هنا واقعةً تساعدُ في فَهْم هذه المسألةِ بشكلٍ سهلٍ وبسيط.

## سيدنا محمود الغزنوي (متوفًى ٤٢١هـ)

والقصّةُ هي أنه اشتُهر، فيما يتعلَّقُ بسيّدِنا محمودٍ الغَزْنَويِّ، أنّ اللهَ تعالى قد أعطاه بصيرةً وفِراسة، بحيث يستطيعُ أن يُخبِرَ بما في قلوبِ الآخَرين، مثلَما قال ﷺ: «**اتَّقوا فِراسةَ المؤمن، فإنّه ينظُر بنُور الله**»[1]، فقام شابّانِ بوَضْع برنامَج للتأكُّد من هذه الكرامةِ خُلاصتُه أنهما سَيلتقيانِ بمحمودٍ الغَزْنَويِّ عصرَ اليوم التالي في الحديقة، وهناك سُورٌ عالٍ حولَ هذه الحديقة، ويَتخلَّل هذا السُّورَ أربعةُ أبوابٍ من الجهاتِ المختلفة للدخولِ إلى الحديقة، واتَّفق الشابّانِ أنْ يسألا محمودًا الغزنويَّ: من أيِّ

---

(١) جامع الترمذي، أبواب تفسير القرآن، سورة الحجر (١٥): باب ١٥ برقم ٣١٢٧.

بابٍ من أبوابِ الحديقة سنَخرُج؟ وبطبيعةِ الحال سيُخبِرُهم ببابٍ من الأبواب، لكنّهما سيَصعَدانِ على الشجرةِ الموجودة في الجانبِ الغربي، ويقفِزانِ إلى الخارج من فوقِ السُّور، وهكذا يَثبُتُ خطأُ هذه الكرامة.

وهكذا ذَهَب الصَّديقانِ في اليوم التالي إلى تلك الحديقةِ للقاءِ محمودٍ الغَزْنويِّ، وكان محمودٌ الغَزْنَويُّ في ذلك الوقتِ يسيرُ في الحديقة معَ وُزرائه، فسأله الصَّديقانِ: هل يمكنُ أن تُخبِرَنا من أيِّ بابٍ سنَخرُج من الحديقة؟ فقال محمودٌ الغَزْنويُّ: لو قلتُ: إنكما ستَخرُجانِ من البابِ الشماليِّ فنظرًا لأنّكما قرَّرتُما معارضتي فستُحاولانِ الخروجَ من الباب الجنوبيِّ بغَرَض تكذيبي، لكنَّني ـ معَ ذلك ـ سأكتُبُ على ورقةٍ من أين ستَخرُجان، وسأُعطيكُما الورقةَ، فاذهَبا بها وافتَحاها في الخارج واقرءا ما فيها، وسآتي بنفسي إليكما. وهكذا كَتَب محمودٌ الغَزْنَويُّ في الورقة: «إنّكما لن تَخرُجا من أيِّ باب، وإنّما ستَقفِزانِ إلى الخارج بالصُّعودِ فوقَ الشجرةِ الموجودةِ في الجانبِ الغَرْبي». ثم طَوى الورقةَ وأعطاها لهما. وقام الشابّانِ طِبقًا لِما خَطَّطا سابقًا بالخروج من الحديقةِ عن طريقِ الصُّعودِ فوقَ الشجرةِ الموجودةِ في الجانبِ الغربيِّ فعلًا، وحين فَتَحا الورقةَ وجَدَا ما فيها.

وسؤاليَ الآنَ: هل أَجبَرتِ الورقةُ المكتوبةُ هذَيْنِ الشابَّيْنِ على أن يقفِزا خارجَ الحديقة عن طريقِ الشجرة، أم أنهما فَعَلا ذلك بمَحْضِ إرادتِهما وطبقًا لما خَطّطاه؟ لقد خَرَجا بالطَّبع برضاهُما عن طريقِ الشجرة، ولم يكنْ للورقةِ دَخْلٌ في الأمرِ مطلقًا.

وهكذا، فإنّ الله تعالى ـ بعلمِه المحيطِ بالمستقبل ـ قد كَتَب تقديرَ كلِّ فردٍ بأنه بمَحْض إرادتِه وفي الوقتِ الفلانيِّ سيقومُ بالعمَل الفلانيِّ، وليس في هذا أيُّ إجبارٍ من القَدَر، والقرارُ قرارُ العبدِ نفسِه، وهو المسئولُ عن عقابِه وثوابِه، وإنّما كَتَب اللهُ تعالى ما في عِلمِه المحيطِ ليس إلّا، وعِلمُ الله كاملٌ بحيث لا مجالَ فيه مطلقًا للخطأ.

## إظهار التقدير

أظهَر اللهُ تعالى التقديرَ في بعضِ المواضع من القرآنِ المجيد، والتي يُعلَمُ منها في الظاهرِ أنّ الإنسانَ مجبورٌ مَحْض، ولكنّ الإنسانَ ـ معَ ذلك ـ يفعَلُ ما يريدُه هناك أيضًا، واللهُ تعالى أظهَرَ هذا التقديرَ قبلَ وقتِه ونَسَبَه إليه، مثلَما جاء في الآيةِ السادسة والآيةِ السابعة من سُورة البقرة، حيث قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦-٧].

ويُعلَمُ هنا ظاهرًا أنه إذا كان اللهُ تعالى نفسُه قد طَبَع على قلوبِهم، وحَكَم عليهم بأنّ لا يَقبَلوا الإسلامَ، فكيف يمكنُ لهم أن يؤمنوا إذًا؟ والحقيقةُ أنه إذا افترَضْنا أنّ طبيبًا أعلن أنّ حالةَ مريضٍ من المرضَى لم تعُدْ تستجيبُ للعلاج، فهل عَدَمُ استجابةِ حالةِ المريض للعلاج كانت بسببِ إعلانِ الطَّبيب ذلك، أم المرضُ كان قد دَخَل قبلَ هذا الإعلانِ مرحلَته الأخيرة وهكذا، فإنّ من الواضح تمامًا أنّ المريضَ قد أصبح ميئوسًا من علاجِه أولًا، ثم كان إعلانُ الطبيبِ بعدَ ذلك مجرَّدَ إعلانٍ لا أكثر؟ وبنفسِ الطريقةِ أيضًا، فإنّ هؤلاءِ الكفّارَ المخصوصينَ كانوا قد قَرَّروا عَدَمَ قَبولِ الإسلام بسببِ تعصُّبِهم، واللهُ تعالى أخبَر بنواياهم وعزائمِهم لا أكثَرَ.

## سورة المسد

وبنفسِ الطريقة في سُورة المَسَد جاء إظهارٌ للعاقبةِ الوخيمة لأبي لَهَبٍ وموتِه على الكفر، يعني: أنّ أبا لهبٍ سيَدخُلُ قريبًا نارًا ملتهبةً شُعُلاتُها، وكذا زوجُهُ التي تَحمِلُ الحطبَ، سيكونُ في عنُقِها حبلٌ من مَسَد.

وقد أعلنت هذه السُّورةُ أنّ أبا لهبٍ سيموتُ على الكُفر، وأنه سيحترقُ بنارِ جهنَّم، في حينَ أنه كان يمكنُه أن يأتيَ إلى النبيِّ ﷺ ويَقبَلَ الإسلامَ، حتى ولو على سَبيل التظاهُر، ثم بعدَ ذلك يمكنُه تحدِّي نبوءةِ القرآنِ الكريم قائلًا: إنه أَسْلَم، ولهذا فإنّ القرآنَ مخطئٌ، وقد ذَكَر القرآنُ الكريمُ زوجةَ أبي لهبٍ بصفةٍ خاصّة، ولم يَذكُر الكفّارَ الآخَرينَ مثلَ: خالدِ بن الوليد وعَمْرِو بن العاص وعكرِمةَ بن أبي جهلٍ وغيرِهم؛ لأنّهم أَسْلموا بالفعل فيما بعدُ، وهنا تكونُ المعجزةُ؛ بأنّ القرآنَ الكريمَ تحدَّى بِأَنَّ أبا لهبٍ لَنْ يُغيِّرَ من طريقِه الخاطئ، ولم يكنْ هذا مِن قَبِيْلِ التحدِّي الذي لا دَخْلَ لعملِ أبي جهلٍ أو قرارِه اختيارٌ فيه، لكنّ اللهَ تعالى كان يَعلَمُ أنّ أبا لهبٍ سيموتُ على الكُفر، ولن يَقبَلَ الإسلامَ ولو بشكلٍ عارضٍ على سَبيل المراءاة[1].

## الإفراط والتفريط فيما يتعلق بالقدر

إنّ مسألةَ القَدَرِ هذه مسألةٌ معقَّدة بقَدْرِ ما هي مسألةٌ هامّةٌ أيضًا، ولهذا مَنَع النبيُّ ﷺ من الجِدالِ في موضوع القَدَر هذا، وبالرَّغْم من ذلك فإنّ بعضَ الناس قد حاولوا الوصولَ إلى عُمقِه، ووَقَع منهم إفراطٌ وتفريطٌ في هذا الخصوص فضَلُّوا، وهناك مذهبانِ مشهورانِ في هذا الأمر هما: الجَبْريّةُ، والقَدَريّة.

### ١ - الجبرية

وعقيدةُ هؤلاءِ أنّ الإنسانَ مجبورٌ مَحْضٌ مَثَلُه كمَثَل الحَجَر، لا يستطيعُ أن يفعَلَ شيئًا بإرادتِه، وإنّما هو مجبورٌ على فعل الحَسنةِ أو السيِّئةِ التي كَتَبها اللهُ عندَه في قَدَرِه، وهذه العقيدةُ تُنافي الإسلامَ؛ لأنّ اللهَ تعالى أعطَى الإنسانَ الاختيارَ في فعل الخيرِ والشرِّ، ولو لم يكنْ لدى الإنسانِ الاختيارُ لِفعلِ الخير، فما الداعي إذًا

(١) الإمام الشعراوي، معجزات الرسول، ٣٠.

لإرسالِ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ لدعوةِ الناسِ إلى فعلِ الخير؟ ولهذا فإنّ اللهَ تعالى لا يُجبِرُ أحدًا على فعلِ الخيرِ أو الشرِّ، وقد أبطَلَ مولانا جلالُ الدِّين الرُّوميُّ هذه العقيدةَ بالمثالِ التالي:

المُعتقِدُ بعقيدةِ الجَبْريّة كالمسافرِ الذي كان يمُرُّ من أمام بستان، فأصابه الجوعُ، وحينَئذٍ دَخَل البستانَ وأخَذ في تناولِ العنبِ منه، ولكنّ مالكَ البستانِ أمسَكَ به وسأله: لماذا تجرَّأتَ على فعلِ هذا دونَ إذْنٍ مني؟ فقال: لا تستطيعُ ورقةٌ أن تتحرَّكَ من مكانِها إلّا بإذنِ الله، والبستانُ بستانُ الله، وعبدُ الله يأكلُ منه بإذنٍ من الله، فأنا لا اختيارَ لي في ذلك، وإن أردتَ فاسألِ اللهَ لماذا يُطعمُني؟ وعندَئذٍ رَبطَه مالكُ البستان من يدَيْه ورجلَيْه وأشبَعَه ضربًا بالعصا، فصَرَخَ الرجلُ واستغاثَ قائلًا: لماذا تَظلِمُني؟ فقال مالكُ البستان: إنّني مِثلُك مجبورٌ مَحْض! والعصا عصا الله، وأنا أضربُك بها بإذنٍ من الله، وبعدَ ذلك تابَ هذا الرجلُ ورَجَع عن عقيدتِه هذه.

وبعدَ أن كَتَب مولانا جلالُ الدِّين الرُّوميُّ هذه الواقعةَ قال: أيُّها الإنسان، لو أنك ضَربتَ كلبًا بحجرٍ فإنّ الكلبَ لا يَعضُّ الحجر، وإنّما يَعضُّك أنت؛ لأنه يعرفُ أنّ الحجرَ مجبورٌ مَحْض، وأنت مُخيَّرٌ في ذلك، فيا قليلَ العقل، الكلبُ يميِّزُ بينَك وبينَ الحجر، فإذا لم تفهَمْ أنت هذا الفَرْقَ، فأنت أكثرُ حُمقًا من الكلبِ إذًا.

**٢ ـ القَدَريّة:**

هذه عقيدةُ أولئك الذين يقولون: إنّ الإنسانَ مُخيَّرٌ تمامًا، يفعَلُ ما يشاء، وهذه العقيدةُ أيضًا مخالفةٌ للإسلام؛ لأنّ المختارَ المطلَقَ هو اللهُ تعالى فقطْ، وقد رَدَّ الإمامُ أبو حنيفةَ ـ بالمثالِ التالي ـ على أَتْباع هذه العقيدة:

ذاتَ مرَّة جاء رجلٌ إلى سيّدِنا عليٍّ بن أبي طالبٍ وقال له: إنّ الإنسانَ مختارٌ مطلَق، فقال له سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه: ارفَعْ إحدى رِجلَيْك إلى أعلى، فرَفَعَها، فقال له: والآنَ احتفظْ بها مرفوعةً إلى أعلى وارفَعْ رجلَك الثانيةَ أيضًا. فقال الرجلُ: إني بهذه الطريقةِ سأسقُطُ على الأرض. فقال سيّدُنا عليٌّ: هكذا هو الاختيارُ الذي لدى الإنسان، لا يستطيعُ أن يرفَعَ سوى رِجلٍ واحدة، ولو كان مختارًا مطلَقًا لَاستطاع أن يرفَعَ رجلَه الثانية(١).

## الموقف الصحيح من القضاء والقدر

النظَريّتانِ المذكورتانِ أعلاه في نَظَرِ أهل السُّنةِ والجماعة مخالفتانِ للإسلام، والحقيقةُ أنّ الإنسانَ ليس مجبورًا مطلَقًا كالحجر، ولا مختارًا مطلَقًا كالله، وإنّما أعطاهُ اللهُ الاختيارَ ليفعَلَ الخيرَ والشرَّ، وأعطاه ـ معَ ذلك ـ العقلَ والتمييزَ أيضًا، ولهذا أرسَلَ اللهُ تعالى الأنبياءَ عليهمُ السَّلام، حتى يمكنَ له أن يُميِّزَ بينَ الطيِّبِ والخبيث، فالإنسانُ يستطيعُ باختيارِه أن يعمَلَ عملًا صالحًا يُثابُ عليه، وباختيارِه أيضًا يستطيعُ أن يعمَلَ عملًا سيِّئًا يُعاقَبُ عليه، لكنّ هناك بعضَ الأشياء لا اختيارَ للإنسانِ فيها، مثلًا: الحياةُ والموت، وأين سيولَدُ وأين سيموت، وكيف سيكونُ شكلُه، وغيرُ ذلك، لكنّ الإنسانَ لن يُسألَ عن هذه الأشياءِ أيضًا.

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾

٤٠ ـ اللهُ تعالى قادرٌ على كلِّ شيء، وكلُّ أمرٍ يُصدِرُه يَتِمُّ تنفيذُه في طَرْفةِ عَيْن، بل قبلَ أن تنتهيَ طَرْفةُ العين أيضًا، مثلَما قال اللهُ تعالى:

---

(١) العقائد الإسلامية، لمحمد إمداد حسين بيرزاده.

ـ ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾[النحل: ٧٧].

ـ ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾

٤١ ـ في هذه الآيةِ تنبيهٌ للكفّارِ بأنّ الذين كَفَروا مِثلَكم من الأُمم السابقةِ أهلَكْناهم، وإنْ لم تَعتبِروا منهم فسوف نُهلِكُكم أنتم أيضًا، ولهذا عليكم أن تَقبَلوا نُصحَ القرآنِ المجيد وتَرجِعوا عن شِركِكم.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾

٤٢ ـ كلُّ ما فَعَله الأقوامُ السابقونَ، وكلُّ ما سيفعَلُه الناسُ حتى قيام الساعة، وكلُّ عمَلٍ من أعمالِهم، كبيرًا كان أو صغيرًا، مكتوبٌ في اللَّوح المحفوظِ وفي صحائفِ أعمالِهم، وسوف يتقرَّرُ عقابُهم وإثابتُهم طبقًا لهذا كلِّه.

﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾

٤٣ ـ ذُكِرت في الآياتِ السابقة عاقبةُ الكفّار، يعني: أنّ المجرمينَ سيُسحَبونَ على وجوهِهم في النار، والآنَ في الآيتَيْنِ الأخيرتَيْنِ يأتي ذِكرُ أولئك الذين يخشَوْنَ اللهَ تعالى، فهؤلاءِ سيكونونَ في جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار، والتي هي مكانُ العزّةِ والكرامة، وسوف يُنعمُ اللهُ تعالى، القادرُ المطلَقُ، عليهم بالقُربِ الخاصِّ منه تعالى.

يقولُ الإمامُ جعفرٌ الصّادقُ: «مَدَح المكانَ بالصِّدق فلا يَقعُدُ فيه إلّا أهلُ

الصِّدق، وهو المقعَدُ الذي يُصدِّقُ اللهُ تعالى فيه مواعيدَ أوليائه بأنه يُبيحُ ـ عزَّ وجَلّ ـ لهُم النظرَ إلى وجهِه الكريم»[1].

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعة الكرَم، إنجلترا**
**بعد ظهر يوم الاثنين ٣٠ أغسطس ٢٠١٠م**
**الموافق ١٩ رمضان ١٤٣١هـ.**

**هذا، وقدِ اكتَملَ تفسيرُ سُورة القمر في خمسةِ أيام فقط، أي: من ٢٥ إلى ٣٠ أغسطس، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.**

❋ ❋ ❋

(١) روح المعاني، سورة القمر (٥٤): الآية ٥٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

# (٥٥) سورة الرحمن

هذه السُّورةُ ـ عندَ جمهورِ المفسِّرينَ ـ مكِّيّة، وأولُ كلمةٍ فيها هي «الرَّحمن»، وهذا هو اسمُها أيضًا.

ـ يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي اللهُ عنه: خَرَج رسولُ الله ﷺ على أصحابِه، فقَرأَ عليهم سُورةَ الرَّحمن من أوّلِها إلى آخِرِها فسَكَتوا، فقال: «لقد قرَأتُها على الجنِّ ليلةَ الجِنّ، فكانوا أحسَنَ مردودًا منكم، كنتُ كلّما أتَيْتُ على قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيءٍ من نِعَمِك ربَّنا نُكذِّب فلكَ الحمدُ»[1].

ـ في هذه السُّورةِ خطابٌ مباشرٌ إلى كلٍّ من الجِنِّ والإنس، وتذكيرٌ لهم جميعًا مرّاتٍ ومرّات بنِعَم الله تعالى عليهم، والتنبيهُ لهم بأنّ من يَطغَى من الجنِّ والإنسِ لن يُفلتَ من العقابِ في الآخِرة، ومن يُطعِ اللهَ تعالى سيَنعَمُ بنِعَم الله المتنوِّعة.

ويُعلَمُ منه أنّ دعوةَ النبيِّ ﷺ للإنسِ والجنِّ معًا، وكلاهما مسئولٌ مسئوليّةً كاملةً عن أعمالِه؛ لأنّهم جميعًا خُلِقوا من أَجْل عبادةِ الله تعالى، مثلَما قال اللهُ تعالى في كتابِه الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

---

(١) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٥٥، سورة الرحمن (٥٥) برقم ٣٢٩١.

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لكلّ شيءٍ عَروسٌ، وعَروسُ القرآنِ سُورةُ الرّحمن»[1].

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعة الكرَم، إنجلترا**
**بعد ضحى يوم الأربعاء الأول من سبتمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢١ رمضان ١٤٣١هـ.**

* * *

---

(١) تفسير القرطبي.

# سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ (٥٥)،

## مكية (٩٧)، آياتها (٧٨)، ركوعاتها (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾

١ - اسمُ ذاتِ الله تعالى واحدٌ فقطْ وهو: «الله»، إلّا أنّ أسماءَ صفاتِه كثيرةٌ، ومنها: «الرَّحمن»، وهو صيغةُ مبالغة، يعني: أنّ اللهَ تعالى رحيمٌ غايةَ الرَّحمةِ بما لا يمكنُ تصوُّرُه، وهذا اللَّفظُ مخصوصٌ بالله تعالى، وكما لا يجوزُ إطلاقُ اسم الله على

أحدٍ غيرِ الله، كذلك لا يجوزُ إطلاقُ اسم الرَّحمنِ على أحدٍ غيرِ الله أيضًا، وإطلاقُ اسم عبدِ الرَّحمن على أحدٍ أمرٌ محبَّبٌ تمامًا، لكنْ من غيرِ الجائزِ أن تناديَ عليه باسم «رحمن» فقطْ! ويجبُ أن تُناديَه باسمِه كاملًا، أي: عبدِ الرَّحمن.

﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾

٢ ـ عندَما قال أهلُ مكَّةَ: إنّ أحدًا من البشَر هو الذي يُعلِّمُ سيّدَنا محمدًا ﷺ القرآنَ، نَزَلت هذه الآيةُ، يعني: إنه الرَّحمنُ الذي عَلَّم سيّدَنا محمدًا ﷺ القرآنَ المجيد[١].

وقال الكَلْبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «عَلَّم القرآنَ محمدًا وعَلَّمه محمدٌ أُمتَه»[٢].

ويُعلَمُ منه أنّ أولَ معلِّمٍ للقرآنِ الكريم هو اللهُ تعالى، وأنّ أولَ طالبِ علمٍ لهذا القرآنِ هو سيّدُنا محمدٌ ﷺ، وقد أقام نبيُّنا الحَبيبُ ﷺ أولَ مدرسةٍ لتعليم القرآنِ الكريم تعمَلُ لبعضِ الوقت في دارِ الأرقم، ثم لمّا شَرَّف المدينةَ المنوَّرةَ بالقدوم إليها أقام ﷺ دارَ العلوم معَ المسجدِ النَّبويِّ لتعمَلَ في تعليم القرآنِ الوقتَ كلَّه، وكان ما بينَ ثلاثِمائة وأربعِمائةِ طالبٍ موجودينَ دائمًا في دارِ العلوم هذه، وهم الذين يقالُ لهم: «أصحابُ الصُّفّة»، وكان هؤلاءِ السُّعداءُ يقيمونَ في المسجدِ النَّبويِّ، وعلى استعدادٍ دائم للقيام بأيِّ عملٍ من أعمالِ الدِّين، فإذا أُعلِنت الحربُ كانوا في الصُّفوفِ الأُولى منها، وإذا كان زمنُ السِّلم انشَغَلوا في تحصيل علوم الدِّين، وتبليغِه إلى الآخَرين، وكانوا ينهمِكونَ في الخدماتِ الدِّينيّة إلى درجةِ أنّهم لم تكنْ لديهم فرصةٌ لكسْبِ أرزاقِهم، ولهذا كان أهلُ المدينةِ المنوَّرة يهيِّئونَ لهم الطعامَ والشّرابَ من خلالِ الصَّدَقاتِ والعطايا والتبرُّعات، ويَصطحِبونَهم إلى

(١) «هذا جواب لأهل مكة حين قالوا: إنما يعلمه بشر، فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يعني: علم محمدًا القرآن». تفسير الخازن.

(٢) تفسير فتح القدير، تفسير زاد المسير.

بيوتِهم لإطعامِهم، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الرَّحمن بنُ أبي بكرٍ رضي اللهُ عنهما: أنّ أصحابَ الصُّفّة (طلابَ العِلم في المسجدِ النَّبويِّ) كانوا أناسًا فقراءَ، وأنّ النّبيَّ ﷺ قال: «مَن كان عندَه طعامُ اثنَين فلْيذهَبْ بثالثٍ (من هؤلاءِ الطُّلاب)، وإن أربعٌ فخامسٌ أو سادسٌ». وأنّ أبا بكرٍ جاء بثلاثةٍ (من طلابِ العِلم هؤلاءِ) فانطلَقَ النّبيُّ ﷺ بعَشرةٍ...»[1].

ومنذُ ذلك الوقتِ وحتى يومِنا هذا لا تزالُ سُنّةُ النبيِّ ﷺ وأصحابُ الصُّفَّةِ قائمةً، فتُقامُ دورُ العلوم ملحَقةً بالمساجدِ الكبرى، حيث يتمُّ إعدادُ أئمةٍ وخُطباءِ المستقبَل فيها، ويتحمَّلُ أهلُ المدينةِ نفقاتِ طُلّابِ العِلم هؤلاء.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾

٣ ـ نَقَل العلّامةُ الخازنُ قولًا في هذا الخصوص هو: «أراد بالإنسانِ: محمّدًا ﷺ، ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ يعني: بيانَ ما يكونُ وما كان؛ لأنه ﷺ يُنبئُ عن خبرِ الأوَّلينَ والآخِرين وعن يوم الدِّين»[2]. وقد قال اللهُ تعالى:

١ ـ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

٢ ـ ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ويقولُ سيّدُنا ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «أُنزِل في هذا القرآنِ عِلمُ كلِّ شيء، وبُيِّن لنا فيه كلُّ شيء، ولكنّ عِلمَنا يُقصِّرُ عما بُيِّن لنا في القرآن»[3].

---

(١) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٤٢ برقم ٦٠٢.
(٢) تفسير الخازن، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٤.
(٣) روح المعاني، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٢.

ونُقِل عن سيّدِنا عبدِ الله بن عبّاس رضي الله عنهما قولُه: «لو ضاع لي عقالُ بعير لَوجَدتُه في كتابِ الله تعالى»(١).

ويُعلَمُ من الآياتِ والرِّواياتِ السابقة أنّ في القرآنِ المجيدِ بيانًا لكلِّ شيء، وأنّ اللهَ تعالى عَلَّم النبيَّ ﷺ عِلمَ القرآنِ المجيدِ وبيانَه، ونتيجةَ هذا كلِّه أنّ اللهَ تعالى أعطَى النبيَّ ﷺ عِلمَ كلِّ شيء.

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾

٤ ـ جَعَل اللهُ تعالى الشمسَ والقمرَ ملتزمَيْنِ بمدارٍ محدَّد ووقتٍ معيَّن، وبهذا يتعاقَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ، وتتبدَّلُ المواسمُ والفصول، وهكذا يستمتعُ الإنسانُ بفواكِه وثمارِ الفصولِ المختلفة، في الحرِّ والبرد، ولو تَواصَل فصلٌ واحدٌ فقطْ لَأصاب الإنسانَ الملَل، ولَما حَدَث التنوُّعُ في محاصيلِ الأرض.

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾

٥ ـ يقولُ النَّحّاسُ: «أصلُ السجودِ في اللُّغة: الاستسلامُ والانقيادُ لله عزَّ وجَلّ»(٢).

وباعتبارِ اللُّغة، المرادُ بسجودِ الأشجارِ والنُّجوم هنا هو: أنّها جميعًا مُلتزمةٌ بحُكم الله تعالى، ولا تتجاوزُ حدودَ القواعدِ التي وُضِعت لها، بمعنى: أنّ النُّجومَ ليس لديها اختيارٌ أن تحُلَّ محلَّ الشمسِ مثلًا، كما أنه ليس لدى أشجارِ المانجو اختيارُ المقدرةِ على أن تُثمرَ تمرًا.

---

(١) روح المعاني، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٢.
(٢) تفسير القرطبي.

ولوِ اعتبَرْنا المرادَ هو السُّجودَ بالمعنى الاصطلاحيِّ، مثلَما نَسجُدُ نحن، فمن الممكنِ أن يكونَ المعنى: أنها كلَّها تسجُدُ بطريقتِها ولكنَّنا لا نستطيعُ إدراكَ طبيعةِ وكيفيّةِ هذا السُّجود، مثلَما أنّ كلَّ شيءٍ في الأرضِ والسَّماءُ يُسبِّحُ اللهَ تعالى ولكنّنا لا نفقَهُ تسبيحَه.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾

٦ ـ المرادُ من الميزانِ لدى أكثرِ المفسِّرين هو: العَدْلُ والإنصاف، يعني: أنّ اللهَ تعالى أقام نظامَ الكائناتِ كلِّها: من السماواتِ العُلى إلى قاع الأرض، على العدل، فإذا لم يُحفَظْ هذا العدلُ والتوازنُ فيه ارتبَك نظامُ الكائناتِ كلُّه وانقلبَ رأسًا على عَقِب، ولهذا إنْ أردتُم أنتم أيضًا بقاءَ المجتمع والحِفاظَ عليه، يجبُ أن تقيموا نظامَ العدلِ في معاملاتِكم، ولا تُطفِّفوا في الموازين، وإلّا عَمَّ الفسادُ والدَّمارُ مجتَمَعكم أيضًا.

وفَهِم بعضُ المفسِّرينَ الميزانَ هنا على أنه: ميزانُ الآخِرة، وهو الذي توزَنُ فيه الحسَناتُ والسيِّئات[1]، يعني: أنّ اللهَ تعالى حَذّر الناسَ من أنه أقام ميزانَ العدلِ والإنصافِ في الآخِرة، حيث ستوزَنُ أعمالُ كلِّ إنسانٍ فيه، ولهذا عليكم بالعدلِ والإنصاف، ولا تُخسِروا الميزانَ، وإلّا افتُضحَ أمرُكم عندَ ميزانِ العدلِ في الآخِرة، ولن تستطيعوا الإفلاتَ من العقاب.

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾

٧ ـ في الآياتِ التالية ذِكرٌ لإنعاماتِ الله تعالى وآياتِ قُدرتِه، والتي يستفيدُ منها الإنسُ والجِنُّ على السَّواء، مثلًا: اللهُ تعالى فَرَش الأرضَ بحيث تستطيعُ المخلوقاتُ

(١) «قيل: أراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال». تفسير القرطبي.

كلُّها الحياةَ عليها في سهولةٍ ويُسرٍ، كما أنه خَلَق فيها الثِّمارَ والفواكهَ والورودَ ذاتَ الروائح العَطِرة، وكذا المحاصيلَ والغِلالَ أيضًا، والتي يأكلُها الإنسانُ، وتأكلُ الحيَوانات من تِبْنِها وقَشِّها، واللهُ تعالى لم يَخلُقْ شيئًا عبَثًا، وإنّما خَلَق كلَّ شيءٍ لحكمةٍ ومصلحةٍ معيَّنة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

٨ ـ بيَّن اللهُ تعالى نِعَمَه وآياتِ قُدرتـِه، ثم سأَلَ الجنَّ والإنسَ: بأيِّ نعمةٍ من هذه النِّعَم التي لا حَصْرَ لها، وبأيِّ آيةٍ من آياتِ قُدرتِه التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ستُكذِّبونَ وتُنكِرون؟

ـ يقولُ سيِّدُنا جابرٌ رضي الله عنه: خَرَج رسولُ الله ﷺ على أصحابِه فقَرأَ عليهم سُورةَ الرَّحمنِ من أوّلِها إلى آخِرِها، فسَكَتوا، فقال: «لقد قَرأْتُها على الجنِّ ليلةَ الجنِّ فكانوا أحسَنَ مردودًا منكم، كنتُ كلّما أتَيْتُ على قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيءٍ من نِعَمِك ربَّنا نُكذِّبُ فلكَ الحمدُ»[١].

وقد تكرَّرت هذه الآيةُ الكريمةُ في هذه السُّورة **٣١** مرةً حتى يَشعُرَ الإنسُ والجِنُّ بنِعَم اللهِ تعالى، فلا يَجْحَدوها ولا يُغضبوه.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن صَلۡصَـٰلٖ كَٱلۡفَخَّـارِ﴾

٩ ـ المرادُ بالإنسانِ في هذه الآية هو: الإنسانُ الأوَّلُ، يعني: سيِّدَنا آدمَ عليه السَّلام، والذي خَلَقَه اللهُ تعالى من طِين، ونَفَخ فيه من رُوحِه، ثم خَلَق له من ضَلعِهِ زوجَه، وبَدأَ ـ بتناسُلِهما ـ خَلْقُ واستمراريّةُ النَّسلِ الإنساني.

---

(١) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٥٥، سورة الرحمن (٥٥) برقم ٣٢٩١.

رَوى الإمامُ ابنُ عساكرَ، عن سيّدِنا عبدِ الله بن عَبّاس رضي الله عنهما، قال: «خُلِقَ آدَمُ من أَدِيم الأرض، فأُلقيَ على الأرضِ حتّى صار طِينًا لازبًا، وهو الطِّينُ الملتزِقُ، ثمّ تُرِك حتّى صار حَمَأً مسنونًا، وهو المُنتِنُ، ثمّ خَلَقَه اللهُ بيدِه، فكان أربعينَ يومًا مصوَّرًا حتّى يَبِسَ فصار صَلْصالًا كالفَخّارِ إذا ضُرِب عليه صَلْصَل، فذلك الصَّلصالُ، والفَخّارُ مِثلُ ذلك»[1].

﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾

١٠ ـ المرادُ به الجنُّ الأوّلُ الذي خَلَقَه اللهُ تعالى من شُعلةٍ من النارِ الخالصةِ التي لا أثَرَ فيها لدُخَان، ثم جَعَل سلسلةَ الجنِّ تستمرُّ كما هي في بني الإنسان.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

١١ ـ يعني: يا بني الإنسان، لقد خَلَقْنا الإنسانَ الأوّلَ فيكم من الطِّين، ثم جَعَلناكُم تتكاثَرونَ وتنتشِرونَ في الأرضِ كلِّها عن طريقِه، وأنعَمْنا عليكم بالعقل والفَهْم بحيث تَحكُمونَ في الأرضِ كما تَحكُمونَ كلَّ المخلوقاتِ الأخرى فيها وتُسخِّرونَها.

ويا أيُّها الجِنُّ، لقد خلَقْنا الجنَّ الأوّلَ فيكم من شُعلةٍ من النار، وجَعَلْناكم تتكاثَرونَ وتنتشِرونَ عن طريقِه، وأعطَيْناكم قوةً تقومونَ من خلالِها بأعمالٍ خارقة، وفي نفسِ الوقت لا يَراكم أحدٌ، فيا أيُّها الجِنُّ، ويا أيُّها الإنسُ، ليس لدى الطِّين والنارِ المقدرةُ على القيام بما تقومونَ به أنتم من أعمالٍ كبيرةٍ اليومَ، وهذا من فَضْل الله تعالى وكرَمِه عليكم، فهل تستطيعونَ إنكارَ أفضالِ ربِّكم سبحانَه وتعالى عليكم والتي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى؟

---

(١) تفسير الدر المنثور، سورة الحجر (١٥): الآية ٢٦.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾

١٢ ـ يقالُ للجهةِ التي تُشرِقُ منها الشمسُ: «المشرِق»، ويقالُ للجهةِ التي تَغرُبُ فيها الشمسُ: «المغرِب»، والشمسُ تَطلُعُ كلَّ يوم من مكانٍ مختلف، وتَغرُبُ في مكانٍ مختلف، وبهذه الطريقةِ يصبحُ للشمس ٣٦٠ مكانًا مختلفًا للشروقِ ومِثلُها للغروب، ولكنّ الشمسَ تَطلُعُ مُبكِّرًا في الصَّيف، وتَغرُبُ متأخِّرةً، بينَما في الشتاءِ تَطلُعُ متأخِّرةً وتَغرُبُ مبكِّرًا، ولهذا فالنَّهارُ في الصَّيفِ أطولُ منه في الشتاء، وفي هذه الآيةِ جاء ذِكرُ مشرقَيْنِ ومغرِبَيْنِ باعتبارِ الصَّيفِ والشتاء، معَ أنّ اللهَ تعالى ربُّ المشارقِ والمغاربِ كلِّها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

١٣ ـ لو كان المشرقُ واحدًا في السَّنةِ كلِّها وكذا المغربُ، لَما تبدَّلت المواسمُ والفصُول، ولَما تنوَّعتِ المحاصيلُ والثِّمار، واللهُ تعالى أَنْعَم عليكم بأقسام مختلفةٍ ومتنوِّعة من المحاصيلِ والثِّمار عن طريقِ المشرقَيْنِ والمغربَيْنِ، فبأيِّ نِعَم الله تعالى ستُكذِّبون؟

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾

١٤ ـ ثلاثةُ أرباع هذه الدُّنيا يشتملُ على البحارِ ذاتِ المياةِ المالحةِ والمُرَّة، بينَما ربعُ هذه الدُّنيا يشتملُ على البرّ، حيث تجري المياهُ العَذْبةُ ذاتُ الطَّعم الحُلو من العيونِ والأنهارِ والجداول، وحين تَصُبُّ مياهُ النهرِ العَذْبةُ في البحرِ تسيرُ مياهُ النَّهرِ جنبًا إلى جنبٍ معَ مياهِ البحر متوازِيَيْنِ دونَ أن يمتَزِجا لعدّةِ أميال، ويبدو للناظر وكأنّ القُدرةَ الإلهيّةَ قد أقامَتْ بينَهما حدًّا فاصلًا منَعْتهما منَ الالتقاءِ معًا، معَ أنّ الطبيعيَّ أن يلتقيَ الماءانِ فورًا ويَمتَزِجا معًا. وبنفسِ الطريقة، عندَما يصُبُّ

نهرُ النِّيل في البحرِ الأبيضِ المتوسِّط يسيرُ الماءانِ متوازيَيْنِ دونَ أن يَمتزِجا، وإنّما تبقَى ميـاهُ النِّيل بطَعْمِها العَذْب ولونـِها المنفرد، وهكذا المياهُ التي توجَدُ تحت أرضِنا، هي أيضًا قسمانِ، وفي بعضِ الأحيان حين نقومُ بتركيبِ طُلُمْبَةِ (مِضَخَّة) المياه أو حَفْرِ الآبار، يَخرُجُ منها ماءٌ عذبٌ، وعلى بُعدِ عدّةِ أمتارٍ تَخرُجُ مياهٌ مالحةٌ من طُلمبةِ مياهٍ أخرى أو من بئرٍ آخَر.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

١٥ ـ لو لم تكنْ مياهُ البحرِ مالحةً لَنتجَ عن الحيَواناتِ الميِّتة فيه تعفّنٌ يصعُبُ تحمُّلُ رائحتِه، ولو لم تكنْ مياهُ الأنهارِ عَذْبةً لَواجهتِ المحاصيلُ والحيَواناتُ مشاكلَ جَمّةً، ولهذا يا أيُّها الإنسُ والجِنّ، بأيِّ نعمةٍ من نِعَم الله تعالى عليكم ستُكذِّبون؟

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾

١٦ ـ تَصُبُّ مياهُ الأنهارِ العَذْبةُ في البحارِ وتصبحُ ـ في نهايةِ الأمر ـ جُزءًا من مياهِه، ولكنْ لأنّ كلَّ واحدٍ من الماءَيْنِ مختلفٌ في حقيقتِه، لهذا أشار القرآنُ الكريمُ إلى أنّهما بحرانِ باعتبارِ هذه الحقيقة. على أيِّ حال، أَوْدع اللهُ تعالى في بحرِ هذَيْنِ الماءَيْنِ اللُّؤلؤَ والمَرْجانَ (وهو نوعٌ من اللؤلؤِ أيضًا)، بحيث تَستخرِجونَه أنتم، وتَستعمِلونَه في زينتِكم وصناعةِ حُلِيِّكم، فيا أيُّها الإنسُ والجِنُّ، مثلَما مدَّ اللهُ تعالى لكم شبكةً كبيرةً من نِعَمِه في الأرض، جَعَل لكم في البحرِ أيضًا أسماكًا ولآلئَ، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم الله تعالى ستُكذِّبون؟

وهنا يَنقُل سيّد محمود الآلوسيُّ كلامًا يزيدُ الإيمانَ في القلب، فاقرَأْه أنت أيضًا، وجدِّدْ إيمانَك بمحبةِ آلِ البيتِ رضي اللهُ عنهم جميعًا:

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾: عليٌّ وفاطمةُ رضي الله تعالى عنهما، ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾: النبيُّ صلى اللهُ تعالى عليه وسلَّم ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾: الحَسَنُ والحُسَين رضي اللهُ تعالى عنهما»(١).

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾

١٧ ـ من نِعَم الله تعالى التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى: نعمةُ البحرِ أيضًا، فقد أَوْقفَ اللهُ تعالى ماءه في الأعماقِ بحيث تستطيعُ المراكبُ الشِّراعيّةُ والسُّفنُ العِملاقةُ كالجبالِ السَّيرَ على سطحِه بكلِّ سهولةٍ ويُسرٍ، وأنتم أنفسُكم تسافرونَ في هذه المراكبِ والسُّفنِ بحثًا عن الرِّزق، وتنقُلونَ بضائعَكم التجاريةَ عليها من مكانٍ إلى آخَرَ، ولو جَعَل اللهُ تعالى سَطحَ البحرِ صُلبًا صَلدًا، وجَعَل أمواجَه تتلاطمُ هائجةً في كلِّ وقت، لَأصبح من الصَّعبِ على المراكبِ والسُّفنِ السَّيرُ فيه، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم الله تعالى ستُكذِّبون؟

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

---

(١) روح المعاني، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٢٢.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾

١٨ ـ كلُّ شيءٍ في هذه الدُّنيا فانٍ، ولا يبقَى إلّا ذاتُ الله تعالى. وفيه إشارةٌ إلى أنّ العملَ الذي يُعمَلُ من أَجْل الدُّنيا سيفنَى معَ الدنيا هو الآخَر، بينما يبقَى العمَلُ الذي يُعمَلُ من أَجْل رضا الله تعالى ويَخلُد، ويكونُ وسيلةً للنَّجاةِ في القبرِ ويومَ الحَشْر.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

١٩ ـ يقول سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الدُّنيا سِجنُ المؤمن وجَنّةُ الكافر»[1]، ويُعلَمُ منه أنّ الموتَ أيضًا نعمةٌ بالنِّسبة لأهل الإيمان؛ لأنّهم سيَخرُجونَ من السِّجن إلى الجنّةِ الخالدة، ومَن ظَلَّ يعبدُ اللهَ تعالى طيلةَ حياتِه دونَ أن يراه سيَنعَمُ في الجنةِ برؤياه، وهل هناك نعمةٌ أعظمُ من هذه النِّعمة، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم الله تعالى ستُكذِّبون؟

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾

٢٠ ـ المخلوقاتُ كلُّها في السَّماءِ والأرض محتاجةٌ إلى اللهِ تعالى، وهي كلُّها تقفُ على بابِه سائلةً، وخزائنُ اللهِ تعالى غيرُ محدودة، فيُعطي كلَّ سائلٍ مسألَتَه، ومعَ ذلك لا تَنقُصُ خزائنُه، وهو يتَجلَّى في كلِّ لحظةٍ بشأنٍ مختلف، يعني: أنّ كلَّ شيءٍ محفوظٌ من قبلُ في عِلم الله تعالى وفي لوحِه المحفوظ، يَظهَرُ إلى عالَم الوجودِ في وقتِه وحينِه، وهكذا يَظهَرُ إلى عالَم الوجود من قِبَلِه تعالى شيءٌ جديدٌ في كلِّ حين، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم الله تعالى ستُكذِّبون؟

---

(١) مسلم، كتاب الزهد، باب ٥٣ برقم ٧٤١٧.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾

٢١ ـ ليس معنى هذا أنّ اللهَ تعالى مشغولٌ في عملٍ آخَرَ وحين يَفرُغُ منه سيَلتفتُ لهم، وإنّما شأنُه تعالى هو أنّه حينَ يلتفتُ إلى طَرَفٍ لا يَغفُلُ عن الأطرافِ الأخرى، ومثلَما أنّ الشمسَ تُنيرُ كلَّ شيءٍ في الدنيا بنُورِها في وقتٍ واحد، كذلك يُفيضُ اللهُ تعالى على كلِّ إنسانٍ في الدُّنيا بعنايتِه في وقتٍ واحد. سُئل سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه: «كيف يُحاسِبُ ربُّنا الناسَ جميعًا في وقتٍ واحد؟ قال الإمامُ عليٌّ كرَّم اللهُ وجهُه: كما يَرزُقُهم في وقتٍ واحدٍ يُحاسبُهم في وقتٍ واحد»[1]، وكما أنّ اللهَ تعالى يَرى الناسَ جميعًا في وقتٍ واحد، ويَعلَمُ تمامَ العلم ما في قلوبِهم، ويسمعُ دعاءهم، فإنه كذلك يلتفتُ إليهم جميعًا في وقتٍ واحد.

ولهذا، فإنّ مفهومَ هذه الآيةِ هو أنّنا نَعلَمُ تمامَ العِلم طُغيانكم وعصيانكم، ولو شئنا لأَخَذْناكم به، لكنّ رحمَتنا وحِكمَتنا تقتضي أن نُمهِلَكم لكي تتوبوا وتُصلحوا من أنفُسِكم، ولهذا عليكم أن تَستفيدوا من ساعاتِ المُهلةِ المقدَّمة لكم، وتهتَمُّوا بإصلاح أحوالِكم، وإلّا فإنّ وقتَ هذه المُهلةِ قد أَوْشكَ على الانتهاء، وسوف نلتفتُ إليكم عندَئذٍ، يعني: سنُحاسبُكم عندَها على أفعالِكم القبيحة، ألم تتفكَّروا أبدًا لماذا لم يؤاخِذْكم اللهُ تعالى فورًا، ولماذا أمهَلَكم لإصلاح أحوالِكم؟ أليست هذه نعمةً من نِعَمِه عليكم، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم الله ستُكذِّبون؟

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾

٢٢ ـ سيقولُ اللهُ تعالى للطُّغاةِ والمتمرِّدينَ من الإنسِ والجنِّ يومَ القيامة: لو تستطيعونَ الخروجَ من نهاياتِ السَّماءِ والأرض للإفلاتِ من قبضتي فافعَلوا،

(١) تفسير الشعراوي، سورة غافر (٤٠): الآية ١٧.

ولكنِ اسمَعوا جيِّدًا، إنّ هذا ليس في استطاعتِكم، ولا تستطيعونَ الخروجَ من هذه الكائناتِ إلّا بإذْني، وعلى فَرْضِ المستحيل لو أنّكم حاوَلتُم الخروجَ من أقطارِ السماواتِ والأرض، فأين ستَذهَبون؟ إنّ كلَّ مكانٍ في مُلكي وتحتَ سيطرتي، ولهذا لن تستطيعوا الإفلاتَ من عقابي لكم.

لقد بيَّن اللهُ تعالى لكم أهوالَ القيامة، وبيَّن كذلك ـ بالتفصيل ـ العَجْزَ الذي ستكونونَ عليه، حتى تخافوا من ذلك اليوم، وترجِعوا إلى الله تعالى، أليست هذه نعمةً من الله تعالى؟ فبأيِّ نِعمةٍ من نِعَم الله تعالى ستُكذِّبونَ إذًا؟

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾

**٢٣** ـ في ذلك اليوم لو حاوَلتُم الهربَ من ميدانِ الحَشْر، فسيُرسَلُ عليكم عذابٌ من نارٍ ودُخَان، ولن تستطيعوا مساعدةَ بعضِكم بعضًا في الإفلاتِ منه، كما أنّ أحدًا آخَرَ لن يستطيعَ مدَّ يدِ العوْنِ لكم في هذا الخصوص، وإنما ستُبتَلَوْنَ بهذا العذابِ عاجِزين، وهنا أيضًا نَبَّهكم اللهُ تعالى ببيانِ حالةِ العجزِ التي ستكونونَ عليها، حتى تخشَوْا ذلك اليومَ وتتَّقُوه، وتُصلحوا من أنفُسِكم، أليس هذا إحسانًا من الله تعالى، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَمِه ستُكذِّبون؟

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾

**٢٤** ـ قال أبو عُبيد: «أي: تصيرُ السَّماءُ حمراءَ كالأَدِيم لشدّةِ حرِّ النار»[١]، فالنارُ التي تصلُ حرارةُ لهيبِها إلى السماء، وتحمَرُّ منها السَّماءُ، كيف يكونُ حالُ المجرمينَ عندَما يُلقَوْنَ فيها، وحرارةُ النارِ هذه نعمةٌ للمخطئين أيضًا، حتى يَشعُروا بشدّةِ العذابِ ويُصلحوا من أنفسِهم، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم الله إذًا ستُكذِّبون؟

---

(١) تفسير القرطبي.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾

**٢٥** ـ يقولُ أبو العالية: «لا يُسألُ غيرُ المجرم عن ذَنْبِ المجرم»[1]، يعني: لن يوضَعَ وِزرُ ذنوبِ أحدٍ على أحدٍ آخَرَ، وإنّما سيكونُ كلُّ شخصٍ مسئولًا عن أعمالِه هو.

وهذه الآيةُ نعمةٌ للصَّالحينَ بأنّهم ليسوا مسئولينَ عن ذنوبِ غيرِهم، وإنّما سيَدخُلونَ هم الجنّةَ بسببِ حسَناتِهم، كما أنّها نعمةٌ للمخطئينَ أيضًا، إذ يتِمُّ إخبارُهم قبلَ الموعِد بأنّكم ستُواجِهونَ عقابَ أفعالِكم القبيحةِ يقينًا، ولهذا عليكم أن تَشعُروا بهذا العقاب، وترجِعوا عن ارتكابِ الذُّنوب، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم ربِّكم ستُكذِّبون إذًا؟

﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾

**٢٦** ـ في هذه الآياتِ تخويفٌ للمجرمينَ ببيانِ أحوالِ جهنَّم، حتى يَرجِعوا عن عصيانِهم، يعني: أنّ وجوهَ المجرِمينَ ستكونُ سوداءَ يومَ القيامة، وسوف يؤخَذونَ من شعورِ نَواصيهم وأرجُلِهم، ويُسحَبُونَ إلى نارِ جهنَّم، وحين يَصِلُونَ إلى حافَةِ جهنَّم ستقولُ لهمُ الملائكةُ: هذه هي جهنَّمُ التي كنتُم تنكرونَها، ثم يُلقَى بهم في نارِ جهنَّم، وستَحرِقُ النارُ أجسادَهم، وحين يَطلُبونَ الماءَ ليشربوا يُسقَوْنَ من ماءٍ مَغْليٍّ تتقطَّعُ منه أمعاؤهم، وتَبرُزُ من أبدانِهم، وسوف تستمرُّ هذه السِّلسلةُ من العذابِ إلى الأبد.

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾

---

(١) تفسير القرطبي.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾

٢٧ ـ في الآياتِ السابقة جاء تخويفُ المجرِمينَ من عذابِ الآخِرة، حتى يتوبوا ويُصلحوا من أنفُسِهم، وفي الآياتِ التالية جاء ذِكرُ الأجرِ العظيم للصَّالحين، حتى يستزيدوا من عمَل الصّالحات.

إنّ الذين يخافونَ من هذا المكانِ الذي سيقفُونَ فيه أمامَ الله تعالى ليحاسبَهم، ويترُكونَ الذُّنوبَ من خوفِه تعالى، لهم في الجنّةِ حديقتانِ، في واحدةٍ منهما القَصْرُ الذي يقيمونَ فيه، حيث سيعيشونَ معَ أهليهم، أمّا الحديقةُ الثانيةُ فسيكونُ فيها مقرُّ إقامةٍ لضيوفِهم، حيث سيَحتَفُونَ بأصدقائهم وأحبابِهم. كم هي نعمةٌ عظيمةٌ أن تُعطَى في مقابلِ عملٍ من أعمالِك الصّالحة جنَّتَيْنِ، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم الله تعالى ستُكذِّبون إذًا؟

## جنتان لترك الذنوب خوفًا من الله

يقول يحيى بنُ أيوبَ: «سَمِعتُ مَن يَذكُرُ أنه كان زمنَ عُمرَ بن الخَطّاب شابٌّ متعبِّدٌ قد لَزِم المسجدَ، وكان عُمَرُ به مُعجَبًا، وكان له أبٌ شيخٌ كبير، فكان

إذا صَلَّى العَتْمةَ انصَرفَ إلى أبيه، وكان طريقُه على بابِ امرأةٍ فافتتَنَتْ به، فكانت تَنصِبُ نفسَها له على طريقِه، فمَرَّ بها ذاتَ ليلةٍ، فما زالت تُغويه حتى تَبِعَها، فلمَّا أتَى البابَ دَخَلت وذَهَب يَدخُل، فذَكَر اللهَ تعالى، وجَلَّى عنه، ومُثلت هذه الآيةُ على لسانِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فخَرَّ الفتى مَغْشِيًّا عليه، فدَعَتِ المرأةُ جاريةً لها فتعاونَتا عليه فحَمَلتاهُ إلى بابِه، واحتَبَس على أبيه، فخَرَج أبوه يَطلُبُه فإذا به على البابِ مَغْشيًّا عليه، فدعا بعضَ أهلِه فحَملوه فأدخَلوه، فما أفاقَ حتى ذَهَب من اللَّيل ما شاء الله، فقال له أبوه: يا بُنَيَّ، ما لك؟ قال: خير، قال: فإني أسألُك بالله، فأخبَره بالأمر، قال: أيْ بُنَيّ، وأيَّ آيةٍ قرَأْتَ ؟ فقرَأَ الآيةَ التي كان قَرأَ، فخَرَّ مَغْشيًّا عليه، فحرَّكوه فإذا هو ميِّتٌ، فغَسَّلوه فأخرَجوهُ ودَفَنوه ليلًا، فلمَّا أصبحوا رُفِع ذلك إلى عُمرَ رضي اللهُ عنه، فجاء عُمرُ إلى أبيه فعَزَّاه به وقال: هلّا آذنتَني؟ قال: يا أميرَ المؤمنين، كان ليلًا، قال عُمر: فاذهَبوا بنا إلى قبرِه، فأتَى عُمرُ ومَن معَه القبرَ، فقال عُمرُ: يا فلان! ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، فأجابَه الفتى من داخلِ القبر: يا عُمر! قد أعطانيهُما ربِّي في الجنةِ مرّتَيْن»[١].

ويُعلَمُ من هذا أنّ التخَلِّيَ عنِ ارتكابِ الذَّنبِ من خَشْيةِ الله تعالى يكونُ سببًا في الحصولِ على جنَّتَيْنِ، وأنّ الذهابَ إلى بيتِ متَوفٍّ وتعزيةَ أهلِه والذَّهابَ إلى قبرِه من سُنّةِ النبيِّ ﷺ، مثلما ذَهَب النبيُّ ﷺ بنفسِه إلى قبرِ المرأةِ التي كانت تنظِّفُ المسجدَ النَّبويَّ[٢]، ويقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال:

---

(١) كنز العمال، ٢: ٥١٦ برقم ٤٦٣٤.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ امرأة سوداء كانت تقمّ المسجد ـ أو شابًّا ـ ففقدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فسأل عنها ـ أو عنه ـ فقالوا: مات، قال: «أفلا كنتم آذنتموني؟»، قال: فكأنّهم صغّروا أمرها ـ أو أمره ـ فقال: «دلّوني على قبره»، فدلّوه، فصلّى عليها.=

«ما مِن رجُلٍ يزورُ قبرَ حميمِه فيُسلِّمُ عليه ويقعُدُ عندَه إلّا رَدَّ عليه السّلامَ وأَنِس به حتّى يقومَ من عندِه»[1].

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾

٢٨ - في هاتَيْنِ الجنَّتَيْنِ تَسْتعرِضُ أغصانُ الأشجار الخضراءُ اليانعةُ ربيعَها في الأعلى، وفي الأسفلِ تجري عَيْنانِ. يقولُ عطيّةُ: «إحداهما من ماءٍ غيرِ آسِنٍ، والأُخرى من خَمْر لَذّةٍ للشارِبين»[2].

## الفرق بين خمر الدنيا والخمر الطهور

خَمرُ الدُّنيا سيِّءُ الطَّعم، يُذهِبُ العقلَ بمُعاقرتـه، إلى درجةٍ أنّ السَّكرانَ لا يستطيعُ التمييزَ بينَ أهلِه وبينَ مَن هم من غيرِ أهلِه، وفي بعضِ الأحيان يَهْذي بكلام خاطئ يندَمُ عليه دائمًا، بينَما خمرُ الجنّةِ الطَّهورُ منَزَّهٌ عن كلِّ هذه النقائص، وستجري في الجنّةِ عينٌ من هذا الخَمْرِ الطَّهور، ولونُه أبيض، وطعمُه لذيذٌ، وليس لتناوُلِه أثَرٌ سَلبيٌّ على جسم الإنسانِ وعقلِه، وباختصار: فإنّه ليس بينَ خمرِ الدُّنيا الحرام وخمرِ الجنّة الطَّهورِ قَدْرٌ من التشابُه سوى في الاسم فقط.

ويُمكنُكم أن تتصوَّروا كم هي نعمةٌ عظيمةٌ أن يكونَ ربيعُ الأشجار الخضراءِ اليانعةِ في الأعلى، وعيونُ الماءِ والخمرُ الطَّهورُ في الأسفل، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم الله تعالى ستُكذِّبون إذًا؟

---

= مسلم، كتاب الجنائز، باب ٢٣ برقم ٢٢١٥.

(١) كنز العمال، ١٥ : ٦٥٦، برقم ٤٢٦٠١.

(٢) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٥٠.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾

٢٩ ـ يقالُ للقماشِ الداخليِّ للِّحافِ أو الفِراش (المَرْتَبة): بطانةٌ، وهو قماشٌ عادي بشكلٍ عام، أمّا القماشُ الخارجيُّ ـ وهو غطاءُ اللِّحافِ أو الفِراش (المَرْتَبة) ـ فيكونُ عادةً من القماشِ الفاخِر غالي الثمن، وإذا كانت بطائنُ فُرُشِ الجنّةِ من الحريرِ الفاخِر الجيِّد فما بالُك بالغطاءِ الخارجيِّ لها؟ وسيجلسُ أهلُ الجنّةِ على هذه الفُـرُشِ متّكئـينَ عليـها، وتَتَدلَّى مـن الأشجـارِ حولَهم الفواكهُ بنوعَيْها: الطازَجُ والمجَفَّف، وكلَّما أرادوا تناوُلَها تَتَدلَّى هذه الفواكهُ وتقتربُ منهم، وقد أعَدَّ اللهُ تعالى لكم في الجنّةِ الفُرُشَ القيِّمةَ وأنواعَ الفواكه المختلفة الطازَجة والمجَفَّفة، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم الله إذًا ستُكذِّبون؟

﴿فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾

٣٠ ـ سيُنعَمُ على أهل الجنَّة ـ علاوةً على أزواجِهم ـ بالحُورِ العِين، وهنَّ في جمالِ الياقوتِ والمَرْجان، وسيُنعِمُ اللهُ تعالى عليكم في الجنّةِ بهذه الحُورِ العِينِ التي لا يمكنُ أن يتَصوَّرَ أحدٌ في هذه الدُّنيا نساءً في جمالِهنَّ، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم الله ستُكذِّبون؟

## ما الجنة؟

المرادُ بالجنَّة: تلك الحديقةُ الخاصّةُ التي سيَدخُلُها الصَّالحونَ يومَ القيامة، وتجري فيها الأنهارُ، والشَّكلُ الظاهريُّ لفاكهةِ الجنّة وثمارِها يُشبِهُ فواكهَ الدُّنيا وثمارَها، لكنّها تتفوّقُ عليها بمراحلَ في الرائحةِ والطَّعم، وللرِّجال في هذه الجِنان زوجاتٌ طاهراتٌ، وللنِّساءِ فيها أزواجٌ يتميَّزونَ بالحُسنِ والجمال.

## من أي شيء خلقت الجنة؟

يقول: سيّدُنا أبو هريرةُ رضي الله عنه: قلنا: يا رسولَ الله، الجنّةُ ما بناؤها؟ قال: «لِبنةٌ من فضّةٍ ولِبنةٌ من ذهبٍ، ومِلَاطُها المِسكُ الأَذْفَر، وحَصْباؤها اللُّؤلؤُ والياقوت، وتُربتُها الزَّعفَران، مَن يَدخُلُها يَنعُم ولا يَبْأس، ويُخلَّدُ ولا يموت، لا تَبلَى ثيابُهم ولا يفنَى شبابُهم»(١).

## كيف ستكون نعم الجنة؟

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «قال اللهُ عزَّ وجلّ: أعدَدتُ لعبادي الصّالحينَ ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذنٌ سَمِعت، ولا خَطَر على قلبِ بشَر»(٢).

- يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «المؤمنُ إذا اشتَهى الوَلَدَ في الجنّةِ كان حَمْلُه ووَضْعُه وسِنُّه في ساعةٍ كما يشتهي»(٣).

- يَنقُلُ الإمامُ البيهَقيُّ روايةً عن سيّدِنا عبدِ الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّك لَتنظُرُ إلى الطّيرِ في الجنّةِ فتشتهيه، فيخِرُّ بينَ يدَيْكَ مَشْوِيًّا»(٤).

## ما هي أعظم نعمة في الجنة؟

أعظمُ نعمةٍ في الجنّةِ هي رؤيةُ الله تعالى، مثلَما يقولُ سيّدُنا صُهَيبٌ رضي الله عنه، من أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا دَخَل أهلُ الجنّةِ الجنّةَ، قال: يقولُ اللهُ تبارك

---

(١) الترمذي، أبواب الجنة، باب ١ برقم ٢٥٢٦.

(٢) مسلم، كتاب الجنة، باب ١ برقم ١٧٣٢.

(٣) الترمذي، أبواب الجنة، باب ٢٣ برقم ٢٥٦٣.

(٤) التفسير المظهري، سورة حم السجدة (٣٢): الآية ٣٢.

وتعالى: تريدونَ شيئًا أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّضْ وجوهَنا، ألم تُدخِلْنا الجنّةَ وتُنجِّنا من النّار؟ قال: فيَكشِفُ الحِجابَ، فما أُعطوا شيئًا أحبَّ إليهم من النَّظَرِ إلى ربِّهم عزَّ وجَلّ»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن عُمرَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «... وأكرَمُهم على الله مَن ينظُرُ إلى وجهِه غُدوةً وعَشِيّةً»(٢).

## كم تكون الأعمار في الجنة؟

ـ يقولُ سيّدُنا معاذُ بنُ جَبَل رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «يَدخُلُ أهلُ الجنّةِ الجنّةَ جُرْدًا مُرْدًا مُكحَّلينَ أبناءَ ثلاثينَ أو ثلاثٍ وثلاثينَ سنةً»(٣).

## أي لغة ستكون لغة الجنة؟

قال اللهُ تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

ويقولُ المفتي أحمدُ يار خان في تفسيرِ هذه الآية: يُعلَمُ منه أنه لن يكونَ هناك شخصٌ لا يستطيعُ القراءةَ يومَ القيامة، فسوف يقرَأُ الجميعُ، وسيكونُ الجميعُ على معرفةٍ باللُّغة العربيَّة؛ لأنّ صحائفَ الأعمالِ ستكونُ مكتوبةً باللُّغةِ العربيَّة، بل إنّ لغةَ الجميع ستكونُ هي العربيّةَ بمجرَّدِ وفاتِهم؛ لأنّ السُّؤالَ في القبرِ سيكونُ باللُّغة العربيّة، وسيُجيبُ الناسُ باللُّغةِ العربيّةِ أيضًا(٤)، يعني: أنّ لُغةَ الجنّةِ ستكونُ

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٠ برقم ٤٤٩.
(٢) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ١٧ برقم ٢٥٥٣.
(٣) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب رقم ١٢ برقم ٢٥٤٥.
(٤) تفسير نور العرفان.

اللغةَ العربيَّة، مثلَما قال رسولُ الله ﷺ: «أحِبُّوا العربَ لثلاثٍ: لأنّي عربيٌّ، والقرآنُ عربيٌّ، وكلامُ (لسانُ) أهلِ الجنّةِ عربيٌّ»(١).

## الدعاء بالجنة

١ - ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٥].

٢ - دعا النبيُّ ﷺ قائلًا: «اللّهُمَّ إنّي أسألُك الدَّرجاتِ العُلى من الجنّة»(٢).

٣ - يقولُ سيّدُنا عُبادةُ بنُ الصّامتِ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «في الجنّةِ مائةُ درجةٍ، ما بينَ كلِّ درجتَيْنِ كما بيْنَ السّماءِ والأرضِ، والفِردَوْسُ أعلاها درجةً، ومنها تفجَّرُ أنهارُ الجنّةِ الأربعةُ، ومن فوقِها يكونُ العرشُ، فإذا سألتُم اللهَ فسَلُوه الفِردَوس»(٣).

## ما شأن الحور في الجنة؟

الحُورُ: مخلوقاتٌ في الجنّة، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]، وهنَّ طاهراتٌ عفيفاتٌ إلى درجةِ أنه لم يَلمَسْهُنَّ أحدٌ سواءٌ من الإنسِ أو الجنِّ قَبْلَ أزواجِهنَّ في الجنّة؛ لأنهنّ خُلِقْنَ في الجنّة، وليس في الجنةِ تصوُّرٌ للسيِّئةِ أصلًا.

وسوف يُزوَّجُ أهلُ الجنةِ منَ الحُورِ العِين مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ [الدخان: ٥٤]، وأنظارُ الحُور إلى أسفلَ دائمًا، ولا يُحبِبْنَ أن يرَيْنَ أحدًا سوى أزواجِهنّ؛ لأنّ أزواجَهنّ يبدُونَ لهنَّ أجملَ الرجالِ وأحسَنَهم.

---

(١) المستدرك للحاكم، ٤: ٩٨.

(٢) المعجم الكبير للطبراني، ٢٣: ٣١٧ برقم ٧١٧.

(٣) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب رقم ٤ برقم ٢٥٣١.

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مرَرتُ ليلةَ أُسريَ بي في الجنّة بنَهَرٍ حافَتاهُ قِبابُ المَرْجان، فنُوديتُ منه: السّلامُ عليك يا رسولَ الله، فقلتُ: يا جِبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاءِ جَوارٍ من الحُورِ العِين استَأْذَنَّ ربَّهُنّ في أن يُسلِّمْنَ عليك فأذِنَ لهُنّ فقُلنَ: نحن الخالداتُ فلا نموتُ أبدًا، ونحن النّاعماتُ فلا نبؤُسُ أبدًا، ونحن الرّاضياتُ فلا نَسخَطُ أبدًا، أزواجُ رجالٍ كرام»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ المرأةَ من نساءِ أهلِ الجنّة لَيُرى بياضُ ساقِها من وراءِ سبعينَ حُلّةً، حتّى يُرى مُخُّها، وذلك بأنّ اللهَ يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾، فأمّا الياقوتُ فإنّه حجرٌ لو أدخلتَ فيه سلكًا ثمّ استصفَيْتَه لَأُرِيتَه من ورائه»(٢).

ـ يقولُ زيدُ بنُ أَسْلَم: «إنّ اللهَ تبارك وتعالى لا يَخلُقُ الحُورَ العِينَ من تراب، إنّما خَلَقَهنَّ من مسكٍ وكافورٍ وزَعفَران»(٣).

ـ الحُورُ خُلِقْنَ في الجنة، مثلَما يقولُ الإمامُ جلالُ الدِّين السُّيوطي: «خَلَقَهمُ اللهُ في الجنّةِ كما خَلَق الحُورَ العِينَ، لا يموتونَ ولا يَشِيبُونَ ولا يهرَمُون»(٤).

والحُورُ العِينُ موجوداتٌ اليومَ أيضًا في الجنّة، مثلَما يقولُ سيّدُنا معاذُ بنُ جَبَل رضي الله عنه، من أنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تؤْذي امرأةٌ زوجَها في الدُّنيا إلّا قالت زوجتُه من الحُورِ العِين: لا تؤْذيه قاتَلَكِ الله، فإنّما هو عندَكِ دخيلٌ يوشِكُ أن يُفارقَكِ إلينا»(٥).

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٧٢.
(٢) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ٥ برقم ٢٥٣٣.
(٣) التفسير المظهري، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٧٢.
(٤) تفسير الدر المنثور، سورة الواقعة (٥٩): ٨: ٤١.
(٥) الترمذي، أبواب الرضاع، باب ١٩ برقم ١١٧٤.

## ما شأن النساء في الجنة؟

- يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لَرَوْحةٌ في سَبيل الله أو غَدْوةٌ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، ولَقابُ قوسِ أحدِكم من الجنّةِ أو موضعُ قَيْدٍ - يعني: سَوْطَه - خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، ولو أنّ امرأةً من أهلِ الجنّة اطَّلعتْ إلى أهل الأرض لَأضاءت ما بينَهما ولَملأتْه ريحًا، ولَنَصيفُها على رأسِها خيرٌ من الدُّنيا وما فيها»[1].

- عن أُمِّ سَلَمةَ رضي اللهُ عنها، قالت: قلتُ: يا رسولَ الله، أَنِساءُ الدُّنيا أفضَلُ أم الحُورُ العِين؟ قال: «بل نساءُ الدُّنيا أفضَلُ من الحُورِ العِين كفَضْلِ الظِّهارةِ (الغطاءِ الخارجيِّ للفراش) على البِطانة (القماش الداخليِّ للفراش)». قلت: يا رسولَ الله، وبِمَ ذاك؟ قال: «بِصَلاتِهِنَّ وصيامِهِنَّ وعبادتِهِنَّ اللهَ أَلْبَسَ اللهُ وجوهَهنّ النُّورَ وأجسادَهنَّ الحريرَ، بِيضَ الألوانِ خُضْرَ الثّياب، صُفْرَ الحُلِيّ، مَجامِرُهنّ الدُّرُّ وأمشاطُهنُّ الذّهبُ، يَقُلْنَ: ألا نحن الخالداتُ فلا نموتُ أبدًا، ألا ونحن النّاعماتُ فلا نَبؤُسُ أبدًا، ألا ونحن المُقيماتُ فلا نَظْعَنُ أبدًا، ألا ونحن الرّاضياتُ فلا نَسخَطُ أبدًا، طوبى لمن كُنّا له وكان لنا»[2].

## ما الذي سيحظى به الرجال في الجنة؟

سيحظَى الرِّجالُ في الـجنّةِ بالحُـور العِيـن إضـافةً إلى زوجـاتِهم، وجنسُ الحُورِ مختلفٌ عن جنسِ الإنسان، ولا يجوزُ في هذه الدُّنيا نِكاحُ الإنسانِ من غيرِ جنسِه، يعني: من الملائكةِ والجنِّ والحيَوان، ولكنْ سيكونُ من الممكنِ في الجنّةِ زواجُ الإنسانِ من الحُورِ العِين.

---

(١) البخاري، كتاب الجهاد، باب ٦ برقم ٢٧٩٦.

(٢) المعجم الكبير، ٢٣: ٣٦٨، والأوسط، ٣: ٢٧٩.

## ما الذي ستحظى به النساء في الجنة؟

أَوْدع اللهُ تعالى داخلَ المرأةِ حُسنًا وجمالًا، والجمالُ يقتضي أن يكونَ هناك مَن يُحبُّه ويعشَقُه، ولهذا فإنّ أعظَم أُمنيةٍ لدى أيِّ امرأةٍ أن يتيسَّرَ لها زوجٌ مُحِبٌّ لها، وسيكونُ زوجُ كلِّ امرأةٍ في الجنّةِ على قَدْرٍ كبير من الحُسنِ والجمال بحيث يَسعَدُ قلبُها حين تراه؛ لأنّ هذا الزوجَ يكونُ بمثابةِ انعكاسٍ كامل لأمانيها، وتحقيقٍ كامل لأحلامِها، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]، ولهذا فإنه مثلَما سيكونُ كلُّ رجُلٍ في الجنةِ تجسيدًا كاملًا لما تريدُه زوجتُه، كذلك ستكونُ كلُّ امرأةٍ تحقيقًا لأحلام زوجِها، وسيُحبُّ كلٌّ منهما الآخَرَ من قلبِه.

سيكونُ في الجنّةِ حُورٌ وغِلمانٌ أيضًا، وسيكونُ هؤلاءِ بمثابةِ الراحةِ الإضافيّةِ للزَّوجَيْنِ، ولكنّ الحُورَ والغِلمانَ ليسا من جنسِ البشَر، وإنما سيَخلُقُهما اللهُ تعالى من رائحةِ الجنة، وسيكونُ كلُّ همِّهما خِدمةَ الأزواج في الجنة، أمّا الحُورُ ففي عمُرِ الشباب، وسيُزوَّجْنَ من الرجال، حتى لا يحدُثَ اختلاطٌ للرِّجال من غيرِ المحارِم من النِّساء، بينَما الغِلمانُ في عمُرِ الصِّبا، حتى لا تختلطَ النِّساءُ معَ غيرِ المحارِم من البالِغين.

سيكونُ لكلِّ إنسانٍ في الجنةِ ـ بالإضافةِ إلى الأنبياءِ والمقرَّبين ـ زوجةٌ واحدة من الجنسِ الإنسانيِّ، ولا تستطيعُ الحُورُ أن يَبلُغْنَ من المحبّةِ والرَّغبة في قلبِ الرجال مثلَ ما للزَّوجاتِ من بني الإنسانِ في قلوبِ أزواجِهنَّ، مثلَما يقولُ النبيُّ ﷺ: «بل نساءُ الدّنيا أفضَلُ من الحُورِ العِين كفَضْل الظِّهارةِ على البطانة». قلتُ: يا رسولَ الله، وبمَ ذاك؟ قال: «بِصَلاتِهِنَّ وصيامِهِنَّ وعبادتِهِنَّ اللهَ، ألبَسَ اللهُ وجوهَهنّ النُّورَ وأجسادَهنّ الحرير، بِيضَ الألوان خُضْرَ الثّياب صُفْرَ الحُليِّ، مَجامِرُهنَّ الدُّرُّ

وأمشاطُهنَّ الذّهبُ، يَقُلْنَ: ألا نحن الخالداتُ فلا نموتُ أبدًا، ألا ونحن النّاعماتُ فلا نَبؤُسُ أبدًا، ألا ونحن المقيماتُ فلا نظعَنُ أبدًا، ألا ونحن الرّاضِياتُ فلا نَسخَطُ أبدًا، طُوبى لمن كنّا له وكان لنا»[1]. في هذه الدُّنيا إذا لم يستطع الرَّجُلُ أن يصبرَ على زوجتِه في أيام الحَيْض والنِّفاس، أو إذا لم تَعُدْ زوجتُه قادرةً على أداءِ حقوقِه الزَّوجيّة لمرضٍ أو حادثٍ أصابَها، فقد يحتاجُ الرجلُ في مِثل هذه الحالاتِ إلى زوجةٍ ثانية، ولكنّ النِّساءَ في الجنّةِ لن تَحدُثَ لهُنَّ مِثلُ هذه الأمور، ولهذا سيكونُ كلُّ رجلٍ سعيدًا مستريحًا معَ زوجتِه دائمًا.

المرأةُ التي دَخَل زوجُها في الدُّنيا الجنةَ، سيكونُ زوجًا لها في الجنّةِ أيضًا، معَ محبّةٍ ورغبةٍ جديدتَيْنِ تمامًا، وسيكونُ هذا الزَّوجُ مطهَّرًا من كلِّ العيوبِ التي كانت موجودةً في طباعِه وسلوكِه، إمّا إذا لم يستطعْ زوجُ امرأةٍ في الدُّنيا أن يَدخُلَ الجنةَ لظُلم ارتكَبَه، أو أنّ المرأةَ ماتت بغيرِ زواج، فستتزوَّجُ من شابٍّ في الجنّةِ كان قد مات بغيرِ زواج في الدُّنيا، وسوف تُحبُّه هذه المرأةُ من قلبِها. وبنفسِ الطريقة، فإنّ الأطفالَ من الذُّكورِ والإناثِ ـ الذين ماتوا صِغارًا في الدُّنيا ـ سيُبعَثُونَ في الجنّةِ شبابًا، وسيتزوَّجُونَ فيما بينَهم.

أمّا المرأةُ التي تزوَّجت في الدُّنيا بأكثرَ من رجُل، وطلَّقَها أزواجُها جميعًا، ولم تكنْ متزوِّجةً من أحدٍ عندَ وفاتِها، فسيكونُ لها الخِيَارُ في الجنّةِ بأن تختارَ من بيْنِ أزواجِها مَن كان في الدُّنيا أحسَنَهم أخلاقًا، «أمّا المرأةُ التي تزوَّجتْ أكثرَ من مرةٍ في الدُّنيا، وطُلِّقت من كلِّ مَن تزوَّجَتْهم، فإنْ ماتت ولم تكنْ في عصمةِ رجُل، خُيِّرت يومَ القيامة لتكونَ زوجةً لمَن كان أحسَنَ أزواجِها في الدُّنيا أخلاقًا؛ لأنّ الفلاحَ في الدُّنيا والآخرة مرتبطٌ بالأخلاقِ الحسَنة. عن أُمِّ سَلَمةَ رضي الله

---

(١) المعجم الكبير، ٢٣: ٣٦٨.

عنها، قالت: قلتُ: يا رسولَ الله، المرأةُ منّا تتزوَّجُ زوجَيْنِ والثّلاثةَ والأربعةَ، ثمّ تموتُ فتَدخُلُ الجنّةَ ويدخُلونَ معَها، من يكونُ زوجَها؟ قال: يا أُمَّ سَلَمة، إنّها تُخيَّرُ فتختارُ أحسَنَهم خُلُقًا، فتقول: أي ربِّ، إنّ هذا كان أحسَنَهم معي خُلُقًا في دارِ الدُّنيا، فزوِّجْنيهُ. يا أُمَّ سَلَمة، ذَهَب حُسنُ الخُلُقِ بخيرِ الدُّنيا والآخِرة[١]. لكنّ المرأةَ التي تزوَّجت أكثرَ من مرةٍ ولم يُطلِّقْها آخِرُ أزواجِها، وماتت وهي في عصمتِه، فستكونُ في الآخِرةِ زوجةً له»[٢].

وباختصار: فإنّ الزَّوجَيْنِ يكونانِ شبابًا في الجنّة، وستَصدُرُ من عرَقِهما رائحةٌ كرائحةِ المِسك، وسيحبُّ كلٌّ منهما الآخَرَ غايةَ المحبّة، وسيكونُ كلٌّ منهما سعيدًا معَ الآخَرِ غايةَ السعادة.

## ما المراد بالغلمان في الجنة؟

سيُعطَى أهلُ الجنّةِ خَدَمًا من صِغارِ السنِّ أيضًا، يَطُوفونَ حولَهم لخِدمتِهم، وهؤلاءِ في جَمالِ اللُّؤلؤِ الذي حُفِظ بعيدًا عن الغُبارِ والتراب.

ـ يقولُ الإمامُ البَغَويُّ: إنّ سيّدَنا عبدَ الله بنَ عَمْرٍو رضي الله عنهما قال: «وما من أحدٍ من أهل الجنّة إلّا يَسعَى عليه ألفُ غلامٍ، وكلُّ غلامٍ على عملٍ ما عليه صاحبُه»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا قَتادةُ رضي الله عنه: ذُكِر لنا أنّ رجلًا قال: يا نبيَّ الله، هذا الخادمُ فكيف المخدوم؟ قال: «فَضْلُ المخدوم على الخادم كفَضْل القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكب»[٤].

---

(١) المعجم الكبير، ٢٣: ٣٦٨.

(٢) تبيان القرآن، ١: ٣٣٨.

(٣) تفسير البغوي، سورة الطور (٥٢): الآية ٢٤.

(٤) تفسير معالم التنزيل، سورة الطور (٥٢): الآية ٢٤.

- يقولُ الإمامُ جلالُ الدِّين السُّيوطي: «خَلَقَهم اللهُ في الجنّة كما خَلَق الحُورَ العِينَ، لا يموتونَ ولا يَشِيبونَ ولا يهرَمون»[1].

وهناك قولٌ آخرُ فيما يتعلَّقُ بالغِلمانِ أيضًا، فَحْواه: أنّ هؤلاءِ هم أطفالُ المشركينَ الذين ماتوا قبلَ سنِّ البلوغ، مثلَما قال سيّدُنا سَلْمانُ الفارسيُّ رضي الله عنه: «أطفالُ المشركينَ هم خَدَمُ أهلِ الجنّة»[2].

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾

**٣١** - الشَّخصُ الذي يخشَى اللهَ تعالى ولا يعصيه سيكونُ جزاؤه أنْ يُدخِلَه اللهُ تعالى الجنّةَ، وأن يُنعِمَ عليه بمختلفِ أنواع النِّعم، أليس هذا فضلًا من الله وإحسانًا بأن يبشِّرَك بالجنّةِ جزاءً على حسَناتِك، حتى تستزيدَ من الحسَناتِ وعمَل الصّالحات؟ فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم الله تعالى ستُكذِّبون؟

- يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنه: إنّ النّبيَّ ﷺ قرأَ ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ ثمّ قال: «هل تَدرُونَ ماذا قال ربُّكم؟»، قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: يقول: ما جزاءُ مَن أنعَمْتُ عليه بالتّوحيد إلّا الجنّة»[3].

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: كان النّبيُّ ﷺ بارزًا يومًا للنّاس، فأتاهُ جِبريلُ فقال: ما الإيمانُ؟ قال: «الإيمانُ أن تؤمنَ بالله وملائكتِه وبلقائه (أي: في الآخِرة) ورسُلِه، وتؤمنَ بالبعث». قال: ما الإسلام؟ قال: «الإسلامُ أن تعبُدَ اللهَ ولا تُشرِكَ به، وتقيمَ الصّلاةَ، وتؤدِّيَ الزّكاةَ المفروضة، وتَصُومَ رمضانَ». قال: ما

---

(١) تفسير الدر المنثور، سورة الواقعة (٥٦)، ٨: ٤١.
(٢) تفسير القرطبي، سورة الواقعة (٥٦): الآية ١٧.
(٣) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٦٠.

الإحسان؟ قال: «أن تعبُدَ اللهَ كأنّك تراه، فإنْ لم تكنْ تراهُ (فتيقَّنْ) فإنّه يرَاكَ»[1].

جاء في هذا الحديثِ تعليمُ الإيمانِ أولًا ـ يعني: التّصديقَ من القلبِ بالعقائدِ التي أخبرَنا بها اللهُ تعالى ـ ثم جاء تعليمُ الإسلام ـ يعني: العمَلَ بأحكام الله تعالى التي أَنْزلَها ـ ثم جاء تعليمُ الإحسان، يعني: أن تَجعَلَ هذه العقائدَ والأعمالَ جُزءًا لا يتجزَّأُ من حياتِك، بحيث يَغلِبُ عليك دائمًا تصوُّرُ الله تعالى، وتشعُرُ وكأنّه أمامَك، ولكنْ لأنّ تصوُّرَ الذاتِ العَلِيّة ليس أمرًا سهلًا، وهي الذاتُ التي ليس كمِثلِها شيءٌ، لهذا ينبغي ـ على الأقل ـ أن يكونَ عندَك تصوُّرٌ بأنّ اللهَ تعالى يراك، وأنه يراقبُ كلَّ أحوالِك دائمًا.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾

٣٢ ـ الجَنّتانِ اللّتانِ ذُكِرتا في الآياتِ السابقة كانتا للمتَّقينَ والعبادِ المقرَّبين، أمّا الجَنّتانِ اللَّتانِ وَرَد ذِكرُهما في هذه الآية فهما أقلُّ من الأُوليَيْنِ درجةً، وستكونانِ لعامّةِ المؤمنين، ورَغْمَ أنّ هاتَيْنِ الجنَّـتَيْنِ أقلُّ درجةً من سابقتَيْهما، لكنّهما معَ ذلك جَنّتانِ، يعني: ستكونُ الرَّفاهيَةُ والراحةُ فيهما بما لا يستطيعُ عقلٌ أن يتصوَّرَه، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم الله تعالى ستُكذِّبون؟

يقولُ ابنُ زَيْد: «ومِن دونِهما في الفَضْل... إنّ الأُوليَيْنِ من ذهبٍ للمقرَّبين، والأُخْريَيْنِ من وَرِقٍ لأصحابِ اليمين»[2]. والمرادُ بأصحابِ اليمين: أهلُ الجنة الذين سيأخُذونَ صُحُفَ أعمالِهم بأَيْمانِهم، وسيَدخُلونَ الجنّةَ بعدَ الحساب، لكنّ درجاتِهم

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب ٣٨ برقم ٥٠.
(٢) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٦٢.

أقلُّ من درجاتِ السابقينَ والمقرَّبين؛ لأنّ هؤلاءِ يَدخُلونَ الجنةَ بغيرِ حساب.

﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾

٣٣ ـ هاتانِ الجَنّتانِ في غايةِ الاخضرارِ واليُنوعة، تفُورُ المياهُ من العيونِ فيهما، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم الله تعالى ستُكذِّبون؟

﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾

٣٤ ـ سيكونُ في هاتَيْنِ الجنَّتَيْنِ الحُورُ الجميلاتُ صورةً وسيرةً، محتَجِباتٌ في خِيام من اللُّؤلؤ، لم تَمسَّهُنَّ أبدًا يدُ إنسٍ أو جنٍّ من قبلُ، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم الله ستُكذِّبونَ بعدَ هذه الحُورِ العِين الجميلات؟

يقولُ سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه: «الخَيْمةُ دُرّةٌ مُجوَّفةٌ»(١)، وكما أنّ الأغنياءَ في أيامِنا هذه يَخرُجونَ من بيوتِهم لقضاء يوم في المتنَزَّهاتِ والبيوتِ المتحرِّكة (الكَرَفانات)، فربَّما ستكونُ في الجنةِ خِيامٌ من اللُّؤلؤِ أيضًا، بحيث تكونُ الحُورُ العِينُ منتظِراتٍ لأهلِ الجنّةِ في هذه الخِيام عندَما يَخرُجونَ للتَّـنَـزُّهِ.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾

٣٥ ـ السُّرُرُ الجميلةُ الفريدةُ التي سيَجلسُ أهلُ الجنّةِ متَّكئينَ عليها، سيكونُ مفروشًا تحتَها سجّادٌ أحمر، وقد ذَكَرتِ الآياتُ السابقةُ عددًا من أوجُهِ التعظيم والتكريم الذي سيَلقاهُ أهلُ الإيمانِ في الآخِرة، فهل يُمكنُكم إنكارُ نِعَم اللهِ هذه؟

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٧٢.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾

**٣٦** ـ اسمُ الله تعالى اسمُ الخيرِ والبَركة، ومَن يُردِّدُ ذِكرَ اسمِه على لسانِه ويجعَلُه وِرْدًا له، يكونُ مستحِقًّا للخيراتِ والبركات، ومَن كان اسمُه مباركًا بهذا الشكل، فكم تكونُ ذاتُه مباركةً؟

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعة الكرَم، إنجلترا**
**بعد ظهر يوم الاثنين ٦ سبتمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٦ رمضان ١٤٣١هـ**

**هذا وقدِ اكتَملَ تفسيرُ سُورة «الرَّحمن» بفَضْل الله تعالى وكرَمِه في خمسةِ أيام فقط، أي: من الأول حتى السادس من سبتمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.**

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

# (٥٦) سُورَةُ الوَاقِعَةِ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها: «الواقعة»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

## مضامين السورة

كان كفّارُ مكّةَ منكِرينَ للآخِرة والتوحيدِ والقرآنِ بشكلٍ أساسيّ، ولهذا جاء التركيزُ في هذه السُّورةِ على المضامينِ الثلاثةِ التي تُركِّزُ عليها السُّورُ المكِّيةُ عمومًا.

## الآخرة

في الجزءِ الأوّل من هذه السُّورةِ جاء ذِكرُ قيام الساعة، يعني: أنّ هناك الكثيرَ من الناس اليومَ يُنكرونَ القيامةَ، ولكنْ حين تقومُ الساعةُ لن يكونَ هناك مَن يُنكرُها أو يُكذِّبُ بها؛ لأنّ الأرضَ حينَذاكَ ترتعدُ وتَتزلزَلُ، وتتناثَرُ الجبالُ وتتفتَّتُ كأنّها الحَصى.

سيجتمعُ الأوَّلونَ والآخِرونَ يومَ القيامة في ميدانِ الحشر، وسيتمُّ تقسيمُهم إلى ثلاثِ مجموعات:

١ ـ المجموعةُ الأُولى هي: مجموعةُ أصحابِ اليمين، وهم الذين ستكونُ صُحُفُ أعمالِهم في أيديهم اليُمنى، وسيَدخُلونَ الجنةَ بعدَ الحساب.

٢ ـ المجموعةُ الثانيةُ هي: مجموعةُ أصحابِ الشِّمال، وستكونُ صُحُفُ أعمالِهم في أيديهم الشِّمال، وسيَدخُلونَ جهنَّم.

٣ ـ المجموعةُ الثالثة هي: مجموعةُ السابقينَ الأوَّلِين، وهم: الذين كانوا يَسبِقون إلى الأعمالِ الصّالحة، وهؤلاءِ سيَدخُلونَ الجنةَ بغيرِ حساب، كما أنّهم سيَشفَعُونَ لغيرِهم.

## التوحيد

في الجزءِ الثاني من هذه السُّورة جاء بيانٌ لدلائلِ التوحيد، يعني: ألم تتفكَّروا أبدًا مَنِ الذي خَلَقَكم؟ فأنتم لستُم الذين خَلَقوا أنفُسَهم، وإنّما خَلَقَكم اللهُ تعالى، وهو الذي حدَّد وقتَ موتِكم، وهو الذي يُنزِلُ الماءَ العَذْبَ من السماء، وهو الذي يُنبِتُ لكم الزَّرعَ والمحاصيلَ لرِزقِكم، فكيف إذًا تُنكرونَ وجودَه؟

## القرآن

في الجزءِ الثالثِ من هذه السُّورةِ جاء ذِكرُ القرآنِ الكريم، وقد أَقْسم اللهُ تعالى مؤكِّدًا على أنّ القرآنَ الكريمَ كلامٌ كريم، وليس كلامَ بشَر، وإنّما أَنْزلَه اللهُ تعالى، ولا يمَسُّه إلا المُطَهَّرون.

## الموت

في الجزءِ الرابع والأخيرِ من هذه السُّورةِ جاء التنبيهُ على الإنسانِ بأنه حين يأتي مَلَكُ الموتِ لن يستطيعَ أحدٌ أن يَمنَعَه، وكما أنّكم لا تستطيعونَ مَنْعَ الموت، كذلك لا تستطيعونَ مَنْعَ وقوعِ القيامة ولا الحسابِ والعقاب.

## فضل سورة الواقعة

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقولُ:

«من قَرأَ سُورةَ الواقعة في كلِّ ليلةٍ، لم تُصِبْه فاقةٌ أبدًا»[١].

- يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «سورةُ الواقعة سُورةُ الغِنَى، فاقرَأُوها وعَلِّموها أولادَكم»[٢].

- يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنهُ أيضًا: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «علِّموا نساءكم سُورةَ الواقعة، فإنّها سُورةُ الغِنى»[٣].

- يقولُ سيّدُنا أبو ظَبْيَة رضي الله عنه: مرِضَ عبدُ الله مرضَه الّذي تُوفِّي فيه، فعاده عثمانُ بنُ عفّان

فقال: ما تشتكي؟

قال: ذنوبي.

قال: فما تشتهي؟

قال: رحمةَ ربّي.

قال: ألا آمُرُ لك بطبيبٍ؟

قال: الطَّبيبُ أمْرَضَنِي؟

قال: ألا آمُرُ لك بعَطاءٍ؟

قال: لا حاجةَ لي فيه.

قال: يكونُ لبناتِك مِن بعدِك؟

---

(١) تفسير ابن كثير، تعارف سورة الواقعة (٥٦).

(٢) تفسير الدر المنثور، تعارف سورة الواقعة (٥٦).

(٣) المرجع السابق، تعارف سورة الواقعة (٥٦).

«من قَرأَ سُورةَ الواقعة في كلِّ ليلةٍ، لم تُصِبْه فاقةٌ أبدًا»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «سورةُ الواقعة سُورةُ الغِنَى، فاقرَأُوها وعَلِّموها أولادَكم»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنهُ أيضًا: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «علِّموا نساءكم سُورةَ الواقعة، فإنّها سُورةُ الغِنى»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو ظَبْيَة رضي الله عنه: مرِضَ عبدُ الله مرضَه الّذي تُوفِّي فيه، فعاده عثمانُ بنُ عفّان

فقال: ما تشتكي؟

قال: ذنوبي.

قال: فما تشتهي؟

قال: رحمةَ ربّي.

قال: ألا آمُرُ لك بطبيبٍ؟

قال: الطَّبيبُ أمْرَضَنِي؟

قال: ألا آمُرُ لك بعَطاءٍ؟

قال: لا حاجةَ لي فيه.

قال: يكونُ لبناتِك مِن بعدِك؟

---

(١) تفسير ابن كثير، تعارف سورة الواقعة (٥٦).
(٢) تفسير الدر المنثور، تعارف سورة الواقعة (٥٦).
(٣) المرجع السابق، تعارف سورة الواقعة (٥٦).

قال: أتخشى على بناتي الفَقر؟ إنّي أمَرْتُ بناتي يَقْرَأْنَ كلَّ ليلةٍ سُورةَ الواقعة، إنّي سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن قَرأَ سُورةَ الواقعة كلَّ ليلةٍ، لم تُصِبْه فاقةٌ أبدًا»[١].

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعة الكرَم، إنجلترا**

**بعد صلاة العشاء من ليلة القَدْر يوم الاثنين ٦ سبتمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٦ رمضان ١٤٣١هـ.**

* * *

(١) تفسير ابن كثير، تعارف سورة الواقعة (٥٦).

# سُورَةُ الوَاقِعَةِ (٥٦)،

## مكية (٤٦)، آياتها (٩٦)، ركوعاتها (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾

١ ـ يقولُ الإمامُ ابنُ كثيرٍ: «الواقعةُ من أسماءِ يوم القيامة، سُمِّيت بذلك لتحقُّقِ كونِها ووجودِها»(١).

(١) تفسير ابن كثير، سورة الواقعة (٥٦): الآية ١.

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾

٢ ـ حين تقومُ السّاعةُ سيُشاهدُها الجميعُ، ولن يستطيعَ أحدٌ أن يُكذِّبَها.

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾

٣ ـ حين تقومُ السّاعةُ ستَنزاحُ الحُجُبُ الظاهرةُ والمزيَّفة، وستَظهَرُ الأحوالُ الباطنيةُ والأَصْليّة، وسيكونُ نتيجةَ ذلك أنْ يَلقَى المخطئونَ الذُّلَّ والخِزْيَ في مستنقَع أفعالِهم القبيحة، بينَما سيكونُ الصّالحونَ مرفوعي الرأس يَنعُمونَ بنِعَم الله تعالى، مثلَما يقولُ سيّدُنا عُمرُ الفاروقُ رضي الله عنه: «خَفَضتِ (القيامةُ) أعداءَ الله فى النار، ورَفَعت أولياءَ الله في الجنة»[١].

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾

٤ ـ حينَ تقومُ السّاعةُ ستَرتعدُ الأرضُ وتتزَلزَلُ بحيث ينهدمُ كلُّ ما فوقَها من مَبانٍ وتُسَوَّى بالأرض، وتتناثَرُ الجبالُ وتتفتَّتُ وتتطايَرُ في الفضاءِ كذَرّاتِ التراب.

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴾

٥ ـ يومَ القيامة سيتمُّ تقسيمُكم جميعًا، يعني: بني الإنسانِ جميعًا، إلى ثلاثِ مجموعات:

١ ـ المجموعةُ الأُولى هي: مجموعةُ أصحابِ اليمين، وهم: الذين ستكونُ صُحُفُ أعمالِهم في أيديهم اليُمنى، وسيَدخُلونَ الجنةَ بعدَ الحساب.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الواقعة (٥٦): الآية ٣.

٢ ـ المجموعةُ الثانيةُ هي: مجموعةُ أصحابِ الشِّمال، وستكونُ صُحُفُ أعمالِهم في أيديهم الشِّمال، وسيَدخُلونَ جهنَّم.

٣ ـ المجموعةُ الثالثةُ هي: مجموعةُ السّابقينَ الأوَّلِين، وهم: الذين كانوا يَسبِقونَ إلى الأعمالِ الصّالحة، وهؤلاءِ سيَدخُلونَ أعلى درجاتِ الجنّةِ بغيرِ حساب، وهؤلاءِ هم السُّعَداءُ الذين سيُنعِمُ اللهُ عليهم بقُربٍ خاصٍّ منه.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

٦ ـ أُمةُ النبيِّ ﷺ أفضَلُ الأُمم، وسيكونُ عدَدُ الداخلينَ في الجنّةِ من أُمةِ النبيِّ الكريم ﷺ هو الأكبرَ قياسًا بالأُمم الأخرى، ولهذا فإنّ المرادَ بجماعةِ السابِقينَ الكبيرة هم: السّابقونَ من أُمةِ النبيِّ الكريم ﷺ، مثلَما جاء في الحديثِ الذي نَقَله سيّد محمود الآلوسيُّ، عن سيّدِنا أبي بَكْرةَ رضي الله عنه، من أنّ النبيَّ ﷺ قال فيما يتعلَّقُ بهذه الآية: «هما جميعًا من هذه الأُمّة»[١]، كما أنّ الحافظَ ابنَ كثير أيضًا رَجَّح هذا الأمرَ، يعني: «أن يكونَ المرادُ بقولِه تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: من صَدْر هذه الأُمة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: من هذه الأُمة»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا عِمرانُ بن الحُصَيْن رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «خيرُ أُمّتي قَرْني (يعني: عهدَ الصَّحابةِ رضي الله عنهم)، ثمّ الّذين يَلُونَهم (يعني: عهدَ التابعينَ رضي الله عنهم)، ثمّ الّذين يَلُونَهم (يعني: عهدَ تابعي التابعينَ رضي الله عنهم) ـ قال عِمرانُ: فلا أدري أَذَكَر بعدَ قرنِه قرنَيْنِ أو ثلاثًا ـ ثمّ إنّ بعدَكم قومًا يَشهَدون ولا يُستَشهَدون، ويَخُونُونَ ولا يؤتَمَنون، ويَنذِرون ولا يَفُون، ويَظهَرُ فيهم

(١) تفسير روح المعاني.
(٢) تفسير ابن كثير.

السِّمَن»[١]، يعني: لا يُفرِّقونَ في جَمْع المالِ والثروةِ بينَ الحلالِ والحرام، ولكنْ إذا كان هناك أحدٌ بَدِيْنًا بطبيعةِ خَلْقِه فذلك ليس مذمومًا.

ويُعلَمُ منه أنّ الصَّحابةَ الكرامَ رضي الله عنهم هم أولئك السُّعَداءُ الذين تَضُمُّهم مجموعةُ السّابقين، واليومَ إن أساءَ أحدٌ إلى جَنابِهم فعليه إذًا أن يُعيدَ النَّظرَ في إيمانِه.

## فضائل الصحابة الكرام رضي الله عنهم

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بن عبد الله: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تمَسُّ النّارُ مسلمًا رآني أو رأى مَن رآني»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا رأيتُم الّذين يَسُبُّونَ أصحابي فقولوا: لعنةُ الله على شرِّكم»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ الخُدْريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أنّ أحَدكم أنْفقَ مِثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بَلَغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه»[٤].

ـ يَروي سيّدُنا عبدُ الله بنُ بُرَيْدةَ رضي الله عنه، عن والدِه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما من أحَدٍ من أصحابي يموتُ بأرضٍ إلّا بُعِث قائدًا ونُورًا لهم يومَ القيامة»[٥].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مُغفَّل رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «اللهَ اللهَ

(١) البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب ١ برقم ٣٦٥٠.
(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٦ برقم ٣٨٥٨.
(٣) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٩ برقم ٣٨٦٦.
(٤) البخاري، فضائل الأصحاب، باب ٥ برقم ٣٦٧٣.
(٥) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٨ برقم ٣٨٦٥.

في أصحابي، اللهَ اللهَ في أصحابي، لا تتَّخِذوهم غَرَضًا بعدي، فمَن أحبَّهم فبِحُبّي أحبَّهم، ومَن أبغَضَهم فبِبُغْضي أبغَضَهم، ومَن آذاهم فقد آذاني، ومَن آذاني فقد آذَى اللهَ، ومن آذَى اللهَ فيوشكُ أن يأخُذَه»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا الحُسَين بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الإسلامُ عُريانٌ، فلِباسُه الحياءُ، وزينتُه الوفاء، ومُروءتُه العمَلُ الصّالحُ، وعِمادُه الوَرَع؛ ولكلِّ شيءٍ أساسٌ، وأساسُ الإسلام حُبُّ أصحابِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه وسلّم، وحُبُّ أهلِ بيتِه»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «...وإنّ بني إسرائيلَ تفرَّقت على ثِنتَيْنِ وسبعينَ مِلّةً، وتفترقُ أُمّتي على ثلاثٍ وسبعينَ مِلّةً، كلُّهم في النّار إلّا ملّةً واحدةً»، قالوا: ومن هي يا رسولَ الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[٣].

ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ «عن (المحدِّث المشهور) عُمرَ بن حَبيبٍ، قال: حضَرتُ مجلسَ هارونَ الرّشيد، فجَرَتْ مسألةٌ تنازَعَها الحضورُ وعَلَت أصواتُهم، فاحتَجَّ بعضُهم بحديثٍ يرويه أبو هريرةَ عن رسولِ الله ﷺ، فدَفَعَ بعضُهم الحديثَ، وزادتِ المدافعةُ والخِصام، حتّى قال قائلونَ منهم: لا يُقبَلُ هذا الحديثُ على رسول الله ﷺ؛ لأنّ أبا هريرةَ متّهمٌ فيما يَرويه، وصَرَّحوا بتكذيبِه، ورأيتُ الرّشيدَ قد نَحَانحوَهم ونَصَر قولَهم، فقلتُ أنا: الحديثُ صحيحٌ عن رسولِ الله ﷺ، وأبو هريرةَ صحيحُ النَّقْل صَدُوقٌ فيما يَرويه عن النّبيِّ ﷺ وغيرِه، فنَظَرَ إليَّ الرّشيدُ نظَرَ مُغضَبٍ، وقُمتُ من المجلسِ فانصَرفتُ إلى منزلي، فلم ألبَثْ حتّى قيل: صاحبُ

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٨ برقم ٣٨٦٢.

(٢) كنز العمال، ١١: ٥٣٩ برقم ٣٢٥٢٣.

(٣) الترمذي، أبواب الإيمان، باب ١٨ برقم ٢٦٤١.

البريدِ بالباب، فدَخَل فقال لي: أجِبْ أميرَ المؤمنين إجابةَ مقتولٍ، وتَحنَّطْ وتكفَّنْ! فقلتُ: اللهُمَّ إنّك تَعلَمُ أنّي دَفَعتُ عن صاحبِ نبيِّك، وأَجْلَلْتُ نبيَّك أن يُطعَنَ على أصحابِه، فسَلِّمْني منه. فأُدخلتُ على الرّشيدِ وهو جالسٌ على كرسيٍّ من ذهبٍ، حاسرٌ عن ذراعَيْه، بيدِه السَّيفُ وبيْنَ يدَيْه النِّطْع، فلمّا بَصُرَ بي قال لي: يا عُمرُ بنَ حَبيبٍ، ما تَلقَّاني] أحدٌ [من الرّدِّ والدَّفْع] لقولي بمِثل [ما تلقَّيْتَني به، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، إنّ الّذي قُلتَه وجادلتَ عنه فيه ازدراءٌ على رسولِ الله ﷺ] وعلى ما جاء به [إذا كان أصحابُه كذّابين فالشّريعةُ باطلةٌ، والفرائضُ والأحكامُ في الصّيام والصّلاةِ والطّلاقِ والنِّكاح والحدودِ كلُّه مردودٌ غيرُ مقبولٍ، فرَجَع إلى نفسِه ثمّ قال: أحيَيْتَني يا عُمرُ بنَ حَبيبٍ أحياكَ اللهُ! وأمَرَ لي بعشَرةِ آلافِ درهم»[١].

ـ يَروي عُوَيْمُ بن ساعدةَ رضي الله عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ اللهَ عزَّ وجلّ اختارَني، واختارَ لي أصحابي، فجَعَل لي منهم وُزراءَ وأَخْتانًا وأصهارًا، فمَن سَبَّهم فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والنّاسِ أجمعين، ولا يَقبَلُ اللهُ منه يومَ القيامة صَرْفًا ولا عَدْلًا»[٢].

ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «فالصَّحابةُ كلُّهم عُدولٌ، أولياءُ الله تعالى وأصفياؤه، وخِيرتُه من خَلْقِه بعدَ أنبيائه ورسُلِه. هذا مذهبُ أهلِ السُّنّة»[٣].

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾

٧ ـ سيَجلسونَ متّكئينَ على سُرُرٍ من ذهبٍ ولؤلؤٍ، متقابلينَ متواجِهين، بينَما يَطُوفُ حولَهم الفِتْيانُ الصِّغارُ لخِدمتِهم، وهؤلاء الخَدَمُ سيَبْقَوْن فتيانًا يافعين، ولن يَشِيبوا أبدًا.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الفتح (٤٨): الآية ٢٩.

(٢) المرجع السابق، سورة الفتح (٤٨): الآية ٢٩.

(٣) تفسير القرطبي، سورة الفتح (٤٨): الآية ٢٩.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾

٨ ـ هؤلاءِ الخَدَمُ اليافعونَ من الفِتْيان والمأمورونَ بخِدمةِ أهلِ الجنّة، سيُقدِّمونَ لهم كُؤوسَ الخمرِ الطَّهورِ المليئة، هذه الخمرُ الطَّهورُ لن يؤدِّي شربُها إلى صُداع في الرأس، ولا يَذهَبُ العقلُ بتناوُلِها.

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾

٩ ـ وسيُقدِّمُ هؤلاءِ الخَدَمُ إلى أهلِ الجنّةِ ما يُحبُّونَ من الفاكهة، وإذا أراد أهلُ الجنّةِ تتَدلَّى الفاكهةُ بنفسِها قريبًا منهم، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «تَدنو الشّجرةُ حتّى يَجتنيَها وليُّ الله إن شاء قائمًا وإن شاء قاعدًا وإن شاء مُضْطَجِعًا، لا يَرُدُّ يده بُعدٌ ولا شَوْك»[١].

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾

١٠ ـ وسيُقدِّمُ هؤلاءِ الخَدَمُ لأهلِ الجنّة لحمَ الطُّيور، وإذا أراد أهلُ الجنّةِ يأتي الطَّيرُ بنفسِه مَشْويًّا أمامَهم، مثلَما يقولُ العلّامةُ إسماعيلُ حقِّي: «وفي الخبر: إنك لَتشتهِي الطَّيرَ في الجنة فيَخِرُّ بيْنَ يدَيْك مَشْويًّا»[٢].

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾

١١ ـ سيُعطَى أهلُ الجنّةِ الحُورَ العِينَ ذواتِ العيونِ الواسعة، واللائي يتَّسِمْنَ بجمالٍ وصفاءٍ ونقاءٍ كاللالئ التي حُفِظت بعيدًا عن الترابِ والغبار.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾

١٢ ـ بيئةُ الجنّةِ وجَوُّها رائع، ومجتَمعُها آمِنٌ غايةَ الأمن، فلا كلامٌ تافهٌ لا

(١) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٥٤.
(٢) تفسير روح البيان، سورة الطور (٥٢): الآية ٢٢.

طائلَ من ورائه، ولا يعصِي اللهَ أحدٌ هناك أبدًا، وإنما يَتناهَى إلى السَّمع صوتُ تبادُلِ السَّلام والتحيَّة في كلِّ جانب، بمعنَى: أنهم يسلِّمُ بعضُهم على بعضٍ حين يلتقُونَ، وحين تأتي الملائكةُ يُسلِّمونَ هم أيضًا على أهلِ الجنة.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾

١٣ ـ جاء في الآياتِ السابقةِ ذِكرُ السّابقينَ، يعني: المقرَّبينَ بشكلٍ خاصٍّ، والآنَ جاء ذِكرُ أصحابِ اليمين، يعني: عامةَ المؤمنين، والجنّةُ التي سيَدخُلونَها سيكونُ فيها أيضًا أشجارُ التُّوتِ ذاتِ الثمارِ اللّذيذة التي لا شوكَ فيها، وسِباطاتُ الموزِ تتدَلَّى من أشجارِها، وفيها أيضًا أشجارٌ جميلةٌ سامقةٌ ذاتُ ظلالٍ وارِفة، والماءُ يجري فيها أيضًا، وسيكونُ فيها وَفْرةٌ من الفواكه، فاكهةِ المواسم كلِّها، ولا عائقَ يُعيقُ أهلَ الجنّةِ من الحصُولِ عليها، في بعضِ الأحيان تكونُ الأشجارُ مرتفعةً، أو يكونُ فيها شَوْكٌ يُعيقُ الإنسانَ عن الحصُولِ على الثِّمار، أمّا أشجارُ الجنّةِ فلا شَوْكَ فيها، وكلّما أراد أهلُ الجنّة تناوُلَ الثِّمارِ تدلَّت أمامَهم ليَسهُلَ عليه تناوُلُها.

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾

١٤ ـ أصحابُ اليمين، يعني: عامةَ المؤمنينَ، سيكونونَ على فُرُشٍ مرتفعة، وقد خَلَق اللهُ تعالى لهم الحُورَ العَذَارَى في مِثل أعمارِهم، ومُحبّاتٍ لهم.

ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ

مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

﴿ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

١٥ ـ في هذه الآياتِ ذِكرٌ لجماعتَيْنِ من أصحابِ اليمين، يعني: أنّ عددَ السابقينَ من المؤمنينَ في العهدِ الأوّل لهذه الأُمةِ سيكونُ كبيرًا، ورَغْمَ أنّ عددَ السابقينَ منهم في العهودِ التالية سيكونُ أقلَّ قياسًا بما سَبَق، لكنّ عددَ عامةِ المؤمنينَ سيكونُ كبيرًا، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما، عن هذه الآياتِ، بأنّ النبيَّ ﷺ قال: «هم جميعًا من أُمّتي»[1]. ويقولُ العلّامةُ الخازنُ: «قلتُ: الآيةُ الأُولى في السابقينَ الأَوّلينَ، وقليلٍ ممّن يلحَقُ بهم من الآخِرينَ (لأنّهم في الفترةِ الأُولى كثيرون، وقليلونَ فيما بعدُ)، وهذه الآيةُ في أصحابِ اليمين (السابقينَ وعامّةِ المؤمنين) وهم كثيرونَ من الأوّلينَ والآخِرين»[2].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الواقعة (٥٦): الآية ٣٩.

(٢) تفسير الخازن، سورة الواقعة (٥٦): الآية ٣٩.

## سيكون عدد الأمة المحمدية هو الأكبر

ـ يقولُ سيّدُنا بُرَيْدةُ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أهلُ الجنّة عشرونَ ومائةُ صفٍّ، ثمانونَ منها من هذه الأُمّة، وأربعونَ من سائرِ الأُمم»[١].

ـ رُويَ عن سيّدِنا عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «عُرِضَتْ عليَّ الأُممُ، فرأيتُ النّبيَّ ومعَه الرُّهَيْطُ والنّبيُّ ومعَه الرّجلُ والرّجُلانِ والنّبيُّ ليس معَه أحدٌ، إذ رُفِع لي سَوادٌ عظيمٌ، فظنَنْتُ أنّهم أُمّتي، فقيل لي: هذا موسى ﷺ وقومُه، ولكنِ انظُرْ إلى الأُفُق. فنَظَرتُ فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: انظُرْ إلى الأُفُق الآخَر، فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: هذه أُمّتُك ومعَهم سبعونَ ألفًا يَدخُلونَ الجنّةَ بغيرِ حسابٍ ولا عذاب»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا ثَوْبانُ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تزالُ طائفةٌ من أُمّتي ظاهرينَ على الحقّ، لا يَضُرُّهم مَن خَذَلَهم، حتّى يأتيَ أمرُ الله وهم كذلك»[٣].

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾

١٦ ـ المرادُ بأصحابِ الشِّمال: أولئك الذين يتناوَلونَ صُحُفَ أعمالِهم بأيديهم الشِّمال، وسوف تَسحَبُهم الملائكةُ وتُلقي بهم في جهنَّم، حيث سيَحرِقُ الهواءُ الساخنُ فيها أجسادَهم، وتُمزِّقُ المياهُ الساخنةُ أمعاءَهم، وحين يرَوْنَ هذا العذابَ يسارعونَ إلى ظِلٍّ، ولكنْ حين يَصِلُونَ إلى هذا الظِّلِّ يكتشفونَ أنه ليس ظِلًّا، وإنّما الدُّخَانُ الأسودُ الكثيفُ المتصاعِدُ من جهنَّم، وليس فيه راحةٌ أو برودة، وإنّما عذابٌ ما بعدَه عذابٌ.

---

(١) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب رقم ١٣ برقم ٢٥٤٦.
(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٩٤ برقم ٣٧٤.
(٣) مسلم، كتاب الإمارة، باب ٥٣ برقم ٤٩٥٠.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾

١٧ ـ في هذه الآياتِ بيانٌ لبعض الأسبابِ في عذابِ جهنَّم، يعني: أنّ اللهَ تعالى أَنْعم عليهم في الدُّنيا بحياةٍ مُتْرفةٍ، لكنّهم لم يُقدِّروا نعمةَ الله حقَّ قَدْرِها وجَحَدوها، وعَصَوا اللهَ تعالى مغتَرِّينَ بأموالِهم وثَرَواتِهم، وارتكَبوا كبائرَ الذُّنوب مِثلَ الكُفرِ والشِّرك.

﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾

١٨ ـ كانوا يَسخَرونَ من الإسلام قائلين: كيف يمكنُ أصلًا أن يتِمَّ إحياؤنا وإحياءُ آبائنا بعدَ أن مِتْنا وصِرنا ترابًا؟

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ﴾

١٩ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، قلْ لهم: إنّ الساعةَ ستقومُ في الوقتِ المحدَّد لها يقينًا، وفيها سيُجمَعُ الأوّلونَ والآخِرونَ للحساب.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾

٢٠ ـ في هذه الآياتِ تنبيهٌ للضالِّين مُنكري التوحيد بأنّكم إن لم تَرجِعوا عن ضلالِكم فسوف تملَأُون بطونكم في جهنَّمَ من شجرةِ الزَّقُّوم، وسوف تشربونَ الماءَ الساخنَ كالجِمال الظامئة، وسيكونُ هذا ما يُقدَّمُ لكم هناك دائمًا.

**ما شجرةُ الزَّقُّوم؟**

شجرةٌ من أشجارِ جهنَّم اسمُها «الزَّقُّوم»، وهي شجرةٌ ذاتُ أشواك، طعمُها شديدُ المَرارة، وتَصدُرُ عنها رائحةٌ مُنتِنةٌ، وهذه الشجرةُ هي طعامُ أهل النارِ في جهنَّم، وحين يَطعَمُونَ منها، ستَغلي في بطونِهم وتَنصهرُ مثلَما يَغلي الماءُ وينصهرُ النُّحاس.

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لو أنّ قطرةً من الزَّقُّوم قَطَرت في دارِ الدُّنيا لَأفسَدتْ على أهلِ الدُّنيا معايشَهم، فكيف بمن يكونُ طعامَه؟»(١).

﴿ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴾

٢١ ـ في الآياتِ التالية جاء بيانٌ للدَّلائل على التوحيدِ والآخِرة بأسلوبٍ بسيطٍ سهلِ الفَهْم، يعني: إنكم تَعلَمونَ أنّنا خَلَقْنا أباكم سيّدَنا آدمَ عليه السَّلام من طِين، فإذا كنّا قد خَلَقْنا أولَ إنسانٍ من طِين، فهل يَصعُبُ علينا إحياؤه من جديدٍ بعدَ موتِه؟ ثم لماذا لا تتدبَّرونَ تجرِبةَ الخَلْقِ الأولِ وتُصدّقونَ بالخَلْقِ ثانيةً؟

﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴾

٢٢ ـ ألم تتفكَّروا أبدًا كيف يُخلَقُ الطِّفلُ في بطنِ أُمِّه، معَ أنّ كلَّ ما تفعلونَه أنتم هو أنّكم تَضَعُونَ نُطَفَكم في أرحام زوجاتِكم، ثم لا تَعلَمونَ بعدَها هل سيَحدُثُ الحَمْلُ من هذه النُّطَفِ أم لا؟ وإذا حَدَث الحَمْلُ، فمَن يا تُرى يَخلُقُ من قطرةِ الماءِ هذه أعضاءً لا تُقدَّرُ بثمنٍ مِثلَ: الدَّم واللَّحم والعِظام والقلبِ والدِّماغ والعَيْنِ والأُذُن، وهي التي يتكوَّنُ من مجموع امتزاجِها الرائع هذا الإنسانُ الذي يَحكُمُ كلَّ شيءٍ على وجهِ الأرض الآنَ. هل أنتمُ الذين أودَعتُم في قطرةِ الماءِ هذه كلَّ هذه الميزاتِ، أم أنها ظَهَرت هكذا من نفسِها؟ بالقَطْع لا، فلا يمكنُ أن يُخلَقَ هذا الإنسانُ المتحرِّكُ بنفسِه هكذا من قطرةِ ماءٍ لا رُوحَ فيها، إنه اللهُ تعالى الذي خَلَق الإنسانَ وصوَّره في أحسنِ صُورة، وهو الذي سيُحييه من جديدٍ بعدَ موتِه.

---

(١) الترمذي، أبواب صفة جهنم، باب ٤ برقم ٢٥٨٥.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾

٢٣ ـ لقد حدَّدنا نحن بحِكمتِنا وقتًا معيَّنًا لموتِكم، فمنكم مَن يموتُ في طفولتِه، ومنكم من يموتُ في شبابِه، ومنكم من يموتُ في شيخوختِه، ولا يمكنُ أن يُعجِزَنا أحدٌ فيَفِرَّ من الموتِ مثلًا، أو يُغيِّرَ في وقتِه، كما أنّني أنا القادرُ المطلَق، وحين نشاءُ نُفنيكم، ونأتي بقوم غيرِكم من مِثلِكم، وإذا أرَدْنا بَدَّلْنا بعدَ الموتِ صُوَرَكم، مثلَما سيكونُ وجهُ المؤمنِ يومَ القيامة أبيضَ، ووجهُ المنكرِ أسودَ، ولا يَعلَمُ أحدٌ الآنَ كيف سيكونُ وجهُه.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾

٢٤ ـ إنّكم تَعلَمونَ ـ جيِّدًا ـ أنّ اللهَ تعالى هو الذي خَلَقَكم لأوّلِ مرّة، فلماذا لا تتفكَّرونَ في الأمر، بأنّ الذي خَلَقَكم لأوّلِ مرةٍ يُمكنُ أن يَخلُقَكم من جديد، معَ أنّ الخَلْقَ للمرةِ الثانية يكونُ أيسَرَ من الخَلْقِ للمرّةِ الأُولى.

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾

٢٥ ـ هل تفكَّرتُم أبدًا أنّ البِذرةَ التي تبذُرونَها مَن الذي يُنبِتُها من الأرض؟ وكيف تَشُقُّ حبّةٌ لا رُوحَ فيها الأرضَ وتَخرُجُ منها، وتُصبح نَبْتةً خضراءَ يانعةً؟ فاللهُ تعالى مثلَما يَجعَلُ من الحبّةِ الجافّةِ التي لا رُوحَ فيها، المدفونةِ في الأرضِ، نَبْتةً خضراءَ يانعةً ويُخرجُها من الأرض، كذلك يُحيي الإنسانَ المدفونَ في الأرض بعدَ موتِه.

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾

٢٦ ـ وحينَ يقتربُ نُضجُ المحصولِ يمكنُنا أن نَجعَلَه جافًّا وحُطامًا إذا أرَدْنا،

وعندَها تقولونَ: لقد أُهلِكْنا، وضاعَتْ جهودُنا هباءً، وأصبحت هذه الجهودُ كأنّها مَغْرَمٌ لنا وعذابٌ، فقد خَسِرنا الحبوبَ، ولم نَحصُلْ على شيءٍ عِوَضًا عن جهدِنا.

﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ﴾

٢٧ ـ حين يَنزِلُ المطرُ تَصُبُّ بعضُ مياهِه في الأنهار، ولكنّ الجُزءَ الأكبرَ منها يتسرَّبُ إلى الأرض، ويتجمَّعُ تحتَها في شكلِ ثَرَواتٍ مائيّة، ثم إنّنا نُخرِجُ هذا الماءَ لكم عن طريقِ الآبار وغيرِها من الطُّرق، وباختصار: فإنّ أصلَ كلِّ ماءٍ عَذْبٍ هو المطر، فهل تفكَّرتُم أبدًا مَن يُنزِلُ هذا الماءَ العَذْبَ؟ واضحٌ أنكم لستُم أنتمُ الذين أَنْزَلتُموه، وإنّما اللهُ تعالى هو مُنزِلُه، ولو لم يَنزِلْ هذا الماءُ العَذْبُ لَحاقت الأخطارُ بحياتِكم، فهل من العقلِ في شيءٍ إنكارُ مِثلِ هذا الربِّ الرَّحيم وكُفرانُه؟

﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾

٢٨ ـ ماءُ البحارِ مالح، ولكنْ حين يَرفَعُ اللهُ تعالى هذه المياهَ من البحارِ عن طريقِ البَخَر ويَجعَلُ منها سُحُبًا، تترُكُ هذه المياهُ ملوحتَها وراءها في البحر، وتُنزِلُ عليكم مياهًا عَذْبةً حُلوةَ المذاق، ولو أنّ اللهَ أَنْزلَها لكم مالحةً مرّةً، لَأصبحت الأرضُ كلُّها سَبِخةً، وأصبح من الصَّعبِ عليكم مواصلةُ الحياة، فلماذا لا تؤدُّونَ شُكرَ الله تعالى على هذه النِّعم كلِّها؟

﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾

٢٩ ـ النارُ والأشكالُ المتطوِّرةُ عنها، يعني: الكهرباءَ والغازَ، لها أهميّةٌ كبرى في تلبيةِ احتياجاتِ الإنسانِ الضَّروريّة، فهل فكَّرتُم أبدًا مَن ذلك الذي خَلَق لكم الأشجارَ التي تكونُ وسيلةً لإشعالِ النار؟ ولو لم يَخلُق اللهُ تعالى هذه الأشجارَ، لَواجَهْتُم مشاكلَ جَمّةً في حياتِكم، فكيف تُنكرونَ قُدرةَ الله ورحمتَه؟

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾

٣٠ - حين يَمُرُّ المسافرونَ مشيًا على الأقدام من الغابات، يحتاجونَ إلى النارِ لِيَطهُوا عليها طعامَهم عندَ اللّيل، وليستدفِئوا بها في فَصْل الشتاء، كما أنّ في حرارةِ النارِ نصيحةً وعبرةً أيضًا، بأنّ جسمَ الإنسانِ يحترقُ إذا وَقَع في نارِ الدُّنيا، فينبغي للإنسانِ أن يخافَ من نيرانِ الآخِرة ويَحْذَرَها، فهي أقوى وأشدُّ من نارِ الدُّنيا.

يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: «نارُكم هذه الّتي يوقِدُ ابنُ آدمَ جُزءٌ من سبعينَ جزءًا من حرِّ جهنَّم». قالوا: والله إنْ كانت لَكافيةً يا رسولَ الله. قال: «فإنّها فُضِّلت عليها بتسعةٍ وستّينَ جُزءًا كلُّها مِثلُ حرِّها»[1].

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾

٣١ - يصبحُ من الواجبِ على الإنسان أن يؤدِّيَ حقَّ شُكرِ نِعَمِ الله تعالى التي لا حَصْرَ لها، وأن يُسبِّحَ بحمدِه، وأن لا يُشركَ معَه أحدًا.

يقولُ سيّدُنا عُقبةُ بنُ عامر رضي الله عنه: لمّا نزلت ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قال رسولُ الله ﷺ: «اجعَلوها في ركوعِكم». فلمّا نَزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾سبّح اسم ربّك الأعلى» قال: «اجعَلوها في سجودِكم»[2].

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ

---

(١) مسلم، كتاب الجنة، باب ١٢ برقم ٧١٦٥.

(٢) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ١٤٦ برقم ٨٦٩.

مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾

٣٢ ـ أَقْسم اللهُ تعالى بمواقع النُّجوم تأكيدًا على أنّ القرآنَ المَجِيدَ ليس كلامًا عاديًّا، وإنّما هو كلامٌ معزَّزٌ ومكرَّمٌ، ولا يمكنُ لأحدٍ التبديلُ فيه؛ لأنه مسطورٌ في اللَّوح المحفوظِ من قبلُ.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾

٣٣ ـ يقولُ سيّد محمود الآلوسيُّ: «والمرادُ بالمُطهَّرون: المُطهَّرونَ عن الحَدَثِ الأصغر (يعني: بغيرِ وضوء)، والحَدَثِ الأكبر (يعني: الجَنابةَ والحَيْضَ والنِّفاس) بحَمْلِ الطّهارةِ على الشَّرعيّة، والمعنى: لا ينبغي أن يَمَسَّ القرآنَ إلّا من هو على طهارةٍ من الناس»[1].

وهناك مسألةٌ فِقْهيّةٌ، وهي: أنّ المرأةَ الجُنُبَ والحائضَ والنُّفَساءَ لا يجوزُ لها أن تمَسَّ القرآنَ الكريمَ ولا أن تقرَأَه، بينَما تجوزُ قراءةُ القرآنِ بغيرِ وضوء، ولكن دونَ أن يمَسَّه غيرُ المتوضِّئ، إلا أنه يجوزُ له أن يضَعَ يدَه على غلافِ المصحف.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾

٣٤ ـ في هذه الآيةِ تنبيهٌ لكفّارِ مكّةَ بأنّ اللهَ تعالى ربَّ العالَمين قد أَنْزل هذا القرآنَ المجيدَ لهدايةِ بني الإنسانِ جميعًا، وبالتالي كان ينبغي لكم أن تَحصُلوا منه

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة الواقعة (٥٦): الآية ٧٩.

على الهداية، ولكنّ تعاستَكم لا حدَّ لها، إذْ لا تهتَمُّونَ بالقرآنِ الكريم، وتجعَلونَ تكذيبَه نُصبَ أعيُنِكم وهَدَفكم الأكبرَ.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾

**٣٥** ـ المالُ والثَّروةُ والقوّةُ والقبيـلةُ التي انتَشَيْتُم بها واغتَررتُم، وبالتالي لم تهتَمُّوا بالقرآنِ المجيد، كلُّ هذه القوةِ الدُّنيويّة لن تستطيعَ أن تُنقذَكم من أَخْذِ الله تعالى لكم، ويُمكنُكم أن تُجرِّبوا هذا الأمرَ، بأنه عندَما يقتربُ عزيزٌ عليكم من الموت، وتَبلُغُ رُوحُه حُلقومَه، وأنتم تجلسونَ حولَه تنظُرونَ رُوحَه التي تفارقُه، لكنْ لا طاقةَ لأحدٍ منكم على أن يُعيدَ رُوحَه هذه إلى جسَدِه مرةً أخرى، وكما أنكم لا تستطيعونَ إعادةَ الرُّوح إلى الميِّت، فإنّكم كذلك لا تستطيعونَ مَنْعَ الله تعالى من إعادةِ أرواحِكم إلى أجسادِكم الميِّتة يومَ القيامة، وحين يُعاقبُكم بسببِ تكذيبِكم للقرآنِ المَجِيد، فلن تستطيعوا الإفلاتَ منه أبدًا.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾

**٣٦** ـ نحن نَعلَمُ أحوالَ هذا الذي يموتُ أكثرَ منكم أنتم الذين تجلسونَ بجانبِه، وملائكتُنا يكونونَ أقربَ إليه منكم، لكنَّكم لا تستطيعونَ رؤيتَهم.

﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

**٣٧** ـ لو كنتُم صادقينَ فيما تدَّعُونَ بأنه لا مالكَ لكم، وأنه لا وجودَ لما يُسمَّى يومَ القيامةِ الذي تحاسَبُونَ فيه على أعمالِكم، فلماذا لا تُعيدونَ الرُّوحَ إلى هذا الذي يموتُ، حتى لا يموتَ من جانب، وحتى لا يحيا من جديدٍ لحسابِه من جانبٍ آخَر؟ ولكنّكم لا تستطيعونَ فعلَ ذلك، وسوف تموتونَ جميعًا في يوم من الأيام، والذي يُميتُكم هو نفسُه الذي سيُحييكم يومَ القيامة.

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾

٣٨ ـ أقسامُ الناسِ الثلاثةُ الذين جاء بيانُهم في بدايةِ السُّورة، جاءتِ الإشارةُ إليهم ثانيةً في آخِرِ السُّورة، يعني: أنّ السّابقينَ من الموتَى والمقرَّبينَ منهم بشكلٍ خاصّ سيكُونونَ في جنّةٍ ذاتِ نِعَمٍ وراحةٍ وروائحَ طيِّبة.

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾

٣٩ ـ أمّا أصحابُ اليمينِ من الموتَى، يعني: الذين ستكونُ صحائفُ أعمالِهم في أيديهم اليُمنى، سيُبشَّرونَ بأنّكم قد جئتُم في دارِ السَّلام، حيث لن يَلحَقَ بكم تعبٌ ولا نَصَبٌ أو قَلَق.

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

٤٠ ـ وأمّا الضّالُّونَ والمكذِّبونَ بالحقِّ من الموتَى فسيَدخُلونَ نارَ جهنَّم، حيث يُسْقَوْنَ من الماءِ المَغْليّ، وكلُّ ما يجري بيانُه هنا حقٌّ قَطْعيّ، ولا مجالَ لأيِّ شكٍّ فيه.

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾

٤١ ـ المرادُ بالتسبيح: بيانُ عَظَمةِ الله تعالى وتنزُّهِه، يعني: أنه منَزَّهٌ عن كلِّ عيبٍ ونَقْص، لكنّ الحُكمَ هنا هو أن نُبيِّنَ قُدسيّةَ اسم الله تعالى، ويُعلَمُ منه أنه كما أنّ اللهَ تعالى منَزَّهٌ عن كلِّ نقصٍ وعَيْب، كذلك أسماؤه الحُسنى منزَّهةٌ عن كلِّ عيبٍ ونَقْصٍ أيضًا، ولهذا علينا أن نَذكُرَ اسمَ الله تعالى بكلِّ إجلالٍ وتكريم، ولا ينبغي أن نَذكُرَ اسمَ الله تعالى في مكانٍ لا يليقُ بعظَمتِه سبحانَه.

اسمُ الله تعالى مباركٌ، ولهذا فإنّ تعاليمَ الإسلام هي أن يبدَأَ المسلمُ كلَّ عملٍ جائزٍ باسم الله تعالى، حتى تَحِلَّ البرَكةُ في هذا العمل.

## التدخين

سأل أحدُهم شيخًا: ما حُكمُ الإسلام في تدخينِ السجائر؟ فقال الشَّيخ: هل سَمِعتَ أحدًا يَذْكُرُ اسم الله تعالى قَبْلَ أن يبدَأَ بتدخينِ السَّجائر؟ فقال السّائل: لا. فقال الشَّيخ: أنا لستُ عالمًا، لكنْ منَ الواضح أنّ التدخينَ ليس عمَلًا مباركًا، وإلّا ذَكَر المدخِّنُ اسمَ الله قبلَ أن يُشعلَ سيجارتَه.

وبعدُ، فإنّ هذا العبدَ الفقيرَ يختتمُ تفسيرَه لسُورةِ «الواقعة» فيما يتعلَّقُ بالتسبيح، بالحديثِ الشّريفِ الذي اختَتَم به الإمامُ البخاريُّ «صحيحَه»:

يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «كَلِمتانِ حبيبتانِ إلى الرّحمن، خفيفتانِ على اللّسان، ثقيلتانِ في الميزان: سبحانَ الله وبحَمْدِه، سبحانَ الله العظيم»[1].

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعة الكرَم، إنجلترا**
**بعد ضحى يوم الأحد ١٢ سبتمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٣ شوالٍ ١٤٣١هـ.**

**هذا وقدِ اكتَمَل بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرَ سُورة «الواقعة» في ستةِ أيام فقط، أي: من ٦ إلى ١٢ سبتمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيِّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.**

* * *

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٥٨ برقم ٧٥٦٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

# (٥٧) سورة الحديد

هذه السُّورةُ مدَنيّة، واسمُها «الحَديد»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم **٢٥** منها.

## مضامين السورة

- في بدايةِ هذه السُّورة جاء الحديثُ عن عظَمةِ الله تعالى وقُدرتِه وسَعةِ عِلمِه، يعني: أنه خالقُ السماءِ والأرضِ ومالكُهما، ويَعلَمُ تمامَ العِلم كلَّ شيءٍ في السّماءِ والأرض، وهو ـ وحدَه ـ الذي يستحقُّ العبادةَ، ولهذا أيُّها الناسُ، آمِنوا باللهِ تعالى ورسولِه الكريم ﷺ، فقد أَنْزلَ اللهُ تعالى القرآنَ المجيدَ على سيِّدِنا محمدٍ ﷺ حتى يُخرِجَكم من ظُلُماتِ الضّلالِ إلى نُورِ الهداية.

- نَزَلتْ هـذه السُّـورةُ في الفترةِ التي وَقَفت فيـها القبائلُ العربيّةُ كلُّها أيـضًا ـ وليس أهلَ مكةَ فقط ـ ضدَّ المسلمين، ولمواجهةِ هؤلاءِ جاء هنا ترغيبٌ للمسلمينَ بأنْ يُنفِقوا من أموالِهم في سَبيل الله تعالى، وفي نفسِ الوقتِ جاء الإخبارُ بأنّ المالكَ الحقيقيَّ لهذه الأموالِ هو اللهُ تعالى، ولو شاء سَلَبكم هذه الأموالَ وأَنْعَم بها على غيرِكم، ولا يُعطيكُم أَجرًا عليها، ولكنْ إن أَنْفقتُم برِضاكم في سَبيل الله تعالى فإنّ إنفاقَكم هذا سيكونُ بمثابة قَرْضٍ تُقرِضونَه اللهَ، وسوف يُعطيكم على ذلك أجرًا كبيرًا وثوابًا عظيمًا، وحين تُبعَثُونَ يومَ القيامة سيكونُ من أمامِكم نورٌ وعن أيمانِكم نورٌ بسببِ هذا الإيثارِ الذي أبدَيْتُموه، وستُبَشَّرونَ بالجنّة.

ـ في السُّورةِ تنبيهٌ للمنافقينَ بأنّهم سيكونونَ يومَ القيامة تائهينَ في ظُلماتِ نفاقِهم، وسيَرجُونَ أهلَ الإيمانِ قائلين: لقد كنّا معَكم في الدُّنيا، فساعِدونا اليومَ، وتكرَّموا علينا ببعضٍ مِن نُورِكم. وسيأتيهمُ الجوابُ: إنّكم لم تكونوا مسلمينَ من قلوبِكم، وقد خَدَعتْكم أنفُسُكم وشياطينُكم، ولهذا لا يمكنُ لأحدٍ أن يُمَدَّ لكمُ اليومَ يدُ العَوْن، ومصيرُكم جهنَّم.

ـ في السُّورةِ تذكيرٌ لأهل الإيمانِ بالله تعالى، وترغيبٌ لهم في العمَل بأحكامِه، يعني: لا تكونوا مِثلَ الأُمم التي سبَقَتْكم، والذين أُنْزِل عليهمُ الكتابُ، ولكنّ قلوبَهم من بعدِ ذلك أصبحت قاسيةً مِثلَ الحَجَر، وأعرَضوا عن الكتُبِ السَّماوية.

ـ جاء في السُّورةِ أيضًا أنّ هذه الدُّنيا لَهْوٌ ولعبٌ، وما هي إلّا زينةٌ ومتاعٌ خادع، ولئنْ ضَلَلتُم في هذه الدُّنيا فستُواجِهون في الآخِرة عذابًا أليمًا، أمّا إن عَمِلتُم على الفَوْزِ برِضا الله تعالى ومغفرتِه فستَدخُلونَ الجنّة.

ـ في آخِر هذه السُّورة أَخْبَر اللهُ تعالى بالحِكمةِ من وراءِ ابتعاثِ الأنبياءِ والرسُل، يعني: أنّ اللهَ تعالى إنّما أرسَلَ الرسُلَ لكي يُقيموا العدلَ والإنصافَ بيْنَ الناس، ولا يظلِموا منهم أحدًا أو يؤْذُوه.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعة الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة الفجرِ من يوم الاثنين ١٣ سبتمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٤ شوال ١٤٣١هـ.**

# سُورَةُ الحَدِيدِ (٥٧)،

## مدنية (٩٤)، آياتها (٢٩)، ركوعاتها (٤)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ
ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا
يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾
لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ
وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ
وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ
ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ
أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

١ ـ كلُّ شيءٍ في الأرضِ والسّماءِ يُسبِّحُ اللهَ تعالى، ولكنْ لأنّنا لا نعرفُ

لغاتِهم، أو لا نسمعُ أصواتَهم، لهذا لا نستطيعُ أن نفهَمَ تسبيحَهم، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

أَنْعم اللهُ تعالى على سيّدِنا داودَ عليه السَّلامُ بصوتٍ جَميل ومؤثِّر، بحيثُ أنه عندَما كان يَقرَأُ الزَّبُورَ، فإنّ الطُّيورَ كانت تَسكُنُ حيث هي في السّماءِ، وتُسبِّحُ اللهَ تعالى معَ تسبيحِه، بل إنّ الجبالَ أيضًا كانت تُسبِّحُ معَ تسبيحِه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

كما أنّ بعضَ الملائكة يكونُ معَنا ويسبِّحونَ اللهَ تعالى في كلِّ وقتٍ وحين، ولكنَّنا نَعجِزُ عن رؤيةِ أشكالِهم وسَماع كلامِهم، ولهذا لا نستطيعُ أن نسمعَ تسبيحَهم أيضًا، إلّا أنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام والأولياءَ الكرامَ يستطيعونَ سَماعَ تسبيحِهم بفَضْل معجزاتِهم وكراماتِهم، مثلَما وَرَد فيما يلي:

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «ولقد كنّا نسمَعُ تسبيحَ الطّعام وهو يؤكَلُ»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بن سَمُرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّي لَأعرِفُ حَجَرًا بمكّةَ كان يُسلِّمُ عليَّ قبلَ أن أُبعَث، إنّي لَأعرِفُه الآنَ»(٢).

## التسبيح بغير لسان

ليس من الضَّروريِّ أن يكونَ لمن يُسبِّحُ لسانٌ مثلَنا، مثلَما أنه ليس للتلفزيونِ

---

(١) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٥ برقم ٣٥٧٩.

(٢) مسلم، كتاب الفضائل، باب ١ برقم ٢٢٧٧.

والراديو والحاسبِ الآليِّ المصنوعةِ من البلاستيك لسانٌ مثلَنا، ولكنْ حينَ نُشغِّلُها تُسمِعُنا أصواتَ الناس، وهكذا عندَما يأمُرُ اللهُ تعالى أيديَنا وأرجُلَنا وآذانَنا بأن تتكلَّمَ، فإنّها ـ برَغْم أنها ليس لها لسانٌ مثلَنا ـ ستقولُ كلَّ شيءٍ رأَتْه أو سَمِعتْه، مثلَما قال اللهُ تعالى:

ـ ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥].

ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٠].

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

٢ ـ مثلَما أنّ خالقَ الأرضِ والسّماءِ هو اللهُ تعالى، فإنّ الحاكمَ لهما هو اللهُ تعالى أيضًا، وأمرُ حياةِ وموتِ كلِّ شيءٍ في يدِه هو؛ لأنه هو القادرُ على كلِّ شيء.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

٣ ـ المرادُ بالأوّلِ: أنّ اللهَ تعالى هو الأولُ قبلَ كلِّ شيء، ولا بدايةَ له.

والمرادُ بالآخِر: أنّ اللهَ تعالى هو الآخِرُ بعدَ كلِّ شيء، ولا آخِرَ له.

والمرادُ بالظّاهر: أنه الغالبُ على كلِّ شيء، وأنّ الدّلائلَ على قُدرتِه في غايةِ الوضوح، بحيث أنها ـ بالفعل ـ أظهَرُ من الشّمس، والمرادُ بالباطن: أنه يَعلَمُ تمامَ العلم كلَّ ما خَفِي في الكائنات، ولكنّه هو نفسُه مَخْفِيٌّ بحيث لا تستطيعُ حواسُّ الإنسانِ أن تُدرِكَ ذاتَه تعالى.

وأفضَلُ تفسيرٍ لهذه الألفاظِ هو ما قالهُ النبيُّ الكريمُ ﷺ في ثنايا دُعائِه فيما يلي:

يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال (في حضرةِ الله تعالى): «... اللهُمَّ أنت الأوّلُ فليس قبلَك شيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بعدَك شيءٌ، وأنت الظّاهرُ فليس (ظاهرٌ) فوقَك شيءٌ، وأنت الباطن فليس دونَك شيءٌ، اقضِ عنّا الدَّيْن، وأَغْنِنا من الفقر»[1].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾

٤ ـ هنا يتبادرُ إلى الذِّهن سؤالٌ: لماذا استَغرقَ اللهُ تعالى ستةَ أيام في خَلْق السماواتِ والأرض؟ في حينَ أنه هو القادرُ المطلَق، ويُمكنُه أن يَخلُقَ الكائناتِ كلَّها في لمحةٍ واحدة بمجرَّدِ قوله: «كُنْ»؟ ثم ما الوقتُ المرادُ باليوم؛ لأنّ الشمسَ لم تكنْ قد خُلِقت بعدُ، وهي التي يتعيَّنُ النهارُ بطلوعِها وغروبِها؟ وما المرادُ ـ كذلك ـ بتجلِّي الله تعالى على العرش؛ لأنه منزَّهٌ عن المكان. والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى ـ وحدَه ـ هو الذي يَعلَمُ تمامَ العِلم حقيقةَ هذه الأمورِ كلِّها والحِكمةَ من ورائها، ولا يَخْلو فعلٌ من أفعالِه من الحِكمة، ولكنْ إذا لم نستطعْ فَهْمَ حِكمةِ فعلٍ من أفعالِه تعالى، يكونُ من الفَرْض علينا أن نؤمنَ به دونَ أدنى تردُّد.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾

٥ ـ الماءُ الذي يَنزِلُ إلى الأرض، والبذورُ وغيرُها التي تَدخُلُ فيها، والنَّباتاتُ والمعادنُ وغيرُها التي تَخرُجُ من الأرض، والمطرُ الذي يَنزِلُ من السّماءِ، وكذا الملائكةُ وغيرُهم، والدُّعاءُ الذي يَصعَدُ من الأرضِ إلى أعلى، وكذا الأَبْخِرةُ وغيرُها، كلُّها يعلَمُها اللهُ تعالى تمامَ العِلم، ونظامُ هذه الكائناتِ يسيرُ برحمتِه.

---

(١) مسلم، كتاب الذّكر والدعاء، باب ١٧ برقم ٦٨٨٩.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

٦ ـ يعني: سواءٌ كنتُم في ظلام اللَّيل أم في ضوءِ النَّهار، وسواءٌ كنتُم في غُرَفٍ مغلقةٍ أم مجتمِعينَ في ميدانٍ مفتوح فسيح، في كلِّ حال لستُم خارجَ قُدرةِ الله وعِلمِه، وهو يَرى تمامًا كلَّ حركةٍ تقومونَ بها، وقادرٌ تمامَ المقدرةِ على حسابِكم بشكلٍ كامل.

﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾

٧ ـ الحاكمُ الحقيقيُّ للأرضِ والسَّماءِ هو اللهُ تعالى، ولا يستطيعُ أيُّ شخصٍ أن يَخرُجَ من حُكمِه ومُلكِه، وسوف يُرجَعُ الجميعُ إليه تعالى في نهايةِ المطاف، حيث سيُحاسبُهم على الأمورِ كلِّها صغيرِها وكبيرِها.

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

٨ ـ المرادُ به: التغيُّراتُ المَوْسِميّة، يعني: أحيانًا يكونُ اللّيلُ طويلًا بحيثُ يشمَلُ جزءًا من النَّهار، وأحيانًا يكونُ النهارُ طويلًا بحيث يشمَلُ جزءًا من اللَّيل، وبهذا يستمتعُ الإنسانُ بالفصُولِ والمواسم كلِّها، ولو سادَ الدُّنيا موسمٌ واحدٌ لَأصابَ الإنسانَ منه الملَلُ، ولَما كان هناك تنوُّعٌ في المحاصيل الناتجةِ من الأرض، ولهذا ينبغي لكم أن تشعُروا بنِعَم الله تعالى وتؤْمنوا به، فهو يَعلَمُ تمامَ العلم حرَكاتِكم الظاهرةَ، والنَّوايا الخَفِيّةَ في صدورِكم أيضًا، وسوف يَحكُمُ في حسابِكم طبقًا لأعمالِكم ونَواياكم.

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

٩ ـ يعني: أنّ الأموالَ التي لديْكُمُ اليومَ، المالكُ الحقيقيُّ لها هو اللهُ تعالى،

وقد مَنَحَكم حقَّ التصرُّفِ فيها باعتبارِكم خُلفاءَ ونُوَّابًا له تعالى، لكنْ كم هو جاحدٌ ذلك الشَّخصُ الذي لا ينفقُ مثلَما يقولُ له المالكُ الحقيقيُّ، كما أنّ هذه المنازلَ وهذه الأرضَ ليست عندَكم للأبد، فقد كانت عندَ أسلافِكم أمِس، وانتَقلت إليكمُ اليومَ، وستكونُ لورَثتِكم في الغدِ، ولهذا إنْ أَنْفقتُم هذا المالَ في سَبيل الله تعالى في عهدِ خلافتِكم ونيابتِكم فسوف يُعطيكُم اللهُ تعالى على ذلك أجرًا عظيمًا.

ويُعلَمُ من هذه الآية أنّ كلَّ ما لدى الإنسانِ ليس مُلكًا له في الواقع، وأنّ كلَّ شيءٍ: من عطاءِ الله تعالى، ومَن رَسَّخ في قلبه هذا اليقينَ يصبحُ من السَّهل عليه الإنفاقُ في سَبيل الله تعالى، أمّا من يَعتبرُ أنّ هذه النِّعمَ من جُهدِ نفسِه مثلَ قارونَ، يصبحُ من الصَّعبِ عليه الإنفاقُ في سَبيل الله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ * وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٨١].

يقول الحافظُ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ هذه الآية: «فيه إشارةٌ إلى أنّه سيكونُ مُخَلَّفًا عنك، فلعلَّ وارِثَك أن يُطيعَ اللهَ فيه، فيكونَ أسعدَ بما أَنْعَم اللهُ به عليكَ منك، أو

يعصيَ اللهَ فيه فتكونَ قد سَعَيْتَ في معاونتِه على الإثم والعُدوان»[(١)].

ويقولُ العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي في تفسيرِ الآية رقم **١٩٦** من سُورة الأعراف: إنّ أميرَ المؤمنينَ سيّدَنا عُمرَ بنَ عبدِ العزيز رضي الله عنه لم يكنْ يَجمَعُ لأولادِه مالًا، فلمَّا سُئل عن السببِ قال: لو كان أولادي من الصّالحينَ، وتلا الآيةَ رقم **١٩٦** من سُورة الأعراف (٧) ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، يعني: حينَئذٍ سيكونُ اللهُ حاميَهم وناصرَهم، ومَن كان اللهُ حاميَه وناصرَه فليس في حاجةٍ إلى مالي، أمّا إن كان أولادي - والعياذُ بالله - غيرَ ذلك، فإنّي لا أستطيعُ أن أُفيدَهم شيئًا بمالي، وتلا الآيةَ رقم ١٧ من سورة القَصَصِ (٢٨) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾، أي: يا إلهي، مثلَما أَنْعمتَ علَيّ فإنّي لن أكونَ أبدًا مُعِينًا لأيِّ مجرِمٍ مهما كانت علاقتُه بي[(٢)].

## فضل التصدق

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «يقولُ العبدُ: مالي مالي، إنّما له من مالِه ثلاثٌ: ما أكَل فأَفْنَى، أو لبِسَ فأَبْلَى، أو أعطَى فاقتَنَى (للآخِرة)، وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتاركُه للنّاس»[(٣)].

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: جاء رجلٌ إلى النّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله،

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة الحديد (٥٧): الآية ٧.

(٢) «وسمعت أنّ عمر بن عبد العزيز ما كان يدّخر لأولاده شيئًا، فقيل له فيه، فقال: ولدي إمّا أن يكون من الصّالحين أو من المجرمين، فإن كان من الصّالحين فوليّه الله، ومن كان الله له وليًّا فلا حاجة له إلى مالي، وإن كان من المجرمين فقد قال تعالى: ﴿فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] ومن ردّه الله لم أشتغل بإصلاح مهمّاته». التفسير الكبير، سورة الأعراف (٧): الآية ١٩٦.

(٣) مسلم، كتاب الزهد، باب ١ برقم ٧٤٢٢.

أيّ الصَّدَقةِ أعظَمُ أجرًا؟ قال: «أن تصدَّقَ وأنت صحيحٌ شَحيحٌ، تخشَى الفقرَ وتأمُلُ الغِنى، ولا تُمهِلْ حتّى إذا بَلَغتِ الحُلقومَ قلتَ: لفلانٍ كذا، ولفلانٍ كذا، وقد كان لفلانٍ»(١).

ـ تقولُ السيّدةُ عائشةُ أُمُّ المؤمنينَ رضي الله عنها: أنّهم ذَبَحوا شاةً (وقَسَموا لحومَها بينَ المساكين) فقال النّبيُّ ﷺ: «ما بقيَ منها؟». قالت ما بقي منها إلّا كَتِفُها. قال: «بقيَ كلُّها غيرَ كَتِفِها»(٢)، يعني: أنّ الذي تَمَّ تقسيمُه في سَبيل الله هو الذي حُفِظ في الآخِرةِ لنا، أما لحمُ الكتِف فهو الذي سيفنَى لأنّنا سنأكُلُه.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أيُّكم مالُ وارثِه أحبُّ إليه من مالِه؟»، قالوا: يا رسولَ الله، ما منّا أحدٌ إلّا مالُه أحبُّ إليه. قال: «فإنّ مالَه ما قَدَّم (أي: للآخرة)، ومالُ وارثِه: ما أَخَّر»(٣).

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

١٠ ـ يعني: أنّ النبيَّ ﷺ يدعوكم إلى التوحيد، وقد بَيَّن لكم أيضًا الدَّلائلَ على التوحيد، فما الذي جَرى لعقولِكم وأَفْهامِكم إذْ لا تؤمنونَ برَغْم كلِّ هذا؟ وما حُجَّتُكم في عَدَم إيمانِكم بعدَ الدّلائلِ والمعجِزات؟ معَ أنّ اللهَ تعالى قد أخَذ الميثاقَ من أرواحِكم قبلَ ذلك بكثير، وهو الذي نقولُ له: «ميثاقُ ألستُ»، ويُمكنُك مراجعةُ تفاصيلِه في تفسير الآية رقم ١٧٢ من سُورة الأعراف، يعني: أنّ اللهَ تعالى أَخْرج أرواحَ بني الإنسانِ جميعًا من ظهرِ سيّدِنا آدمَ عليه السلام، وجَمَعها في وادي النُّعمانِ المتَّصل بجَبَل عَرَفات، مثلَما وَرَد عن أُبيٍّ بن كعبٍ في قولِ الله عزَّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ

(١) البخاري، كتاب الزكاة، باب ١١ برقم ١٤١٩.
(٢) الترمذي، صفة القيامة، باب ٣٣ برقم ٢٤٧٠.
(٣) البخاري، كتاب الرقاق، باب ١٢ برقم ٦٤٤٢.

رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآيَةَ، قال: «جَمَعَهم فجَعَلَهم أرواحًا، ثمّ صَوَّرهم فاستَنْطقَهم فتكلَّموا، ثمّ أخَذ عليهمُ العهدَ والميثاقَ، وأَشْهَدَهم على أنفُسِهم، ألستُ بربِّكم؟ قال: فإنّي أُشهدُ عليكم السّماواتِ السّبعَ والأرَضينَ السّبعَ، وأُشهِدُ عليكم أباكم آدمَ أنْ تقولوا يومَ القيامة: لم نَعلَمْ بهذا، اعلَموا أنّه لا إلَه غيري، ولا ربَّ غيري، فلا تُشرِكوا بي شيئًا، وإنّي سأُرسلُ إليكم رُسُلي يُذكِّرونكم عَهْدي وميثاقي»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا عُبادةُ بنُ الصّامتِ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال وحولَه عصابةٌ من أصحابِه: «بايِعُوني على أنْ لا تُشركوا بالله شيئًا، ولا تَسرِقوا، ولا تَزْنوا، ولا تقتُلوا أولادَكم، ولا تأتُوا ببُهتانٍ تفتَرونَه بينَ أيديكم وأرجُلِكم، ولا تَعصُوا في معروفٍ، فمَن وَفَى منكم فأَجرُه على الله، ومَن أصابَ من ذلك شيئًا فعوقبَ في الدُّنيا فهو كفّارةٌ له، ومن أصابَ من ذلك شيئًا ثمّ سَتَرَه اللهُ، فهو إلى الله: إن شاء عَفَا عنه، وإن شاء عاقَبَه». فبايَعْناهُ على ذلك[٢].

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾

١١ ـ أعطَى اللهُ تعالى عبدَه الحَبيبَ سيّدَنا محمدًا ﷺ المعجِزاتِ الواضحات، حتى تؤمنوا بنُبوّتـِه، وأَنْزلَ عليه آيـاتِ القرآنِ الكريم البيِّنات حتى يُخرِجَكم من ظُلماتِ الكُفرِ إلى نُورِ الإيمان، فاللهُ تعالى يقينًا مُشفِقٌ عليكم غايةَ الشَّفَقة، ورحيمٌ بكم غايةَ الرَّحمة.

---

(١) مسند أحمد، ٥: ١٣٥.

(٢) البخاري، كتاب الإيمان، باب ١١ برقم ١٨.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

١٢ ـ المالكُ الحقيقيُّ لكلِّ خزائنِ الأرضِ والسَّماء هو اللهُ تعالى، وقد أعطاكُم بعضَ مالِه بصفةٍ مؤقَّتة، ثم أمَرَكم بأنْ تُنفِقوا بعضًا منه، فكم هو نُكرانٌ للجميل وجُحودٌ بالمعروف أن لا تُنفِقوا من مالِه الذي أعطاهُ لكم في سَبيلِه، ولو أنّكم مِتُّم وترَكتُم المالَ خَلفَكم دونَ أن تُنفِقوه في سَبيل الله، فلن يَنفعَكم هذا المالُ في شيءٍ، ولو أنّكم أَنْفقتُموه بيدِكم في سَبيل الله فسيكونُ لكم به في الآخِرة أجرٌ عظيمٌ.

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾

١٣ ـ في هذه الآيةِ الكريمةِ بيَّن اللهُ تعالى طبقتَيْنِ من الصَّحابةِ الكرام رضوانُ الله عليهم: طبقةٌ هم الذين أَنْفَقوا أموالَهم في سَبيل الله قبلَ فتح مكّةَ، وحارَبوا الكفّارَ وقاتَلُوهم، والطبقةُ الثانية: هم الذين أَنْفقوا أموالَهم في سَبيل الله بعدَ فتح مكّةَ وحارَبوا الكفّارَ وقاتَلُوهم، وفي نفسِ الوقت أَخبَر اللهُ تعالى أنّ مقامَ الصَّحابةِ الكرام في الطبقةِ الأُولى أعلى وأرفَعُ قياسًا بمَن هم في الطبقةِ الثانية؛ لأنّ عددَ المسلمينَ قبلَ فتح مكّةَ كان قليلًا، وكانوا ضُعفاءَ ماليًّا، ولهذا كان الإنفاقُ في سَبيل الله في الفترةِ الأولى، وكذا المشاركةُ في القتالِ أمرًا في غايةِ الصُّعوبة، في حينَ أنّ عددَ المسلمينَ بعدَ فتح مكّةَ قدِ ازداد، وتحسَّنت أحوالُهم الماليّةَ، ولهذا كان هذانِ الأمرانِ (الإنفاقُ والمشاركةُ في القتال) في الفترةِ الثانية أيسَرَ من سابقتِها.

ويُعلَمُ منه أنّ العبادةَ التي تعترضُها مُعوِّقاتٌ ومصاعبُ أكثر، هي التي يكونُ أجرُها وثوابُها عندَ الله أعظمَ، والذين يُضحُّونَ من أَجْل الإسلام في وقتِ الشدائدِ مقامُهم عندَ الله أعلى وأرفَعُ من باقي المسلمين، ولهذا فإنّ مقامَ سيّدِنا أبي بكرٍ

الصدِّيق ـ عندَ أهل السُّنة ـ رفيعٌ؛ لأنه أولُ مَن أَسْلَم من الرِّجال، ووَقَف إلى جانبِ النبيِّ ﷺ في أصعبِ الظروف، وأنْفق أموالَه في سَبيل الله، وقاتَلَ الكفّارَ أيضًا، ولهذا جَعَله النبيُّ ﷺ في آخِر حياتِه الطاهرةِ إمامًا في المسجدِ النَّبويِّ، واختارَه الصّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم بعدَ انتقالِ النبيِّ ﷺ إلى الرَّفيقِ الأعلى ليكونَ خليفةً عليهم.

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أَنْزِلوا النّاسَ منازلَهم»(1).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي اللهُ عنه: رَآني رسولُ الله أمشي أمامَ أبي بكر، فقال: «يا أبا الدَّرداء، أتمشي أمامَ مَن هو أفضَلُ منكَ في الدُّنيا والآخرة؟ فو الذي نفسُ محمّدٍ بيدِه، ما طَلَعت الشّمسُ ولا غَرَبت على أحدٍ بعدَ النّبيِّينَ والمرسَلينَ أفضَلَ من أبي بكر»(2).

يقولُ المفسِّرون: إنّ هذه الآيةَ «نَزَلت في أبي بكرٍ رضي الله عنه، وفيها دليلٌ واضحٌ على تفضيل أبي بكرٍ رضي الله عنه وتقديمِه؛ لأنه أولُ مَن أَسْلَم وأولُ مَن أَنْفق مالَه في سَبيل الله وذبَّ عن رسولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسَلَّم»(3).

ويقولُ الإمامُ فخرُ الدِّين الرازي: «واعلَمْ أنّ الآيةَ دَلَّت على أنّ مَن صَدَر عنه الإنفاقُ في سَبيل الله، والقتالُ معَ أعداءِ الله قبلَ الفتح، يكونُ أعظمَ حالًا ممّن صَدَر عنه هذانِ الأمرانِ بعدَ الفتح، ومعلومٌ أنّ صاحبَ الإنفاق هو أبو بكرٍ، وصاحبَ القتال هو عليٌّ، ثمّ إنّه تعالى قَدَّم صاحبَ الإنفاقِ في الذِّكر على صاحبِ القتال، وفيه إيماءٌ إلى تقديم أبي بكرٍ، ولأنّ الإنفاقَ من بابِ الرّحمة، والقتالَ من بابِ الغضَب، وقال

---

(1) أبو داود، كتاب الأدب، باب ٢٠ برقم ٤٨٤٢.

(2) السيرة الحلبية، ٢: ٥٦.

(3) صفوة التفاسير، وتفسير القرطبي.

تعالى: «سَبَقَت رحمتي غَضَبي»، فكان السَّبْقُ لصاحبِ الإنفاق، فإنْ قيل: بل صاحبُ الإنفاقِ هو عليٌّ، لقولِه تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الإنسان: ٨]. قلنا: إطلاقُ القولِ بأنّه أَنْفقَ لا يتحقَّقُ إلّا إذا أَنْفقَ في الوقائع العظيمةِ أموالًا عظيمةً، وذَكَر الواحديُّ في «البسيط» أنّ أبا بكرٍ كان أوّلَ مَن قاتَلَ على الإسلام، ولأنّ عليًّا في أوّلِ ظهورِ الإسلام كان صبيًّا صغيرًا، ولم يكنْ صاحبَ القتال، وأما أبو بكرٍ فإنّه كان شيخًا مقدَّمًا، وكان يَذُبُّ عن الإسلام حتّى ضُرِب بسببِه ضربًا أَشْرفَ به على الموت»(١).

## فضائل سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه

ـ تقولُ السيِّدَة عائشةُ رضي الله عنها: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا ينبغي لقومٍ فيهم أبو بكرٍ أن يؤمَّهم غيرُه»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما لأحدٍ عندَنا يدٌ إلّا وقد كافَيْناهُ، ما خَلا أبا بكرٍ، فإنّ له عندَنا يدًا يكافئُه اللهُ بها يومَ القيامة، وما نَفَعَني مالُ أحدٍ قطُّ ما نَفَعَني مالُ أبي بكرٍ، ولو كنتُ متَّخِذًا خليلًا لَاتَّخذتُ أبا بكرٍ خليلًا، ألا وإنّ صاحبَكم خليلُ الله»(٣).

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: قال لي رسولُ الله ﷺ في مرضِه: «ادعي لي أبا بكرٍ وأخاكِ حتّى أكتُبَ كتابًا، فإنّي أخافُ أن يتمنَّى مُتَمَنٍّ ويقولَ قائلٌ: أنا أَوْلى. ويَأبَى اللهُ والمؤمنونَ إلّا أبا بكرٍ»(٤).

---

(١) التفسير الكبير، سورة الحديد (٥٧): الآية ١٠.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٤٣ برقم ٣٦٧٣.

(٣) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣٤ برقم ٣٦٦١.

(٤) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب ١ برقم ٦١٨١.

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: لمّا مَرِض النّبيُّ ﷺ مرضَه الّذي مات فيه أتاه بلالٌ يؤْذِنُه بالصّلاة، فقال: «مُروا أبا بكرٍ فلْيُصَلِّ». قلت: إنّ أبا بكرٍ رجلٌ أَسِيفٌ، إنْ يقُمْ مقامَك يبكي فلا يَقدِرُ على القراءة. قال: «مُروا أبا بكرٍ فلْيُصَلِّ». فقلتُ مِثلَه فقال في الثّالثةِ أو الرّابعة: «إنّكنّ صَواحبُ يوسُف، مُروا أبا بكرٍ فلْيُصَلِّ». فصَلّى، وخَرَج النّبيُّ ﷺ يُهادَى بينَ رجُلَيْن، كأنّي أنظُرُ إليه يَخُطُّ برِجلَيْه الأرضَ، فلمّا رآه أبو بكرٍ ذَهَب يتأخَّرُ، فأشارَ إليه أنْ صَلِّ، فتأخَّر أبو بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ وقَعَد النّبيُّ ﷺ إلى جَنْبِه، وأبو بكرٍ يُسمعُ النّاسَ التّكبيرَ»[1].

ـ رُويَ عن سيّدِنا عبدِ الله بن عُمرَ رضي اللهُ عنه، أنه قال: كنتُ عندَ النّبيِّ ﷺ وعندَه أبو بكرٍ وعليه عباءةٌ قد خَلَّلها في صدرِه بخِلالٍ، فنَزَل جِبريلُ فقال: يا نبيَّ الله، ما لي أرى أبا بكرٍ عليه عباءةٌ قد خَلَّلها في صدرِه بخلالٍ؟ فقال: «قد أَنْفقَ علَيَّ مالَه قبلَ الفتح»، قال: فإنّ اللهَ يقولُ لك: اقرَأْ على أبي بكرٍ السّلامَ وقل له: أراضٍ أنت في فقرِك هذا أم ساخطٌ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «يا أبا بكرٍ، إنّ الله عزّ وجلّ يقرَأُ عليك السّلامَ ويقول: أراضٍ أنت في فقرِك هذا أم ساخطٌ»؟ فقال أبو بكرٍ: أأسخَطُ على ربّي؟ إنّي عن ربّي لَراضٍ! إنّي عن ربّي لَراضٍ! إنّي عن ربّي لَراضٍ! قال: «فإنّ اللهَ يقولُ لك: قد رَضِيتُ عنك كما أنت عنّي راضٍ»، فبكى أبو بكرٍ، فقال جِبريلُ عليه السّلام: والّذي بَعَثَك يا محمّدُ بالحقّ، لقد تخَلَّلتْ حَمَلةُ العرشِ بالعبيِّ منذ تَخَلَّل صاحبُك هذا بالعباءة»[2].

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

١٤ ـ مثلَما أنّ الأنبياءَ جميعًا سواءٌ في النُّبوّةِ نفسِها، لكنْ يفضُلُ بعضُهم بعضًا

---

(١) البخاري، كتاب الآذان، باب ٦٧ برقم ٧١٢.

(٢) التفسير المنير، وتفسير القرطبي، سورة الحديد (٥٧): الآية ١٠.

في الكمالاتِ والمراتب، كذلك فإنّ الصَّحابةَ جميعًا سواءٌ في كونِهم صحابةً، لكنْ يَفضُلُ بعضُهم بعضًا في الكمالاتِ والمراتبِ أيضًا، وفي هذه الآيةِ فضَّلَ اللهُ تعالى الذين أَنْفقوا من أموالِهم قبلَ الفتح على الذين أَنْفقوا من أموالِهم بعدَ الفتح، ولكنّ الوعدَ بالخير، أي: بالمغفرةِ والجنّة، هو للصَّحابةِ جميعًا، سواءٌ كانوا من الطبقةِ الأُولى أم من الطبقةِ الثانية؛ لأنّ كلَّ واحدٍ من هؤلاءِ قد بَذَل غايةَ جُهدِه حسَبَ استطاعتِه في نشرِ الإسلام، واللهُ تعالى راضٍ عنهم جميعًا، فهم أولئك النفوسُ القُدُسيّةُ الذين يُمثِّلونَ واسطةً بيْنَ النبيِّ ﷺ وأُمتِه، ولم يكنْ هناك سواها طريقٌ لكي يَصِلَ القرآنُ الكريمُ والسُّنّةُ النّبويّةُ المُطهَّرةُ إلى الأُمةِ المسلمة، ولهذا فإنّ زمانَهم هو خيرُ الأزمِنة، ولا يستطيعُ ثوابُ أعظمِ حسَناتِنا أن يكونَ ولو في مثلِ ثوابِ أقلِّ حسَناتهم.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أنّ أحَدكم أَنْفق مِثلَ أحدٍ ذهبًا ما بَلَغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه»(١).

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ

---

(١) البخاري، فضائل الأصحاب، باب ٥ برقم ٣٦٧٣.

فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٩﴾

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾

١٥ ـ المرادُ بالقرضِ الحسَن: ذلك القرضُ الذي يُقدِّمُه رجلٌ غنيٌّ إلى مَن يحتاجُه خالصًا لنَيْل رضا الله تعالى، ولا يتقاضَى عليه فائدةً أو ربحًا، على سَبيل المثال: لو أعطَى أحدٌ محتاجًا قَرْضًا حسَنًا بقيمةِ ألفِ جُنَيْه، فعلى مَن أخَذ القرضَ أن يُعيدَه إلى مَن أَقْرضَه في الوقتِ المحدَّد، والآنَ تخيَّلْ إلى أيِّ مدًى يكونُ فضلُ الله تعالى وكرَمُه، إذ إنه هو الغنيُّ المستغني، ولا يحتاجُ إلى أحدٍ، فهو نفسُه الذي يُعطي المالَ للإنسان، ثم يقولُ له أنِ احتفِظْ بالجُزءِ الأكبر من المالِ لنفسِك، ولكنْ أَنْفِقْ جزءًا منه لخيرِ الآخَرين، والفائدةُ هنا يَجنيها بَنو الإنسان، ولكنّ شأنَ كرَم الله تعالى أن يتعهَّدَ به قرضًا حسَنًا عليه، وسيُعيدُه إلى الإنسانِ أضعافًا مضاعَفةً في الوقتِ الذي يكونُ فيه الإنسانُ في أمسِّ الحاجةِ إليه.

﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾

١٦ ـ حينَ يَفرُغُ الناسُ من ميزانِ العدل، ويتَّجهُونَ إلى الصِّراطِ المستقيم، سيكونُ هناكَ ظلامٌ دامس، وستَبرُقُ صحائفُ الأعمال لامعةً في أيدي أهل الإيمان اليُمنى من الرِّجالِ والنساء، وسيكونُ أمامَهم نورُ إيمانِهم وأعمالِهم الصَّالحةِ يضيءُ، ولكنّ هذا النُّورَ لن يضيءَ إلّا طريقَ أهل الإيمانِ فقطْ، مثلَما يَربطُ كلُّ واحدٍ من العاملينَ في الأنفاقِ والمناجم والظَّلام كَشّافًا على رأسِه ليضيءَ له،

وهذا الكَشّافُ يضيءُ لصاحبِه فقطِ الطريقَ، ولا يتفَرَّقُ الضوءُ إلى طريقِ الآخَرين، كذلك ستكونُ وجوهُ أهلِ الإيمان مِثلَ الكَشّافات، تضيءُ لهم طريقَهم، ولكنّها لا تضيءُ طريقَ الآخَرين، وحينَ يَعبُرُ أهلُ الإيمانِ الصِّراطَ في ضوءِ هذا النُّور تُبشِّرُهم الملائكةُ بجنّةِ الخُلد التي تَجري فيها الأنهار، ومَن فازَ بالجنّة يومَ القيامة فاعلَمْ أنه قد فاز فوزًا عظيمًا.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾

١٧ ـ في ذلك اليوم سيكونُ المنافقونَ من الرِّجالِ والنساءِ تائهينَ يَعْمَهُونَ في الظلام، وسيَرْجُونَ أهلَ الإيمانِ أنِ التفِتوا ناحيتَنا قليلًا، حتى نستطيعَ أن نتحسَّسَ نحن أيضًا طريقَنا في نورِ وجوهِكم، وسيُجيبُهم أهلُ الإيمانِ أنِ ارجِعوا إلى حيثُ أُنعِم علينا بهذا النُّور، وابحَثوا أنتم أيضًا هناك، وما أن يلتفِتوا إلى الوراءِ حتى يُقامَ جدارٌ بينَهم وبينَ أهلِ الإيمان، وهذا الجِدارُ فاصلٌ بينَ الجنّةِ والنار، وسيكونُ فيه بابٌ، أمّا الجنّةُ فستكونُ على الجانبِ الداخليِّ للباب، وهذا الجانبُ رحمةٌ كلُّه، وأمّا من ناحيةِ الجانبِ الخارجيِّ له فستكونُ جهنَّمُ، وهو جانبُ عذابٌ كلُّه.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾

١٨ ـ حين يَحُولُ الجدارُ بينَ المنافقينَ وأهلِ الإيمان، ويبقَى المنافقونَ في جانبِ الظلام والعذاب، عندَئذٍ يُنادُونَ على أهل الإيمان قائلينَ: لقد كنّا في الدُّنيا ضمنَ جماعتِكم، وكنا نُصلِّي معَكم، فلماذا لا تأخذونَنا اليومَ معَكم؟ ولماذا تركتُمونا في الظلام هكذا؟ وسيجيبُهم أهلُ الإيمان قائلين: صحيحٌ أنّكم كنتُم

تعيشونَ معَنا، وكنتُم تُظهِرونَ أنفُسَكم على أنّكم مؤمنونَ، ولكنْ كانت بداخلِكم العيوبُ التالية، وهي التي فرَّقَتْكم عنا اليومَ:

١ ـ لقد وَضَعتُم أنفُسَكم في فتنةِ النِّفاق، ولا يمكنُ أن يُحِبَّ أحدٌ في الدُّنيا منافقًا، ولكنَّكم بَلَغْتُمَ المدَى في نفاقِكم، بحيث اختَرتُم النفاقَ حتى معَ الله تعالى! ومعَ دينِه، ولهذا كان ينبغي أن يكونَ هذا مصيرَكم.

٢ ـ كنتُم معَنا في الظاهر، لكنَّكم كنتُم متآمِرينَ معَ الكُفّارِ في الداخل، حتى تبقَى علاقتُكم بهم أيضًا، وتنتظرونَ الجماعةَ التي تنتصرُ فتنضَمُّونَ إليها.

٣ ـ كنتُم تَشُكُّونَ في دينِ الإسلام، ولو أنّكم كنتُم على يقينٍ من أنّ الإسلامَ دِينُ الحق، لآمنتُم به من قلوبِكم، لكنَّكم أسلَمْتُم بلسانِكم فقط لتخدَعوا المسلمينَ بهذا.

٤ ـ كنتُم تَتآمَرونَ على المسلمينَ ليلَ نهارَ، وكنتُم تعمَلونَ دائمًا على تدميرِهم، إلى أنْ جاءكم الموتُ، ولم تتحقَّقْ أمانيُّكم، ولهذا فإنّ آمالَكم الباطلةَ هذه هي التي أوصلَتْكم إلى هذا الظلام، حيث لا طريقَ مطلَقًا لنجاتِكم.

٥ ـ خَدَعكم الشّيطانُ، وانخَدعتُم بألَاعِيبِه، ولم تستطيعوا إدراكَ أنه عدوٌّ مُبينٌ لكم، ولهذا ستَمكُثونَ معه في جهنَّمَ إلى الأبد.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

١٩ ـ حين يَصدُرُ الحُكمُ على المنافقينَ بأنكم ستَخلُدونَ في جهنَّمَ إلى الأبد، في ذلك الوقتِ لو أردتُم أيُّها المنافقونَ أن تَفتَدوا أنفُسَكم من نارِ جهنَّمَ بأيِّ مقابلٍ

مهما كان، فلن يُقبَلَ منكم؛ لأنه أولًا: لن يكونَ لديكُم أيُّ شيءٍ يمكنُ أن تُقدِّموه مقابِلًا لنجاتِكم، وعلى افتراضِ أنه سيكونُ لدَيْكم شيءٌ تقدِّمونَه، فإنه لن يُقبَلَ منكم؛ لأنّ يومَ القيامة ليس للعمَل، وإنّما للحسابِ والثوابِ والعقاب.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

٢٠ ـ في هذه الآيةِ تنبيهٌ للغافلينَ من المسلمينَ بأنه لا أحدَ منكم يضمَنُ الحياةَ في شيءٍ، ومَلَكُ الموتِ يمكنُ أن يأتيَكم في أيِّ وقت، وينطفئَ مصباحُ حياتِكم، ولهذا آنَ الأوانُ أن تَخضَعوا لذِكرِ الله وتُسلِّموا لدِينِ الحق، ولا تكونوا كأهلِ الكتابِ الذين كانوا يعمَلون بدِينِهم، ولكنّهم بعدَ مرورِ وقتٍ طويل على وفاةِ نبيِّهم، ألقَوْا بأحكام كتابِهم خَلْفَ ظهورِهم، وقَسَت قلوبُ أكثرِهم بسببِ غَفْلتِهم المتواصلة، بحيث أصبحوا عُصاةً لله تعالى.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

٢١ ـ مثلَما تخضَرُّ الأرضُ الجافّةُ الميِّتةُ وتَيْنَعُ حينَ تَنزِلُ عليها أمطارُ الرحمة وتعودُ إليها الحياةُ، كذلك يزولُ صَدأُ الغفلةِ من القلبِ الغافل حين يضيءُ شَمعُ ذِكرِ الله فيه، فتعودُ الحياةُ إلى هذا القلبِ بفضلِ ذِكرِ الله تعالى.

ـ يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ: «إنّ لكلِّ شيءٍ سِقَالةً (جلاءٌ)، وإنّ سِقَالةَ (جَلاءَ) القلوبِ: ذِكرُ الله عزّ وجلّ، وما مِن شيءٍ أنجى من عذابِ الله من ذِكرِ الله»[1].

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي، ١: ٣٩٦ برقم ٥٢٢. والسقالة ـ بالكسر ـ يجوز بالسين والصاد.

ـ يقولُ أبو موسى رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَثَلُ الّذي يَذكُرُ ربَّه والّذي لا يَذكُرُ ربَّه مَثَلُ الحيِّ والميّت»[1].

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾

٢٢ ـ راجعْ ـ لتفسيرِ هذه الآيةِ ـ الحاشيةَ رقم ١٥.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

٢٣ ـ الصّدِّيقُ يقالُ: للذي يكونُ في غايةِ الصِّدق، أو مصَدِّقًا بالرسالةِ والنُّبوةِ والتوحيد، والشهيدُ يقالُ: للذي يَشهَدُ بالتوحيدِ والنُّبوةِ والرِّسالة، أو الذي يُقتَلُ في سبيل الله، ولأنه قيلَ لكلِّ مؤمنٍ صِدّيقٌ وشهيدٌ في هذه الآية، لهذا يكونُ معنى الصّدِّيقِ هنا هو: المُصدِّقُ بالتوحيدِ والنُّبوةِ والرِّسالة، ويكونُ معنى الشَّهيدِ هو: الشاهدُ بالتوحيدِ والنُّبوةِ والرِّسالة، وهذا المعنى ينطبقُ على كلِّ مؤمن.

ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

---

(١) البخاري، كتاب الدعوات، باب ٦٦ برقم ٦٤٠٧، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب النافلة في بيته برقم ٧٧٩.

بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾

**٢٤** ـ هذه الدُّنيا مزرَعةُ الآخِرة، ولهذا فإنّ أهلَ الله يُعِدُّونَ منها ذخائرَ الحسَناتِ للآخِرة، أمّا الذين يعتقدونَ أنّ هذه الدُّنيا هي كلُّ شيءٍ، فإنّها تكونُ بمثابةِ الخَديعةِ والسَّرابِ الخالصِ لهم، فتَضيعُ طفولتُهم في اللَّهوِ واللعب، ويَضيعُ شبابُهم في التزيُّنِ والتجمُّل والتفاخُرِ فيما بينَهم، بينَما في الشيخوخةِ يَلحَقُ بهم هَمُّ الأولادِ والانشغالِ بهم، ومَثَلُهم كمَثَلِ المطرِ الذي يَنزِلُ على الأرضِ فتخضَرُّ وتَينَع، وتَظهَرُ المحاصيلُ فيها، ويَسعَدُ الزارعُ بها حينَ يراها، وبعدَ عدّةِ أيام تجِفُّ الزُّروعُ الخَضْراء، ويمَيلُ لونُها إلى الاصفِرار، وعندَئذٍ إمّا أن يَحصُدَها الزارعُ، أو أن تصيبَها آفةٌ تقضي عليها، ولا يبقَى في هذه المزرَعة أثرٌ لخُضرةٍ أو يُنوعة. وهذا هو حالُ هذه الحياةِ الدنيا ومالِها ومتاعِها، كلُّ هذا فانٍ وأسبابٌ للخِداع والاغتِرار، والشخصُ الذي يستغرقُ نفسَه في اللَّهوِ واللعبِ في هذه الدُّنيا العارضة المؤقَّتة، سيكونُ له في الآخِرة عذابٌ شديد، أمّا الذي يحاولُ في هذه الدُّنيا أن يُرضيَ ربَّه، فإنّ الله تعالى يغفرُ ذنبَه، ويُنعِمُ عليه برِضاهُ.

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾

**٢٥** ـ هذه الدُّنيا ومالُها ومتاعُها عارضةٌ مؤقَّتةٌ، وأسبابٌ للاغترارِ والخِداع، ولهذا لا تُفسِدوا آخِرَتكم بالانهماكِ فيها، وإنّما ارجِعوا إلى ربِّكم، وإن كنتُم

في السابقِ عُصاةً غافلينَ، فأسرِعوا بالتَّوبة إلى الله، حتى يَغفرَ لكم خطاياكم، ويُدخلَكم ـ من فضلِه وكرَمِه ـ جنةً واسعةً عريضةً أعَدَّها لعبادِه المؤمنين، هذه الجنّةُ التي عَرْضُها السّماواتُ والأرضُ، فكم يكونُ طولُها يا تُرى؟

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾

٢٦ ـ أيُّ مصيبةٍ تحُلُّ عليكم، بشكلٍ انفراديٍّ أو بشكلٍ جماعيٍّ، هي في عِلم الله من قَبْلُ، ومكتوبةٌ في اللَّوح المحفوظ، وليس من الصَّعبِ على الله تعالى كتابةُ أيِّ شيءٍ في اللَّوح المحفوظِ قبلَ أن يقَعَ أو يحدُثَ؛ لأنّ عِلمَه سبحانه وتعالى محيطٌ بكل شيءٍ سيحدُثُ حتى يوم القيامة.

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرِو بن العاصِ رضي الله عنهما: إنه سَمع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «كَتَب اللهُ مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يَخلُقَ السّمواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ»[1].

ولمزيدٍ من التفصيل عن التقديرِ والقَدَر راجعِ الحاشيةَ رقم **٣٩** للآية رقم **٤٩** من سُورة القمر (**٥٤**).

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

٢٧ ـ المصيبةُ أو النِّعمةُ التي قَدَّرها اللهُ تعالى عليكم ستَنالُكم يقينًا، والحُزنُ عندَ المصيبةِ والفرحُ عند النِّعمة أمرٌ فِطْريّ، ولكنّ اللهَ تعالى لا يحبُّ الحُزنَ الذي

---

(١) مسلم، كتاب القدر، باب ٢ برقم ٦٧٤٨.

يؤدِّي بالإنسانِ إلى اليأسِ وفُقدانِ الصَّبر، والفَرَح الذي يؤدِّي بالإنسانِ إلى الظُّلم والتكبُّر، ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يصبِرَ عندَ المصيبة، ويعمَلَ ـ جاهدًا ـ على التخلُّص منها، إلى أن يُنجيَه اللهُ منها، كما ينبغي له أن يشكُرَ اللهَ تعالى عندَ النِّعمة، ويتعاطفَ معَ خَلْقِ الله تعالى، حتى يُديمَ اللهُ عليه نِعَمَه.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾

٢٨ ـ أمَرَ اللهُ تعالى أهلَ الإيمانِ أن يُنفقوا في سَبيل الله تعالى من مالِ الله الذي أعطاهُ لهم، لكنّ الذين لا يُبالُونَ بهذا الحُكم، ويَبخَلونَ من جانب، ويُحرِّضُونَ الآخَرينَ أيضًا على البُخل من جانبٍ آخَر، هنا تنبيهٌ لهم في هذه الآيةِ بأنّهم إنْ أنفَقوا في سَبيل الله فسيؤتيهم اللهُ أجرًا عظيمًا على هذا الإنفاق، وإنْ بَخِلوا فسيكونُ بُخلُهم وبَالًا عليهم، ولن يَضُرُّوا اللهَ بهذا البُخل شيئًا؛ لأنه هو المستغني عن عبادةِ الناس وعن أموالِهم، وخزائنُه لا حدَّ لها، وهو الذي يستحقُّ الحمدَ والثّناءَ في كلِّ حال، سواءٌ حَمِدَه أحدٌ وأثنَى عليه أم لا.

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾

٢٩ ـ أرسَلَ اللهُ تعالى الرسُلَ لهدايةِ بني الإنسان، وأعطاهم المعجِزاتِ تصديقًا لنُبوَّتِهم ورسالتِهم، كما أنه أَنْزل عليهم الكتُبَ السَّماويةَ التي تُبيِّنُ للناس العقائدَ الصحيحةَ والأعمالَ الصّالحةَ، وأعطاهم أيضًا ميزانَ العَدْل، يعني: نظامَ الشريعة، حتى يقوموا بينَ الناسِ بالعدلِ والإنصاف، ويَحفَظوا حقوقَ الله وحقوقَ العباد، ولا يَضيعَ حقُّ أحدٍ، وإذا خالَفَ أحدٌ ميزانَ العدل، يجبُ عقابُه طبقًا لنظام الشَّريعة.

﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾

٣٠ ـ **الحديدُ** نعمةٌ عظيمةٌ من بَيْنِ نِعَم الله التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى.

وهو معدِنٌ في غايةِ الصَّلابة، ولا يتِمُّ إعدادُ أسلحةِ الحربِ فقطْ منه، وإنّما تُصنَعُ

منه كذلك الطائراتُ والسَّيّاراتُ والقطاراتُ والآلاتُ والماكيناتُ وأشياءُ أخرى كثيرةٌ مما يحتاجُه الإنسان.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾

**٣١** ـ من مقاصدِ إرسالِ الرسُل عندَ الله تعالى أن يَبتليَ اللهُ الناسَ، وليس ذلك لكي يَعلَمَ اللهُ حقيقةَ الناس، فاللهُ تعالى يَعلَمُ ـ تمامَ العِلم ـ حقيقةَ كلِّ شيء، ولكنْ ليُشاهدَ الناسُ بأنفُسِهم من الذي يؤمنُ برسُلِه، ويعزِّرُهم ويوَقِّرُهم دونَ أن يرى اللهَ تعالى، واللهُ تعالى قادرٌ مطلَق، ولو شاء اللهُ لنَصرَ رُسُلَه دونَ عَوْنٍ من البشَر، ولكنّه يأمُرُ الناسَ بعَوْنِ الرسُل حتى يُنفذِّوا الحُكمَ فينالوا رضا اللهِ تعالى، ويستحقُّونَ دخولَ الجنة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾

**٣٢** ـ عندما أرسَلَ اللهُ تعالى سيِّدَنا نوحًا وسيِّدَنا إبراهيمَ عليهما السَّلامُ نَبِيَّيْنِ، أعلَن أنّ كلَّ الأنبياءِ الذين سيأتونَ بعدَ ذلك، وكلَّ الكتُبِ السَّماويةِ التي ستنزِلُ عليهم، سيكونونَ جميعًا من نَسْل هذَيْنِ النّبيَّيْنِ العظيمَيْنِ.

وسيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ من نَسْل سيّدِنا نوح عليه السَّلام، وكلُّ الأنبياء والرسُلِ الذين جاءوا بعدَ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ كانوا من نَسْلِه، والأنبياءُ الذين نَزَلت عليهمُ الكتُبُ السَّماويةُ الأربعةُ المعروفةُ، يعني: التَّوراةَ والإنْجيلَ والزَّبُورَ والقرآنَ، كلُّهم كانوا من نَسْل سيّدِنا إبراهيمَ عليه السلام.

﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

**٣٣ ـ** الأقوامُ الذين أُرسِل إليهم هؤلاءِ الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلام، آمَن بعضُ الناس منهم بهم، وأكثرُهم ظلَّ عاصيًا.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾

**٣٤ ـ** أرسَلَ اللهُ تعالى سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ نبيًّا، وأعطاه الإنْجيلَ، وأَوْدعَ في قلوبِ الذين اتَّبعوه شَفَقةً ورحمةً بالآخَرين، واللهُ تعالى يقولُ عن الصَّحابةِ الكرام رضي الله عنهم جميعًا: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ويقولُ سيّدُنا النُّعمانُ بن بَشِير رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مَثَلُ الجسَد إذا اشتكَى منه عضوٌ تَداعى له سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحُمَّى»[1].

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

**٣٥ ـ** المرادُ بالرَّهبانيّة: أن ينقطِعَ الإنسانُ عن أُمِّه وأبيه وزَوْجتِه وأطفالِه والناسِ جميعًا، ويتخَلَّى عن كلِّ أعمالِ الدنيا، ثم يلجَأَ إلى الوَحْدةِ أو يتَّجِهَ إلى غابةٍ ليقضيَ بقيةَ حياتِه في العبادةِ هناك.

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٧ برقم ٦٥٨٦.

كيف بدَأَتِ الرَّهبانيّةُ في المسيحيَّة؟ ظاهرٌ أنّ الرَّهبانيَّة لا يمكنُ أن تكونَ حُكمًا من الله تعالى، وإلّا فإنّ النَّسْلَ الإنسانيَّ سينقطعُ حتمًا باعتزالِ الزَّوجات، ولو حَدَث هذا لَما بقيَ على وجهِ الأرض مسيحيٌّ واحدٌ اليومَ، وإليكّ هذا الحديثَ الشّريفَ في هذا الخصُوص فتأمَّلْه:

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: كنتُ رَدِيفَ رسولِ الله ﷺ على حمار، فقال لي: «يا ابنَ أُمِّ عبد، هل تَدري من أين أخَذَتْ بنو إسرائيلَ الرَّهبانيّةَ؟»، قلت: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: «ظَهَرت عليهمُ الجَبابرةُ بعدَ عيسى يعمَلونَ بالمعاصي، فغَضِبَ أهلُ الإيمان فقاتَلوهم، فهُزِم أهلُ الإيمانِ ثلاثَ مرّاتٍ فلم يبقَ منهم إلّا القليل، فقالوا: إنْ ظَهَرْنا لهؤلاءِ فَتَنُونا ولم يبقَ أحدٌ يدعو إليه تعالى، فتعالَوْا لنتفرَّقْ في الأرضِ إلى أن يَبعَثَ اللهُ النّبيَّ الذي وَعَدَنا عيسى به ـ يعنُونَ محمّدًا ﷺ ـ فتَفرَّقوا في غِيرانِ الجبال وأحدَثوا الرَّهبانيّةَ، فمنهم من تمسَّك بدينِه ومنهم من كَفَر»، ثمّ تلا هذه الآيةَ ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ إلى ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي: من الذين ثَبَتوا عليها، أَجْرَهم. ثمّ قال النبيُّ ﷺ: «يا ابنَ أُمِّ عبد، أتدري ما رهبانيّةُ أُمّتي؟»، قلت: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: «الهجرةُ، والصّلاةُ، والجهادُ، والصَّومُ، والحجُّ، والعُمرةُ، والتّكبيرُ على التّلاع»[1].

ويُعلَمُ من هذا الحديثِ أنّ اللهَ تعالى لم يَفرِضْ عليهم الرَّهبانيّةَ، وإنّما اختاروها هم بأنفُسِهم مضْطَرِّينَ لحمايةِ إيمانِهم ونَيْل رضا الله تعالى، وكان هذا صحيحًا تمامًا طِبقًا لحالةِ الاضْطرارِ التي كانوا يعيشونَها، وكان ينبغي لمن يأتي بعدَهم أن يختاروا الرَّهبانيّةَ في حالةِ الاضطرارِ فقط، وحين تعودُ الأمورُ إلى حالتِها الطبيعيّة يترُكونَ الرَّهبانيّةَ، لكنّهم لم يؤدُّوا حقَّ رَهبانيّةِ الاضطرارِ هذه، وجَعَلوا منها جزءًا من النَّصرانيّة حتى في الحالاتِ العاديّة، وهو أمرٌ لم يكنْ صحيحًا.

---

(١) تفسير الخازن، سورة الحديد (٥٧): الآية ٢٧.

على أيِّ حال، فإنّ النَّصارى الذين اختارُوا الرَّهبانيّةَ في بدايةِ الأمر مضْطَرِّين بغَرَضِ نَيْل رضا الله تعالى، سينالونَ الأَجْرَ عليها من الله تعالى، أمّا الذين جاءوا بعدَ ذلك، واختاروا الرَّهبانيّةَ دونَ أن تكونَ هناك ضرورةٌ إليها فإنّهم عُصاةٌ، ولن ينالوا أجرًا على رَهبانيّتِهم، ولكنّ هناك بعضَ الناسِ ممَّن أتَوْا بعدَ ذلك بَقُوا على النَّصرانيّةِ الصحيحة، إلى أنْ أدرَكوا زمنَ بَعْثةِ النبيِّ ﷺ، وآمَنوا به، فاستحَقُّوا بذلك الأجرَ العظيم.

وحيثما أثنَى الإسلامُ على بعضِ جوانبِ الرَّهبانيّة مثلَ: الحِفاظِ على الدِّين وحمايتِه، وكذا عبادةُ الله تعالى، فإنه تبرَّأَ منَ القيودِ غيرِ الجائزةِ التي فرضَتْها الرَّهبانيّةُ من قَطْع الصِّلة قطعًا تامًّا معَ الدنيا.

ـ يقولُ سيّدُنا عُروةُ رضي الله عنه: دخَلَتِ امرأةُ عثمانَ بن مَظْعونٍ ـ أحسَبُ اسمَها خَوْلةَ بنتَ حَكيمٍ ـ على عائشةَ وهي باذَّةُ الهيئة، فسألَتْها: ما شأنُكِ؟ فقالت: زوجي يقومُ اللّيلَ، ويصومُ النّهارَ، فدَخَل النّبيُّ ﷺ، فذَكَرتْ عائشةُ ذلك له، فلقيَ رسولُ الله ﷺ عثمانَ فقال: «يا عثمان، إنّ الرّهبانيّةَ لم تُكتَبْ علينا، أفما لكَ فيَّ أسوةٌ؟ فوالله إنّي أخشاكم لله، وأحفَظُكم لحدودِه»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا سَعدُ بنُ أبي وَقّاص رضي الله عنه: لمّا كان من أمرِ عُثمانَ بن مظعونٍ الّذي كان مِن تَرْكِ النّساء، بَعَث إليه رسولُ الله ﷺ فقال: «يا عثمان، إنّي لم أومَرْ بالرّهبانيّة، أرَغِبتَ عن سُنَّتي؟» قال: لا يا رسولَ الله، قال: «إنّ مِن سُنَّتي أن أُصلِّيَ، وأنامَ، وأَصُومَ، وأَطعَمَ، وأَنكِحَ، وأُطلِّقَ، فمَن رَغِب عن سُنّتي، فليس منّي. يا عثمان، إنّ لِأهلِكَ عليك حقًّا، ولنفسِك عليكَ حقًّا»[٢].

---

(١) مسند أحمد، ٦: ٢٢٦.

(٢) سنن الدارمي، كتاب النكاح، باب ٣.

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنه: جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بيوتِ أزواجِ النّبيِّ ﷺ يسألونَ عن عبادةِ النّبيِّ ﷺ، فلمّا أُخبِروا كأنّهم تَقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النّبيِّ ﷺ؟ قد غُفِر له ما تَقدَّم من ذنبِه وما تأخَّر. قال أحَدُهم: أمّا أنا فإنّي أُصلِّي اللّيلَ أبدًا. وقال آخَرُ: أنا أصومُ الدَّهرَ ولا أُفطِر. وقال آخَرُ: أنا أَعتزلُ النّساءَ فلا أتزوَّجُ أبدًا. فجاء رسولُ الله ﷺ فقال: «أنتُم الّذين قلتُم كذا وكذا؟ أمَا ـ واللهِ ـ إنّي لَأخشاكم لله وأَتْقاكم له، لكنّي أَصُومُ وأُفطِر، وأُصلِّي وأرقُد وأتزَوَّجُ النّساءَ، فمن رَغِبَ عن سُنّتي فليس منّي»(١).

الإسلامُ لا يسمَحُ باعتزالِ الدُّنيا تمامًا، كما لا يتحمَّلُ مطلقًا تَرْكَ العبادةِ والانغماسَ في اللَّهوِ والعبَثِ الدُّنيويِّ، فالإسلامُ يُعلِّمُنا التوازنَ بينَ الدُّنيا والعبادة؛ لأن الاثنَيْنِ ضروريّانِ لحياةِ الإنسان الناجحة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾

٣٦ ـ في هذه الآية ترغيبٌ لأهلِ الكتاب بأنِ اتَّقوا اللهَ تعالى، وآمِنوا بنبيِّه سيّدِنا محمدٍ ﷺ، وسيُعطيكم اللهُ تعالى لقاءَ ذلك جزءَيْنِ من رحمتِه، جزءًا على إيمانِكم بنبيِّكم، وجزءًا على إيمانِكم بسيّدِنا محمدٍ ﷺ، كما أنه سيغفرُ كلَّ خطاياكم يومَ القيامة، وسيُعطيكم نورًا تَعبُرونَ في ضوئه الصِّراطَ وتتمكَّنُونَ من دخولِ الجنة.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو بُردةَ رضي الله عنه، روايةً عن أبيه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ثلاثةٌ لهم أَجْران: رجلٌ من أهلِ الكتابِ آمَن بنبيِّه وآمَن بمحمّدٍ ﷺ، والعبدُ المملوكُ إذا أدّى حقَّ الله وحقَّ مَواليه، ورجُلٌ كانت عندَه أمَةٌ [يطأُها] فأدَّبها فأحسَنَ تأديبَها،

(١) البخاري، كتاب النكاح، باب ١ برقم ٥٠٦٣.

وعلَّمها فأحسَنَ تعليمَها، ثمّ أعتَقَها، فتزوَّجها، فله أَجْرانِ»(١).

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

**٣٧ ـ** عندَما يغفرُ اللهُ تعالى يومَ القيامة لأهلِ الكتابِ الذين آمَنوا بالنبيِّ الكريم ﷺ، ويُعطيهم نورًا يُنيرُ لهم طريقَهم إلى الجنّة، سيَعلَمُ عندَئذٍ أهلُ الكتابِ الذين لم يؤْمنوا بالنبيِّ الكريم ﷺ بأنّهم لا يَملِكونَ قُدرةً على فَضْل الله تعالى، وأنهم لن ينالوا ولو أجرًا واحدًا؛ لأنّ الإيمانَ بالنبيِّ الكريم ﷺ أصبح فرضًا بعدَ الإعلانِ عن نُبوّتِه، لكنَّهم لم يؤْمنوا به ﷺ، واختاروا الكُفرَ، ممَّا أدَّى إلى ضَياع أجرِهم الأولِ أيضًا، ولو كانوا آمَنوا بالنبيِّ الكريم ﷺ لَقُبلت حسَناتُهم الأُولى أيضًا، ولكنْ ضاعَ منهم كلُّ شيءٍ بسببِ إنكارِهم. على أيِّ حال، اللهُ تعالى قادرٌ مطلَق، وهو الذي يتفضَّلُ على مَن يُطيعُه ويتكرَّمُ عليه.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة الظهرِ من يوم السبت ١٨ سبتمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٩ شوال ١٤٣١هـ**

**هذا، وقدِ اكتَملَ تفسيرُ سُورةِ «الحديد» بفضل الله تعالى وكرمِه في خمسة أيام فقط، أي: من ١٣ إلى ١٨ سبتمبر، وهذا يعني أنني بدأتُ تفسيرَ الجزءِ السابع والعشرين في ٣١ يوليو، واكتَمل اليومَ في شهرٍ وثمانيةَ عشَرَ يومًا، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.**

---

(١) البخاري، كتاب العلم، باب ٣٢ برقم ٩٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# (٥٨) سُورَةُ المُجَادَلَةِ

هذه السُّورةُ مدَنيّةٌ، واسمُها: «المُجادلة»، وهو مأخوذٌ من الآية الأُولى منها.

## المجادلة

إذا قرَأْنا كلمةَ «المُجادلة» بدالٍ مفتوحة يكونُ معناها: «الجدال والنِّقاش»، وإذا قرَأْناها بدالٍ مكسورة يكونُ معناها: «المرأةُ المُجادِلة».

ويُذكَرُ أنّ سببَ نزولِ هذه السُّورة هو أنّ سيّدَنا أَوْسَ بنَ الصّامتِ رضي الله عنه قال لزوجتِه خَوْلةَ بنتِ ثَعْلبةَ بن مالك ـ في شيءٍ راجَعَتْه فيه: «أنتِ علَيَّ كظَهْرِ أُمِّي»، وكان الرجلُ في الجاهليّةِ إذا قال لزوجتِه ذلك، حَرُمتْ عليه، فنَدِم من ساعتِه، فدَعاها فأَبَتْ وقالت: والذي نفسُ خولةَ بيدِه، لا تَصلُ إليِّ وقد قلتَ ما قلتَ حتى يَحكُمَ اللهُ ورسولُه ﷺ، فأتَتْ رسولَ الله ﷺ، فقالت: يا رسولَ الله، إنّ أَوْسًا تزوَّجَني وأنا شابّةٌ مرغوبٌ فيَّ، فلمَّا خَلَا سِنّي، ونُثِرت بَطْني (كثُر وَلَدي)، جَعَلني عليه كأُمِّه، وتَرَكَني إلى غيرِ أحدٍ، فإنْ كنتَ تجدُ لي رخصةً يا رسولَ الله تُنعشُني بها وإيّاه، فحدِّثْني بها.... ورُوي أنها قالت: إنّ لي صِبْيةً صِغارًا، إنْ ضمَمتُهم إليه ضاعوا، وإن ضمَمتُهم إليَّ جاعوا، وجَعَلتْ ترفَعُ رأسَها إلى السَّماء، وتقولُ: اللهُمَّ إنّي أشكو إليك، اللهُمَّ فأَنْزِل على لسانِ نبيِّك[١].

---

(١) التفسير المنير.

وهكذا استجابَ اللهُ تعالى دعاءها، ونَزَلتْ هذه السُّورةُ، وقد سُمِّيت هذه السُّورةُ باسم «المجادَلة» نسبةً إلى جِدال السيّدةِ خولةَ رضي اللهُ عنها.

## الظهار

في الجزيرةِ العربيّة قبلَ الإسلام كان الشَّخصُ إذا قال لزوجتِه: «أنتِ علَيَّ كظَهْرِ أُمِّي» اعتُبِر ذلك طلاقًا، وتَحرُمُ عليه امرأتُه؛ لأنّه شبَّهها بأُمِّه، وحُكمُ الإسلام فيما يتعلَّقُ بهذا الأمرِ هو أنّ الزوجةَ لا تصبحُ أُمًّا للزَّوج إذا قال لها بلسانِه: «أنتِ علَيَّ كظَهْرِ أُمّي»، وبالتالي لا يقَعُ طلاقُها، إلّا أنّ الإسلامَ مَنَع من مِثْل هذا القولِ، فإذا قال زوجٌ مِثلَ هذا الكلام لزوجتِه يكونُ عليه أداءُ كفّارة، ويقالُ لهذا الأمرِ في المصطلح الفِقهيِّ: «الظِّهار».

## حدود الله

الذين يتعدَّوْنَ حدودَ الله تعالى المقرَّرةَ ينبغي لهم أن يَعتبِروا من المصير السيِّئ للأقوام السابقة، وما هو التبريرُ الذي سيقدِّمونَه يومَ القيامة عندَما يُسأَلون؟

## المنافقون

جاء في الآيةِ السابعةِ والآية الثامنةِ من هذه السُّورة تنبيهٌ للمنافقينَ، بأنّ المؤامراتِ التي تَحيكونَها ضدَّ الإسلام، وتَهامُسَكم حولَه فيما بينَكم، يَعلَمُه اللهُ كلَّه تمامَ العِلم، وإنْ لم تَرجِعوا عن تآمُرِكم هذا فسيكونُ مصيركم في الآخِرة هو جهنَّمُ.

## المؤمنون

في الآيتَيْنِ: التاسعةِ والعاشرةِ من هذه السُّورة تعليمٌ للمسلمينَ بأنّ تهامُسَ

المنافقينَ فيما بينَهم وتناجِيَهم لن يَضُرَّكم في شيء، ولهذا لا تتحدَّثوا بالإثم والعدوانِ فيما بينَكم عندَما تَخْتَلُونَ بأنفُسِكم، وإنّما تحدَّثوا فيما بينكم بالبرِّ والتقوى، وتوكَّلوا على الله، وهو حاميكم وناصرُكم.

## آداب المجلس

إذا جلَستُم في مجلسٍ من المجالس، ولَحِق بكم أحدٌ من بعدِكم، فافسَحوا مكانًا له ليجلسَ فيه، وإذا طلَبَ منكم مضيفُ المجلسِ المغادرةَ فعليكم أن تغادِروا برضًى وطِيبِ خاطر، ولا تتدخَّلوا في أمورِ مُضيفِكم.

## حزب الله وحزب الشيطان

في نهايةِ السُّورة جاء بيانٌ لطائفتَيْن، الأُولى: هي حزبُ الشيطان، أي: الذين يتَّبعونَ الشّيطانَ، وهؤلاءِ همُ الأخسَرونَ في الآخِرة، والثانيةُ: هي حزبُ الله، وهم أكثرُ الناسِ حُبًّا لله تعالى ولرسولِه، وهؤلاءِ همُ المفلِحونَ في الآخِرة.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمِداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة الظهر من يوم الأحد ١٩ سبتمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ١٠ شوالٍ ١٤٣١هـ.**

❊ ❊ ❊

# سُورَةُ المُجَادلَة (٥٨)،

## مدنية (١٠٥)، آياتها (٢٢)، ركوعاتها (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ﴾

١ ـ في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى واقعةِ السيّدةِ خَوْلةَ بنتِ ثَعْلبةَ رضي اللهُ عنها، والتي ظاهَرَها زوجُها سيّدُنا أَوْسُ بنُ الصّامتِ رضي الله عنه.

ومفهومُ الظِّهارِ هنا هو أنه (أي: سيّدَنا أوسًا) قال لزوجتِه (أي: السيّدةِ خولةَ): أنتِ عليّ كظَهْرِ أُمّي، وكان هذا يُعدُّ طلاقًا في الجاهليّة، فلمّا سَمِعتِ السيّدةُ خولةُ

هذا انزَعَجتْ كثيرًا وقالت: والذي نَفْسُ خولةَ بيدِه، لا تَصِلُ إليَّ وقد قُلتَ ما قُلتَ حتى يَحكُمَ اللهُ ورسولُه ﷺ، فأتَتْ رسولَ الله ﷺ، فقالت: يا رسولَ الله، إنّ أَوْسًا تزوَّجَني وأنا شابّةٌ مرغوبٌ فيَّ، فلمّا خَلَا سِنّي، ونُثِرت بَطْني (كثُر وَلَدي)، جَعَلني عليه كأُمِّه، وتَرَكَني إلى غيرِ أحد، فإنْ كنتَ تجدُ لي رخصةً يا رسولَ الله تُنعِشُني بها وإيّاه، فحدِّثْني بها.... ورُوي أنها قالت: إنّ لي صِبْيةً صِغارًا، إنْ ضمَمتُهم إليه ضاعوا، وإنْ ضمَمتُهم إليَّ جاعوا، وجَعَلتْ ترفَعُ رأسَها إلى السَّماء، وتقولُ: اللهُمَّ إنِّي أشكو إليك، اللهُمَّ فأَنْزِلْ على لسانِ نبيِّك[1]. وهكذا استجابَ اللهُ تعالى دعاءها، ونَزَلت هذه السُّورةُ، ثم استدعَى النبيُّ ﷺ سيّدَنا أَوْسَ بنَ الصّامتِ رضي الله عنه وقال له: «اعتِقْ رقَبةً». قال: لا أجدُ. قال: «صُمْ شهرَيْنِ متَتابِعَيْن»، قال: إن لم آكُلْ في اليوم ثلاثَ مرّاتٍ خِفتُ أن يَعْشُوَ بصَري. قال: «فأطعِمْ ستّينَ مسكينًا»، قال: فأعِنّي. فأعانَه بشيءٍ[2].

وهذا شَرَفٌ للسيّدةِ خَولَة بنتِ ثَعْلبةَ رضي الله عنها، أنّ اللهَ تعالى قال في هذه الآية: إنّنا قدِ التفَتْنا إلى هذه المرأةِ وسَمِعنا صوتَها، بل وأَنْزلنا آياتٍ من القرآنِ الكريم إجابةً عليها، وبسببِ هذه الواقعةِ أصبح للسيّدةِ خولةَ بنتِ ثَعْلبةَ رضي الله عنها مكانةٌ عظيمةٌ لدى الصَّحابةِ الكرام رضي الله عنهم، وكانوا يحترمونَها كثيرًا. وفي هذا الخصوصِ يَنقُلُ العلّامةُ القُرطبيُّ واقعةً فحواها أنّ سيّدَنا عُمرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه مَرَّ بها ذاتَ مرةٍ في خلافتِه والناسُ معَه على حمار، فاستوقَفَتْه طويلًا ووعَظَتْه وقالت: يا عُمر، قد كنتَ تُدعى عُمَيْرًا، ثمّ قيل لك: عُمر، ثمّ قيل لك: أميرُ المؤمنين، فاتَّقِ اللهَ يا عُمر، فإنّه مَن أَيْقَنَ بالموت خافَ الفَوْت، ومَن أيقَن بالحساب خافَ

---

(١) التفسير المنير.

(٢) تفسير القرطبي، سورة المجادلة (٥٨): الآية ١.

العذاب، وهو واقفٌ يسمَعُ كلامَها، فقيل له: يا أميرَ المؤمنين، أتقفُ لهذه العجوزِ هذا الوقوفَ؟ فقال: واللهِ لو حبَسَتْني من أوّلِ النّهارِ إلى آخِره لا زِلتُ إلّا للصّلاةِ المكتوبة، أتدرُونَ من هذه العجوزُ؟ هي خَوْلةُ بنتُ ثَعْلبة، سَمِع اللهُ قولَها من فوقِ سبع سمواتٍ، أيسمَعُ ربُّ العالَمينَ قولَها ولا يَسمَعُه عُمر؟»[1].

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ ﴾

٢ ـ في الجزيرةِ العربيّة قبلَ الإسلام كان الشَّخصُ إذا قال لزوجتِه: «أنتِ علَيَّ كظَهْرِ أُمِّي» اعتُبِر ذلك طلاقًا، وتَحرُمُ عليه امرأتُه، لأنه شَبَّهها بأُمِّه، وحُكمُ الإسلام فيما يتعلَّقُ بهذا الأمرِ هو أنّ الزَّوجَة لا تصبحُ أُمًّا للزَّوج إذا قال لها بلسانِه: «أنتِ علَيَّ كظَهْرِ أُمّي»، وبالتالي لا يقَعُ طلاقُها؛ لأنّ الأُمَّ في الأصلِ هي: التي وَلَدتْ، وقولُكَ لزوجتِك مِثلَ هذا الكلام أمرٌ مكروهٌ في ذاتِه غايةَ الكراهيَة، والأمرُ الآخَر هو أنّ هذا كذبٌ صريحٌ؛ لأنّ الزَّوجةَ لا يمكنُ أن تكونَ أُمًّا، فإذا قال زوجٌ مِثلَ هذا الكلام لزوجتِه يكونُ عليه أداءُ كفّارة، ويقالُ لهذا الأمرِ في المصطلح الفِقْهيِّ «الظِّهار».

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾

٣ ـ الشَّخصُ الذي يُظاهِرُ زوجتَه، ثم يريدُ إعادتَها إليه، فإنّ حُكمَ الإسلام فيه هو: أن يؤدِّيَ الكَفّارةَ قبلَ أن يمَسَّ زوجتَه، يعني: أن يُعتِقَ غُلامًا أو أَمَةً، فإذا لم يستطعْ يصومُ شهرَيْنِ متَتابعَيْن، فإذا لم يستطعْ هذا أيضًا يكونُ عليه إطعامُ ستِّينَ مسكينًا، وهذا حدٌّ مقرّرٌ من الله تعالى، ولهذا يجبُ عليكم أن تؤمنوا بالحدودِ التي قرَّرها اللهُ ورسولُه، ولا تعتَدُوها.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة المجادلة (٥٨): الآية ١.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾

٤ ـ يقولُ العلّامةُ الصَّاوي: «هذه الآيةُ نَزَلت في أهلِ مكةَ عامَ الأحزاب، حينَ أرادوا التحزُّبَ على رسولِ الله وأصحابِه»(١)، لكنّهم عادوا في خِزْيِ أذِلاّءَ، ثُم هُزِموا هزيمةً منكَرةً إلى الأبدِ بعدَ فتح مكةَ. وطِبقًا لِما نَقَله العلّامةُ القُرطبيُّ فإنّ المرادَ بهم: منافقو المدينة، إذْ حينَ افتُضح أمرُ نفاقِهم أصابَهم الخِزيُ والعارُ الأبَديّ، وللمنكِرينَ جميعًا في الآخِرة ـ بالطبع ـ عذابُ الخِزْي الأليم، كما أنّ اللهَ تعالى أَنْزلَ معجِزاتٍ بيِّناتٍ تصديقًا للنبيِّ الكريم ﷺ، فالذين لا يؤمنونَ برَغْم ذلك سيُحاسبُهم اللهُ تعالى على كلِّ أعمالِهم يومَ القيامة، رَغْم أنهم سيكونونَ حتى ذلك الوقتِ قد نَسُوها، ولكنْ حين يكشِفُ اللهُ تعالى عن أفعالِهم القبيحةِ أمامَ الناس، سيكونُ ذلك سببًا في إلحاقِ الخِزْي والعارِ بهم.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ

---

(١) حاشية الصاوي.

ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾

٥ ـ كان كلَّما اجتَمعَ بعضُ المنافقينَ معًا في أيِّ مكانٍ تآمَروا على الإسلام، وكانوا يظُنُّونَ أنْ لا أحدَ يعرِفُ بنَجْواهم وتهامُسِهم فيما بينَهم، وفي هذه الآيةِ نَبَّهَهم اللهُ تعالى بأنّكم سواءٌ كنتُم ثلاثةً أم خمسةً أم أقلَّ من ذلك أم أكثرَ، وأيًا كان عددُكم، وأيًا كان المكانُ الذي تتخفَّوْنَ فيه، فإنّ ذلك كلَّه لا يمكنُ أن يخفَى على الله في شيءٍ، فهو يَراكم في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ مكان، وسوفَ يفضَحُ أفعالَكم القبيحةَ أمامَكم يومَ القيامة، وسيُحاسبُكم طبقًا لها ويُعاقبُكم عليها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾

٦ ـ كلَّما اجتَمَعَ يهودُ المدينة معَ المنافقينَ تآمَروا ضدَّ الإسلام، فإذا مَرَّ أحدٌ من المسلمينَ من عندِهم قرَّبوا رءوسَهم من بعضِهم كأنّهم يتهامَسُونَ فيما بينَهم، وأشاروا إلى هذا المسلم، ممّا كان ينزعجُ له المسلمُ كثيرًا، ظنًّا منه أنّهم يتآمَرونَ عليه، وحينَ شَكَا المسلمونَ إلى النبيِّ ﷺ هذه الحركةَ التي يقومونَ بها، مَنَعَ النبيُّ ﷺ المنافقينَ من مِثل هذا التناجي والتهامُس، ولكنْ لمَّا لم يَرجِعوا عن تآمُرِهم ذَكَر اللهُ تعالى عِصيانَهم هذا في القرآنِ المجيد.

لقد مَنَع الإسلامُ من أيِّ تناجٍ أو تهامُسٍ يكونُ فيه إيذاءٌ لقلبِ أحدٍ، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما، من أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا كنتُم ثلاثةً فلا يتناجَى رجُلانِ دونَ الآخَر، حتّى تختلِطوا بالنّاس، أَجْلَ أنْ يُحزِنَه»[١]، لكنّ تناجيَ وتهامُسَ الاثنَيْنِ فيما بينَهما بإذنِ الثالثِ جائزٌ؛ لأنه ـ في هذه الحالة ـ لن يكونَ هناك ما يُزعجُ الثالثَ، أمّا إذا كانوا أكثرَ من ثلاثةٍ فيستطيعُ اثنانِ منهم إن أرادا أن يتنحَّيا جانبًا ويتناجَيا.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾

٧ ـ كان اليهودُ والمنافقونَ كلَّما ألقَوا السّلامَ على النبيِّ ﷺ والمسلمينَ قالوا: «السَّامُ عليكم»! بمعنى: لِينزلِ الموتُ عليكم؛ لأنّ «السَّام» بمعنى: الموتِ، وذلك بدلًا من أن يقولوا: «السَّلامُ عليكم»، وكانوا يقولونَها بطريقةٍ خاصّةٍ لا يَنتبهُ المسلمونَ بسببِها إلى ما يقولونَ، وبعدَ أن يقولوا هذه الجُملةَ المَهِينةَ كانوا يتهامَسُونَ فيما بينَهم قائلينَ عن النبيِّ ﷺ: لو كان نبيًّا حقًّا لَنَزلَ علينا العذابُ عقابًا لنا على هذه الجُملةِ المَهِينة التي نقولُها، ولهذا فإنّنا نعتقدُ أنه ليس نبيًّا حقًّا.

وفي هذه الآية تنبيهٌ لهم بأنّ الله تعالى يَعلَمُ تمامَ العلم مؤامراتِكم، وإذا كان قد أمهَلَكم في الدُّنيا ـ لحِكمةٍ عندَه ـ فليس معنى هذا أنّكم ستُفلِتُونَ منَ العقاب، بل إنه تعالى قد أعَدَّ لكم عذابَ جهنَّم عقابًا لكم على إساءِتكم هذه، وسوف تَدخُلونَ جهنَّم على وجهِ اليقين في يوم من الأيام.

ـ تقولُ السيّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: أتَى النّبيَّ ﷺ أُناسٌ من اليهود، فقالوا:

---

(١) البخاري، كتاب الاستئذان، باب ٤٦ برقم ٦٢٩٠، ومسلم، برقم ٢١٨٤.

السّامُ عليكَ يا أبا القاسم (أي: فلْينزِلِ الموتُ عليك يا أبا القاسم). قال: «وعليكم» (أي: فلْينزِلْ عليكم ما دَعوتُم به علينا). قالت عائشةُ: قلتُ: بل عليكُم السّامُ والذّام. فقال رسولُ الله ﷺ: «يا عائشة، لا تكوني فاحشةً». فقالت: ما سَمِعتَ ما قالوا؟ فقال: «أوليس قد رَدَدتُ عليهمُ الّذي قالوا؟ قلت: وعليكم»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا سَلَّم عليكم أهلُ الكتابِ فقولوا: وعليكم»[2]، وكانت هذه إساءةً من اليهودِ والمنافقين، معَ أنّ اللهَ تعالى استعمَل لفظَ «سلام» لكلِّ الرسُلِ الكرام عليهمُ السَّلام، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

٨ ـ هنا تربيةٌ لأهل الإيمانِ وتدريبٌ لهم بأنْ لا تُشاركوا في مجلسٍ مُريبٍ أو في تناجٍ وتهامُسٍ يَجري التخطيطُ فيه لارتكابِ ذنبٍ أو طُغيانٍ وظلم، وإنّما شارِكوا في تناجٍ وتهامُسٍ يكونُ الحديثُ فيه عن فعل الحسَنات وخَشْيةِ الله تعالى؛ لأنّ الجميعَ ـ في نهايةِ الأمر ـ سيَمثُلونَ في حَضْرةِ الله تعالى ذاتَ يوم، مثلَما قال اللهُ تعالى في سُورة المائدة: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

٩ ـ يعني: أنّ الشّيطانَ هو الذي يُحرِّضُ اليهودَ والمنافقينَ على التَّناجي بالإثم

---

(١) مسلم، كتاب السلام، باب ٤ برقم ٥٦٥٨.

(٢) البخاري، كتاب الاستئذان، باب ٢٢ برقم ٦٢٥٨.

والعُدوان، بحيث ينزعجُ المسلمونَ. وفي هذه الآيةِ يُسرِّي اللهُ تعالى عن قلوبِ أهل الإيمانِ بأنه على افتراضِ أنّهم ـ بإغواءٍ منَ الشّيطانِ لهم ـ يَحِيكونَ مؤامرةً ضدَّكم، فإنّهم معَ ذلك لا يستطيعونَ إلحاقَ أيِّ ضررٍ بكم إلّا بإذْنِ الله تعالى، ولهذا لا تُبالوا بهم، وتوكَّلوا على الله واعتَمِدوا عليه وحدَه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾

١٠ ـ في هذه الآيةِ تعليمُ المسلمينَ آدابَ المجالس، يعني: إذا كنتُم في مجلسٍ من المجالس، ثم لَحِق بكم آخَرُ مِن بعدِكم، فافْسَحوا له مكانًا ليجلسَ فيه، واللهُ تعالى سيَفسَحُ لكم في الرِّزقِ والأَجْر مقابلَ فعلِكم هذا، وإذا طَلَب منكم مُضيفُ المجلسِ الانصرافَ فانصرِفوا عن طِيبِ خاطرٍ راضِينَ، ولا تتدخَّلوا في أمورِه ومعاملاتِه.

﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾

١١ ـ غيرُ المؤمنينَ والجاهلونَ مهما كانوا أغنياءَ في هذه الدُّنيا، ليس لهم في الآخِرة نصيبٌ، وستكونُ دَرجاتُ أهلِ الإيمان في الآخِرة عاليةً، كما أنّ درجاتِ العلماءِ من أهل الإيمانِ ستكونُ أعلى وأرفَعَ.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي الله عنه: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «مَن سَلَك طريقًا يبتغي فيه علمًا سَلَك اللهُ به طريقًا إلى الجنّة، وإنّ الملائكةَ لَتضَعُ أجنحتَها رضًا لطالبِ العلم، وإنّ العالِمَ لَيستغفِرُ له مَن في السّمواتِ ومَن في الأرض حتّى الحِيتانُ في الماءِ، وفَضْلُ العالِم على العابِد كفَضْل القمرِ على سائرِ الكواكب، إنّ العلماءَ ورَثةُ الأنبياء، إنّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا إنّما وَرَّثوا العِلم، فمن أخَذَ به أخَذ بحظٍّ وافر»[١].

---

(١) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩ برقم ٢٦٨٢.

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا اجتمَعَ العالِمُ والعابدُ على الصِّراط؛ قيلَ للعابد: ادخُل الجنةَ وتنعَّمْ بعبادتِك، وقيل للعالِم: قفْ هنا واشفَعْ لمَن أحبَبْتَ، فإنك لا تشفَعُ لأحدٍ إلّا شُفِّعت، فقام مقامَ الأنبياء»(١).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

١٢ - أمَرَ اللهُ تعالى بتقديم صَدَقةٍ قبلَ التناجي معَ النبيِّ ﷺ قائلًا: إنّ هذا خيرٌ لكم، وفي هذا الخصوصِ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «نزَلت بسببِ أنّ المسلمينَ كانوا يُكثِرونَ المسائلَ على رسولِ الله ﷺ حتى شَقُّوا عليه، فأراد اللهُ عزَّ وجلّ أن يُخفِّفَ عن نبيِّه ﷺ، فلمّا قال ذلك كَفَّ كثيرٌ من النّاس»(٢).

كما أنّ الأغنياءَ وأصحابَ الثَّرواتِ كانوا يَسألونَ النبيَّ ﷺ كثيرًا، ولم يكنِ المساكينُ يجِدونَ فُرصةً لسؤالِ النبيِّ ﷺ، وحين أمَرَ اللهُ تعالى بتقديم صَدَقةٍ قبلَ مناجاةِ النبيِّ ﷺ امتنَع أكثرُ الأغنياءِ عن سؤالِ النبيِّ ﷺ، وبذا أُتيحَ للمساكينِ فرصةُ سؤالِ النبيِّ ﷺ؛ لأنّ مَن ليس لدَيْه شيءٌ يقدِّمُه صَدَقةً إذا سَألَ دونَ أن يقدِّمَ صَدَقةً فإنّ اللهَ تعالى يتكرَّمُ عليه ويتفضَّل.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾

١٣ - يعني: إذا بَدَا لكم تقديمُ صَدَقةٍ قبلَ مناجاةِ النبيِّ ﷺ أمرًا صعبًا عليكم، وبالتالي لم تقدِّموا صَدَقةً، فلم يؤاخِذْكُم اللهُ على ذلك، وإنّما تكرَّم عليكم، ونَسَخَ

---

(١) الجامع الصغير، ١: ٢٧ برقم ٣٥٢، وجمع الجوامع، ١: ١٣٨ برقم ٨٧٨، وكنز العمال، ١٠: ١٣٦ برقم ٢٨٦٨٨.

(٢) تفسير القرطبي.

حُكمَ تقديمِ الصَّدَقةِ سريعًا، ولهذا عليكُمُ الآنَ أن تُقيموا الصَّلاةَ وتؤدُّوا الزَّكاةَ، واسألوا رسولَ الله ﷺ دونَ أن تقدِّموا صَدَقةً.

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡۖ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمًا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾

١٤ ـ ما أعجَبَ المنافقينَ من بشَر! فقد كانوا في الظاهرِ معَ المسلمين، لكنّهم في الحقيقةِ لم يكونوا مسلمين، فقد كانوا يؤكِّدونَ لليهودِ صَداقتَهم لهم، وهم الذين غَضِبَ اللهُ عليهم، لكنّ الحقيقةَ أنّ هؤلاءِ لم يكونوا يهودًا أيضًا، ولهذا فإنّهم لم يكونوا من المسلمينَ بشكلٍ كامل، كما لم يكونوا من اليهودِ بشكلٍ كامل أيضًا، وإنما كانوا معلَّقِينَ بيْنَ هذا وذاك، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

يقولُ سيِّدُ محمودٍ الآلوسيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «وفي الحديثِ: مَثَلُ المنافقِ مَثَلُ الشاةِ العائرةِ بينَ غنمَيْنِ - أي: المتردِّدةِ بينَ قطيعَيْنِ - لا تدري أيَّهما تَتْبعُ»[(١)].

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

١٥ - قال السُّدِّيُّ ومُقاتلٌ: «نَزَلتْ في عبدِ الله بن أُبيٍّ وعبدِ الله بن نَبْتَلٍ المنافقَيْنِ، كان أحدُهما يُجالسُ النّبيَّ ﷺ ثمّ يرفَعُ حديثَه إلى اليهود، فبَيْنا النّبيُّ ﷺ في حُجرةٍ من حُجُراتِه إذ قال: «يَدخُلُ عليكمُ الآنَ رجلٌ قلبُه قلبُ جبّارٍ ويَنظُرُ بعينَيْ شيطانٍ»، فدَخَل عبدُ الله بن نَبْتَل - وكان أزرقَ أسمرَ قصيرًا خفيفَ اللِّحية - فقال عليه الصّلاةُ والسّلام: «علامَ تشتُمُني أنت وأصحابُك؟»، فحَلفَ بالله ما فَعَل ذلك. فقال له النّبيُّ ﷺ: «فعلتَ»، فانطلَقَ فجاء بأصحابِه فحَلَفوا بالله ما سَبُّوه، فنَزَلتْ هذه الآيةُ»[(٢)].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

١٦ - أعَدَّ اللهُ تعالى للمنافقينَ عذابًا شديدًا؛ لأنّهم كانوا يُنافقونَ من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ كانوا يَحلِفونَ كَذِبًا، وكلا الأمرَيْنِ في غايةِ السُّوء.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

١٧ - كان المنافقونَ يزرَعونَ الشكوكَ والشُّبُهاتِ في قلوبِ الناس ضدَّ الإسلام حتى لا يَدخُلوا فيه، وحين كان المنافقونَ يُسألونَ عن تآمُرِهم هذا فإنّهم كانوا يُقسِمونَ - كذبًا - أنهم مسلمونَ صادقون، وأنّهم لا يقولونَ شيئًا ضدَّ الإسلام،

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة المجادلة (٥٨): الآية ١٤. والحديث في صحيح مسلم، برقم ٢٧٨٤، عن ابن عمر.

(٢) تفسير القرطبي.

وهكذا كانوا يُنقذِونَ أنفُسَهم من العقابِ بالحَلِفِ الكاذب، ولكنْ ينبغي لهم أن يَعلَموا أنّ الأولادَ الذين يَحلِفونَ كذِبًا من أَجْل الحفاظِ عليهم، وأموالَ الغنائم التي يَحلِفونَ كذبًا طَمَعًا في الحصُولِ عليها، لن يستطيعوا إنقاذَهم من عذابِ الخِزْي يومَ القيامة.

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾

١٨ ـ منتهَى الحماقةِ منَ المنافقينَ أنه حين يتَّضحُ الحقُّ من الباطل تمامًا يومَ القيامة، سيَحلِفونَ كذبًا أيضًا، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ويتصوَّرونَ أنّ هذه الأَيْمانَ الكاذبةَ ستنفَعُهم في الآخِرة مثلَما كانوا يُنقِذونَ أنفُسَهم من العقابِ عن طريقِها في الدُّنيا، ولكنّ عليهم أن يفهَموا جيِّدًا أنّ الكذبَ لن يُفيدَ بشيءٍ في ذلك اليوم، وإنّما سيأتي الإعلانُ ـ بوضوح ـ منَ الله تعالى أنّهم كاذِبون، وأنّهم سيَخلُدونَ في جهنَّم.

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

١٩ ـ الذين يتغلَّبُ عليهمُ الشَّيطانُ يُرسِّخُ محبّةَ الذُّنوبِ في قلوبِهم وعقولِهم إلى درجةِ أنه يُنْسِيْهِم ذِكرَ الله تعالى، وهكذا يتوغَّلُ هؤلاءِ في غَفْلتِهم بحيث لا يَخطُرُ على بالِهم أصلًا أنّ لهم ربًّا، وأنه سيُحاسبُهم أيضًا، وينضَمُّ هؤلاءِ إلى حزبِ الشيطان، فيفعَلونَ ـ فقطْ ـ ما عاقِبتُه الخسارةُ الدائمة.

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴾

٢٠ ـ الذين يُخالفونَ اللهَ تعالى ورسولَه ﷺ ويعادونَهما هـمُ الأَذلُّونَ والأخسَرون؛ لأنّ اللهَ تعالى كَتَب في اللَّوح المحفوظِ أنّ الغالبَ في نهايةِ الأمرِ هو اللهُ

تعالى ورسُلُه، واللهُ تعالى يساعدُ رسُلَه بالدَّلائل والمعجِزاتِ الواضحة بما لا يمكنُ للكفّارِ أن يَرُدُّوا عليه بمِثلِه، وكثيرًا ما انتصَر الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلامُ سياسيًّا أيضًا في ميدانِ الصِّراع هذا، مثلَما حَدَث معَ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ في مقابلِ الفِرعَونِ ورجالِه، ومعَ نبيِّنا الكريم ﷺ في مقابلِ المشركينَ العرب، حيث انتصَرا سياسيًّا أيضًا، لكنّ الأنبياءَ الكرامَ الذين لم تُكتَبْ لهمُ الغَلَبةُ السياسيَّةُ - لحِكمةٍ عندَ الله تعالى - ثَبَّت اللهُ تعالى أقدامَهم في مُهمَّتِهم ورسالتِهم، بحيث لم تستطعْ جبالُ المصائبِ والآلام أن تُقلِّلَ من عَزْمِهم في شيءٍ.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾

٢١ - لا يمكنُ أن تَدخُلَ محبّةُ أحدٍ في قلوبِ أهل الإيمانِ يكونُ عدوًّا لله ورسولِه ﷺ، حتى ولو كان من آبائهم أو أبنائهم أو إخوانِهم أو أقارِبِهم الأقرَبينَ.

وفي كتُبِ التاريخ والتفسيرِ أحداثٌ وواقعاتٌ لا حصرَ لها، تُخبِرُنا أنه ما مِن مرّةٍ شارَكَ فيها أبٌ أو ابنٌ غيرُ مسلمَيْنِ في الحربِ ضدَّ المسلمينَ، إلّا وقام الابنُ أو الأبُ المسلمُ بالتغاضي عن قَرابةِ الدَّم هذا، وقَطْع عنُقِ هؤلاء، وقد ذَكَر العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية عدّةَ واقعاتٍ بهذا الشَّكل، نَذكُرُ بعضًا منها فيما يلي:

- «وقال ابنُ مسعودٍ: نَزَلتْ في أبي عُبيدَة بنِ الجَرّاح، قَتَل أباه عبدَ الله بنَ الجرّاح يومَ أُحُدٍ، وقيل: يومَ بدرٍ»[1].

- «قال ابنُ جُرَيْج: حُدِّثتُ أنّ أبا قُحافةَ سَبَّ النّبيَّ ﷺ، فصَكَّه أبو بكرٍ ابنُه صكّةً فسَقَط منها على وجهِه، ثمّ أتَى النّبيَّ ﷺ فذَكَر ذلك له، فقال: أوَفَعلتَه؟ لا

(١) تفسير القرطبي.

تعُدْ إليه، فقال: والّذي بَعَثَك بالحقِّ نبيًّا، ولو كان السّيفُ منّي قريبًا لَقتلتُه»[١]، وقد أَسْلم سيّدُنا أبو قُحافةَ فيما بعدُ.

ـ في غزوةِ بدرٍ دَعا عبدُ الله ابنُ سيّدِنا أبي بكرٍ رضي الله عنه المسلمينَ إلى الحربِ والنِّزال (ولم يكنْ قد أَسْلَم بعدُ، فأراد سيّدُنا أبو بكرٍ رضي الله عنه أن يُنازلَه)، فقال النبيُّ ﷺ: «متِّعْنا بنفسِك يا أبا بكرٍ، أَما تَعلَمُ أنّك عندي بمنزلةِ السَّمع والبصر؟»[٢].

## مصادقة الكفار

أولئك الكُفّارُ الذين يُبغِضُونَ الإسلام، ويَبذُلونَ قُصارى جُهودِهم في إيذاءِ المسلمين، لا تجوزُ أبدًا مصادقتُهم؛ لأنهم ـ بذلك ـ سيَعرِفونَ أسرارَ المسلمين، أو يقدِّمونَ لهم مَشُورةً خاطئةً ليزيدوا في خسارتِهم وإيذائهم، لكنّ الكفّارَ أصحابَ المِزاج المعتدل، والذين لا يُضايقونَ المسلمينَ أو يؤذونَهم بشكل مباشِرٍ أو غيرِ مباشر، يجوزُ للمسلمينَ معاملتُهم معاملةً حسَنةً: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨]، وكذا التعاونُ معَهم في التِّجارةِ وأعمالِ التنمية، والدِّفاع ضدَّ العدوِّ المشترَك من خلالِ إبرام المعاهَداتِ وما شابَهَ، بل إنه يجبُ التعاملُ معَهم بأخلاقٍ حسَنة تجعَلُهم يتأثَّرونَ بالإسلام ويَدخُلونَ فيه.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

٢٢ ـ السُّعَداءُ الذين يقدِّمونَ محبّةَ الله تعالى ومحبّةَ رسولِه الكريم ﷺ على

---

(١) تفسير القرطبي، سورة المجادلة (٥٨): الآية ٢٢.

(٢) المرجع السابق، سورة المجادلة (٥٨): الآية ٢٢.

محبّةِ آبائهم وأبنائهم وأقارِبهم، يُنعِمُ اللهُ تعالى عليهم بالإنعاماتِ التالية:

١ ـ يجعَلُ اللهُ تعالى الإيمانَ في قلوبِهم راسخًا بحيث لا يمكنُ أن يَبتعِدوا عنه أبدًا.

٢ ـ يُقوّي قلوبَهم بنُورٍ خاصٍّ من عندِه بحيث يَمنَحُهم السَّكينةَ والطُّمَأْنينةَ.

٣ ـ يُدخِلُهم جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار.

٤ ـ سيَرضَى اللهُ عن عبوديّتِهم، وسيَرضَوْنَ هم عن ربوبيّةِ الله تعالى.

٥ ـ سيَشمَلُهم اللهُ تعالى في حزبِ عبادِه المقرَّبين.

٦ ـ سيكونونَ من المفلِحين.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاةِ العشاء من يوم الثلاثاء ٢١ سبتمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ١٢ شوال ١٤٣١هـ.**

**هذا وقدِ اكتمَل بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «المجادلة» في يومَيْنِ فقط، أي: من ١٩ إلى ٢١ سبتمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وصحبِه أجمعين.**

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# (٥٩) سُورَةُ الحَشۡرِ

هذه السُّورةُ مَدَنيّة، واسمُها «الحَشْر»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الثانيةِ منها.

ولهذه السُّورةِ اسمٌ آخَرُ أيضًا وهو: «بنو النَّضِير»؛ لأنه جاء فيها بيانٌ لقصّةِ نَفْي قبيلةِ بني النَّضِير اليهوديّةِ من المدينة، وخَلْفيّةُ هذه القصّةِ كما يلي:

## قدوم النبي ﷺ إلى المدينة

عندَما هاجَرَ المسلمونَ من مكّةَ المكرَّمة إلى المدينةِ المنوَّرة، كان اليهودُ يُمثِّلونَ هناك مجموعةً قويّة، وكانوا حياتُهم مُرفَّهةً من الناحيةِ الاقتصاديّة، كما كانوا يتفوَّقونَ علميًّا أيضًا على أهلِ المدينة باعتبارِهم أهلَ كتاب، ولم يكنْ من الممكِن في ذلك الوقتِ إقامةُ وحدةٍ بينَ أطيافِ المجتمَع المدنيِّ ما لم يكنِ اليهودُ أيضًا جُزءًا منه، وفي نفسِ الوقت كان الأعداءُ الأُوَلُ للإسلام، أي: أهلُ مكّةَ، يعمَلون بكلِّ ما يملِكونَ من قوةٍ على القضاءِ على المسلمينَ قضاءً مُبرَمًا، وكان من الممكنِ أن يُغيروا على المدينةِ في أيِّ وقت، وللتغلُّبِ على هذه المُعوِّقاتِ الداخليّةِ والخارجيّة كان لا بدَّ من وجودِ دستورٍ موسَّع، ولهذا أعَدَّ النبيُّ ﷺ معاهدةً ينضوي تحتَها اليهودُ أيضًا بالإضافةِ إلى المهاجِرينَ والأنصار، وتُعَدُّ هذه الوثيقةُ أولَ دستورٍ مكتوبٍ في العالَم.

## أول دستور مكتوب في العالم

يمكنُ الاطِّلاعُ على تفاصيلِ هذا الدُّستور في كتُبِ التاريخ، وأنا هنا أنقُلُ إليكَ من صفحاتِ رقم ١٠٧-١٠٨ من الجزء الثاني من «سيرةِ ابن هشام» بعضَ الجُمَل من هذا الدُّستور في شكلِ بنودٍ منتظَمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ـ هذا كتابٌ من محمدٍ ﷺ النبيِّ الأُميِّ، بينَ المؤمنينَ والمسلمينَ من قُريشٍ ويَثرِبَ ومَن تَبِعَهم فلَحِقَ بهم وجاهَدَ معَهم، أنّهم أُمّةٌ واحدةٌ من دونِ الناس.

ـ المؤمنونَ المتَّقونَ على مَن بَغَى منهم، أوِ ابتغَى ظُلمًا أو إثمًا أو عُدوانًا أو فسادًا بينَ المؤمنين، وإنّ أيديَهم عليه جميعِهم، ولو كان وَلَدَ أحدِهم.

ـ أيُّ اختلافٍ ينشَأُ بينَ أهلِ هذه الصَّحيفةِ يكونُ فإنّ مرَدَّه إلى اللهِ عزَّ وجل وإلى محمدٍ ﷺ.

ـ يَحرُمُ على أهلِ هذه الصَّحيفة إثارةُ أيٍّ نوع من الفتنةِ أو الفسادِ في يَثرِبَ.

* يَحرِصُ كلُّ واحدٍ من المشاركينَ في هذه الصَّحيفة على خيرِ الآخَر بكلِّ إخلاص، ولا يَظلِمُ أحدٌ أحدًا من حُلفائه.

* مَن تَبِعَنا من يهودٍ فإنّ له النَّصرَ والأُسوةَ غيرَ مظلومينَ ولا مُتناصَرٍ عليهم.

* إذا دَهَم أحدٌ يثرِبَ من خارجِها، أو حارَبَ أيًّا من المشاركينَ في هذه المعاهَدة، فعليهم مساعدةُ بعضِهم في مواجهتِه، وطالما استمرَّتِ الحربُ يتحمَّل اليهودُ نفقاتِها مشاركةً معَ المسلمين.

* يكونُ اليهودُ معَ المسلمينَ في جماعةٍ واحدة، ولليهودِ دينُهم وللمسلمين دينُهم، لكلٍّ منهم الحُرِّيةُ في اتِّباع دينِه والعمَل به، باستثناءِ مَن يَظلِم، فهو المسئولُ عن أعمالِه، وهو الذي سيُدمِّرُ نفسَه وأهلَه وعيالَه.

## مؤامرة بني النضير

يقولُ المؤرِّخونَ والمفسِّرون: إنّ النبيَّ ﷺ مضَى ذاتَ يوم «إلى بني النَّضِير ومعَه أبو بكرٍ وعُمرُ وعليٌّ رضي الله عنهم، فتلقَّوْه، فقالوا: مرحبًا يا أبا القاسم، لماذا جئتَ؟ قال: رجلٌ من أصحابي قَتَل رجُلَيْنِ من كلابٍ معَهما أمانٌ منّي طُلِب منّي ديَتُهما، فأريدُ أن تُعينوني، قالوا: نعم، اقعُدْ حتّى نجمَعَ لك، فقَعَد تحتَ الحِصن وأبو بكرٍ وعُمرُ وعليٌّ رضي الله عنهم، وقد تآمَرَ بنو النَّضِير أن يَطرَحوا عليه - عليه الصَّلاةُ والسَّلام - حَجرًا، فجاء جِبريلُ عليه السَّلامُ فأَخْبره فقام ومن معَه»[1]، يعني: أنّ فَضْلَ الله تعالى على أهلِ الإيمانِ أنه أنقَذَ النبيَّ ﷺ والصَّحابةَ الكرامَ رضيَ الله عنهم جميعًا من مؤامرةِ اليهود.

## نفي بني النضير

أرسَلَ النبيُّ ﷺ إلى اليهودِ بعدَ أنْ خالَفوا المعاهَدةَ، بل وخانوا فيها خيانةً صريحةً، أنّ عليكم أن تُغادروا المدينةَ في غضونِ عشَرةِ أيام، وأنّ مَن يبقَى منكم بعدَها سيُضرَبُ عنُقُه.

في البدايةِ حاولَ اليهودُ المقاومةَ بناءً على نصيحةِ المنافقينَ لهم، ولكنْ عندما حاصَرَ المسلمونَ قلاعَ اليهود، ولم يَصِل المنافقونَ لمساعدتِهم، عندَئذٍ خافوا واستَسْلَموا، فصادَرَ النبيُّ ﷺ أسلحتَهم، وسَمَح لهم باصطحابِ باقي أموالِهم

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة المائدة (٥): الآية ١١، وسيرة ابن هشام، ٢: ١٥١.

وأمتعتِهم، وهكذا أخَذوا معَهم أمتعَتَهم، ولم يترُكوا شيئًا، حتى أنّهم قاموا بخَلْع شبابيكِ وأبوابِ المنازل وأسقُفِها، وحَمَلوها على جِمالِهم، ثم اتَّجه بعضُهم إلى الشام، وهاجَرَ البعضُ الآخَرُ إلى خَيْبر.

## أموال الفيء

جاء في هذه السُّورةِ طريقةُ تقسيم أموالِ الفَيْءِ، ويمكنُكَ الاطِّلاعُ على تفاصيلِها في تفسيرِ الآية رقم ٦ من السورة.

## إطاعة الرسول ﷺ

جاء الحُكمُ إلى أهلِ الإيمان بأنْ أطيعوا النبيَّ ﷺ في كلِّ ما يأمُرُكم به، وانتَهُوا عن كلِّ ما يأمُرُكم بالانتهاءِ عنه.

## المنافقون

أكَّد منافقو المدينة لبني النَّضِيرِ أنهم سيُساعدونَهم، ولهذا عليهم ألّا يهاجِروا من المدينة، ولكنْ عندَما حان وقتُ المساعدة لم يأتِهم المنافقونَ للمساعدة.

## التقوى

جاء الحُكمُ لأهلِ الإيمان بأنْ يتَّخِذوا من التقوى طريقًا، وأنْ لا يكونوا مِثلَ أولئك الذين نَسُوا اللهَ تعالى.

## عظمة القرآن

القرآنُ الكريمُ كتابٌ عظيمٌ، بحيث لو أَنْزلَه اللهُ تعالى على جَبَل لَخشَعَ وتصَدَّع من خوفِ الله تعالى.

## أسماء الله الحسنى

جاء ذِكرُ أسماءِ الله الحُسنى في مواضعَ كثيرةٍ من القرآنِ الكريم، ولكنّ الموضِعَ الذي جاء فيه ذِكرُ أكبرِ عددٍ من أسماءِ الله الحُسنى ـ مجتمِعًا ـ هو نهايةُ هذه السُّورة.

## التسبيح

بَدَأتْ هذه السُّورةُ بذِكرِ تسبيح الله تعالى، وانتَهتْ كذلك بذِكرِ تسبيح الله تعالى، يعني: أنّ كلَّ شيءٍ في الأرضِ والسّماءِ يُسبِّحُ اللهَ تعالى، ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يُسبِّحَ اللهَ تعالى، حتى يفوزَ في الدارَيْن.

## فضل سورة الحشر

ـ يقول سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن قَرأَ سُورةَ الحَشْرِ غَفَر اللهُ له ما تقدَّم من ذنبِه وما تأخَّر»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن قَرأَ خواتيمَ سُورةِ الحَشْر (الآياتِ الثلاثَ الأخيرةَ منها) في ليلٍ أو نهارٍ، فقبَضَه اللهُ في تلك اللّيلة أو ذلك اليوم، فقد أوجَبَ اللهُ له الجنّةَ»[٢].

**الفقيرُ إلى الله: محمّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة الفجر من يوم الخميس ٢٣ سبتمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ١٤ شوالٍ ١٤٣١هـ.**

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الحشر (٥٩): الآية ٢٤.

(٢) المرجع السابق، سورة الحشر (٥٩): الآية ٢٤.

# سُورَةُ الحَشْرِ (٥٩)،

## مدنية (١٠١)، آياتها (٢٤)، ركوعاتها (٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ
وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ
ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ
وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ
مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ
ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ
ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ
مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

١ ـ للتعرُّفِ على تفسيرِ هذه الآية راجعِ الحاشيةَ الأُولى من سُورةِ الحديد (٥٧).

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾

٢ ـ عندَما هاجَرَ النبيُّ ﷺ من مكةَ المكرَّمةِ إلى المدينةِ المنوَّرة، عَقَد معاهدةً معَ اليهودِ بهدفِ أن يعيشوا معًا في أمنٍ وسلام، وأن يُواجِهوا كلَّ من يهاجمُ المدينةَ، لكنّ بني النَّضِير لم يُخالفوا هذه المعاهدةَ فقطْ، وإنّما تآمَروا كذلك على قَتْل النبيِّ ﷺ، وهو ما أدَّى إلى إخراجِهم من المدينةِ المنوَّرة، وكان بنو النَّضيرِ يسكُنونَ المدينةَ المنوَّرةَ منذُ زمنٍ طويل، وكان هذا هو أولَ نَفْي لهم خارجَ وطنِهم، ثم تَمَّ إخراجُهم ثانيةً من خَيْبرَ في عهدِ سيّدِنا عُمرَ الفاروقِ رضي الله عنه، فهاجَروا إلى الشام. ولمزيدٍ من التفصيل عن هذه المعاهدةِ وعن نَفْي بني النَّضِير راجعْ تعارفَ هذه السُّورة.

لمّا خالَفَ اليهودُ المعاهدةَ، بل وتَعدَّى ذلك إلى الخيانةِ الصَّريحةِ منهم، أرسَلَ النبيُّ ﷺ إلى اليهودِ أنّ عليكم أن تُغادروا المدينةَ في غضونِ عشَرةِ أيام، وأنّ من يبقى منكم بعدَها سيُضرَبُ عنُقُه. في البدايةِ حاول اليهودُ المقاومةَ بناءً على نصيحةِ المنافقينَ لهم، ولكنْ عندَما حاصَرَ المسلمونَ قلاعَ اليهود، ولم يَصِل المنافقونَ لمساعدتِهم، عندَئذٍ خافوا واستَسْلموا، فصادَرَ النبيُّ ﷺ أسلحتَهم، وسَمَح لهم باصطحابِ باقي أموالِهم وأمتعتِهم، وهكذا أخَذوا معَهم أمتعتَهم، ولم

يترُكوا شيئًا، حتى أنّهم قاموا بخَلْع شبابيكِ وأبوابِ المنازل وأسقُفِها، وحَمَلوها على جِمالِهم، ثم اتَّجه بعضُهم إلى الشام، وهاجَر البعضُ الآخَرُ إلى خَيْبرَ.

لم يكنِ المسلمونَ يتصوَّرونَ أنّ اليهودَ سيترُكونَ المدينةَ هكذا بسهولةٍ، نظرًا لِما لهم فيها من قلاع وأسلحةٍ وحدائقَ وبساتينَ، وكان اليهودُ يتفاخَرونَ كثيرًا بقلاعِهم الحَصِينة إلى درجةٍ جَعَلتْهم لا يتخيَّلونَ أنّ عددًا ضئيلًا من المسلمينَ يمكنُ أن يَنفُوهم من وطنِهم، ولكنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَق، فقد أدخَلَ الرُّعبَ من المسلمينَ في قلوبِ اليهود، وحين تيقَّن بنو النَّضِير أنّهم سيترُكونَ منازلَهم لا مَحالةَ، قاموا بانتزاع أبوابِها وشبابيكِها وغيرِ ذلك وحَطَّموها، وبعدَ ذلك قام المسلمونَ بإزالةِ هذه الأنقاض، وبنَوْا مكانَها بيوتًا لهم كما يُحبُّون، وفي هذه الواقعةِ آياتُ عبرةٍ كثيرةٌ لأهل الفِكْرِ والبصيرة.

﴿ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾

٣ ـ لقد كَتَب اللهُ تعالى على بني النَّضِير الجَلاءَ والنَّفْيَ عن الوطنِ بدايةً، ولو لم يَقبَلوا النَّفيَ عن الوطن، ونَشِبت الحربُ لَقُتِلوا جميعًا، ومُحِيَ كلُّ أثرٍ لهم من الوجود.

﴿ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾

٤ ـ رَفَض بنو النَّضِير الخروجَ من المدينةِ بدايةً، ودَخَلوا قلاعَهم وأغلَقوا أبوابَها من الداخل، وكانت بساتينُ النَّخيل الكثيفةُ تحيطُ بهذه القلاع من كلِّ جانب، ولمّا أراد المسلمونَ محاصرةَ قلاعِهم هذه، قَطَّعوا كلَّ شجرةٍ يمكنُ أن تَعُوقَ طريقَهم إلى ذلك، أمّا الأشجارُ التي لم تشكِّلْ عائقًا في التحرُّكاتِ العسكريّةِ

هذه فقد تَرَكوها قائمةً، وكان المسلمونَ سُعداءَ بقَطْع هذه الأشجار، إذْ بذلك نَجَح حصارُهم لبني النَّضِير، أمّا بالنِّسبةِ لليهودِ العُصاةِ فإنّ ذلك كان بمثابةِ الذُّلِّ والخِزْي، فالبساتينُ التي زَرَعوها بجُهدٍ شديدٍ بَذَلوه يتمُّ قطعُ أشجارِها أمامَ أعيُنِهم، ولم تكنْ لديهمُ الشجاعةُ ليمنَعوا المسلمينَ من ذلك.

وقدِ اعتَرضَ المنافقونَ واليهودُ على ذلك بأنّ المسلمينَ من جانبٍ يَدَّعُونَ أنهم يريدونَ الأمنَ والسَّلامَ في الأرض، ولكنْ من جانبٍ آخَرَ يُفسِدونَ في الأرض بقَطْع الأشجارِ الخضراءِ اليانعة في البساتين، فنَزَلت هذه الآيةُ ردًّا عليهم، بأنّ هذا كلَّه حَدَث بإذنِ الله تعالى؛ لأنّ اليهودَ هم الذين بدَأوا الفسادَ في الأرضِ بخَرْقِهم المعاهدةَ، وأنّ المسلمينَ إنّما قَطَّعوا الأشجارَ لكي يَنْجَحَ الحصارُ، ويُطهِّروا الأرضَ من المفسِدين.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾

٥ ـ الأموالُ التي استَوْلَى عليها المسلمونَ بعدَ جَلاءِ بني النَّضِير إنّما هي فَضْلٌ من الله تعالى أعطاهُ لرسولِه الكريم ﷺ، فلم يتحمَّل المجاهدونَ المسلمونَ مشَقّةَ السفَرِ من أَجْلِ الحُصولِ على هذه الأموال؛ لأنّهم كانوا في ضواحي المدينة، كما أنّ الأمرَ لم يَصِلْ إلى درجةِ الحربِ والقتال؛ لأنّ اليهودَ قَبِلوا الرحيلَ عن المدينة دونَ حربٍ أو قتال.

الأموالُ التي تؤُولُ إلى المسلمينَ بعدَ خروجِها من مِلْكيّةِ غيرِ المسلمينَ لها صورتان، الأُولى: أنها أموالُ فَيْءٍ، وهي التي وَرَد ذِكرُها في هذه الآيات، والثانية: أنها أموالُ غنائمَ، وهي التي جاء ذِكرُها في الآيةِ رقم ٤١ من سُورة الأنفال، وفيما يلي تعريفٌ بالصُّورتَيْنِ وطريقةِ تقسيمِهما:

## أموال الفيء

أموالُ الفَيْءِ تُطلَقُ على الأموالِ والمناطقِ التي تَؤُولُ إلى مِلْكيّةِ المسلمينَ من الكفّارِ حالَ اعترافِهم بالهزيمةِ دونَ قتال، وهناكَ ثلاثةُ أنواع من الأموالِ يُطلَقُ عليها: «أموالُ الفَيْءِ» وهي:

١ ـ الأموالُ التي يَستولي عليها المسلمونَ بغيرِ حربٍ أو قتال.

٢ ـ الممتَلكاتُ غيرُ المنقولةِ التي يَحصُل عليها المسلمونَ بغيرِ حربٍ أو قتال، مثلَ: المنازلِ والبيوتِ والأراضي والبساتينِ والقلاع وغيرِها مما شابَهَها.

٣ ـ الممتَلكاتُ المنقولةُ وغيرُ المنقولةِ التي يَحصُلُ عليها المسلمونَ بعدَ الحربِ والقتال.

في الآيةِ التالية جاء ذِكرُ المستحِقِّينَ لأموالِ الفَيْءِ، وقد ذُكر اسمُ الله تعالى ضمنَ المستحِقِّينَ لأموال الفَيْءِ والغنائم على سَبيل التبرُّك، أمّا الخمسةُ المتبقُّونَ من مستحِقِّي هذه الأموالِ فهم: رسولُ الله ﷺ، وأقاربُه، واليتامَى من أبناءِ المسلمين، والمساكينُ، وعابرو السَّبيل الذين انتَهى الزادُ معهم ويستحِقُّونَ بذلك المساعدة.

وبعدَ انتقالِ النبيِّ ﷺ إلى الرَّفيقِ الأعلى فإنّ السَّهمَ المخصَّصَ له يقولُ عنه جمهورُ الفقهاءِ: إنه يَدخُلُ بيتَ المال، ويُنفَقُ منه على استكمالِ مهمّةِ النبيِّ ﷺ.

## أموال الغنائم

الأموالُ المنقولةُ التي يستَولي عليها المسلمونَ في حالةِ الحربِ معَ الأعداءِ يقالُ لها ـ في الاصطلاح الإسلاميِّ ـ: «الأنفالُ» أو «الغنائمُ»، أي: أموالُ الغنائم،

وغيرُ مسموح لأيِّ مجاهدٍ أن يحتفظَ بشيءٍ من هذه الأموالِ لنفسِه، وإنّما يتمُّ تجميعُ هذه الأموالِ كلِّها وتقديمُها لقائدِ الجيشِ الإسلاميِّ، ويقومُ هو بتقسيمِها طبقًا للقواعدِ المنظِّمة لذلك.

يتم تقسيمُ أموالِ الغنائم إلى خمسةِ أقسام، أربعةٌ منها يتمُّ تقسيمُها بينَ الذين شارَكوا في القتال، أمّا القسمُ الخامسُ فيتمُّ تقسيمُه إلى خمسةِ أقسام أيضًا: قسمٌ منه لرسولِ الله ﷺ، وهو الذي يتِمُّ إنفاقُه على المصالح العامّةِ للمسلمينَ بعدَ انتقالِ النبيِّ ﷺ إلى الرَّفيقِ الأعلى، وأمّا القسمُ الثاني فيكونُ لأقاربِ النبيِّ ﷺ، بينَما يكونُ القسمُ الثالثُ لليتامى، والرابعُ للمساكين، والخامسُ لعابِري السبيل، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾

٦ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «لأنّ أهلَ الجاهليّةِ كانوا إذا غَنِموا أخَذَ الرّئيسُ رُبعَها لنفسِه، وهو المِرباع. ثمّ يصطفي منها أيضًا بعدَ المِرباع ما شاء»(١)، وبعدَ ذلك يَقسِمُ الأميرُ وأصحابُ النفوذ من الناس الجزءَ الأكبرَ من الأموالِ على أنفسِهم، ولا يتبقّى للفقراءِ والمساكينِ سوى الفُتات والنَّزْرِ اليسير، وبهذه الطريقة تظَلُّ الأموالُ تدورُ بينَ الأغنياءِ بصفةٍ عامّة، ويظَلُّ الفقراءُ المساكينُ محرومينَ لا ينالُونَ شيئًا، وقد جَعَل الإسلامُ من المساكينِ واليتامَى أيضًا مستحِقِّينَ للثروة، وذلك لكي لا تتجمَّعَ الثروةُ في أيدي الأغنياءِ فقطْ.

---

(١) تفسير القرطبي.

فَرَضَ الإسلامُ على الأغنياءِ في الأحوال العاديّةِ أيضًا، وليس في حالةِ أموالِ الفَيْءِ أو الغنائم فقطْ، أن لا يكنِزوا الأموالَ ويجلسوا عليها حُرّاسًا كالثّعابين، وإنّما عليهم أن يُشرِكوا الفقراءَ أيضًا معَهم، على سَبيل المثال: الحِكمةُ في أداءِ زكاةِ المال وزكاةِ الفطر، وفي تحريم الرِّبا، والتوريثِ، وأداءِ الكَفّاراتِ وإخراج الصَّدَقاتِ وغيرِها هي أن لا تتجمَّعَ الثروةُ في بعضِ الأيدي فقطْ، وإنّما لتصلَ إلى الفقراءِ كذلك.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

٧ ـ ما يُعطيكُم رسولُ الله ﷺ من مالِ الفَيْءِ فخُذوه، وما مَنَعَكم منه فانتَهُوا عنه، ورَغْمَ أنّ نزولَ هذه الآيةِ خاصٌّ بمالِ الفَيْء إلا أنّ حُكمَها عامٌّ، يعني: أنّ ما يُعطيكم النبيُّ ﷺ من ثروةٍ ماديّةٍ أو رُوحانيّةٍ أو عِلميّةٍ فخُذوه، وما يَنْهاكم عنه عليكُم الامتناعُ منه، واتَّقوا اللهَ تعالى فيما يتعلَّقُ بعصيانِ النبيِّ ﷺ؛ لأنّ عذابَ الله شديد.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾

٨ ـ يعني: أنّ أولئكَ المهاجِرينَ الفقراءَ الذين اضْطُرُّوا إلى التخَلِّي عن بيوتِهم وممتلكاتِهم بسببِ دُخولِهمُ الإسلامَ، هم أيضًا ممَّن يستحِقُّونَ نصيبًا من مال الفَيْءِ، وقد كان بعضُ المهاجِرينَ من الأغنياء، ولكنّهم اضْطُرُّوا إلى تَرْكِ أموالِهم وأمتعتِهم عندَ الهجرة، فأصبحوا بذلك من الفقراء، ورَغْمَ أنّ أنصارَ المدينة لم يَتَوانَوْا عن مساعدتِهم، ولكنْ حين آلَتْ أراضي بني النَّضِيرِ وبساتينُهم إلى المسلمين، أصبح من السَّهل حَلُّ مشكلةِ توطينِ المهاجِرينَ بشكلٍ دائم.

هذه الآيةُ لم تقرِّرْ أنّ المهاجِرينَ يستحِقُّونَ نصيبًا من مالِ الفَيْءِ فقطْ، وإنّما بيَّنت فَضْلَهم كذلك، يعني:

ـ أنّهم قد تَخلَّوْا عن وطنِهم وأهليهم بسببِ الإسلام فقطْ.

ـ لم تكنْ هجرتُهم طَمَعًا في تحقيقِ هدفٍ دُنيَويّ، وإنّما كانت بحثًا عن رضا الله تعالى وفَضْلِه.

ـ إنّهم فَعَلوا كلَّ ما فعلوه نُصرةً لدينِ الله تعالى.

ـ هؤلاء هم الصّادقونَ في دينِهم وإيمانِهم.

لقد أعلَن القرآنُ الكريمُ صِدقَ كلِّ المهاجِرينَ وإخلاصَهم، وبالتالي إذا اتَّهمهم أحدٌ الآنَ بالنِّفاق، فهو بهذا يُنكرُ هـذه الآيـةَ، وعليه أن يتَّقيَ عذابَ الله تعالى، ويُعِيدَ النظرَ في إيمانِه.

تُرى، ما هي مكانةُ هؤلاءِ المهاجِرينَ السُّعداءِ عندَ رسولِ الله ﷺ؟ يمكنُكَ أن تتعرَّفَ عليها من خلال الدُّعاءِ الذي نَقَله الإمامُ البَغَويُّ في ثنايا تفسيرِ هذه الآية. يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ أُسَيْد رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ «كان يَستفتحُ بصعاليكِ المهاجِرين»[1]، أي: بوسيلةِ هؤلاءِ المهاجِرينَ المعدَمينَ وعن طريقِهم.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

٩ ـ في هذه الآية تَقرَّر أنّ أنصارَ المدينة أيضًا يستحِقُّونَ نصيبًا من مالِ الفَيْء، كما جاء فيها بيانٌ لفَضْلِهم أيضًا، يعني:

ـ إنّهم كانوا ثابتينَ على إيمانِهم قبلَ أن يأتيَهم المهاجِرونَ من مكّةَ.

---

(١) تفسير البغوي، سورة الحشر (٥٩): الآية ٨.

- أنصارُ المدينة كانوا يُحبُّونَ مِن قلوبِهم كلَّ مَن هاجَرَ إلى المدينة لنَيْلِ رضا الله تعالى، فكانوا يتدبَّرونَ أمرَ إقامتِهم وطعامَهم بأنفُسِهم، ويُعطونَهم نصيبًا من أرضِهم وبساتينِهم، حتى أنّ مَن كان لديه منَ الأنصار أكثرُ من زوجةٍ، عَرَضَ على أخيه المهاجِرِ أن يُطلِّقَ إحداهُنَّ ليتزوَّجَها هو، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الرَّحمن بنُ عَوْف رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ آخَى بينَه وبينَ سيِّدِنا سَعْد بن الرَّبيع رضي الله عنه، «وكان (أي: سيِّدُنا سَعْدُ بن الرَّبيع رضي الله عنه) كثيرَ المال، فقال سعدٌ: قد عَلِمتِ الأنصارُ أنّي من أكثرِها مالًا، سأقسِمُ مالي بيني وبينَك شَطْرَيْنِ، وليَ امرأتان، فانظُرْ أعجبَهما إليك فأُطلِّقَها، حتّى إذا حَلَّت تزوَّجْتَها. فقال عبدُ الرّحمن: بارَكَ الله لك في أهلِك ومالِك، دُلُّوني على السُّوق»[1]. ومِثلُ هذه المحبّةِ القلبيّةِ لا نجدُ لها مثيلًا في تاريخ أقوام العالَم.

- أموالُ الفَيْءِ التي قَسَمها النبيُّ ﷺ على المهاجرين، لم يَشعُرِ الأنصارُ من قلوبِهم بحاجتِهم إليها، بمعنى: أنه لم يكنْ في قلوبِهم أيُّ ضِيقٍ من هذا، كما لم تكنْ لديهم رغبةٌ فيها، وإنّما كانوا سُعَداءَ بمساعدةِ إخوانِهم المهاجِرينَ بهذا الشكل.

- رَغْمَ أنّ أنصارَ المدينة كانوا هم أيضًا محتاجينَ، لكنَّهم معَ ذلك كانوا يؤْثِرونَ إخوانَهم المهاجِرينَ على أنفُسِهم، مثلَما يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رجلًا أتى النّبيَّ ﷺ فبَعَث إلى نسائه فقُلْنَ: ما معَنا إلّا الماء. فقال رسولُ الله ﷺ: «من يَضُمُّ، أو يُضيفُ هذا؟». فقال رجلٌ من الأنصار: أنا. فانطلَقَ به إلى امرأتِه، فقال: أكرِمي ضيفَ رسولِ الله ﷺ، فقالت ما عندَنا إلّا قوتُ صِبْياني. فقال: هيِّئي طعامَكِ، وأصبِحي سِراجَك، ونَوِّمي صِبيانَكِ إذا أرادوا عشاءً. فهيَّأَتْ طعامَها وأصبحَتْ

---

(١) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ٣ برقم ٣٧٨١، كتاب النكاح، باب ٧ برقم ٥٠٧٢، وغيرهما عنده.

سِراجَها، ونَوَّمت صِبيانَها، ثمّ قامت كأنّها تُصلحُ سِراجَها فأطفَأَتْه، فجَعَلا يُرِيانِه أنّهما يأكُلان، فباتا طاوِيَيْنِ، فلمّا أصبح، غدا إلى رسولِ الله ﷺ فقال: «ضحِك اللهُ اللّيلةَ ـ أو عَجِب ـ من فِعالِكما»، فأنْزل اللهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

وهناك واقعاتٌ أخرى كثيرةٌ آثَرَ فيها الصَّحابةُ الكرامُ رضي الله عنهم الآخَرينَ على أنفسِهم، على سَبيل المثال:

ـ يقولُ الحافظُ ابنُ كثير: «وهذا الماءُ الّذي عَرَض على عكرِمةَ وأصحابه يومَ اليرموك، فكلٌّ منهم يأمُرُ بدَفْعِه إلى صاحبِه، وهو جريحٌ مُثقَلٌ أحوَجُ ما يكونُ إلى الماء، فرَدَّه الآخَرُ إلى الثُّلُث، فما وَصَل إلى الثّالثِ حتّى ماتوا عن آخِرِهم ولم يشرَبْه أحدٌ منهم، رضي اللهُ عنهم وأرضاهم»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: «أُهدي لرجلٍ من الصّحابة رأسُ شاةٍ، وكان مجهودًا، فوَجَّه به إلى جارٍ له، فتداولَتْه سبعةُ أنفُسٍ في سبعةِ أبياتٍ، ثمّ عاد إلى الأوّل، فنَزَلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآيةَ»[3].

ـ البُخلُ مرضٌ يجعَلُ من صاحبِه أنانيًّا إلى درجةِ أنه يُقصِّرُ في أداءِ حقوقِ الله وحقوقِ العباد، وينشغلُ بجَمْع المالِ دونَ التمييزِ بينَ حلالِه وحرامِه، ولكنّ فَضْلَ الله تعالى وكَرَمه على أنصارِ المدينة كان عظيمًا، إذْ حَفِظهم من مرضِ البُخل، وأَوْدَعَهم عاطفةَ الإيثارِ والتضحية، وأمثالُ هؤلاء هم المفلحونَ في الدارَيْنِ.

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «اتَّقُوا

---

(١) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ١٠ برقم ٣٧٩٨.

(٢) تفسير ابن كثير، سورة الحشر (٥٩): الآية ٩.

(٣) تفسير القرطبي، سورة الحشر (٥٩): الآية ٩.

الظُّلمَ؛ فإنّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامة، واتَّقوا الفُحشَ، فإنّ اللهَ لا يُحبُّ الفُحشَ ولا التّفحُّشَ، وإيّاكم والشُّحَّ؛ فإنّه أهلَكَ مَن كان قبلَكم، أمَرَهم بالظُّلم فظَلَموا، وأمَرَهم بالفُجورِ ففَجَروا، وأمَرَهم بالقطيعةِ فقَطَعوا»[1].

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾

١٠ ـ يعني: أنّ المسلمينَ جميعًا بعدَ الأنصارِ والمهاجِرينَ والصَّحابةِ الكرام رضي اللهُ عنهم جميعًا، وحتى يوم القيامة، يستحِقُّ كلُّ واحدٍ منهم نصيبًا من مالِ الفَيْءِ، ولكنْ بشَرْطِ أن يعترفَ بإيمانِ الأنصارِ والمهاجِرين، وأن لا يكونَ في قلبه بُغضٌ لهم، وأن يدعوَ اللهَ لهم بالمغفرة، أمّا الذين يَحمِلونَ في قلوبِهم ضَغينةً وحقدًا للصّحابةِ الكرام رضي اللهُ عنهم جميعًا، فهؤلاءِ لا يستحِقُّونَ من مالِ الفَيْءِ شيئًا.

ـ تقولُ أُمُّ المؤمنينَ السيّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: أُمِرتُم بالاستغفارِ لأصحابِ محمّدٍ ﷺ، فسبَبْتُموهم! سَمِعتُ نبيَّكم ﷺ يقول: «لا تذهَبُ هذه الأُمّةُ حتّى يَلعَنَ آخِرُها أوّلَها»[2].

ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «هذه الآيةُ دليلٌ على وجوبِ محبّةِ الصّحابة، لأنّه جَعَل لمَن بعدَهم حظًّا في الفَيْءِ ما أقاموا على محبّتِهم وموالاتِهم والاستغفارِ لهم، وأنّ مَن سَبَّهم أو واحدًا منهم أو اعتقَد فيه شرًّا أنّه لا حقَّ له في الفَيْء»[3].

ـ يقولُ مالكُ بن مِغوَل: قال عامرُ بن شَراحيلَ الشَّعبيُّ: يا مالك، تفاضَلَتِ اليهودُ والنّصارى على الرّافضة بخَصلةٍ، سُئلتِ اليهودُ: مَن خيرُ أهلِ مِلّتِكم؟ فقالت: أصحابُ

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة الحشر (٥٩): الآية ٩.
(٢) تفسير البغوي، سورة الحشر (٥٩): الآية ١٠.
(٣) تفسير القرطبي، سورة الحشر (٥٩): الآية ١٠.

موسى عليه السّلام، وسُئلتِ النّصارى: من خيرُ أهل مِلّتِكم؟ فقالوا: حَواريُّ عيسى عليه السّلام، وسُئلتِ الرّافضةُ: من شرُّ أهل مِلّتِكم؟ فقالوا: أصحابُ محمّدٍ ﷺ[(١)].

ـ يقولُ العَوّامُ بن حَوْشَب: أدركتُ صدرَ هذه الأُمّةِ يقولون: اذكُروا محاسنَ أصحابِ رسولِ الله ﷺ حتّى تؤلّفَ عليهم القلوبُ، ولا تَذكُروا ما شَجَر بينَهم فتُجَسِّروا النّاسَ عليهم[(٢)].

ـ في هذه الآياتِ بَيَّن اللهُ تعالى ثلاثَ طبقاتٍ للأُمةِ المحمَّدية، يعني: المهاجرينَ والأنصارَ، بالإضافةِ إلى المسلمينَ حتى قيام الساعة. يَروي سيّدُنا محمدُ بنُ عليٍّ رضي اللهُ عنه، عن أبيه سيّدِنا عليِّ بن الحُسَين رضي اللهُ عنه، «أنّ نَفَرًا من أهلِ العراق جاءوا إليه، فسَبُّوا أبا بكرٍ وعُمرَ ـ رضي الله عنهما ـ ثمّ عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ فأكثَروا، فقال لهم: أمِنَ المهاجرينَ الأوَّلينَ أنتم؟ قالوا: لا. فقال: أفَمِنَ الّذين تبوَّأوا الدّارَ والإيمانَ من قبلِهم؟ فقالوا: لا. فقال: قد تَبرّأتُم من هذَيْنِ الفريقَيْن! أنا أشهَدُ أنّكم لستُم من الذين قال اللهُ عزّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ قوموا، فَعَل اللهُ بكم وفَعَل!!»[(٣)].

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بن عبد الله رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تَمَسُّ النّارُ مسلمًا رآني أو رأى مَن رَآني (أي: بعينِ الإيمان)»[(٤)].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا

---

(١) تفسير البغوي، سورة الحشر (٥٩): الآية ١٠.

(٢) تفسير القرطبي، سورة الحشر (٥٩): الآية ١٠.

(٣) المرجع السابق، سورة الحشر (٥٩): الآية ١٠.

(٤) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٦ برقم ٣٨٥٨.

رأيتُم الّذين يَسُبُّونَ أصحابي فقولوا: لعنةُ الله على شرِّكم»[١].

- يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أنّ أحدَكم أَنْفق مِثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بَلَغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه»[٢].

- يُعلَمُ من هذه الآية أنه ينبغي لنا أن نَدعوَ لأسلافِنا بالمغفرة، فيغفرُ اللهُ ذنوبَهم، ويرفَعُ درجاتِهم، مثلَما يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: أنه سَمع رسولَ الله ﷺ يقول: «أُمّتي أمّةٌ مرحومةٌ، مُتابٌ عليها، تَدخُلُ قبورَها بذنوبِها، وتَخرُجُ من قبورِها لا ذنوبَ عليها، تُمحَّصُ عنها ذنوبُها باستغفارِ المؤمنينَ لها»[٣]، كما أنّ للصَّحابةِ الكرام رضي اللهُ عنهم وكذا الأسلافُ حقًّا علينا، هو: أن ندعوَ لهم بالمغفرة؛ لأنّ نعمةَ الإسلام وَصَلت إلينا عن طريقِهم وبوسيلتِهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٩ برقم ٣٨٦٦.

(٢) البخاري، ٣٦٧٣، فضائل الأصحاب، باب ٥.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني، ٢: ٥٢٣ برقم ١٩٠٠، ومجمع الزوائد، ١٠: ٦٩.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾

١١ ـ حينَ أرسَلَ النبيُّ ﷺ إلى بني النَّضِير يُعلِمُهم أنّ عليهم الجلاءَ عن المدينةِ في غضونِ عشرة أيام، وذلك بعدَ خَرْقِهم المعاهدةَ وخيانتِهم، أرسَلَ المنافقونَ (الذين تَظاهَروا بالصَّداقة والأُخوَّةِ لليهودِ لمجرَّدِ عدائهم للنبيِّ ﷺ) لليهود أنِ ارفُضوا الخروجَ من المدينة ولا تخافوا شيئًا، فنحن معَكم، وإذا أخرَجوكم من المدينةِ سنَخرُجُ نحن أيضًا معَكم، ولن نُطيعَ كلامَ أحدٍ ضدَّكم، وإنْ حاربَكم المسلمونَ سنُرسلُ إليكم ألفَيْنِ من الشبابِ لنُصرتِكم.

وردًّا على هذه التُّرَّهاتِ نَزَلت هذه الآياتُ، وفيها أَخْبر اللهُ تعالى المسلمينَ أنّ المنافقينَ يكذِبون، ولو أُخْرِج اليهودُ لن يَخرُجَ معَهم المنافقونَ كما قالوا، ولو حاربتُم اليهودَ لن ينصُرَهم هؤلاءِ المنافقون، وعلى فَرْضِ المستحيل لو أنّ هؤلاءِ ساعَدوهم في الحربِ فعلًا فسيولُّونَ الأدبارَ سريعًا، وعندَها لن يستطيعَ أحدٌ أن يساعدَ اليهودَ، كما لن يستطيعَ أحدٌ أن يساعدَ المنافقينَ أيضًا، وفي نهايةِ الأمر سيكونُ كلاهما من اليائسينَ المحرومين.

وقد ثَبَت صحةُ النبوءةِ التي وَرَدت في هذه الآياتِ بخصوصِ المنافقينَ مائةً بالمائة، يعني: أنّ المنافقينَ لم يُساعدوا اليهودَ في شيءٍ ألبتَّةَ، وهذه النبوءةُ دليلٌ على صِدقِ القرآنِ الكريم، ومعجزةٌ تؤيِّدُ نبوَّةَ النبيِّ الكريم ﷺ.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾

١٢ ـ في هذه الآياتِ تسريةٌ عن قلوبِ المسلمين بأنّ المنافقينَ واليهودَ في غاية

الجُبن، والخوفُ منكم يملأُ قلوبَهم أكثرَ من خوفِهم من الله تعالى، ولن يستطيعوا مواجهتَكم في ميدانِ الحربِ حتى وإن كانوا مجتمِعينَ، إلّا أنّهم قد يتحصَّنُونَ في قلاعِهم، أو يتخفَّوْنَ خلفَ الجُدران، ثم يهاجمونكم، لكنَّهم معَ ذلك لن ينجَحوا في هذا أيضًا؛ لأنّهم وإن ظَهَروا متَّحِدينَ، إلا أنّ الحقيقةَ هي أنّهم يخالفُ بعضُهم قلوبَ بعضٍ، ولو أنّهم استعمَلوا عقولَهم لَما خافوا إلّا من اللهِ تعالى فقطْ، ولَما خالَفوا المسلمين.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

**١٣** ـ وبنو النَّضِير كمَثَل بني قَيْنُقاع، الذين ذاقوا وَبالَ ما صَنَعوا في الماضي القريب، وينتظرُهم في الآخِرةِ عذابٌ أليم.

## غزوة بني قينقاع

لمّا جاء النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ عَقَد معاهدةَ أمنٍ وسَلام معَ اليهود، وبنو قَيْنُقاع أيضًا قبيلةٌ يهوديّةٌ، وقد خَرَقت هذه القبيلةُ المعاهدةَ بعدَ غزوةِ بدر، فنبَّههم النبيُّ ﷺ إلى أنه يجبُ عليهم الالتزامُ بالمعاهدة، ولكنْ لمّا لم يَرجِعوا عمّا هم فيه، وأهانوا امرأةً مسلمةً بتعريتِها من ملابِسها، حاصَرَ المسلمون بأمرٍ من النبيِّ ﷺ منطقةَ بني قَيْنُقاع، ولم يَخرُجْ أحدٌ من اليهودِ لمواجهتِهم، وبعدَ عدّةِ أيام استَسْلَم اليهودُ وألقَوْا أسلحتَهم، واعتَرفوا بهزيمتِهم، وطلَبوا السَّماحَ لهم بمغادرةِ المدينة معَ أهلِهم وذويهم، وهكذا أَذِن لهمُ النبيُّ ﷺ، فهاجَروا خلالَ أيام قليلةٍ إلى قريةٍ من قُرى الشام تُدعَى أذْرِعات.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

**١٤** ـ مَثَلُ المنافقينَ كمَثَل الشيطانِ الذي يُحرِّضُ الناسَ أولًا على الكُفْر،

وحين يصبحُ الناسُ كُفّارًا راسخي الكُفر، فيَنزِلُ عليهم العذابُ، عندَئذٍ يُعلنُ الشَّيطانُ براءتَه منهم، وبنفسِ الطريقة، فإنّ المنافقينَ قد شَجَّعوا بني النَّضِير أولًا على مواجهةِ المسلمينَ مؤكِّدينَ لهم أنّهم معَهم، وعندَما جاء وقتُ القتال خَدَعوهم، ولم يَهُبُّوا لنُصرتِهم.

## مثال خداع الشيطان في الدنيا

لقد خَدَع الشّيطانُ كُفّارَ مكّةَ في غزوةِ بدرٍ بنفسِ الطريقة، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٤٨]، ولمزيدٍ من التفصيل حولَ تفسيرِ هذه الآيةِ يمكنُك الرُّجوعَ إلى الحاشية رقم ٣٨ للآية رقم ٤٨ من سُورة الأنفال (٨).

## مثال خداع الشيطان في الآخرة

سيَلومُ كلُّ مَن في النارِ قرينَه الشَّيطانَ قائلًا له: لعنَك الله! لقد أَضْلَلْتَني، وسيقولُ له الشَّيطان: متى أَجْبَرتُك على اتِّباعي؟ إنّني لم أفعَلْ شيئًا سوى أنْ رَغَّبتُكَ في السيِّئات، وقدِ اختَرتَ أنت اتِّباعي لتحقيقِ رغَباتِك النَّفسانيّةِ ومصالحِك الدُّنيويّة، مثلَما جاء في القرآنِ الكريم على لسانِ الشَّيطان: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وعلى سَبيل المثال: لو أنّ أحدًا قال لكَ أن ترميَ بنفسِك في البحرِ

لأنّ في أعماقِه جواهرَ ولآلئَ يمكنُكَ استخراجُها، فإذا ألقيْتَ بنفسِك في البحر ووَقَع موتُك لذلك، فإنّ المسئولَ عن هلاكِك ليس ذلك الشَّخصَ الذي رَغَّبك في القفزِ في البحر، وإنّما المسئولُ عن ذلك هو منِ ارتكَبَ حماقةَ إلقاءِ نفسِه في البحر.

وحين يحتَدُّ النِّقاشُ بينَ مَن هو مِن أهلِ النار ورفيقِه الشَّيطان سيقولُ اللهُ تعالى: لا تَتَجادلا أمامي، فلا فائدةَ الآنَ في ميدانِ الحَشْر لمِثل هذا الجِدال؛ لأنّني قد أعلمتُكَ من قبلُ عن طريقِ رُسُلي أنّ الشّيطانَ سيَدخُلُ النارَ هو ومَن يتَّبعونَه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

١٥ ـ الشَّيطانُ عدوٌّ صَريحٌ للإنسان، ومن يتَّبعِ الشّيطانَ سيَدخُلُ هو والشَّيطانُ الذي اتَّبعَه نارَ جهنَّم خالدًا فيها، وهذا هو جزاءُ الظالمين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾

١٦ ـ ينبغي لكلِّ مؤمنٍ أن يتَّقيَ اللهَ، ويُحاسبَ نفسَه: ما الذي يفعَلُه من أَجْلِ يوم القيامة القادم قريبًا، لأنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ كلَّ ما يفعَلُه تمامَ العلم، وسوف يكونُ حسابُه وثوابُه وعقابُه طبقًا لأعمالِه.

## الحياة الدنيا والحياة الآخرة

حياتُنا تشتملُ على جُزأَيْن؛ الجزءُ الأول: دُنيَويّ، والجزءُ الثاني: أُخرَويّ، أمّا الحياةُ الدُّنيا فهي دارُ العمَل، وهي التي نعمَلُ فيها، والحياةُ الآخِرة هي دارُ الجزاء، والتي نُحاسَبُ فيها على أعمالِنا في الحياةِ الدُّنيا، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «الدُّنيا مزرَعةُ الآخِرة»(١)، يعني: أنّ مَثَلَ الحياةِ الدنيا كمزرَعةٍ يتوقَّفُ زراعتُها على رغبتِنا نحن، وبالتالي فإنّ الأمرَ يعودُ إلى اختيارِنا نحن لِما نريدُ أن نزرَعَ. على أيِّ حال، النتيجةُ واضحةٌ، فلو زرَعْنا أعمالًا طيِّبةً سنسعَدُ يومَ القيامة بثمارِها الطيِّبة، ولو زرَعْنا أعمالًا سيِّئةً فسوف نشقَى يومَ القيامة بثمارِها المُرّة. يقولُ النبيُّ ﷺ: «نِعمَتِ الدّارُ الدُّنيا لمن تَزوَّد منها لآخِرتِه»(٢).

جاء لفظُ «غدٍ» في هذه الآيةِ الكريمةِ دِلالةً على يوم القيامة، وفيه إشارةٌ إلى أنه مثلَما أنّ مجيءَ الغدِ بعدَ اليوم أمرٌ يقينيٌّ، كذلك فإنّ مجيءَ القيامةِ بعدَ هذه الدُّنيا أمرٌ يقينيٌّ أيضًا، وفيه إشارةٌ أخرى إلى أنه مثلَما أنّ الغدَ يكونُ قريبًا للغاية بعدَ اليوم، كذلك فإنّ القيامةَ أيضًا قريبةٌ للغاية بعدَ هذه الدُّنيا، ورَغْم أنّ قيامةَ الكائناتِ كلِّها بعيدةٌ، لكنّ قيامَة كلِّ إنسانٍ قريبة؛ لأنّ الموتَ في ذاتِه قيامةٌ صُغرى للإنسانِ يبدَأُ معَها العذابُ، والموتُ يمكنُ أن يأتيَ في أيِّ لحظة. يقولُ سيِّدُنا

---

(١) المقاصد الحسنة، ٢٢٧.

(٢) المرجع السابق، ٢٢٧.

أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم قال: «إذا مات أحدُكم فقد قامت قيامتُه، فاعبُدوا اللهَ كأنّكم ترَوْنَه واستغفِروه كلَّ ساعةٍ»[1].

إنّ الوطنَ الأَصْليَّ للإنسانِ هو الآخِرة، وقد أُرسِلَ إلى الدُّنيا حتى يُعِدَّ زادًا للآخِرة، والآنَ الواقعُ هو أنه لا يستطيعُ إنسانٌ أن يصطحبَ معَه عِملةَ هذه الدُّنيا، وبفَرْضِ المستحيل لو أنّ الإنسانَ اصطحبَ بعضًا من عِملةِ هذه الدُّنيا معَه، فإنّ هذه العملةَ لن تنفعَه في الآخِرة، ولهذا ينبغي لكلِّ إنسانٍ أن يتدبَّرَ لنفسِه عملةَ الآخِرة قبلَ موتِه، وعملةُ الآخِرة هي الحسَنات، وبقَدْرِ ما تكونُ حسَناتُ الإنسانِ كثيرةً، بقَدْرِ ما يكونُ سعيدًا في الآخِرة، وأمّا المحرومُ من الحسَناتِ فسيكونُ من الأشقياءِ في الآخِرة.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾

١٧ ـ في هذه الآيةِ ترغيبٌ لأهل الإيمانِ في طاعةِ الله تعالى، وتعريفِهم بالمصير السيِّئ لعصيانِه، يعني: أنّ الذين ينسَوْنَ اللهَ تعالى ولا يُبالُونَ بأحكامِه، سيكونُ عقابُهم أن ينسَوْا أنفُسَهم، ولا تبقَى لديهم مَلَكةُ التمييزِ بينَ النَّفع والخسارة، وفي النهاية يسيرونَ على طريقِ عصيانِ الله تعالى.

﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾

١٨ ـ هذا أمرٌ واضحٌ تمامَ الوضوح أنه لا يمكنُ أن يستويَ الطلابُ الذين اجتَهَدوا في دراستِهم ونَجَحوا في الامتحان معَ أولئك الذين غَفَلوا عن دراستِهم ورَسَبوا في الامتحان؛ لأنّ الطلابَ المجتهدينَ يحتفلونَ بنتيجةِ اجتهادِهم، أمّا

(١) كنز العمال، ١٥: ٦٨٦ برقم ٤٢٧٤٨.

الطلابُ الراسِبونَ فيندَمُونَ على غَفْلتِهم، وبنفسِ الطريقة فإنّ الذين يستحِقُّونَ الجنةَ بأعمالِهم الصّالحة لا يَسْتَوُونَ معَ أولئك الذين سيَدخُلونَ جهنَّمَ بسببِ أعمالِهم السيِّئة.

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

١٩ ـ جاء في هذه الآيةِ بيانُ عظَمةِ القرآنِ الكريم بأنه لو أُعطِي الجبَلُ الضَّخمُ القاسي عقلًا كعقل الإنسان، ثم أُنزِل عليه القرآنُ، لَانحَنى هو الآخَرُ أمامَ عظَمةِ الله تعالى، ولتَصدَّعَ من خَشْيتِه وخوفِه وتناثَر، لكنّ الذين تغلِبُهم شهَواتُهم ينتهي خوفُ الله من قلوبِهم، وتصبحُ قلوبُهم أكثرَ قسوةً من الجبال، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤]؛ لأنّ بعضَ الأحجارِ تتفجَّرُ منها عيونُ المياه، بينَما لا تَذرِفُ عيونُ هؤلاءِ الظالمينَ دمعةَ نَدَم واحدةً، وقد جاء بيانُ هذه الأمثلةِ حتى يتدبَّرَ الناسُ القرآنَ الكريمَ ويتأمَّلوا فيه، ويحاولوا فهمَ قُدرةِ الله تعالى وعظَمتِه.

نَقَل العلّامةُ الشَّوكانيُّ قولًا هو: «الخطابُ للنّبيِّ ﷺ، أي: لو أَنْزلنا هذا القرآنَ يا محمّدُ على جَبَلٍ لَما ثَبت، ولَتصدَّعَ من نزولِه عليه، وقد أَنْزلناهُ عليكَ وثَبّتناكَ له وقَوَّيْناكَ عليه، فيكونُ على هذا من بابِ الامتنانِ على النّبيِّ ﷺ، لأنّ اللهَ سبحانه ثبَّتَه لِما لا تَثبُتُ له الجبالُ الرّواسي»[1].

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

٢٠ ـ جاء ذِكرُ أسماءِ الله الحسنى في مواضعَ كثيرةٍ من القرآنِ الكريم، ولكنّ

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني.

الموضِعَ الذي جاء فيه ذِكرُ أكبرِ عددٍ من أسماءِ الله الحُسنى مجتمِعًا هو الآياتُ الثلاثُ الأخيرةُ في نهايةِ هذه السُّورة، وإليك تعريفًا مختصَرًا بها:

ـ **الله**: هو اسمُ ذاتِ خالقِ الكائنات، ولا يجوزُ استعمالُه لغيرِه تعالى، واللهُ تعالى واحدٌ متفرِّد، واسمُ ذاتِه يعني: اللهُ متفرِّدٌ أيضًا، ولا جَمْعَ له، وهو جامعٌ لكلِّ الأسماءِ الحُسنى (صفاتِ الباريْ تعالى). «قال جابرُ بن زَيْد: إنَّ اسمَ الله الأعظمَ هو الله»[1].

ـ **إله**: هو الذاتُ التي تُعبَد، والحقيقةُ أنه ليس هناك أيُّ ذاتٍ تستحِقُّ العبادةَ سوى اللهِ تعالى، وقد قالت رابعةُ العَدَويّةُ رحمَها الله:

ـ أُحِبُّك حُبَّيْــنِ؛ حبَّ الهوى وحبًّـا لأنكَ أهــلٌ لــذاكَ[2]

وقالت رحمَها اللهُ في موضِع آخَرَ: «ما عبَدتُ اللهَ خوفًا من الله، ولا حبًّا للجنَّة، ولكنِّي عبَدتُه حبًّا له وشوقًا إليه»[3].

«أوحَى اللهُ تعالى إلى داودَ عليه السَّلام: إنَّ أَوَدَّ الأوِدّاءِ إليّ مَن عبَدَني بغيرِ نَوال، لكنْ ليُعطِيَ الرُّبوبيَّة حقَّها. وفي الزَّبُور: مَن أظلمُ ممَّن عبَدَني لجنّةٍ أو نارٍ؟ لو لم أَخلُقْ جنةً ولا نارًا، ألم أكنْ أهلًا أن أُطاع؟ ومرَّ عيسى عليه السَّلامُ على طائفةٍ من العبادِ قد نَحِلوا، فقالوا: نخافُ النارَ ونرجو الجنةَ، فقال لهم: مخلوقًا خِفتُم ومخلوقًا رجَوتُم! ومرَّ بقوم آخَرينَ كذالك فقالوا: نعبُدُه حبًّا له وتعظيمًا لجلالِه، فقال: أنتم أولياءُ الله حقًّا، معَكم أُمِرتُ أن أُقيمَ»[4]، و«قال أبو حازم رحمةُ الله عليه: إنّي لَأستحيي أن أعبُدَه للثّوابِ والعقاب فأكونَ كالعبدِ السُّوءِ إن لم يخَفْ فلم يعمَلْ، وكالأجيرِ السُّوءِ إن لم يُعطَ لم يعمَلْ. وفي الخبر: لا يكونَنَّ أحدُكم كالأجيرِ السُّوءِ

(١) تفسير القرطبي.
(٢) تفسير المنار، سورة التوبة (٩): الآية ٢٤.
(٣) قوت القلوب، الجزء الثاني: ص ١٠٦٧: ذكر أحكام المحبة.
(٤) إحياء علوم الدين، كتاب المحبة والشوق، ص ١٧٥٧.

إن لم يُعطَ أجرًا لم يعمَلْ، ولا كالعبدِ السُّوء إن لم يخَفْ لم يعمَلْ»(١).

ـ لئن سَكَنتْ حُورُ الجِنان في القلب، فعبادتُك ليست عبادةً، وإنما تجارة(٢).

ـ **عالِمُ الغيبِ والشَّهادة:** عِلمُ الله تعالى مُحيطٌ بكلِّ شيء، ويَعلَمُ حتى تلك الأشياءَ التي تخفَى على الناس، كما يَعلَمُ الأشياءَ التي تَظهَرُ لهم.

ـ **الرَّحمنُ الرَّحيم:** هذانِ اسمانِ من أسماءِ الله تعالى، وهما صيغةٌ مبالغة، وفي الرَّحمن قمّةُ المبالغة، يعني: رحيمٌ إلى درجةٍ لا يمكنُ أن يتَصوَّرَها أحدٌ، ولا يجوزُ استعمالُ لفظِ الرَّحمن لغيرِ الله تعالى، واللهُ تعالى هو الأعظَمُ، ورحمتُه تغلِبُ غضَبه، ولهذا مهما كان الإنسانُ مذنبًا، لو تابَ من قلبِه مخلِصًا صادقًا فلا ينبغي أن يخافَ شيئًا، فرحمةُ الله تعالى التي لا حدَّ لها ولا حسابَ تنتظرُ مشتاقةً لأنْ تغفِرَ له وتعفوَ عنه، يا رحمنُ يا رحيم، يا مالكي، أنتَ دائمًا إلى الكرم أميَل، ليتَنا نُرزَقُ صِدقَ الطلبِ، آمين.

ـ **الملِك:** «أي: المالكُ لجميع المخلوقات، المتصرِّفُ في خَلْقِه بالأمرِ والنَّهي، والإيجادِ والإعدام»(٣).

ـ **القُدُّوس:** «أي: المُنزَّهُ عن كلِّ نقصٍ والطاهرُ عن كلِّ عيب»(٤).

ـ **السَّلام:** «أي: ذوالسَّلامةِ والمُسلِّمُ لعبادِه»(٥).

---

(١) إحياء علوم الدين، كتاب المحبة والشوق، ١٧٥٧، وقوت القلوب، ذكر أحكام المحبة ٢: ١٠٦٤.

(٢) البيت بالأردية هو:

اگر حور جنت كى دل ميں بسى هے... عبادت هى كيا يه تو سوداگرى هے

(٣) صفوة التفاسير.

(٤) تفسير القرطبي.

(٥) المرجع السابق.

- **المؤمن**: «الذي يؤمِّنُ أولياءه من عذابِه ويؤمِّنُ عبادَه من ظُلمِه»[١].

- **المُهيمِن**: «أي: الرَّقيبُ الحافظُ لكلِّ شيء، والشهيدُ على عبادِه بأعمالِهم الذي لا يغيبُ عنه شيء»[٢].

- **العزيز**: «أي: القادرُ القاهرُ الذي لا يُغلَبُ ولا ينالُه ذُلّ»[٣].

- **الجبّار**: «أي: القَهّارُ العالي الجَنابِ الذي يَذِلُّ له مَن دونَه، وهو العظيمُ الذي إذا أراد أمرًا فَعَلَه»[٤].

- **المتكبِّر**: «أي: الذي له الكبرياءُ حقًّا ولا تليقُ إلّا به»[٥].

«والكبرياءُ صفةٌ تستحِقُّ الثناءَ بالنِّسبة لله تعالى ولا تليقُ إلّا به، ولكنْ إذا ادَّعى مخلوقٌ الكبرياءَ، فإنّ هذه صفةٌ مذمومةٌ بالنِّسبة إليه»[٦]. يقول سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «يقولُ اللهُ سبحانه: الكبرياءُ ردائي والعظَمةُ إزاري، مَن نازَعَني واحدًا منهما ألقَيْتُه في جهنَّم»[٧].

- **الخالقُ**: «الخالقُ لجميع الأشياء»[٨].

- **البارئ**: «أي: المخترِعُ المُنْشِئُ للأعيانِ من العَدَم إلى الوجود»[٩].

---

(١) تفسير القرطبي.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق.
(٥) المرجع السابق.
(٦) «والكبرياء في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذم». تفسير القرطبي.
(٧) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ١٦ برقم ٤١٧٤.
(٨) صفوة التفاسير.
(٩) تفسير الخازن.

ـ **المصوِّر**: «أي: المُبدِعُ للأشكالِ على حسَبِ إرادتِه[١]، والتشكيلُ الذي يكونُ به صورةٌ وهيئةٌ يُعرَفُ بها ويتميَّزُ عن غيرِه بسَمْتِها»[٢].

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾

**٢١ ـ الأسماءُ الحُسنى**: اللهُ تعالى واحدٌ، واسمُ ذاتِه واحدٌ أيضًا، يعني: «الله»، وصفاتُه كثيرةٌ جدًّا، ولهذا فإنّ أسماءَ صفاتِه كثيرةٌ جدًّا أيضًا، مثلًا: الرَّحمن، الرَّحيم، الرازقُ، الخالقُ، وغيرُها من أسماءِ صفاتِ الله تعالى التي وَرَد ذِكرُها في القرآنِ الكريم والسُّنّةِ النَّبويّة المطهَّرة، وصفاتُ الله تعالى هي الأكمَلُ والأعلى على الإطلاق، والأسماءُ التي تُعبِّرُ عن هذه الصِّفاتِ هي الأحسَنُ والأكمَلُ والأعلى على الإطلاقِ أيضًا، ولهذا عندَما تَذكُرونَ اللهَ تعالى، أو تدعونَه، فاختاروا من أسمائه ما يناسبُ واقعَ الحال، ولا تأتُوا من عندِ أنفُسِكم بأسماءٍ قد لا تليقُ بذاتِه العَلِيّة.

﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

**٢٢** ـ للتعرُّفِ على تفسيرِ هذه الآية راجع الحاشيةَ الأُولى من سُورة الحديد (٥٧).

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة العشاءِ من يوم الاثنين ٢٧ سبتمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ١٨ شوال ١٤٣١هـ.**

**هذا وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الحَشْر» في أربعة أيام فقط، أي: من ٢٣ إلى ٢٧ سبتمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.**

---

(١) صفوة التفاسير.

(٢) تفسير القرطبي.

بسم الله الرحمن الرحيم

# (٦٠) سورة الممتحنة

هذه السُّورةُ مدَنيّة، واسمُها «المُمتحنة»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ رقم ١٠ منها، ويُقرَأُ اسمُ هذه السُّورةِ على وجهَيْنِ، فإذا قُرئَ بكسرِ الحاء، يعني «المُمتحِنَة»، فهو اسمُ فاعل، ويكونُ معناه: «السُّورةُ التي تَمتحِنُ النِّساءَ»، وإذا قُرئَ بفتح الحاء، يعني: «المُمتحَنَة»، فهو اسمُ مفعول، ويكونُ معناه: «المرأةَ التي امتُحِنَت»، لأنّ النِّساءَ اللائي كُنَّ يهاجِرْنَ من مكةَ إلى المدينة، ويدَّعِينَ أنّهن مسلماتٌ، كان يتمُّ امتحانُهنَّ، فإنْ كُنَّ - بالفعل - مسلماتٍ جِئْنَ حفاظًا على إيمانِهنَّ فلا تتِمُّ إعادتُهنَّ إلى الكُفّار، أمّا إنْ كُنَّ قد جِئنَ هربًا من أزواجِهنَّ لهدفٍ آخَرَ تتِمُّ إعادتُهنَّ من حيث جِئْنَ.

## الحفاظ على الأسرار القومية

في بدايةِ هذه السُّورةِ إشارةٌ إلى قصّةِ سيّدِنا حاطبِ بن أبي بَلْتَعةَ، فقد حاولَ أن يُبلِّغَ الكفّارَ بسرٍّ مهمٍّ من الأسرارِ الحربيّةِ للمسلمينَ بهدفِ حمايةِ زوجتِه وأولادِه منهم، ولو لم يتدارَكِ النبيُّ ﷺ هذا الأمرَ في وقتِه، لَكان من الممكنِ أن تَلحَقَ بالمسلمينَ خسارةٌ فادحةٌ في الأرواح، ورَغم أنّ هذه السُّورة نَزَلَت في سيّدِنا حاطبِ بن لأبي بَلْتعةَ، لكنّ حُكمَها عامٌّ، يعني: ينبغي للأُمةِ الإسلاميّةِ تجنُّبُ الأخطاءِ التي يمكنُ أن تُسبِّبَ لهم خسارةً أو ضررًا.

## مصادقة الكفار ومعاداتهم

يُعلَمُ من الآيةِ رقم ٩ والآيةِ رقم ١٠ من السُّورةِ أنّ السَّببَ في قَطْع العلاقةِ معَ الكفّارِ ليس كُفرَهم، وإنّما معاداتُهم للإسلام، وظُلمُهم للمسلمينَ واعتداؤهم عليهم، واليومَ لا يوجَدُ شعبٌ متحضِّرٌ يسمحُ لأحدِ أفرادِه بأن يُقيمَ علاقاتِ صَداقةٍ معَ أعدائه؛ لأنّ من الممكِن جدًّا أن تتسرَّبَ الأسرارُ القوميّةُ للبلادِ إلى العدوِّ بهذا الشكل، ولهذا فإنّ مَن يفعَلُ ذلك تُوجَّهُ له تُهمةُ الخيانةِ العُظمى، ويُعاقَبُ عليها بأشدِّ العقوبات، وبالتالي ينبغي للمسلمينَ أن لا يكونَ سلوكُهم معَ الكفّارِ جميعًا واحدًا، وعليهم أن يُفرِّقوا بينَ الكافِر العدوِّ والكافرِ الذي ليس عدوًّا، فهذه حقيقةٌ يعمَلُ بموجبِها العالَمُ كلُّه اليومَ، فلا يوجَدُ شعبٌ يقيمُ علاقاتِ صَداقةٍ معَ عدوِّه، كما لا يُفسِدُ علاقاتِه بغيرِ سببٍ معَ شعبٍ ليس عدوًّا له.

## الزواج بين المسلمين والكفار

قبلَ نزولِ الآية رقم ١٠ من هذه السُّورة كان الزَّواجُ معمولًا به بينَ المسلمينَ والكُفّار، فكانتِ السيِّداتُ المسلماتُ يتزوَّجْنَ برجالٍ كُفّار، وكان الرجالُ المسلمونَ يتزوَّجونَ بنساءٍ كافرات، ولكنْ بعدَ نزولِ هذه الآية أُغلِق بابُ زواج الرجالِ المسلمينَ من النِّساءِ الكافراتِ والمشركات، إلّا أنّ الرجالَ من المسلمينَ يُمكنُهم الزَّواجُ من سيّداتِ أهل الكتاب، لكنّ العكسَ من ذلك غيرُ جائز، ولمزيدٍ من التفصيل عن هذا الأمر يُمكنُك مراجعةُ الحاشية رقم ١٦ للآية رقم ٥ من سُورةِ المائدة (٥).

## أخذ البيعة من النساء

جاء ذِكرُ أَخْذِ البيعةِ من النِّساءِ في نهايةِ هذه السُّورة، كان النبيُّ ﷺ يأخُذُ البيعةَ من النِّساءِ على التّخلِّي عن المساوئ التي كانت موجودةً قبلَ الإسلام في

المجتمع العربيِّ عمومًا، وبينَ نساء هذا المجتمَع بصفةٍ خاصّة، وكان يُعلِّمُهُنَّ أنهنّ إذا خالَفْنَ حكمًا، فسيكونُ هناك أربعةُ شهودِ عِيانٍ عليهِنَّ يومَ القيامة، يعني: ستَشهَدُ عليهِنَّ يداهُنَّ ورِجْلاهنّ.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة الظهر من يوم الثلاثاء ٢٨ سبتمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ١٩ شوالٍ ١٤٣١هـ.**

* * *

# سُورَةُ المُمْتَحَنَة (٦٠)،

## مدنية (٩١)، آياتها (١٣)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾

١ ـ حينَ فَسَخ أهلُ مكّةَ معاهدةَ صُلح الحُدَيْبِيَة، بَدَأ النبيُّ ﷺ يُعِدُّ العُدّةَ للهجوم

على مكّةَ، وأخفَى هذه الاستعداداتِ الحربيَّة عن عامّةِ الناس، حتى لا تتسرَّبَ الأخبارُ إلى أهلِ مكّةَ ويَعرِفوا بها مُسبَقًا، وكان سيّدُنا حاطبُ بنُ أبي بَلْتعةَ قد جاء إلى المدينةِ مهاجِرًا، لكنّ زوجتَه وأولادَه كانوا لا يزالونَ في مكّةَ، فقام بإرسالِ خطابٍ إلى مشركي مكّةَ يُخبِرُهم فيه عن هذه الحملةِ العسكريّة، بغَرَضِ أن يُحافظَ هؤلاءِ المشركونَ على أولادِه وزوجتِه في مكّةَ لقاءَ هذا المعروفِ الذي يُسديه إليهم، ولكنّ الله تعالى أَطْلع نبيَّه الكريمَ ﷺ بأمرِ هذا الخطابِ عن طريق الوَحْي، وتفصيلُ ذلك في الحديثِ التالي:

ـ عن عليٍّ رضي الله عنه، قال: بَعَثَني رسولُ الله ﷺ أنا والزُّبيرَ والمِقدادَ فقال: «انطلِقوا حتّى تأتوا رَوْضةَ خاخٍ، فإنّ بها ظعينةً معَها كتابٌ، فخُذوا منها». قال: فانطلَقْنا تُعادِي بنا خَيْلُنا حتّى أتَيْنا الرَّوضةَ، فإذا نحن بالظَّعينة، قلنا لها: أَخْرجي الكتابَ. قالت: ما معي كتابٌ. فقُلنا: لتُخرِجِنَّ الكتابَ أو لنُلقِيَنَّ الثّياب، قال: فأخرَجَتْه من عِقاصِها، فأتَيْنا به رسولَ الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطبِ بن أبي بَلتَعةَ إلى ناسٍ بمكّةَ من المشركين، يُخبِرُهم ببعضِ أمرِ رسولِ الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ «يا حاطب، ما هذا؟». قال: يا رسولَ الله، لا تَعْجَلْ علَيَّ، إنّي كنتُ امرأً مُلصِقًا في قريشٍ ـ يقول: كنتُ حليفًا ولم أكنْ من أنفسِها ـ وكان مَن معَك من المهاجِرينَ مَن لهم قراباتٌ، يَحمُونَ أهليهم وأموالَهم، فأحبَبْتُ إذْ فاتَني ذلك من النَّسَبِ فيهم أن أتّخذَ عندَهم يدًا يَحْمُونَ قرابتي، ولم أفعَلْه ارتدادًا عن ديني (لا قدّر الله)، ولا رضًا بالكُفرِ بعدَ الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «أمَا إنّه قد صَدَقَكم». فقال عُمر: يا رسولَ الله، دَعْني أضرِبْ عنُقَ هذا المنافق. فقال: «إنّه قد شَهِد بدرًا، وما يدريكَ لعلّ اللهَ اطَّلع على مَن شهِدَ بدرًا قال: اعمَلوا ما شئتُم فقد غَفَرتُ لكم». فأنْزل اللهُ السُّورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

---

(١) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس برقم ٣٠٠٧، كتاب المغازي، باب ٤٨ برقم ٤٢٧٤، وغيرهما فيه.

وكان من الممكنِ جدًّا أن يؤدِّيَ هذا الخطأُ من سيّدِنا حاطِب بن أبي بَلْتعةَ رضي الله عنه إلى ضَرَرٍ عظيم، ولكنّه لم يكنْ يقصِدُ إلى مخالفةِ الإسلام والإضرارِ به، ولهذا عَفَا عنه النبيُّ ﷺ، ومن أسبابِ هذا العفوِ أيضًا: أنّ سيّدَنا حاطبَ بنَ أبي بَلْتعةَ رضي الله عنه كان من الذين شاركوا في غزوةِ بدر، ويُغفَرُ للعُظَماءِ هفَواتُهم مراعاةً لأعمالِهم وحسَناتِهمُ العظيمة، مثلَما تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنهما، من أنّ النبيَّ ﷺ قال: «أقيلوا ذوي الهَيْئاتِ عثَراتِهم إلّا الحدودَ»[1].

ورَغْمَ أنّ هذه السُّورةَ نَزَلت في سيّدِنا حاطِب بن أبي بلتَعة، لكنّ حُكمَها عامٌّ، يعني ينبغي للأمة الإسلاميّةِ تجنُّبُ الأخطاءِ التي يمكنُ أن تُسبِّبَ لهم خسارةً أو ضررًا، ولهذا فإنّ مقصِدَ هذه الآيةِ هو أنّ الذين هم أعداءُ الله تعالى وأعداؤكم، وقد أنكَروا دينَكم، وأجبَروكم أنتم ورسولَ الله ﷺ ـ بسببِ هذا الدِّين ـ على الهجرةِ من وطنِكم، لا يمكنُ أن يكونوا محبِّينَ لخيرِكم، ولهذا لا تتَّخِذوا من أمثالِ هؤلاء أصدقاءَ، حتى لا تتسرَّبَ أسرارُ المسلمينَ إليهم. وباختصار: إذا كنتُم خرَجتُم للجهادِ في سَبيلي وبحثًا عن رضائي، فلا تُرسِلوا إلى أعداءِ الإسلام رسائلَ خُفْيةً، وإذا قام أحدٌ منكم بإخبارِ الكفّارِ بأسرارِكم بقَصْدِ الإضرارِ بالمسلمين، فاعلَموا أنه قد ضَلَّ سواءَ السَّبيل، ولن يستطيعَ أن يخدَعَ اللهَ تعالى؛ لأنّ اللهَ تعالى يَعلمُ تمامَ العِلم ظاهرَكم وباطنَكم.

﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾

٢ ـ يعني: لا تتَّخِذوا من أعداءِ الإسلام والمسلمينَ أصدقاءَ أو مُقرَّبينَ، إذ إنّهم لو تغلَّبوا عليكم في وقتٍ من الأوقاتِ سيتغيَّرونَ تُجاهَكم فورًا، وسيُعادونكم،

(١) أبو داود، كتاب الحدود، باب ٤ برقم ٤٣٧٥.

وسوف يضايقونكم بألسنتِهم، ويؤْذونكم بأيديهم، وستكونُ أكبرَ أمانيِّهم أن تَترُكوا الإسلامَ أنتم أيضًا وتصبحوا كافرينَ مِثلَهم.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

٣ ـ في هذه الآيةِ تنبيهٌ مباشرٌ لسيّدِنا حاطبِ بن أبي بَلْتعةَ رضي الله عنه، وتنبيهٌ غيرُ مباشرٍ للأُمةِ المسلمةِ كلِّها، بأنّ الذي يَعصي اللهَ ورسولَه، أو يحاولُ إلحاقَ الضَّررِ بالمسلمينَ بضَغْطٍ من حبِّه لأولادِه، فلْيعلمْ أنّ أولادَه وأقرباءه لن ينفَعوه بشيءٍ يومَ القيامة، بل إنّ كلَّ إنسانٍ في ذلك اليوم سيكونُ مشغولًا بنفسِه وبما سيَؤُولُ إليه مصيرُه، إلى درجةِ أنه سيَفرُّ من أولادِه وأقربائه عندَئذٍ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

لم يكنِ الزَّواجُ من المشركاتِ حتى ذلك الوقتِ قد حُرِّم، وكانت زوجةُ سيّدِنا حاطبِ بن أبي بَلْتعةَ رضي الله عنه وأولادُه مشركين، وكانوا في مكةَ، ولن تنفَعَ الزَّوجةُ المشركةُ زوجَها يومَ القيامة بشيءٍ، وكذا الأولادُ المشركونَ لن ينفعوا أباهم بشيءٍ أيضًا، بينَما سيُساعدُ أهلُ الإيمانِ يومَئذٍ بعضُهم بعضًا، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى:

ـ ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾

٤ ـ هنا يقُصُّ اللهُ تعالى على المسلمينَ قصّةَ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ

بغَرَضِ إدخالِ السَّكِينة إلى قلوبِهم والتَّسريةِ عنهم لمّا اضْطُرُّوا إلى مفارقةِ الكفّارِ من أهليهم وأولادِهم وأقاربِهم، يعني: أنّ لكم في حياةِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ وحياةِ أصحابِه أُسوةً حسَنةً لكم، فقد قال لقومِه: إننا بريئونَ مِنكم ومن آلهتِكم وعقائدكِم، وما لم تؤمنوا باللهِ الواحد، سيبقَى جِدارٌ من العداوةِ والكراهيَة يَحُولُ بينَنا.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾

٥ ـ قال اللهُ تعالى في الجزءِ الأوّلِ من هذه الآية: إنّ في حياةِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ أُسوةً حسَنةً لكم، فاتَّبِعوه، لكنّ الاستغفارَ الذي كان سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ قدِ استغفَرَه لأبيه (عمِّه آزَرَ) الكافِر، لا تتَّبِعوه ولا تفعَلوا مثلَه؛ لأنه لا يجوزُ الدُّعاءُ بالمغفرةِ للكافِر، وحين عَلِم سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ بأنّ آزَرَ قد مات على الكُفر، تَرَكَ الدُّعاءَ له وقال: لستُ مجازًا بأن أَشْفَعَ للكُفّارِ أمامَ الله تعالى، وقد ذَكَر اللهُ تعالى هذا الدُّعاءَ في سُورةِ التَّوبة كما يلي:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنه يجوزُ الاستغفارُ والدُّعاءُ بالهدايةِ للمشرِك والكافرِ الذي على قَيْدِ الحياة، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله رضي الله عنه: كأنّي أنظُرُ إلى النّبيِّ ﷺ يَحكي نبيًّا من الأنبياءِ ضَرَبه قومُه فأدمَوْهُ، وهو يمسَحُ الدّمَ عن وجهِه، ويقول: «اللّهُمَّ اغفِرْ لقومي فإنّهم لا يعلمون»[1]، وكان دُعاءُ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ لِآزَرَ لأنه كان قد وَعَدَه بأن يدعوَ اللهَ له بالمغفرة، وكان يستغفرُ له على أملِ أن يعفوَ اللهُ تعالى عن كُفرِه ويهديَه إلى الإسلام، ولكنْ حين اتَّضح لسيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنّ آزَرَ مات على الكُفرِ والعداءِ لله تعالى، عندَئذٍ

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٥٦ برقم ٣٤٧٧.

تبرَّأَ سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ منه، وتوقَّفَ عن الدُّعاءِ والاستغفارِ له.

إلّا أنّ سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ ظلَّ يدعو لوالدَيْه اللَّذَيْنِ كانا مؤمنَيْنِ حتى النِّهاية، مثلَما يقولُ القرآنُ المَجيد: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقد اشتُهرَ هذا الدُّعاءُ وسار على الألسِنة، إلى درجةِ أنّ المسلمينَ حتى اليومَ لا يزالونَ يدعُونَ لوالديهم بهذا الدُّعاءِ في الصَّلاة، كما يُعلَمُ منه أنّ والدَيْ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ كانا مؤمنَيْنِ، ولهذا كان يدعو لهما بالمغفرة، ولم يكن آزَرُ والدَه، وإنّما كان عمَّه، ولمزيدٍ من التفصيل عن هذا الموضوع راجع الحاشيةَ رقم ٧٠ من سُورة الأنعام (٦).

هل كان آزَرُ والدَ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ أم عمَّه؟ وهل كان كافرًا أم مسلمًا؟ وهل يمكنُ أن يكونَ والدُ أيِّ نبيٍّ كافرًا أم لا؟ وهل كان والدا النبيِّ ﷺ مؤمنَيْنِ أم لا؟ يمكنُك التعرُّفُ على أجوِبةِ هذه الأسئلة بالرجوع إلى الحاشيةِ رقم ٧٠ للآية رقم ٧٤ من سُورة الأنعام (٦).

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

٦ ـ كان سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ ورِفاقُه يَدْعُونَ اللهَ قائلين: يا ربَّنا، إنّنا نتوكَّلُ عليك وحدَك، ونستعينُ بك وحدَك، ونتوقَّعُ من قُدرتِك الغالبة وحِكمتِك العظيمةِ أن تغفرَ خطايانا، وأن لا تُسلِّطَ علينا الكُفّارَ، وألّا تبتلِيَنا بالهزيمةِ في مواجهةِ الكافرين.

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

٧ ـ في حياةِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ وحياةِ رفاقِه المؤمنينَ أُسوةٌ حسَنة، ولكنّ سَعادةَ التّأسِّي بهم تكونُ فقطْ من نَصيبِ الذين يؤمنونَ بلقاءِ الله تعالى

وباليوم الآخِر، ويخافونَ من الحسابِ في قلوبِهم، لكنّ الذين لا يؤمنونَ بالآخِرة، وينحرفونَ عن اتِّباع أنبيائهم، إنّما يَضُرُّونَ أنفُسَهم فقطْ، ولا يَضُرُّ إعراضُهمُ اللهَ تعالى في شيءٍ؛ لأنّ اللهَ تعالى هو المستغني، وهو المستحِقُّ لكلِّ حمدٍ وثناءٍ في كلِّ حال، سواءٌ أطَعْتُموه أم عصَيْتُموه.

عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾

٨ ـ في هذه الآيةِ تسريةٌ عن قلوبِ المسلمينَ بأنّ كفّارَ مكّةَ المنهمِكينَ اليومَ في مخالفتِكم والكَيْدِ لكم، سيأتي وقتٌ قريبٌ جدًّا يُحبُّونكم فيه، ولم يكنْ منَ

السهلِ في ذلك الوقتِ فَهْمُ مغزَى هذه النُّبوءة، إذْ كيف يمكنُ أن يُحبُّهم كفّارُ مكةَ؟ لكنّ الله تعالى هو القادرُ على كلِّ شيء، فلم تكَدْ تمضي أسابيعُ قليلةٌ حتى فُتِحت مكّةَ، ورأى الناسُ بأعيُـنِهم أنّ أعداءَ الأمسِ الذين كانوا متعطِّشينَ لدماءِ المسلمين يَدخُلونَ اليومَ في دينِ الله أفواجًا، ويُضَحُّونَ بدمائهم في سَبيل نَشْرِ الإسلام.

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

٩ ـ هاتانِ الآيتانِ (يعني: الآيةَ رقم ٨ والآيةَ رقم ٩) من هذه السُّورةِ لهما أهميّةٌ كبيرةٌ فيما يتعلَّقُ بمصادقةِ الكفّارِ ومعاداتِهم، وقد قَسمتِ الآيتانِ الكفّارَ إلى قسمَيْنِ:

**القسمُ الأول:** هم أولئك الكفّارُ الذين لم يُقاتلوكم في الدِّين، ولم يُخرِجوكم من ديارِكم، ولهذا فإنّ الإنصافَ يقتضي أن نَسلُكَ معَ هؤلاءِ سلوكًا حسَنًا، والله تعالى يحبُّ المنصِفين.

**القسمُ الثاني:** هم أولئك الكفّارُ الذين قاتَلوكم في الدِّين، وأَخْرَجوكم من ديارِكم، وساعَدوا أعداءَكم عليكم، ومصادقةُ أمثالِ هؤلاءِ ظُلمٌ عظيم، والله تعالى لا يحبُّ الظالمين.

ويُعلَمُ من هذه الآياتِ أنّ السَّببَ في قَطْعِ العلاقةِ معَ الكفّارِ ليس كُفرَهم، وإنّما معاداتُهم للإسلام، وظُلمُهم للمسلمينَ واعتداؤهم عليهم، واليومَ لا يوجدُ شعبٌ متحضِّرٌ يسمحُ لأحدِ أفرادِه بأن يُقيمَ علاقاتِ صَداقةٍ معَ أعدائه؛ لأنّ من الممكِنِ جدًّا أن تتسرَّبَ الأسرارُ القوميّةُ للبلادِ إلى العدوِّ بهذا الشَّكل، ولهذا فإنّ مَن يفعَلُ ذلك تُوجَّهُ له تُهمةُ الخيانةِ العُظمى، ويعاقَبُ عليها بأشدِّ العقوبات، وبالتالي ينبغي للمسلمين أن لا يكونَ سُلوكُهم معَ الكفّارِ ـ جميعًا ـ واحدًا، وعليهم أن يُفرِّقوا بينَ الكافرِ العدوِّ والكافرِ الذي ليس عدوًّا، فهذه حقيقةٌ يعمَلُ

بموجَبِها العالَمُ كلُّه اليومَ، فلا يوجَدُ شعبٌ يُقيمُ علاقاتِ صَداقةٍ معَ عدوِّه، كما لا يُفسِدُ علاقاتِه بغيرِ سببٍ معَ شعبٍ ليس عدوًّا له.

## حسن السلوك مع غير المسلمين

ـ تقولُ السيِّدةُ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي اللهُ عنهما قَدِمَتْ علَيَّ أُمّي وهي مشرِكةٌ في عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم، فاستَفْتَيْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآلِه وسلم، قلتُ: إنّ أُمّي قَدِمَتْ وهي راغبةٌ، أَفَأَصِلُ أُمّي؟ قال: «نعَمْ، صِلي أُمَّك»[١].

ـ جاء في بعضِ الرِّواياتِ الإسرائيليّة «أنّ إبراهيمَ كان لا يأكُلُ وحدَه، فإذا حَضَر طعامُه أرسَلَ يطلُبُ مَن يأكلُ معَه، فلقيَ يومًا رجلًا، فلمّا جلسَ معَه على الطّعام، قال له إبراهيمُ: سَمِّ اللهَ، قال الرّجلُ: لا أدري ما اللهُ، فقال له: فاخرُجْ عن طعامي، فلمّا خَرَج نَزَل إليه جِبريلُ فقال له: يقولُ اللهُ: إنّه يَرزُقُه على كُفرِه مدى عمُرِه وأنت بَخِلتَ عليه بلُقمةٍ، فخَرَج إبراهيمُ فَزِعًا يجُرُّ رداءه، وقال: ارجِعْ، فقال: لا أرجِعُ حتّى تُخبرَني لمَ ترُدُّني لغيرِ معنًى؟ فأَخْبرَه بالأمر، فقال: هذا ربٌّ كريمٌ، آمَنْتُ، ودَخَل وسَمَّى اللهَ وأكلَ مؤمنًا»[٢].

ـ رُوي عن سيّدِنا أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «أوحَى اللهُ إلى إبراهيم: يا خَليلي، حسِّنْ خُلُقَك، ولو معَ الكافر، تَدخُلْ مُدخَلَ الأبرار، فإنّ كلِمتي سَبَقت لمَن حَسُن خُلُقُه أن أُظِلَّه تحتَ عرشي، وأن أَسقيَه من حظيرةِ قُدُسي، وأن أُدنيَه من جِواري»[٣].

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣ برقم ٢٦٢٠.

(٢) تفسير القرطبي، سورة هود (١١): الآية ٦٩.

(٣) المعجم الأوسط، الإمام الطبراني ٧: ٢٦١ برقم ٦٥٠٢، والترغيب والترهيب، ٣: ٤٠٧: الترغيب في الخلق الحسن.

ـ عن مجاهدٍ[١]: أنّ عبدَ الله بنَ عَمْرٍو رضي اللهُ عنهما ذُبحت له شاةٌ في أهلِه، فلمّا جاء قال: أهدَيْتُم لجارِنا اليهوديّ؟ أهدَيْتُم لجارِنا اليهوديّ؟ سَمِعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم يقولُ: «ما زال جِبرئيلُ يوصيني بالجارِ حتّى ظَنَنْتُ أنّه سيُورِّثُه»[٢]. وتبادُلُ الهدايا معَ الجيرانِ من الطُّرقِ التي تساعدُ في الاحتفاظِ بعلاقاتٍ طيِّبةٍ معَهم، ولكنْ ينبغي للطرفَيْنِ عندَ تبادُلِ الهدايا أن يَحترمَ كلٌّ منهم المشاعرَ الدِّينيَّة لدى الآخَر، وألّا يُقدِّمَ له في إهدائه شيئًا غيرَ محبَّبٍ في دينِه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾

١٠ ـ الشروطُ التي قَدَّمها سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو مندوبُ كفّارِ مكّةَ في صُلح الحُدَيْبِيَة كان من بينِها شرطٌ يقولُ: إنّ أيَّ رجلٍ من رجالِنا يأتيكم في المدينة، حتى وإن كان على دينِكم، عليكم أن تُعيدوه إلينا[٣]، ولأنّ المعاهدةَ نَصَّت على موضوع إعادةِ الرجال هذا، لهذا كلَّما هاجَر رجلٌ مسلمٌ من مكةَ إلى المدينة كان النبيُّ ﷺ يُعيدُه إلى مكةَ ثانيةً، لكنْ عندَما تُهاجرُ سيِّدةٌ مسلمةٌ من مكّةَ إلى المدينة كان النبيُّ ﷺ يقولُ للمسلمينَ أنْ تَحقَّقوا جيِّدًا من هؤلاءِ النِّساء، فإذا تيقَّنتُم من أنَّهن مسلماتٌ حقًّا فلا تُعيدوهُنَّ إلى كفّارِ مكةَ؛ لأنّهن ـ بهذا الشّكلِ ـ لا يَحلُلْنَ للرجالِ من الكفّار.

قبلَ نزولِ هذه الآيةِ كان الزَّواجُ معمولًا به بينَ المسلمينَ والكفّار، فكانت السيِّداتُ المسلماتُ يتزوَّجْنَ برجالٍ كفّار، وكان الرِّجالُ المسلمونَ يتزوَّجونَ بنساءٍ كافراتٍ، ولكنْ بعدَ نزولِ هذه الآيةِ أُغلِقَ بابُ زواج الرِّجالِ المسلمينَ من

---

(١) ينظر، تفسير القرطبي، ٥: ١٨٨.

(٢) الترمذي، أبواب البر، باب ٢٨ برقم ١٩٤٣.

(٣) «فقال سهيلٌ وعلى أنّه لا يأتيك منّا رجلٌ، وإن كان على دينك، إلاّ رددته إلينا». البخاري، كتاب الشروط، باب ١٥ برقم ٢٧٣٢.

النِّساءِ الكافراتِ والمشرِكات، إلّا أنّ الرِّجالَ من المسلمينَ يُمكنُهم الزَّواجُ من سيّداتِ أهل الكتابِ، لكنّ العكسَ من ذلك غيرُ جائز، ولمزيدٍ من التفصيل عن هذا الأمرِ يمكنُكَ مراجعةُ الحاشية رقم ١٦ للآيةِ رقم ٥ من سُورة المائدة (٥).

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾

١١ ـ يعني: أنّ النِّساءَ المسلماتِ اللائي يُهاجِرْنَ من مكةَ إلى المدينة، بمـا أنَّهن لم يَعُدْنَ يَحْلُلنَ لأزواجِـهنَّ الكفّارِ، عليـكم أن تُعيـدوا إلى أزواجِـهنَّ الكُفّارِ الصَّداقَ الذي قدَّموه لنسائهنَّ المسلمات، وبعدَها يُمكنُكم أن تَنكِحُوهنَّ وإعطاؤهنَّ مهورَهُنَّ، وهكذا أيُّها المسلمونَ الرِّجالُ، أنتم أيضًا، طِبقًا للحُكم الجديدِ، لا تستطيعونَ الاحتفاظَ بزوجاتِكم الكافراتِ، ولهذا استعيدوا الصَّداقَ الذي أدَّيتُموه لزوجاتِكم الكافرات، وأَعيدوا هؤلاءِ الزَّوجاتِ إلى الكُفّار، وبنفسِ الطريقة يستعيدُ الأزواجُ الكُفّارُ منكمُ الصَّداقَ الذي أدَّوْه إلى زوجاتِهم المسلمات، وهذا هو حُكمُ الله تعالى الذي صَدَر بشأنِكم.

﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾

١٢ ـ لو أنّ زوجةً كافرةً لمسلم هَرَبتْ منه إلى الكُفّارِ ولم يقُمْ هؤلاءِ الكفّارُ بإعادةِ صَداقِها: يؤدَّى مبلغُ الصَّداقِ لهذا المسلم من بيتِ المال أو من أموالِ الغنائم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ﴾

١٣ ـ تقـولُ السيِّـدةُ عـائشةُ رضي اللهُ تعالى عنها: إنّ رسولَ الله ﷺ كان

يَمتحِنُ مَن هاجَرَ إليه من المؤمناتِ بهذه الآية، بقولِ الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلى قولِه: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قال عُروةُ: قالت عائشةُ: فمَن أقرَّ بهذا الشَّرطِ من المؤمناتِ قال لها رسولُ الله ﷺ: «قد بايَعتُكِ» كلامًا، ولا ـ والله ـ ما مسَّتْ يدُه يدَ امرأةٍ قطُّ في المبايَعة، ما يُبايِعُهنَّ إلّا بقولِه: «قد بايَعتُكِ على ذلك»(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾

١٤ ـ في النِّهايةِ جاءتِ النَّصيحةُ إلى أهلِ الإيمان بأنْ لا تُصادِقوا أولئك الذين بعِصيانِهم المستمرِّ يجعَلونَهم مستحِقِّينَ لغضبِ الله تعالى، وقد يَئِسوا من نَجاتِهم في الآخِرة مثلَما يئسَ الكُفّارُ في قبورِهم؛ لأنهم قد عُرِض عليهم في قبورِهم مصيرُهم السيِّئُ.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا.**
**بعد صلاةِ العشاء من يوم الأربعاء ٢٩ سبتمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٠ شوال ١٤٣١هـ**

**هذا وقدِ اكتَملَ بفَضْلِ الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «المُمتحنة» في يوم ونصفِ اليوم فقطْ، أي: من ٢٨ إلى ٢٩ سبتمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسَّلام على سيِّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.**

* * *

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الممتحنة (٦٠): برقم ٤٨٩١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# (٦١) سُورَةُ الصَّفِّ

هذه السُّورةُ مَدَنيّة، واسمُها: «الصَّفُّ»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم ٤ منها.

## التطابق في القول والفعل

في الآيةِ الثانيةِ والثالثة من هذه السُّورةِ تربيةٌ للمسلمينَ وتعليمٌ لهم بأنّ الدِّينَ الذي اختارَكمُ اللهُ تعالى لتبليغِه يقتضي أن تعمَلوا أنتم أولًا به، ثم بعدَ ذلك تُرغِّبونَ الآخَرينَ في العمَلِ به، واللهُ تعالى يَكرَهُ كثيرًا أن تَقوموا بدعوةِ الآخَرينَ إلى الحسَنة، بينَما أنتم تفعَلونَ خِلافَها.

## الاتحاد والتوافق

عندَما لم يتوقَّفْ ظلمُ كفّارِ مكةَ للمسلمينَ حتى بعدَ هجرتِهم إلى المدينة، أَذِنَ اللهُ تعالى للمسلمينَ أن يَرُدُّوا على القوّةِ بالقوّة، وفي نفسِ الوقت أرشَدَهم وأكَّد عليهم أن يَثبُتوا في ميدانِ الحربِ متَّحدينَ متوافِقينَ منظَّمينَ إذا ما قَرَّروا دخولَ الحربِ ضدَّ الكفّارِ في سَبيل الله تعالى، وأن يَحميَ كلٌّ منهم ظهرَ الآخَر، ويُصبحَ حائطَ صدٍّ للأعداءِ عنه؛ لأنّهم إنْ لم يَفعَلوا ذلك سيُفرِّقُهم الأعداءُ ويَهزمونَهم.

## بشارة سيدنا عيسى عليه السلام

في الآيةِ رقم ٦ من هذه السُّورة قال سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ لبني إسرائيلَ: إنّني أُبشِّرُكم ببَعْثةِ رسولٍ عظيم يأتي من بعدي واسمُه: «أحمد».

## انتصار نور الإسلام

لَحِقَت بالمسلمينَ خسارةٌ كبيرةٌ في الأرواح يومَ غزوةِ أُحُد، وأدَّى ذلك إلى ارتفاع معَنويّاتِ كُفّارِ مكةَ، في ذلك الوقتِ دعا كفّارُ مكةَ من ناحيةٍ باقيَ القبائل العربيّة ليَنضمُّوا إليهم حتى يَقْضُوا على الإسلام مجتمِعينَ، وعلى الجانبِ الآخَر بَشَّر اللهُ تعالى المسلمينَ بأنه لا حاجةَ بكم إلى الخوفِ من شيء، فاللهُ تعالى هو الذي أضاء شمعةَ الإسلام، ولا يستطيعُ الكفّارُ إطفاءَ نورِه ولوِ اجتَمَعوا له، بل إنّ اللهَ تعالى سيُكمِلُ نورَ الإسلام، وسيصلُ النبيُّ الكريمُ ﷺ بالإسلام ـ بفَضْل تبليغِه ودعوتِه المستمرّة ـ إلى حيثُ لا يمكنُ أن يُوازيَه أيُّ دينٍ آخَرُ في العالم، وهكذا رأتِ الدُّنيا أنّ رايةَ الإسلام رَفْرفَتْ على شِبه الجزيرةِ العربيّة كلِّها في غُضون سنَواتٍ قلائلَ، واليومَ، وبعدَ مرورِ أكثرَ من ألفٍ وأربعِمائة عام، لا يزالُ الإسلامُ هو أكثرُ الأديانِ انتشارًا في العالَم.

## التضحية بالأموال والأنفس

في نهايةِ هذه السُّورة رَغَّب اللهُ تعالى المسلمينَ في تجارةٍ، يعني: إذا مَسَّت الحاجةُ إلى التَّضحيةِ بالأموالِ والأنفُسِ في سَبيل الله فتسابَقوا إلى تقديم التَّضحية، وسوف يُنعِمُ اللهُ تعالى عليكم بالفَتْح والنُّصرةِ في هذه الدُّنيا، وفي الآخِرة سيَغفِرُ لكم ذنوبَكم ويُدخِلُكم الجنّةَ.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**منكاني شريف، مركَز جهنك، باكستان.**
**بعدَ صلاة المغرب من يوم الأحد ٣ أكتوبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٤ شوالٍ ١٤٣١هـ.**

# سُورَةُ الصَّفِّ (٦١)،

## مدنية (١٠٩)، آياتها (١٤)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

١ ـ للتعرُّفِ على تفسيرِ هذه الآية راجعِ الحاشيةَ الأُولى من سُورة الحديد (٥٧).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

٢ ـ في هذه الآياتِ تربيةٌ للمسلمينَ وتعليمٌ لهم بأنّ الدِّينَ الذي اختارَكم اللهُ

تعالى لتبليغِه يقتضي أن تعمَلوا أنتم أولًا به، ثم بعدَ ذلك تُرغِّبونَ الآخَرينَ في العمَل به، واللهُ تعالى يَكرَهُ كثيرًا أنْ تقوموا بدعوةِ الآخَرينَ إلى الحسَنة، بينَما أنتم تفعَلونَ خِلافَها.

يقولُ سيِّدُنا أُسامةُ بن زَيْد رضي الله عنهما: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «يُجاءُ بالرَّجُل يومَ القيامة فيُلقَى في النّار، فتَندلقُ أَقْتابُه في النّار، فيَدُورُ كما يَدورُ الحمارُ برَحاه، فيجتمعُ أهلُ النّارِ عليه، فيقولونَ: أي فُلانُ، ما شأنُك؟ أليس كنتَ تأمُرُنا بالمعروفِ وتنهَى عن المنكر؟ قال: كنت آمُرُكم بالمعروفِ ولا آتيه، وأنْهاكم عن المنكرِ وآتيه»(١).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾

٣ ـ عندَما لم يتوقَّفْ ظُلمُ كفّارِ مكّةَ للمسلمينَ حتى بعدَ هجرتِهم إلى المدينةِ أَذِن اللهُ تعالى للمسلمينَ أن يَرُدُّوا على القوّةِ بالقوّة، وفي نفسِ الوقت أرشَدَهم وأكَّد عليهم أن يَثبُتوا في ميدانِ الحربِ متَحدِّينَ متوافِقينَ منظَّمينَ إذا ما قَرَّروا دخولَ الحربِ ضدَّ الكفّارِ في سَبيل الله تعالى، وأن يَحميَ كلٌّ منهم ظهرَ الآخَر ويصبحَ حائطَ صدٍّ للأعداءِ عنه؛ لأنّهم إنْ لم يفعَلوا ذلك سيُفرِّقُهم الأعداءُ ويهزمونَهم.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

٤ ـ كان كفّارُ مكةَ يعلَمونَ جيِّدًا أنّ النبيَّ ﷺ صادقٌ وأمينٌ، فإذا كان لم يكذِبْ معَ البَشرِ أبدًا، فكيف يُمكنُ أن يكذِبَ فيما يتعلَّقُ بالله تعالى ربِّ البشَر؟ لكنّهم خالَفوا النبيَّ ﷺ وعادَوْهُ بسببِ عنادِهم وتعنُّتِهم لا أكثَر، فأَخْرجوه من وطنِه، واستمرُّوا في

---

(١) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ١٠ برقم ٣٢٦٧.

مهاجمةِ المدينة المنوَّرةِ أيضًا، وفي هذه الآيةِ تَسْريةٌ عن قلبِ النبيِّ ﷺ بأنْ لا تحزَنَ ولا تغتَمَّ بسببِ مخالفةِ الكفّارِ لك؛ لأنّ العُصاةَ من الناسِ يرتكبونَ مِثلَ هذه الأفعالِ القبيحةِ دائمًا، وعليكَ ـ في هذا الخصُوص ـ أن تَذكُرَ أحوالَ بني إسرائيلَ، فقد رأَوْا معجزةَ اليدِ البيضاءِ ومعجزةَ العصا، كما أنّهم رأَوْا فِرعَونَ وهو يغرَقُ في البحر، وكانت هذه الأمورُ كلُّها دليلًا كافيًا على صِدقِ نبوَّةِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، ومعَ ذلك فقد عَبَد قومُه العِجلَ أحيانًا، وعَبَدوا الأوثانَ أحيانًا أخرى، وعندَما لم يَرجِعوا عن عصيانِهم واعْوِجاجِهم في النِّهاية تَرَكَهم اللهُ تعالى يَعْمَهُونَ في ضَلالِهم، بأنّهم إذا لم تُعجِبْهم الهدايةُ فلْينهَمِكوا في الضَّلال إذًا، واللهُ تعالى لا يَهدي العُصاةَ عُنْوةً، وإنّما يُنعِمُ بالهداية على أولئك الذين في قلوبِهم رغبةٌ لنَيْل الهداية.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾

٥ ـ توجَدُ آراءٌ مختلفةٌ لدى أهل الكتابِ عن سيّدِنا عيسى عليه السَّلام، فقد قَلَّل اليهودُ من شأنِ سيّدِنا عيسى عليه السَّلام بشكلٍ إجراميٍّ! وبدَلًا من أن يؤمنوا بمَولدِه المعجزة اتَّهَموا السيّدةَ مريَمَ عليها السَّلامُ في شَرَفِها، وحاولوا محاولاتٍ فاشلةً لقَتْلِ سيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ.

وبنفسِ الطريقةِ، فإنّ النَّصارى ضَلُّوا في فَهْم مَوْلِدِ سيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ المعجزِ بغيرِ أبٍ، معَ أنه كان أمامَهم مِثالُ خَلْقِ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ بغيرِ أُمٍّ أو أبٍ، لكنّهم ـ معَ ذلك ـ جَعَلوا من سيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ لُغزًا عجيبًا، فهو عندَ المسيحيِّينَ البُروتِستانت ابنُ الله تعالى، وعندَ الكاثُوليك: الثالثُ من بينِ ثلاثةِ آلهةٍ، وعندَ الأَرثُوذُوكس هو: الله! وباختصار: فإنّ اليهودَ قد فَرَّطوا في حقِّ سيّدِنا عيسى عليه السَّلام، بينَما أَفرطَ المسيحيُّونَ في شأنِه[1].

---

(١) «اختلف الأحزاب بينهم. وقال قتادة: أي: ما بينهم، فاختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى عليه السّلام. فاليهود بالقدح والسّحر. والنّصارى، قالت النّسطوريّة ـ منهم ـ: هو ابن الله. =

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ ليس اللهَ، ولا هو ابنُ الله، كما أنّه ليس ابنَ امرأةٍ بَغِيّةٍ كما يقولُ اليهودُ، وإنّما هو رسولُ الله، وقد أُرسِل إلى بني إسرائيلَ فقطْ مثلَما يتَّضحُ من الكتابِ المقدَّسِ أيضًا:

١ ـ «أُرسِلتُ إلى أغنام بني إسرائيلَ الضالّة»(١).

٢ ـ أمَرَ سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ حوارِيِّيه: «لا تذهَبوا إلى الأقوام الأجانب، ولا تَدخُلوا أيَّ مدينةٍ من مُدُنِ السامريِّين، وإنّما اذهَبوا إلى الأغنام الضالّةِ من بني إسرائيل»(٢).

ويُعلَمُ من الاستشهاداتِ السابقة من الكتابِ المقدَّسِ أنّ سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ أُرسِل إلى بني إسرائيلَ فقطْ؛ لأنّ هذه هو ما قاله سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ نفسُه، وأمَرَ به حَوارِيِّيه، ولكنّ هذا الحُكمَ كان ساريًا طالما لم يُبعَثْ نبيُّ آخِر الزّمانِ سيّدُنا محمدٌ ﷺ، لأنه بعدَ إعلانِ نبوّةِ سيّدِنا محمّدٍ ﷺ أصبح الإيمانُ به لازمًا على كلِّ فرد.

﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾

٦ ـ إنّني مُصَدِّقٌ بالتَّوراة وبسيّدِنا موسى عليه السَّلام، يعني: أنّ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ رسولُ الله حقًّا، وأنّ التَّوراةَ كتابٌ صادق نَزَل من عندِ الله تعالى.

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾

٧ ـ يعني: مثلَما أنّي رسولُ الله تعالى، وكان سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ من

---

= والملكانيّة: ثالث ثلاثة. وقالت اليعقوبيّة: هو الله، فأفرطت النّصارى وغلت، وفرّطت اليهود وقصّرت». تفسير القرطبي، سورة مريم (١٩): الآية ٣٧.

(١) متى: ١٥ : ٢٤. "I am not sent but unto the lost sheep of the house of Israel". (Mathew: **15**: **24**: The Holy Bible: printed by Collins: London)

(٢) متى: ١٠ : ٥ – ٦. "These twelve Jesus sent forth, and commanded them, saying. Go not into the way of the Gentiles, and into any city of the Samaritans enter ye not: But go rather to the lost sheep of the house of Israel". (Mathew: **10**: **5**- **6**: ibid).

قَبْلي رسولَ الله أيضًا، فإنّ رسُولًا عظيمًا سيأتي من بَعْدي واسمُه «أحمَد».

ـ يَروي سيّدُنا خالدُ بنُ مَعْدانَ عن الصَّحابةِ الكرام رضي اللهُ عنهم، أنّهم قالوا: يا رسولَ الله، أخبِرْنا عن نفسِك. قال: «أنا دعوةُ أبي إبراهيم، وبُشْرى عيسى، ورَأَتْ أُمّي حين حَمَلتْ بي كأنّه خَرَج منها نورٌ أضاءَتْ له قصورُ بُصْرى من أرضِ الشّام»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا جُبَيْرُ بن مُطعِمٍ رضي اللهُ عنه: إنه سَمع رسولَ الله ﷺ يقولُ «إنّ لي أسماءً، أنا محمّدٌ، وأنا أحمَدُ، وأنا الماحي الّذي يَمْحو اللهُ بيَ الكُفرَ، وأنا الحاشِرُ الّذي يُحشَرُ النّاسُ على قَدَمي، وأنا العاقِب»[٢]، والمرادُ بالعاقب: ذلك النبيُّ الذي ليس بعدَه نبيٌّ[٣].

## أحمد ﷺ

معنى أحمدَ «أي: أحمدُ الحامدينَ لربِّه. والأنبياءُ صَلَواتُ الله عليهم كلُّهم حامدونَ الله، ونبيُّنا أحمدُ أكثرُهم حَمْدًا»[٤].

يقولُ العلّامةُ سيِّد محمود الآلوسيُّ في تفسيرِ هذه الآية: إن «أحمدَ» واحدٌ من أسماءِ نبيِّنا الحَبيب سيّدِنا محمدٍ ﷺ، وهذا هو الاسمُ الذي تناوَلَه سيّدُنا حَسّانُ بن ثابتٍ رضي الله عنه في مَدْحِه للنبيِّ ﷺ في قولِه:

**صلّى الإلُـه ومَن يَحُفُّ بعرشِـهِ والطّيّبونَ على المبارَكِ أحمد[٥]**

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة الصف (٦١): الآية ٦.

(٢) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الصف (٦١) برقم ٤٨٩٦.

(٣) «ومعنى العاقب: الذي لا نبيّ بعدي». صفوة التفاسير.

(٤) تفسير القرطبي، سورة الصف (٦١): الآية ٦.

(٥) ديوان حسان بن ثابت، وتفسير روح المعاني.

## محمد ﷺ

اسمُ ذات نبيِّنا الحبيبِ ﷺ هو محمدٌ وأحمَدُ، أمّا باقي الأسماءِ فهي صفاتٌ له. يقولُ علماءُ اللُّغة: الذّاتُ التي تَجمَعُ صفاتِ الخير، يعني: مجموعةَ الصِّفاتِ الحسَنة، وتُحمَدُ ويُثنَى عليها مرارًا يقالُ لصاحبِها: «محمَّد»، وبقَدْرِ ما يتطوَّرُ الزمانُ بقَدْرِ ما تُضيءُ صفاتُ وكمالاتُ سيّدِنا محمدٍ ﷺ أكثرَ من ذي قَبْل، ولهذا فإنّ مدحَه ﷺ والثّناءَ عليه لا يتوقَّفُ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، يعني: كلُّ لمحةٍ تضيفُ مزيدًا من العظَمة إلى رسولِ الله ﷺ.

## ذكر سيدنا محمد ﷺ في الكتاب المقدس

جاء ذِكرُ سيّدِنا محمدٍ ﷺ والتعريفِ به في التَّوراةِ والإنْجيل بشكلٍ واضح، إلى درجةِ أنّ أهلَ الكتابِ كانوا يَعرِفونَ النبيَّ ﷺ كما يَعرِفونَ أبناءهم، ويُمكنُك في هذا الخصُوص مراجعةُ الحاشية رقم ٦٣ للآية رقم ٨٩ من سُورة البقرة، وكذا الحاشيةُ رقم ١٠٤ للآية رقم ١٤٦ من نَفْس السُّورة، والحاشيةُ رقم ٢١ للآية رقم ٢٠ من سُورة الأنعام، وفي الكتابِ المقدَّسِ الحاليِّ أيضًا توجَدُ آياتٌ تُشيرُ إلى سيّدِنا محمدٍ ﷺ، وفي هذا الإطارِ يمكنُك مراجعةُ الاقتباساتِ التاليةِ من الكتابِ المقدَّسِ الحيِّ، الطبعةِ البريطانيّة لسنةِ ١٩٧٥م:

## قال سيدنا عيسى عليه السلام

١ ـ «عندَما يُرسِلُ أبي مُساعدًا لي ليمثِّلَني (المرادُ بالمساعد: الرُّوحُ المقدَّسة)، سيُعلِّمُكم كثيرًا، وسوف يُذكِّرُكم بكلِّ ما قلتُه لكم»[1].

---

(١) إنجيل يوحنا: باب ١٤: آية ٢٦.

"When the father sends the comforter to represent me, and by the comforter

٢ ـ «في الحقيقة، منَ الأفضَلِ لكم أن أَرحَلَ؛ لأنّي إنْ لم أرحَلْ فلن يأتيَ ذلك المساعدُ، لكنْ إنْ رحَلتُ سيأتي هو؛ لأنّني سأُرسِلُه إليكم... وأريدُ أن أقولَ لكم أشياءَ كثيرةً، لكنَّكم لن تفهَموها الآنَ، أمّا عندَما يأتي رُوحُ الصِّدقِ فسيَهديكم إلى طريقِ الصِّدقِ كلِّه، وذلك لأنه لن يقولَ شيئًا من عندِ نفسِه، وإنما سيقولُ لكم ما يسمَعُ، وسوف يُنبِّئُكم عن المستقبَل، ويُثني علَيَّ، ويُريكم عظَمتي فيمنَحُني بذلك شَرَفًا عظيمًا»[1].

إنّ الصِّفاتِ التي وَرَد ذِكرُها في الآياتِ المذكورة من الكتابِ المقدَّس تنطبقُ على نبيِّنا سيّدِنا محمدٍ ﷺ، وكأنّ سيّدَنا عيسى عليه السّلامُ قال: إنّ الرُّوحَ المقدَّسَ الذي سيأتي بَعْدي، يعني: النبيَّ الخاتَمَ سيّدَنا محمدًا ﷺ، سوف يُعرِّفُكم على شريعتي، وسوف يُفهِّمُكم كلَّ أحكام شريعتِه، ولأنّ وقتَ مجيئه سيكونُ بعدي، لهذا فإنّ رحيلي خيرٌ لكم، وذلك لكي يأتيَ ذلك النبيُّ، فيُرشِدَكم إلى طريقِ الحقِّ في الأحكام التي لا تفهَمونَها الآنَ، كما أنه لن يقولَ شيئًا من عندِ نفسِه، وإنّما سيقولُ فقطْ ما يسمَعُه من اللهِ تعالى، وسوف يُطلِعُكم على نبأِ المستقبل، وسوف يُبجِّلُني بالحديثِ عن معجزاتي.

---

I mean the Holy Spirit - he will teach you much, as well as remind you of everything I myself have told you". (John: **14**: **26**)

(١) إنجيل يوحنا: باب ١٦: آيات ٧- ١٤.

"But the fact of the matter is that it is best for you that I go away, for if I don't, the comforter won't com. If I do, he will - for I will send him to you... Oh, there is so much more I want to tell you, but you can't understand it now. When the Holy Spirit, who is the truth, comes, he will guide you into all truth, for he will not be presenting his own ideas, but will be passing on to you what he has heard. He will tell you about the future. He shall praise me and bring me great honor by showing you my glory". (John: **16**: **7-14**.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾

٨ ـ لمّا بُعِثَ سيّدُنا محمدٌ ﷺ، وقَدَّم معجزاتٍ أيضًا، لم يؤمنْ به أكثرُ أهل الكتاب، ورَفَضوا اتِّباعَه، وقالوا عن معجِزاته ﷺ: إنها سِحرٌ.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

٩ ـ يعني: أنّ الذين يعلَمونَ ـ بالدَّلائِل ـ أنه ﷺ رسولُ الله حقًّا، لم يؤْمنوا به حينَ دعاهم إلى الإسلام، فمن يكونُ أكبرَ من مِثلِ هؤلاء ظلمًا؟ هؤلاءِ الذين يفتَرونَ على اللهِ الكذِبَ قائلينَ بأنه تعالى لم يُرسِلْه ﷺ نبيًّا، فكيف يمكنُ أن يهتديَ هؤلاءِ الظالمون؟

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾

١٠ ـ لقد حاولَ الكفّارُ كثيرًا ـ منذُ ظهورِ الإسلام وحتى يومِنا هذا ـ إطفاءَ نُورِ شمعةِ الإسلام، لكنّ اللهَ تعالى وَعَد أنْ يزدادَ نورُ الإسلام بشكل متواصِل[1]، والآنَ إذا أراد أحدٌ أن يطفئَ نُورَ الله هذا الذي أرسَلَه، فسيكونُ مَثَلُه كمَثَل مَن أراد أن يطفئَ نُورَ الشمسِ التي خَلَقَها اللهُ تعالى، حيث يمكنُ أن ينطفئَ هو، ولكن لن ينطفئَ نورُ الشمس.

**ـ نورُ الله يَسخَرُ ضاحكًا من حركةِ الكُفْر، فهذا المِصباحُ لن تُطفئَه النفَخات!**

وهكذا يشهَدُ التاريخُ أنّ العربَ هم أولُ مَن خالَفوا الإسلامَ، ولكنّ أكثرَ هؤلاءِ دَخَلوا الإسلامَ في غضونِ ثلاثةٍ وعشرينَ عامًا، والإسلامُ اليومَ أيضًا هو أكثرُ الأديانِ التي تنتشرُ بينَ أبناءِ الأقوام التي تخالفُه.

---

(١) «يريدون أن يطفئوا الإسلام». تفسير ابن أبي حاتم، سورة التوبة (٩): الآية ٣٢.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

١١ - أعطى اللهُ تعالى سيّدَنا محمدًا ﷺ الهدايةَ المجسَّدةَ في صُورةِ القرآنِ الكريم، والحقَّ المجسَّدَ في صُورةِ الإسلام، وأرسَلَه نبيًّا، حتى يجعَلَ الإسلامَ غالبًا على كلِّ الأديان.

لقد ظلَّ الإسلامُ غالبًا على كلِّ الأديان في مجالِ الدَّلائل والبراهين، ولهذا السَّببِ فإنّ الإسلامَ هو أكثرُ الأديانِ انتشارًا بينَ الشعوبِ غيرِ المسلمة، كما ظلَّ الإسلامُ غالبًا أيضًا في المجالِ الماديِّ طالما ظلَّ المسلمونَ يعمَلونَ به بشكلٍ كامل، وهكذا يشهَدُ التاريخُ أنّ الإسلامَ ظلَّت له الغَلَبةُ الماديّةُ في عصرِ الخلافةِ الراشدة وفي العصورِ الوسطى أيضًا، وعندَما قصَّر المسلمونَ في العمَل بالإسلام كان من الطبيعيِّ أن يَطرأَ عليهمُ الزّوالُ، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى[1].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

١٢ - في هذه الآياتِ رَغَّب اللهُ تعالى المسلمينَ في تجارةٍ، يعني: إذا مسَّتِ الحاجةُ إلى التَّضحية بالأموالِ والأنفُسِ في سَبيل الله فتسابَقوا إلى تقديم التَّضحية،

(١) القرآن الكريم، سورة آل عمران (٣): الآية ١٣٩.

وسوف يُنعِمُ اللهُ تعالى عليكم بالفَتْح والنُّصرةِ في هذه الدنيا، وفي الآخِرة سيغفرُ لكم ذنوبَكم ويُنجيكم من عذابِ جهنَّم، ويُدخلُكم في قصورٍ طاهرةٍ من الجنّة.

﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

١٣ ـ يعني: إذا ضحَّيتُم في سَبيل الله بالمالِ والنَّفْس فسوف يُنعِمُ عليكم بالفَتْح والنُّصرةِ في هذه الدُّنيا قريبًا، بالإضافةِ إلى أنه سيمنَحُكم النَّجاحُ والفلاحُ في الآخِرة، وبالفعل رأتِ الدُّنيا أنّ اللهَ فَتَح على المسلمينَ مكةَ بعدَ سنواتٍ قليلة، ورَفْرَفَتْ رايةُ الإسلام في نهايةِ الأمرِ على شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ كلِّها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾

١٤ ـ في هذه الآيةِ حُكمٌ لأهلِ الإيمانِ أنْ كونوا ناصرينَ لدينِ الله تعالى، مثلَما قال سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ لأنصارِه مَن مِنكم سيكونُ مُناصرًا لدينِ الله؟ فقال أنصارُه جميعًا: نحن جميعًا مستعِدُّونَ لنُصرةِ دينِ الله تعالى، وهكذا آمَنت مجموعةٌ من بني إسرائيلَ بسيّدِنا عيسى عليه السَّلام، بينَما لم تؤمنْ طائفةٌ أخرى، وقد نَصَر اللهُ تعالى الطائفةَ التي آمنَتْ، وأهلُ الإيمانِ هم المنتصِرونَ في نهايةِ المطافِ دائمًا.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**منكاني شريف، مركز جهنك، باكستان.**
**بعدَ صلاة العشاء من يوم الأحد ٣ أكتوبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٤ شوال ١٤٣١هـ.**

هذا، وقد اكتَمل بفَضْلِ الله وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الصَّفِّ» في أربع ساعاتٍ تقريبًا، أي: مِن بعدِ صلاةِ المغربِ وحتى بعدَ صلاةِ العشاء، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمَعين.

ملحوظة:

أنا أُقيمُ بشكلٍ دائم في جامعةِ الكرَم بإنجلترا، ولهذا فإنّ الجزءَ الأكبرَ من هذا التفسيرِ حتى الآنَ كُتِب فيها،وقدِ اكتَملَ تفسيرُ السُّورة السابقةِ في ٢٨ سبتمبر، وكانت النِّيةُ أن أبدَأَ في تفسيرِ سورةِ «الصَّفِّ» بعد صَلاة الظهر من يوم ٣٠ سبتمبر نفسِه، لكنّ إرادةَ الله تعالى كانت غيرَ ذلك، فقد جاءني خبرُ وفاةِ أرملةِ أخي الأكبرِ سيِّدِنا الشَّيخ محمَّد كرَم حُسَين القادريِّ، في الحاديةَ عشْرةَ من صباح يوم ٣٠ سبتمبر، وابناها صِهْراي، ويقيمانِ في بريطانيا أيضًا، وكانا قد سافرا إلى باكستانَ من قبلُ لمّا عَلِما بمرضِ والدتِهما، وهكذا تدبَّرتُ أمرَ تذاكرِ السفرِ على الفَوْر، وسافرتُ إلى باكستانَ في يوم ٣٠ سبتمبر نفسِه، ووصَلتُ إلى مطارِ لاهورَ في الخامسةِ من صباح اليوم التالي، أي: الجمُعة أولِ أكتوبر، وبعدَ صلاة الجمُعة صَلَّيتُ بالناس صلاةَ الجَنازة على زوجةِ أخي. أدعو اللهَ تعالى أن يُنزِلَ رحَماتِه على قبرِها، وأن يُسكِنَها جنةَ الفِردَوس، آمين.

وظلَّت سِلسلةُ العزاءِ متواصلةً حتى مساءِ الأحد ٣ أكتوبر، ولمّا سَنَحت لي فرصةٌ بعدَ صلاة المغربِ بدَأتُ في كتابةِ تفسير سُورةِ «الصَّفِّ»، ورَغْم أنه لم تتيسَّرْ لي هنا كتُبُ التفاسيرِ المختلفة، ولكنّ اللهَ تعالى أنْعم علَيّ بالبركة بمشاركتي في جَنازة المرحومة، بحيث لم أجِدْ أيَّ صعوبة في كتابةِ تفسيرِ هذه السُّورة، كما أنّ بعضَ آياتِها قد وَرَد تفسيرُه في سُوَرٍ أخرى سابقةٍ سأنقُلُه من هناك، وهكذا اكتَمل تفسيرُ سُورةِ «الصَّفِّ» في أربع ساعاتٍ فقط، السُّورةُ السابقةُ على هذه السُّورةِ

**تشتملُ على ثلاثَ عشْرةَ آيةً فقطْ، وقد أكمَلتُ تفسيرَها في يوم ونصفٍ اليومَ، ولهذا كانت هذه هي المرّةَ الأُولى التي أُكمل فيها تفسيرَ سُورةٍ من السُّورِ في أربع ساعاتٍ لا أكثرَ.**

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# (٦٢) سُورَةُ الجُمُعَةِ

هذه السُّورةُ مدَنيّة، واسمُها: «الجمُعة»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم ٩ منها.

## فرائض النبوة

جاء ذِكرُ أربعةِ فروضٍ من فرائضِ النُّبوةِ في أربعةِ مواضعَ في القرآنِ الكريم، يعني: في الآية رقم **١٢٩**، والآية رقم **١٥١** من سُورة البقرة، والآية رقم **١٦٤** من سورة آل عِمرانَ، والآيةِ رقم **٢** من سُورةِ الجمُعة، وهذه الفرائضُ الأربعُ هي: تلاوةُ القرآنِ الكريم على الناس، تزكيةُ النَّفس، تعليمُ القرآنِ الكريم، وتعليمُ الحِكمة.

## مثال العلماء غير العاملين بعلمهم

الذين لديهِم عِلمٌ بالكتابِ السَّماويِّ، ولكنَّهم لا يعمَلونَ به، مَثَلُهم كمَثَلِ الحمارِ الذي يحمِلُ كُتبًا عظيمةً وضخمةً، لكنّه لا يستفيدُ من هذه الكتُبِ رَغْمَ أنه يحمِلُها على ظهرِه.

- يقولُ سيّدُنا الوليدُ بنُ عُقبةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ أُناسًا من أهل الجنّةِ يَطّلعونَ إلى أُناسٍ من أهلِ النّار فيقولون: بمَ دخلتُم النّار؟ فواللهِ ما دخَلْنا الجنّةَ إلّا بما تَعلّمْنا منكم، فيقولون: إنّا كنّا نقولُ ولا نفعَل»[1].

---

(١) كنز العمال، ١٠: ١٨٩ برقم ٢٨٩٩١.

## ادعاء اليهود

كان اليهودُ يقولونَ: إنّهم أحبابُ الله، ولهذا فإنّ الجنةَ مخصوصةٌ لهم، وقد فنَّد القرآنُ الكريمُ ادِّعاءهم هذا، بمعنى: لو أنّكم ـ فعلًا ـ أهلُ الجنة، فلماذا تُزعجُكم مصائبُ هذه الدُّنيا؟ فلْتتمنَّوا الموتَ إذًا، حتى تلقَوا اللهَ تعالى وتدخُلوا الجنّةَ وتستمتعوا بنِعَمِها المختلفة. ولكنّهم لن يتمنَّوا الموتَ أبدًا؛ لأنّهم خائفونَ من المصيرِ الذي سيؤولونَ إليه بسببِ ما ارتكَبوهُ من أفعالٍ قبيحة.

عندَما نَزَلتِ الآيةُ رقم ٧ من هذه السُّورة قال النبيُّ ﷺ: «والّذي نَفْسُ محمّدٍ بيدِه، لو تمنَّوا الموتَ ما بقيَ على ظهرِها يهوديٌّ إلّا مات»[1]. ثم أضاف العلّامةُ القُرطبيُّ قائلًا: «وفي هذا إخبارٌ عن الغيبِ (يعني: أنهم لن يتمنَّوا الموتَ أبدًا)، ومعجزةٌ للنّبيِّ ﷺ»[2].

## حكم صلاة الجمعة

جاء الحُكمُ إلى أهلِ الإيمانِ في الآية رقم ٩ من هذه السُّورة، أنه عندَما يُرفَعُ الأذانُ لصلاةِ الجمُعة فعليكم أن تَترُكوا البيعَ والشِّراءَ وغيرَها من المشاغل، وتتوجَّهوا إلى المسجدِ لأداءِ الصَّلاة، وهذا هو الخيرُ لكم إن كان لديكُم عِلمٌ فعلًا. ولمزيدٍ من التفصيل عن فَضْل صلاةِ الجمُعة وأحكامِها راجعْ تفسيرَ الآية رقم ٩ من السُّورة.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**منكاني شريف، مركز جهنك، باكستان.**
**بعدَ صلاة المغرب من يوم الاثنين ٤ أكتوبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٥ شوال ١٤٣١هـ.**

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الجمعة (٦٢): الآية ٧.

(٢) المرجع السابق، سورة الجمعة (٦٢): الآية ٧.

# سُورَةُ الجُمُعَةِ (٦٢)،

## مدنية (١١٠)، آياتها (١١)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

١ ـ للتعرُّفِ على تفسيرِ هذه الآية راجعِ الحاشيةَ الأُولى من سُورة الحديد (٥٧).

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

٢ ـ كان أكثرُ العربِ أُمِّيِّينَ لا يقرَأونَ ولا يكتُبون، وقد أَرسَلَ اللهُ تعالى إليهم

سيّدَنا محمدًا ﷺ من بَيْنِهم، ولكنّ رسالتَه ﷺ ليست محدودةً بالعربِ فقطْ، ولكنْ لأنّ المخاطَبينَ الأُوَل له ﷺ كانوا هم العربَ، لهذا اكتَفَتِ الآيةُ هنا بذِكرِهم، والحقيقةُ أنّ النبيَّ ﷺ نبيٌّ لكلِّ البشَر، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨].

في هذه الآيةِ ذُكِرت أربعُ فرائضَ من فرائضِ النّبوة، وقد جاء ذِكرُ أربع فروضٍ من فرائضِ النُّبوة في أربعةِ مواضعَ في القرآن الكريم، يعني: في الآيةِ رقم ١٢٩، والآيةِ رقم ١٥١ من سُورة البقرة، والآيةِ رقم ١٦٤ من سُورة آل عِمران، والآيةِ رقم ٢ من سُورة الجمُعة.

### ١ ـ قراءةُ القرآنِ وتلاوتُه على الناس

يعني: تلاوةَ آياتِ القرآنِ الكريم على الناس، ويُعلَمُ منه أنّ مجرَّدَ تلاوةِ ألفاظِ القرآنِ الكريم فقطْ عبادةٌ في ذاتِها، ولهذا إذا بَدَّل أحدٌ ألفاظَ القرآنِ الكريم، فإنّنا لا يمكنُ أن نُطلقَ عليها قُرآنًا، حتى وإن لم تتبدَّلِ المعاني، كما أنّها لا يمكنُ أن تؤدَّى بها الصّلاةُ، ولذا فإنّ ألفاظَ القرآنِ المجيدِ مقصودةٌ لذاتِها كما أنّ معانيَه مقصودةٌ لذاتِها، ولكنّ هذا لا يعني ـ أبدًا ـ أنْ لا نحاولَ فَهْمَ القرآنِ الكريم، وإنّما على كلِّ مسلم أن يحاولَ ـ قَدْرَ استطاعتِه ـ العمَلَ على فَهْم معاني القرآنِ الكريم ومطالبِه؛ لأنّ في تدبُّرِ معاني القرآنِ ثوابًا عظيمًا.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن قَرأَ حرفًا من كتابِ الله فله به حسَنةٌ والحسَنةُ بعَشْرِ أمثالِها، لا أقول: الم حرفٌ، ولكن ألفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ»[1]، وكأنّ الإنسانَ ينالُ ثلاثينَ حسنةً على

---

(١) الترمذي، فضائل القرآن، باب ١٦ برقم ٢٩١٠.

مجرَّدِ قراءةِ «الم»، وقد بيَّنَ أهلُ العلم معنًى آخَرَ لهذا الحديث وهو: أنّ الذي يَقرَأُ «الألفَ» فقطْ يؤدِّي في الحقيقةِ ثلاثةَ حروفٍ بلسانِه (ا ل ف)، وهكذا «ل ا م»، و«م ي م»، وبالتالي فإنّ قراءةَ «الم» يأخُذُ عليها الإنسانُ تسعينَ حسَنةً، وينالُ هذا الثوابَ كلُّ مؤمنٍ يقرأُها، سواءٌ فَهِم معناها أم لم يفهَمْه؛ لأنّ «الم» حروفٌ مقطَّعات، وفي القرآنِ الكريم تسعٌ وعشرونَ آيةً تشتملُ على حروفٍ مقطَّعات، لا يعلَمُ معناها أحدٌ سوى اللهِ تعالى ورسولِه الكريم ﷺ، ولكنْ ينالُ من يقرَأُ كلَّ حرفٍ منها ثوابَ عشْرِ حسَنات.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «اقرَأُوا القرآنَ، فإنّه يأتي يومَ القيامة شفيعًا لأصحابِه»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا مَعقِلُ بن يَسَارٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «اقرَأُوها عندَ مَوْتاكم». يعني: ﴿يسٓ﴾»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن زارَ قبرَ والدَيْه أو أحـدهما فى كلِّ جمُعةٍ، فقَرأَ عندَهما ﴿يسٓ﴾ غَفَرَ اللهُ له بعددِ كلِّ حرفٍ منها»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَـن مـرَّ عـلى المقابرِ فقَرأَ فيها إحدى عشْرةَ مرّةً ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ ثمّ وَهَب أجرَه الأمواتَ، أُعطيَ من الأجرِ بعددِ الأموات»(٤).

---

(١) مسلم، صلاة المسافرين، باب ٤٢ برقم ١٨٧٤.
(٢) ابن ماجه، أبواب الجنائز، باب ٤ برقم ١٤٤٨.
(٣) تفسير الدر المنثور، تعارف سورة يس (٣٦).
(٤) كنز العمال، ١٥: ٦٥٥، برقم ٤٢٥٩٦.

## سماع القرآن المجيد

ـ أقام الإمامُ الدارميُّ في «سُنَنِه» بابًا مستقِلًّا عن فَضْل سَماع القرآنِ الكريم، وأَدرَجَ فيه روايةً لسيِّدِنا خالدِ بن مَعْدانَ رضي الله عنه، يقول فيها: «إنّ الّذي يقرَأُ القرآنَ له أجرٌ، وإنّ الّذي يستمعُ له أَجْرانِ»[1]، وقراءةُ القرآنِ الكريم ليست فرضًا، إنما سَماعُه فرضٌ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ولأنّ ثوابَ الفَرْضِ في مُقابلِ ثوابِ الواجبِ والسُّنةِ والمستحَبِّ يكونُ أكبرَ، لهذا قيلَ: «أَجْران» لسَماع القرآنِ الكريم.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «منِ استَمعَ حرفًا من كتابِ الله ظاهرًا كُتِبت له عَشْرُ حسَناتٍ ومُحِيَتْ عنه عَشْرُ سيّئاتٍ ورُفِعت له عَشْرُ درجاتٍ»[2].

### ٢ ـ تزكيةُ الناسِ وتطهيرُهم

يعني: تطهيرَ عقائدِهم من الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ بحُسن الدَّلائل، حتى يتَّضحَ الفرقُ لديهِم بينَ الحقِّ والباطل، وتطهيرَ قلوبِهم من الرغَباتِ النَّفسانيّة والشَّهواتِ بالتصرُّفِ الرُّوحاني، حتى يمكنَ لقلوبِهم أن تكونَ مرآةً للتجَلِّياتِ الإلهيَّة، وتطهيرَ سلوكِهم وأخلاقيّاتِهم بالتربية الظاهريّة من الصِّفاتِ والعاداتِ التافهةِ التي لا معنى لها، حتى يتأَثَّرَ مِن حُسن سلوكِهم الكفّارُ، ويحظَوْا بثروةِ الإسلام.

يتَصوَّرُ بعضُ الناسِ أنّ النبيَّ مجرَّدُ حاملٍ للرِّسالة مِثْلَ ساعي البريدِ لا أكثرَ، لكنْ يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ هناك فَرْقًا كبيرًا بينَ النبيِّ وبينَ حاملِ الرِّسالة أو ساعي

---

(١) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب ١٠.

(٢) كنز العمال، ١: ٥٤٢ برقم ٢٤٢٩، وإتحاف السادة المتقين، ٥: ٧٩.

البريد؛ لأنّ حاملَ الرِّسالةِ لا يعلَمُ مطلقًا ماذا بداخلِ الرِّسالةِ التي يحمِلُها من أسرارٍ ورموز، كما أنّ ساعيَ البريدِ لايعلَمُ مطلَقًا بما هو داخلَ المظروفِ الذي يحمِلُه، بينَما النبيُّ يكونُ ممثِّلًا لله تعالى وأعظمَ معلِّم لخَلْقِه، وهو الذي يُطهِّرُ الناسَ، ويُفهِّمُهم رسالةَ الله، ويُخبِرُهم عن كيفيّةِ العملِ بهذه الرسالة.

**٣ ـ تعليمُ القرآنِ الكريم**

يعني: إفهامَ الناسِ معانيَ القرآنِ الكريم وتعليمَهم أحكامَه.

**٤ ـ تعليمُ الحِكمة**

المرادُ بالحِكمة: الحديثُ الشَّريف، يعني: أن يُعلِّمَهم طريقةَ العمَل بأحكام القرآنِ الكريم، على سَبيلِ المثال: جاء الحُكمُ بأداءِ الصَّلاة في القرآنِ الكريم، لكنّ طريقةَ أداءِ الصَّلاةِ والعمَل بالحُكم الذي جاء في القرآنِ الكريم نجدُها في الحديثِ الشَّريف، والحِكمةُ ليست رأيًا شخصيًّا للنبيِّ الكريم ﷺ، وإنما يُنزِلُها الله تعالى أيضًا عليه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

كان أكثرُ الذين أُرسِلَ إليهم نبيُّنا الحَبيبُ ﷺ ـ في بدايةِ الأمر ـ أُميِّينَ، والفرائضُ التي عُهِد بها إلى النبيِّ ﷺ كلُّها عِلميّةٌ وإصلاحيّةٌ، ولكنّها قدرةُ الله تعالى وأثَرُ دعوةِ النبيِّ ﷺ أنْ ظهَر من بينِ هؤلاءِ الأُمِّيِّينَ علماءُ وحُكَماءُ أصبحوا نجومًا مضيئةً في سماءِ العلم والحِكمة.

ورَغْم أنّ نبيَّنا الحبيبَ ﷺ أُمِّيٌّ أيضًا، يعني: لم يَتتلمَذْ على يدِ أيِّ أُستاذٍ من أساتذةِ الدُّنيا، ولكنّ عِلمَ النبيِّ ﷺ الذي لا نظيرَ له بمثابةِ المعجزةِ لقُدرةِ الله تعالى وعطائه، مثلَما يقولُ سيّد محمود الآلوسيُّ: «إشارةً إلى عظيم قُدرتِه عزَّ وجَلّ وأنّ

إفاضةَ العلوم لا تتوقَّفُ على الأسبابِ العاديّة، ومنه قالوا: إنّ الوليَّ يجوزُ أن يكونَ أُمِّيًّا... ومنِ انقَطعَ إلى الله عزَّ وجَلّ وخَلَصَتْ رُوحُه، أُفيضَ على قلبِه أنوارٌ إلهيّةٌ تهيَّأتْ بها لإدراكِ العلوم الرَّبّانيّة والمعارفِ اللَّدُنيّة»[١]. ويقولُ العلاّمةُ إسماعيلُ حقِّي: «ولمّا كان الخَطُّ صنعةً ذِهْنيّةً وقوةً طبيعيّةً صَدَرت بالآلةِ الجِسمانيّة لم يحتَجْ اليه من كان القلمُ الأعلى يخدُمُه واللَّوحُ المحفوظُ مُصحَفَه ومنظَرَه، وعَدَمُ كتابتِه معَ علمِه بها معجزةٌ باهرةٌ له عليه السَّلام»[٢]. ولمزيدٍ من التفصيل حولَ كونِ النبيِّ ﷺ أُمِّيًّا راجع الحاشيةَ رقم ٨١ للآيةِ رقم ١٥٧ من سُورةِ الأعراف (٧).

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

٣ ـ كان العربُ قبلَ بَعْثةِ النبيِّ ﷺ في ضَلالٍ كبير، فأيُّ انقلابٍ حَدَث بعدَ بَعْثتِه ﷺ؟ نتعرَّفُ على هذا باختصارٍ ممّا قالهُ سيّدُنا جعفرُ بنُ أبي طالب أمامَ مَلِكِ الحَبشة في وجودِ سُفراءِ مكّةَ إليه: «أيّها المَلِك، كنّا قومًا أهلَ جاهليّة، نعبُدُ الأصنامَ ونأكلُ المَيْتةَ ونأتي الفواحشَ ونقطَعُ الأرحام ونسيءُ الجِوارَ، يأكلُ القويُّ منّا الضَّعيفَ، فكنّا على ذلك حتى بَعَث اللهُ إلينا رسولًا منّا نعرفُ نَسَبَه وصِدقَه وأمانتَه وعفافَه، فدَعانا إلى الله لنوحِّدَه ونعبُدَه ونخْلَعَ ما كنّا نحن نعبدُ وآباؤنا من دونِه من الحجارةِ والأوثانِ، وأمَرَنا بصِدقِ الحديث وأداءِ الأمانة وصِلةِ الرَّحِم وحُسنِ الجِوار والكفِّ عن المحارِم والدِّماء، ونَهانا عن الفواحشِ وقولِ الزُّورِ وأكلِ مالِ اليتيم وقَذْفِ المحصَنة، وأمَرَنا أن نعبُدَ اللهَ وحدَه لا نُشركُ به شيئًا، وأمَرَنا بالصَّلاةِ والزَّكاةِ والصِّيام»[٣].

---

(١) تفسير روح المعاني، باب الإشارة، سورة الجمعة (٦٢): الآية ٢.

(٢) المرجع السابق، باب الإشارة، سورة الجمعة (٦٢): الآية ٢.

(٣) مسند أحمد، ١: ٢٠٢.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

٤ ـ الذين سيَدخُلونَ في دائرةِ الإسلام بعدَ ذلك وحتى قيام الساعة، ستَظلُّ تَنالُهم فيوضُ تزكيةِ النبيِّ ﷺ وتعليم الكتابِ والحِكمة، أمّا عامةُ الناسِ فسيَحصُلونَ على هذه الفُيوضِ من العلماء، وأمّا خواصُّ الناسِ فسيَحصُلونَ عليها بشكلٍ مباشِرٍ في عالَم الرُّوحانيّةِ وعالَم اليَقَظةِ على السَّواء.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «مَن رآني في المنام فسيَراني في اليقَظة، ولا يتَمثَّلُ الشَّيطانُ بي»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن رآني في المنام فقد رَآني، فإنّ الشّيطانَ لا يتَخيَّلُ بي»[2].

ـ يقولُ الإمامُ جلالُ الدِّين السُّيوطيُّ رحمه اللهُ عندَما سُئل: كم رأيتَ النبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم يقَظةً؟ فقال: بضعًا وسبعينَ مرةً[3].

السُّعداءُ الذين يحصُلونَ على الفيوضِ النَّبويّة من النبيِّ ﷺ مباشرةً بعدَ انتقالِه للرَّفيقِ الأعلى، يكونُ هذا بمثابةِ فَضْلِ الله الخاصِّ عليهم، واللهُ تعالى يختارُ لهذه الفيوضِ مَن يشاءُ من عبادِه. يقولُ سيّد محمودٍ الألوسيُّ: «إشارةً إلى عَدَم انقطاع فَيْضِه صلّى الله تعالى عليه وسلَّم عن أُمّتِه إلى يوم القيامة، وقد قالوا بعَدَم انقطاع فَيْضِ الوليِّ أيضا بعدَ انتقالِه من دارِ الكثافة والفَناء إلى دارِ التجرُّدِ والبقاء»[4].

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾

٥ ـ جاء في هذهِ الآيةِ ذِكرُ أولئك اليهودِ الذين أعطاهمُ اللهُ تعالى عِلمَ التَّوراة،

---

(١) البخاري، كتاب التعبير، باب ١٠ برقم ٦٩٩٣.

(٢) البخاري، كتاب التعبير، باب ١٠ برقم ٦٩٩٤.

(٣) الكواكب السائرة، ١: ٢٢٩.

(٤) تفسير روح المعاني، باب الإشارة سورة الجمعة (٦٢): الآية ٣.

لكنَّهم لم يعمَلوا به، فمَثَلُهم كمَثَلِ الحمارِ الذي يحمِلُ على ظهرِه حِمْلًا من الكتُبِ، ولكنّه لا يَستفيدُ منها.

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾

٦ ـ الذين يُكذِّبونَ بآياتِ الله تعالى يكونونَ أسوَأَ من الحمير؛ لأنّ الحميرَ محرومةٌ من العَقْل، ولهذا لا تستطيعُ الاستفادةَ من الكتُبِ التي تحمِلُها على ظهورِها، لكنّ أمثالَ هؤلاءِ النّاسِ أصحابُ عقلٍ وفِراسة، وبالرَّغم من ذلك لا يستفيدونَ من الكتُبِ السَّماويّة، فهُم ـ فعلًا ـ أسَوأُ من الحمير.

ـ يقولُ سيّدُنا الوليدُ بنُ عُقبةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ أُناسًا من أهل الجنّةِ يَطّلعونَ إلى أُناسٍ من أهلِ النّار فيقولون: بِمَ دخلتُمُ النّار، فواللهِ ما دخَلْنا الجنّةَ إلّا بما تعلَّمْنا منكم؟ فيقولون: إنّا كنّا نقولُ ولا نفعَل»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا سُفيانُ بن عُيَيْنَة: «أجهَلُ النّاسِ مَن تَرَك ما يعلَم، وأعلَمُ النّاسِ من عمِلَ بما يعلَم، وأفضَلُ النّاس أخشَعُهم لله عزَّ وجَلّ»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو كَبْشةَ رضي الله عنه: إنه سَمِع سيّدَنا أبا الدَّرداءِ رضي الله عنه يقولُ: «إنّ مِن أشرِّ الناسِ عندَ الله منزلةً يومَ القيامة: عالِمٌ لا ينتفَعُ بعلمِه»[3].

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾

٧ ـ كان اليهودُ يقولون: إنّهم أحبابُ الله، ولهذا فإنّ الجنّةَ مخصوصةٌ لهم، وقد فنَّد القرآنُ الكريمُ ادِّعاءهم هذا، بمعنى: لو أنّكم ـ فعلًا ـ أهلُ الجنة، فلماذا

---

(١) كنز العمال، ١٠: ١٨٩ برقم ٢٨٩٩١.

(٢) الدارمي، المقدمة، باب ٣٢.

(٣) سنن الدارمي، المقدمة، باب ٢٧.

تُزعجُكم مصائبُ هذه الدُّنيا؟ فلْتتَمنَّوا الموتَ إذًا، حتى تلقَوا اللهَ تعالى وتدخُلوا الجنّةَ وتستمتِعوا بنِعَمِها المختلفة. ولكنّهم لن يتمنَّوا الموتَ أبدًا؛ لأنّهم خائفونَ من المصيرِ الذي سيؤولونَ إليه بسببِ ما ارتكبوهُ من أفعالٍ قبيحة.

لمّا نَزَلت هذه الآيةُ قال النبيُّ ﷺ: «والّذي نَفْسُ محمّدٍ بيدِه، لو تمَنَّوا الموتَ ما بقيَ على ظهرِها يهوديٌّ إلّا مات»[1]، ويضيفُ العلّامةُ القُرطبيُّ قائلًا «وفي هذا إخبارٌ عن الغَيْب، ومعجزةٌ للنّبيِّ ﷺ»[2].

نَقَل الإمامُ البَيْهَقيُّ في كتابِه «الدّلائل» روايةً عن سيّدِنا عبدِ الله بن عبّاس رضي الله عنهما تقولُ: «إنه حينَ نَزَلت الآيةُ رقم ٩٤ ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ جَمَع النبيُّ ﷺ اليهودَ جميعًا وقال لهم: «إنْ كنتُم في مقالتِكم صادقينَ قولوا: اللهُمَّ أَمِتْنا، فوالّذي نفسي بيدِه، لا يقولُها رجلٌ منكم إلّا غَصَّ بِريقِه فمات مكانَه، فأبَوْا أن يفعَلوا وكرِهوا ما قال لهم»[3]، ومثلُ هذه الدَّعوى لا يستطيعُها إلاّ نبيٌّ صادق.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

٨ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، قُلْ لأولئك اليهود: إنّ الموتَ الذي تَفِرُّونَ منه لن تستطيعوا الإفلاتَ منه، وسوف يأتيكم ـ يقينًا ـ في يوم من الأيام ثم ستَمثُلونَ أمامَ الله تعالى، وهو الذي يعلَمُ تمامَ العلم كلَّ ظاهرٍ وخَفِيٍّ، وسوف يُكشَفُ أمامَكم يومُ القيامة عن كلِّ أحوالِكم: الظاهرةِ والباطنة.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الجمعة (٦٢): الآية ٧.

(٢) المرجع السابق، سورة الجمعة (٦٢): الآية ٧.

(٣) تفسير الدر المنثور، سورة البقرة (٢): الآية ٩٤.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾

٩ ـ في هذه الآيةِ حُكمٌ للمسلمينَ بأنه حين يُرفَعُ الأذانُ لصلاةِ الجمُعة، فاترُكوا البيعَ والشِّراءَ وكلَّ المشاغل، واتَّجِهوا إلى المسجدِ لأداءِ الصّلاة، فهذا خيرٌ لكم إن كنتُم تعلَمون.

## حكم صلاة الجمعة

صَلاةُ الجمُعةِ فَرْضُ عَيْنٍ على كلِّ مكلَّفٍ يقدِرُ على شروطِها.

وصَلاةُ الجمُعةِ ركعتان، وفي فَرْضيّتِها تأكيدٌ أكثرُ من صلاةِ الظُّهر، ولكنّها ليست بديلًا لصَلاة الظُّهر، إلا أنّ الذي لا يتمكَّنُ من صلاةِ الجمُعة عليه أن يؤدِّيَ أربعَ ركَعاتٍ فَرْضَ صَلاةِ الظُّهر.

ـ رُويَ عن سيّدِنا عُمرَ رضي اللهُ عنه، أنه قال: «صَلاةُ السّفَرِ ركعتان، وصَلاةُ الأضحى ركعتانِ، وصَلاةُ الفِطر ركعتانِ، وصَلاةُ الجمُعةِ ركعتان، تمامٌ غيرُ قَصْرٍ، على لسانِ محمّدٍ ﷺ»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بن عبدِ الله رضي الله عنهما: خطَبَنا رسولُ الله ﷺ، فقال: «يا أيُّها النّاس، توبوا إلى الله قبلَ أن تموتوا، وبادِروا بالأعمالِ الصّالحة قبلَ أن تُشغَلوا...

---

(١) مسند أحمد، ١ : ٣٧.

واعلَموا أنّ اللهَ قدِ افتَرضَ عليكم الجمُعةَ... هذا من عامي هذا إلى يوم القيامة، فمَن تَرَكَها في حياتي أو بعدي وله إمامٌ، عادلٌ أو جائرٌ، استخفافًا بها أو جُحودًا بها، فلا جَمَعَ اللهُ له شَمْلَه ولا بارَكَ له في أمرِه، ألا ولا صلاةَ له ولا زكاةَ له ولا حجَّ له ولا صومَ له ولا بِرَّ له حتّى يتوبَ، فمن تاب تابَ اللهُ عليه»[١].

ـ «إنّ الجمُعةَ فريضةٌ مُحكَمةٌ بالكتابِ والسُّنةِ والإجماعِ، يكفُرُ جاحدُها»[٢].

## فضل صلاة الجمعة

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «منِ اغتَسلَ يومَ الجمُعة ولبِسَ من أحسنِ ثيابِه ومَسَّ من طيبٍ ـ إن كان عندَه ـ ثمّ أتَى الجمُعةَ فلم يتخَطَّ أعناقَ النّاس، ثمّ صَلّى ما كتَبَ اللهُ له، ثمّ أَنْصتَ إذا خَرَج إمامُه حتّى يَفرُغَ من صلاتِه كانت كفّارةً لما بينَها وبينَ جمُعتِه الّتي قبلَها»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا كان يومُ الجمُعة، وَقَفتِ الملائكةُ على بابِ المسجد يكتُبونَ الأوّلَ فالأوّلَ، ومَثَلُ المُهجِّر كمَثَل الّذي يُهدي بَدَنةً، ثمّ كالّذي يُهدي بقرةً، ثمّ كَبْشًا، ثمّ دجاجةً، ثمّ بيضةً، فإذا خَرَج الإمامُ طَوَوْا صُحُفَهم، ويستمعونَ الذِّكرَ»[٤].

## فضل يوم الجمعة

ـ يقولُ سيّدُنا أبو لُبابةَ بن عبد المُنذِر رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ

---

(١) ابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة، باب ٧٨ برقم ١٠٨١.

(٢) شرح فتح القدير، باب صلاة الجمعة.

(٣) أبو داود، كتاب الطهارة، باب ١٢٧ برقم ٣٤٣.

(٤) البخاري، كتاب الجمعة، باب ٣١ برقم ٩٢٩.

يومَ الجمُعة سيّدُ الأيّام وأعظَمُها عندَ الله، وهو أعظَمُ عندَ الله من يوم الأضحى ويوم الفِطْر، فيه خمسُ خِلالٍ:

١ ـ خَلَق اللهُ فيه آدمَ.

٢ ـ وأَهْبطَ اللهُ فيه آدمَ إلى الأرض.

٣ ـ وفيه تَوفَّى اللهُ آدمَ.

٤ ـ وفيه ساعةٌ لا يَسأَلُ اللهَ فيها العبدُ شيئًا إلّا أعطاه ما لم يَسأَلْ حرامًا.

٥ ـ وفيه تقومُ السّاعةُ.

ما من مَلَكٍ مُقرَّبٍ ولا سَماءٍ ولا أرضٍ ولا رياحٍ ولا جبالٍ ولا بحرٍ إلّا وهنّ يُشفِقْن من يوم الجمُعة»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا شَدّادُ بن أَوْس رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ مِن أفضلِ أيّامِكم يومَ الجمُعة، فيه خُلِق آدمُ، وفيه النَّفْخةُ، وفيه الصَّعْقة، فأكثِروا علَيّ من الصّلاة فيه، فإنّ صلاتكم معروضةٌ علَيّ»، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، كيف تُعرَضُ صلاتُنا عليك وقد أَرِمتَ؟ يعني: بَلِيت؟ فقال: «إنّ اللهَ قد حَرَّم على الأرضِ أن تأكُلَ أجسادَ الأنبياء»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ هذا يومُ عيدٍ جَعَله اللهُ للمسلمين»[٣]، وعن النبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم في روايةٍ أخرى: «إنّ يومَ الجمُعة يومُ عيدٍ»[٤].

---

(١) ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب ٧٩ برقم ١٠٨٤.

(٢) ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب ٧٩ برقم ١٠٨٥.

(٣) ابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة، باب ٨٣ برقم ١٠٩٨.

(٤) مسند أحمد، ٢: ٣٠٣.

## الوعيد على ترك صلاة الجمعة

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ وسيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنهما، إنهما سَمِعا النبيَّ ﷺ يقولُ على أعوادِ مِنبَرِه: «لَينتَهِيَنَّ أقوامٌ عن وَدْعِهم الجمُعاتِ أو لَيختِمَنَّ اللهُ على قلوبِهم ثمّ لَيكونُنّ من الغافلين»(١).

- يقولُ سيّدُنا أبو الجَعْد الضَّمْريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن تَرك ثلاثَ جُمَعٍ تهاوُنًا بها طَبَع اللهُ على قلبِه»(٢).

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله رضي الله عنه: إنّ النّبيَّ ﷺ قال لقومٍ يتَخلَّفُونَ عن الجمُعة: «لقد هممْتُ أن آمُرَ رجُلًا يُصلِّي بالنّاس ثمّ أُحرِّقَ على رجالٍ يتَخلَّفونَ عن الجمُعةِ بيوتَهم»(٣).

## شروط وجوب الجمعة

١ - **أن يكونَ رجُلًا**، فالجمُعةُ ليست واجبةً على النِّساء.

٢ - **أن يكونَ حُرًّا**، فالجمُعةُ ليست واجبةً على العبيد.

٣ - **أن يكونَ بالغًا**، فالجمُعةُ ليست واجبةً على الأطفال.

٤ - **أن يكونَ صحيحًا**، فالجمُعةُ ليست واجبةً على المريض، والمريضُ الذي يَستلزمُ وجودَ مُرافقٍ يُمرِّضُه، لا تجبُ الجمُعة على الممرِّضِ أيضًا.

٥ - **أن يكونَ مقيمًا**، فالجمُعةُ ليست واجبةً على المسافر.

---

(١) مسلم، كتاب الجمعة، باب ١٢ برقم ٢٠٠٢.
(٢) سنن النسائي، كتاب الجمعة، باب ٢ برقم ١٣٧٠.
(٣) مسلم، كتاب المساجد، باب ٤٢ برقم ١٤٨٥.

٦ ـ **أن يكونَ عاقلًا**، فالجمُعةَ ليست واجبةً على المجنونِ ومَن هم في حُكمِه.

## ملحوظة

الذين لا تجبُ عليهمُ الجمُعةُ إذا حَضَروا الجمُعةَ وأدَّوْا صَلاتَها فهي صحيحة، ويَسقُطُ عنهم أداءُ فرضِ صلاةِ الظُّهر.

## سنن الخطبة

### ١ ـ الطَّهارة

«يُسَنُّ للخطيبِ أن يكونَ طاهرًا من الحدثَيْنِ: الأكبرِ والأصغَر»[1].

### ٢ ـ الجلوسُ على المِنبَر

«يُسَنُّ أن يجلسَ الخَطيبُ على المنبَرِ قبلَ الشروع في الخُطبة»[2].

### ٣ ـ رَفْعُ الأذانِ بينَ يدَي الخطيب

«جَرى به التوارُثُ كالإقامةِ بعدَ الخُطبة»[3].

### ٤ ـ أن يَخطُبَ واقفًا

«أن يَخطُبَ وهو قائمٌ بعدَ الأذانِ في الخُطبتَيْنِ»[4].

### ٥ ـ أن يستقبِلَ الناسَ بوجهِه

يقولُ شمسُ الأئمّة: «من كان أمامَ الإمام استقبَلَ بوجهِه، ومَن كان عن يمينِ

---

(١) كتاب الفقه.

(٢) نور الإيضاح.

(٣) مراقي الفلاح.

(٤) المرجع السابق.

الإمام أو يسارِه انحَرفَ إلى الإمام»، وقال السَّرخسيُّ: «الرَّسمُ في زمانِنا استقبالُ القوم القِبلةَ وتَرْكُ استقبالِهم الخطيبَ لِما يَلحَقُهم من الحَرَج بتسويةِ الصُّفوف بعدَ فراغ الخطيبِ من خُطبتِه؛ لكثرةِ الزِّحام، قال: وهذا أحسن»[١].

**٦ ـ الخُطبة**

«أن يَخطُبَ خُطبتَيْنِ إحداهُما سُنّةٌ والأخرى شَرْطٌ لصحّةِ الجمُعة»[٢].

«والسُّنةُ هي أن يبدأَ الخَطيبُ خُطبتَه الأُولى «بالتعوُّذِ في نفسِه، ثم يَجهَرُ فيها بالحمدِ لله والثناءِ عليه بما هو أهلُه، والشَّهادتَيْنِ، والصّلاةِ والسَّلام على النبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم، والعِظَةِ بالزَّجرِ عن المعاصي، والتخويفِ والتحذيرِ ممّا يوجِبُ مَقْتَ الله تعالى وعقابَه سبحانَه، والتذكيرِ بما به النَّجاةُ في الدُّنيا والآخِرة، وقراءةِ آيةٍ من القرآن.

ويبدَأُ الثانيةَ بالحمدِ لله تعالى والثّناءِ عليه، والصّلاةِ والسَّلام على رسولِه، ويدعُو فيها للمؤمنينَ والمؤمناتِ ويستغفرُ لهم، أمّا الدُّعاءُ للملِك والأميرِ بالنَّصرِ والتأييدِ والتوفيقِ لِما فيه مصلحةُ رعيِّته ونحوُ ذلك فإنه مندوبٌ؛ لأنّ أبا موسى الأشعريَّ كان يدعو لعُمرَ في خُطبتِه ولم يُنكِرْ عليه أحدٌ من أصحابِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم»[٣].

ومن المناسب أن يبدَأَ خُطبتَه الثانيةَ أيضًا بقولِه: «الحمدُ لله، نحمَدُه ونَستعينُه ونستغفرُه، ونؤمنُ به ونتوكَّلُ عليه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفُسِنا، ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، من يَهْدِه اللهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له»[٤].

---

(١) حاشية الطحطاوي.

(٢) كتاب الفقه، مباحث الجمعة.

(٣) المرجع السابق، مباحث الجمعة.

(٤) بهار شريعت.

### ٧ ـ الجلوسُ بينَ الخُطبتَيْن

من السُّنةِ «أن يجلسَ بينَهما بقَدْرِ ثلاثِ آيات»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: «كان النّبيُّ ﷺ يَخطُبُ خُطبتَيْنِ يقعُدُ بينَهما»[2].

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

١٠ ـ عندَما تنتهي صَلاةُ الجمُعةِ انتشِروا في الأرض، وابحَثوا عن أرزاقِكم، واذكُروا اللهَ تعالى في كلِّ وقت، حتى لا يقَعَ منكم أثناءَ بحثِكم عن الرِّزقِ عمَلُ يُغضِبُ الله تعالى، وهذا هو الخيرُ لكم.

﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾

١١ ـ ذاتَ مرَّة حَلَّ بالمدينة عامُ قَحْطٍ ومَجاعة، وانتَهتِ الغِلالُ من الأسواق، وفجأةً، وبينَما كان النبيُّ ﷺ يخطُبُ للجمُعة إذْ وصَلَت قافلةٌ تجاريّةٌ إلى المدينةِ قادمةٌ من الشام، فلمَّا عَلِم الناسُ بقُدوم القافلة تَرَك بعضُ المسلمينَ خُطبةَ الجمُعةِ وذَهَب إليها خوفًا من أنْ تُباعَ البضائعُ التي جَلَبْتها قبلَ أن يصلَ إليها، وكان هؤلاءِ يعتقدونَ أنه لا حَرَجَ في تَرْكِ خُطبةِ الجمُعة، ولكنْ عندَما نَزَلتْ هذه الآيةُ أصبح سَماعُ الخُطبةِ واجبًا، وقال لهم رسولُ الله ﷺ: إنّ ما أعَدَّه اللهُ تعالى لكم من ثوابٍ على الخُطبةِ والصَّلاةِ أفضَلُ كثيرًا من هذه التجارة، وهذا اللَّهوِ الدُّنيويِّ، واللهُ هو

(١) الفتاوى العالمكيرية، باب الجمعة.

(٢) البخاري، كتاب الجمعة، باب ٣٠ برقم ٩٢٨.

خيرُ الرازِقين، ولهذا اعمَلوا بالتِّجارةِ كما تريدونَ، وبقَدْرِ ما تريدونَ، فإنّ كَسْبَ الرِّزق الحلالِ عبادةٌ، وهو سُنّةُ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، ولكنْ لا خيرَ في تجارةٍ تترُكونَ من أَجْلِها خُطبةَ الجمُعةِ أو صَلاتَها.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**منكاني شريف، مركز جهنك، باكستان.**
**بعدَ صلاة العشاء من يوم الاثنين ٤ أكتوبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٥ شوال ١٤٣١هـ.**

**هذا وقدِ اكتَمل بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الجمُعة» في ساعتين فقط، أي: من بعدِ صلاة المغرب حتى بعدَ صلاة العشاء، ومن أسبابِ اكتمال تفسيرها سريعًا: أنّ بعضَ المواضع من هذه السورة، يعني الآيةَ رقم ٣، قد مَرَّ تفسيرُها من قبل، وقد فصَّلتُ أنا الحديثَ عن صلاة الجمُعة في كتابي «إمداد الفقه»، ولهذا فإنّني سأنقُل هذَيْنِ الشيئَيْنِ من حيثما كُتِبا، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.**

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# (٦٣) سُورَةُ المُنَافِقُونَ

هذه السُّورةُ مدَنيّة، واسمُها: «المنافِقون»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

## المنافقون

في الآياتِ الثماني الأُولى من هذه السُّورةِ جاء بيانُ صفاتِ المنافقين، يعني: أنّهم يَكذِبون، وأكبرُ كذبٍ منهم هو أنّهم يُقِرُّونَ بالإسلام بألسنتِهم، لكنّهم يُنكرونَه بقلوبِهم، ويَحلِفُونَ بالله كذبًا ليَخْفُوا كذبَهم، كلامُهم حُلوٌ، ولكنْ لأنّ قلوبَهم تمتلئُ كفرًا، لهذا لن يغفرَ اللهُ لهم أبدًا، ولهذا أيضًا ينبغي للمسلمينَ أن يَحتاطوا من المنافقين.

كان المنافقونَ يعتقدونَ أنه لو أنّ أهلَ المدينةِ تَرَكوا إنفاقَ ثروتِهم على المسلمين، فسوف يَضِيقُونَ ذَرْعًا بالجُوع، ويَفِرُّونَ من هنا، وفي هذه السُّورةِ حَذَّرهم اللهُ تعالى بأنّكم لستم الرازقينَ لهم، وأنّ رازقَهم هو اللهُ تعالى، وهو مالكُ خزائنِ السماواتِ والأرض.

## المؤمنون

في الآياتِ الثلاثِ الأخيرةِ من هذه السُّورةِ جاء تعليمٌ لأهل الإيمانِ وإرشادٌ لهم بأنْ ينشغِلوا بذِكر الله تعالى وبطاعتِه، وأن يُنفِقوا من رزقِ الله عليهم في سبيلِه.

لأنه حين يأتي موعدُ الموتِ، لن يمكنَ حينَئذٍ تأخيرُه ولو للحظةٍ، ولن ينفعَ النَّدمُ بشيءٍ في ذلك الوقت.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة الفجر من يوم الثلاثاء ١٢ أكتوبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٣ ذي القَعدة ١٤٣١هـ.**

❋ ❋ ❋

# سُورَةُ المُنَافِقُونَ (٦٣)

## مدنية (١٠٤)، آياتها (١١)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

١ - يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، عندما يأتيكَ المنافقونَ ليشهَدوا أنك رسولُ الله،

فإنّ شهادتَهم صادقةٌ؛ لأنك ـ بالفعل ـ رسولُ الله! لكنّهم كاذبونَ في هذه الشهادة؛ لأنهم لا يعترفونَ بكَ رسولًا من قلوبِهم.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

٢ ـ المنافقونَ مُنهمِكونَ ليلَ نهارَ في التآمُرِ على الإسلام، وحين يُفتَضَحُ أمرُ مؤامرةٍ من مؤامراتِهم يخافونَ أنْ يُعاقَبوا عليها، فإنّهم يَحلِفونَ كذبًا دفاعًا عن أنفُسِهم، ويُفلِتُونَ من العقاب، وهكذا يُعَدُّونَ ـ في الظاهر ـ من المسلمين، لكنّهم في الحقيقة أبعَدوا أنفُسَهم عن الإسلام، ولو أراد كافرٌ الدخولَ في الإسلام قَدَّموا له صُورةً مُشوَّهةً وسَلْبيّةً عن الإسلام، فيمنَعُونَه بذلك من دخولِه، وهذا السلوكُ من المنافقينَ في غايةِ السُّوء، وسيؤدِّي بهم إلى الخِزْي والعارِ في الدُّنيا والآخِرة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾

٣ ـ إنّ تصرُّفَ المنافقينَ سيِّءٌ؛ لأنّهم يَدَّعُونَ الإسلامَ، وبالتالي يعيشونَ بينَ المسلمين، معَ أنّهم ـ في الحقيقة ـ غيرُ مسلمين، وبالتالي هم أشدُّ خطرًا من الكفّارِ الظاهرينَ، وقد طُبِع على قلوبِهم بسببِ نفاقِهم هذا، وأصبحت عقولُهم ومشاعرُهم متحجِّرةً وجامدةً، بحيث لم يعودوا يميِّزونَ بينَ الحقِّ والباطل.

﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ﴾

٤ ـ شكلُ المنافقينَ وصُورتُهم الظاهريّةُ، وكذا حديثُهم يبدو حُلوًا جميلًا، ولكنّهم ـ في الحقيقة ـ مِثلُ تلك الأخشابِ المهمَلة التي أُوقِفَت مستندِةً على الجُدران، وعندَما يجلسونَ في مجلسِ النبيِّ الكريم ﷺ فكأنَّهم أيضًا أخشابٌ مسنَّدةٌ لا حياةَ فيها، ولا يحاولونَ فَهْمَ شيءٍ يقال.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾

٥ - بَلَغ الجُبنُ بالمنافقينَ درجةً جَعَلت قلوبَهم تَخفِقُ بشدّةٍ إذا عَلَا صوتُ المسلمينَ في أيِّ وقتٍ من الأوقات، خوفًا من أن تكونَ مؤامراتُهم قدِ اكتُشِفت، وأنّ المسلمينَ قادمونَ لعقابِهم.

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾

٦ - هنا تنبيهٌ لأهلِ الإيمانِ بأنّ المنافقينَ أعداؤكم، فاحذَروا من مؤامراتِهم.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

٧ - لِيُهلِكِ اللهُ المنافقينَ ويَلعَنُهم، أيُّ جَهَلةٍ وحَمْقَى هؤلاء! لا يزالونَ يَعْمَهونَ في الضَّلال، رَغْم رؤيتِهم لدلائلِ وبراهينِ الإسلام الواضحة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾

٨ - يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «لمّا نَزَل القرآنُ بصفتِهم مشَى إليهم عشائرُهم وقالوا: افتُضِحتُم بالنّفاق، فتُوبوا إلى رسولِ الله من النّفاق، واطلُبوا أن يستغفرَ لكم. فلَوَّوْا رءوسَهم، أي: حَرّكوها استهزاءً وإباءً»[1].

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾

٩ - يعني: أنّ المنافقينَ الذين يتُوبونَ إلى الله ويُصبِحونَ مسلمين، سيغفرُ اللهُ لهم، أمّا المنافقونَ الذين يُصِرُّونَ على نفاقِهم وعلى إنكارِهم لرسولِ الله ﷺ حتى آخِرِ لحظةٍ من حياتِهم، فإنّ هؤلاءِ لن يغفرَ اللهُ لهم مهما استغفرْتَ لهم.

---

(١) تفسير القرطبي.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾

١٠ ـ إليكَ خُلاصةَ الواقعةِ التي وَرَد ذِكرُها في كتُبِ التفاسيرِ والأحاديثِ فيما يتعلَّقُ بهذه الآية.

يقال: إن مهاجرًا وأَنْصاريًّا اختَلَفا فيما بينَهما وقتَ غزوةِ بني المصطَلِق، فاستدعَى كلٌّ منهما من يَنصُرُه من المهاجِرينَ والأنصار، فقال عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ (المنافقُ)، للأنصار: لقد ساعدتُم المهاجرينَ، واليومَ هم يهدِّدونكم، معَ أنّنا كنّا قبلَ مجيئهم أصحابَ عزّةٍ وكرامة، ولهذا عليكمُ الآنَ أن تترُكوا الإنفاقَ على هؤلاءِ المهاجِرين، حتى يُحاصرَهم الجوعُ والإفلاسُ، فيَفِرُّوا من هنا، كما قال لهم أيضًا بأنّهم عندَما يَصِلُونَ المدينةَ عليهم إخراجُ هؤلاءِ الأَذِلّاءِ (يعني المسلمينَ) منها. وعندَما سَمِع سيّدُنا زَيْدُ بنُ الأرقم رضي الله عنه هذا الكلامَ ذَهَب إلى النبيِّ ﷺ وأَخْبرَه بالأمرِ، وعندَئذٍ استدعَى النبيُّ ﷺ عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ وسأله عن الموضوع، فأنكر ابنُ أُبَيٍّ إنكارًا تامًّا بأنه قال مِثلَ هذا الكلام، وعليه انزَعَج سيّدُنا زيدُ بنُ الأرقم رضي الله عنه كثيرًا، ثم نَزَلت هذه السُّورةُ، فاستدعَى النبيُّ ﷺ سيّدَنا زيدَ بنَ الأرقم رضي الله عنه، وبشَّره بأنّ اللهَ تعالى أَنْزلَ سُورةَ المنافقينَ تصديقًا لما قلتَ وتأكيدًا على كذبِ المنافقين.

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾

١١ ـ كان المنافقونَ يعتقدونَ أنه لو أنّ أهلَ المدينة تَركوا إنفاقَ ثروتِهم على المسلمينَ، فسوف يَضِيقُونَ ذَرْعًا بالجوع، ويَفِرُّونَ من هنا، وفي هذه السُّورةِ حَذَّرهم اللهُ تعالى بأنّكم لستُم الرازقينَ لهم، وإنّ رازقَهم هو اللهُ تعالى، وهو مالكُ خزائنِ السّماواتِ والأرض. ولأنّ المنافقينَ لا يَعرِفونَ قُدرةَ الله تعالى، لهذا يقولونَ هذا الكلامَ الجاهلَ.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

١٢ ـ قال سيّدُ المنافقينَ عبدُ الله بنُ أُبَيّ لِرفاقِه في غزوةِ بني المصطَلَق: إنّهم أهلُ عزّةٍ وكرامةٍ واحترام ومكانة، وحين يعودونَ إلى المدينةِ سيُخرِجونَ هؤلاءِ الأذِلّاءَ ـ يعني المسلمينَ ـ منها! لكنْ أنّى لهم أن يعلَموا أنّ مالكَ العزّةِ الحقيقيَّ هو اللهُ تعالى، وهو الذي يُنعِمُ بالعِزّة الحقيقيّةِ على أهلِ الإيمان، بينَما لا يستحِقُّ المنافقونَ منها شيئًا، وما أن يُفتَضَحَ أمرُ نفاقِهم، سيُصيبُهمُ الخِزْيُ والعارُ والذُّلُّ، لكنّ هؤلاء غافلونَ عن مصيرِهم.

إنّ العزَّةَ الحقيقيَّة لا تستندُ إلى الطعام الجيِّد والملابسِ الفاخِرة والمسكَنِ الجميل، وإنّما يَستحِقُّ العزّةَ مَن كان سلوكُه جميلًا، وهو في كلِّ حالٍ شاكرٌ لله تعالى خالقِه الحقيقيِّ.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾

١٣ ـ بعدَ بيانِ صفاتِ المنافقينَ يـتِمُّ تعليمُ المسلمينَ وإرشادُهم إلى أنْ أحِبُّوا أولادَكم وأموالَكم، ولكنْ ليس إلى الدرجةِ التي تجعَلُكم غافلينَ عن ذِكرِ الله تعالى؛ لأنّ القلبَ الذي يَغفُلُ عن ذِكرِ الله تعالى يَدخُلُه الشّيطانُ، وعندَئذٍ يصبحُ صاحبُ مِثل هذا القلبِ من الخاسرينَ بسببِ تأثيرِ الشّيطانِ عليه.

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

١٤ ـ عليكُم أن تؤدُّوا حقوقَ خَلْقِ الله تعالى في وقتِها من الرِّزقِ الذي أَنْعَم به عليكم، ولا تؤخِّروها عامدينَ، فقد يأتيكمُ الموتُ وتندَمون، وتَدْعونَ اللهَ عندَئذٍ أن يُمهِلَكم قليلًا حتى تتصدَّقوا وتُخرجوا زكاتَكم، وتكونوا من الصّالحين، ولكنّ وقتَ الموتِ محدَّدٌ، وعندَما يحينُ هذا الوقتُ فإنه لا يمكنُ تأخيرُه ولو للحظةٍ واحدة.

ويُعلمُ منه أنه إذا أصبح الحجُّ أو الزكاةُ أو غيرُهما فرضًا على أحدٍ ينبغي له ألّا يؤخِّرَ أداءَ هذا الفَرْض؛ لأنّ الموتَ يمكنُ أن يأتيَ في أيِّ وقتٍ من الأوقات، وعندَها لن ينفَعَ النَّدمُ بشيء.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة العصر من يوم الثلاثاء ١٢ أكتوبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٣ ذي القَعْدة ١٤٣١هـ.**

**هذا، وقد اكتَمل بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسير سورة «المنافقون» من بعدِ صلاة الفجر وحتى بعدِ صلاة العصر من اليوم نفسِه، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسّلام على سيّد المرسَلين، وعلى آله وأصحابِه أجمعين.**

❋ ❋ ❋

بسم الله الرحمن الرحيم

# (٦٤) سورة التغابن

هذه السُّورةُ مدَنيّة، واسمُها: «التغابُن»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم ٩ منها.

## صفات البارئ سبحانه وتعالى

جاء في بدايةِ هذه السُّورةِ بيانٌ لبعض صفاتِ الله تعالى، يعني: أنّ اللهَ تعالى هو خالقُ الأرضِ والسَّماء، وحاكمُهما، وهو الذي خَلَق الإنسانَ كذلك، وأَنْعَم عليه بالشَّكلِ الجميل، وهو الذي يَعلمُ تمامَ العِلم ظاهرَ كلِّ شيءٍ وباطنَه في الأرضِ والسماء.

## درس عبرة

في السُّورةِ السابقةِ جاء بيانُ صفاتِ المنافقينَ، وفي هذه جاء بيانٌ لأحوالِ الكفّار، بأنّهم أنكَروا التوحيدَ والنُّبوةَ والآخرةَ، وكان نتيجةُ ذلك أنْ أهلَكَهم اللهُ تعالى، فعليكم أن تَعتبِروا من أحوالِ هؤلاء، وأنْ لا تُفسِدوا آخرتكم بعصيانِكم لله تعالى.

## المال والأولاد

وفي النِّهايةِ نَبَّه اللهُ تعالى بأنّ أموالَكم وأزواجَكم وأولادَكم بمثابةِ الفتنةِ

لكم، فلا تُبالغوا في محبَّتِهم إلى الدَّرجةِ التي تُنسيكمُ اللهَ تعالى، ولا تُقصِّروا في حقوقِهم إلى الدَّرجةِ التي تجعَلُكم مجرِمينَ عندَ الله تعالى، وإنّما احرِصوا على التوازُنِ بينَ الحقوقِ والواجبات، واتَّقوا اللهَ، وأَنْفِقوا في سبيلِه، فهذا خيرٌ لكم.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ الإشراق من يوم الأربعاء ١٣ أكتوبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٤ ذي القَعْدة ١٤٣١هـ.**

* * *

# سُورَةُ التَّغَابُنِ (٦٤)،

## مدنية (١٠٨)، آياتها (١٨)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ﴾

١ - للتعرُّفِ على تفسيرِ هذه الآية راجع الحاشيةَ الأُولى من سُورةِ الحديد (٥٧).

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

٢ ـ اللهُ تعالى هو الذي خَلَقَكم، ثم أنكَر بعضُكمُ اللهُ تعالى وأصبح كافرًا، والبعضُ اعترَفَ به وأصبحَ مؤمنًا، وقد أَخْبرَكمُ اللهُ تعالى بالفَرْقِ بينَ الحقِّ والباطل أيضًا، وأعطاكم القُدرةَ على اختيارِ أيٍّ منهما، والآنَ فإنّ الطريقَ الذي تختارونَه لأنفُسِكم يراه اللهُ تعالى تمامَ الرُّؤية، وسوف يقرِّرُ ثوابَكم وعقابَكم طبقًا لأعمالِكم. ولمزيدٍ من التفصيل عن القَدَر راجع الحاشيةَ رقم ٣٩ للآية رقم ٤٩ من سُورة القمر (٥٤).

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾

٣ ـ خَلَق اللهُ تعالى الأرضَ والسماءَ بحِكمةٍ تجعَلُ الإنسانَ العاقلَ يُقِرُّ بقُدرةِ الله وحِكمتِه فَوْرَ أنْ يراهما، فلقد هَيَّأَ اللهُ تعالى في هذه الكائناتِ كلَّ الوسائل الضَّروريّةِ التي يحتاجُها الإنسانُ في حياتِه، كما أنّ اللهَ تعالى قد أقام التوازنَ في الأرضِ والسماء، بحيث لم يَحدُثْ أيُّ خَلَل في نظامِهما رَغْم مرورِ أزمانٍ طويلةٍ عليهما.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

٤ ـ جَعَل اللهُ تعالى من الأرضِ مقَرًّا للإنسان، ومن السماءِ سَقْفًا يَستظِلُّ به، وأَنْعم عليه بالرِّزقِ الحلال، والأحياءُ الأخرى تشاركُ الإنسانَ هذه النِّعمَ أيضًا، لكنّ الشكلَ والصُّورةَ والعِلمَ والحِكمةَ التي أَنْعم اللهُ تعالى بها على الإنسان، لا يشاركُه فيها أحدٌ من هذه الأحياء، وهذا هو السَّببُ في أنّ حيَواناتٍ ضخمةً كالفيل والجَمَل، وأُخرى مفترِسةٍ كالأسدِ والنَّمِر، تخضَعُ للإنسان.

## شكل الإنسان وصورته هي الأجمل

ـ في عهدِ الخليفةِ المنصورِ «كان عيسى بنُ موسى الهاشميُّ يُحبُّ زوجتَه

حبًّا شديدًا، فقال لها يومًا: أنتِ طالقٌ ثلاثًا إن لم تكوني أحسَنَ من القمر، فنَهَضتْ واحتَجَبتْ عنه، وقالت: طلَّقْتني! (لأنّني لا يمكنُ أن أكونَ أجمَلَ من القمر). وباتَ بليلةٍ عظيمةٍ، فلمّا أصبحَ غَدَا إلى دارِ المنصور، فأَخْبره الخبرَ، وأظهرَ للمنصور جَزَعًا عظيمًا، فاستَحضَرَ الفقهاءَ واستَفْتاهم، فقال جميعُ مَن حَضَر: قد طَلُقَتْ، إلّا رجلًا واحدًا من أصحابِ أبي حنيفة، فإنّه كان ساكتًا. فقال له المنصورُ: ما لك لا تتكلَّم؟ فقال له الرّجل: «بسم الله الرّحمن الرّحيم: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١-٤]. يا أميرَ المؤمنين، فالإنسانُ أحسَنُ الأشياء، ولا شيءَ أحسَنُ منه. فقال المنصور لعيسى بنِ موسى: الأمرُ كما قال الرّجل، فأَقْبِلْ على زوجتِك»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ حاتم رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا قاتَلَ أحدُكم أخاه فلا يَلطِمَنَّ الوجهَ (أي: لا يَصْفَعْه على وجهِه)»[2]؛ لأنّ اللهَ تعالى خَلَق آدمَ على صُورتِه.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا قاتَلَ أحدُكم أخاه فلْيجتنبِ الوجهَ، فإنّ اللهَ خَلقَ آدمَ على صُورتِه»[3]، واللهُ تعالى نورُ السّماواتِ والأرض، وليس كمِثلِه شيءٌ، ثم إنه خَلَق الإنسانَ على صُورتِه، ونَفَخ فيه من رُوحِه، والمرادُ من كلِّ هذا هو تكريمُ الإنسانِ واحترامُه.

ـ من عظَمةِ شكلِ الإنسانِ وصُورتِه أيضًا أنّ الأحياءَ كلَّها تَحني رأسَها أمامَ طعامِها وشرابِها لتتناولَه، لكنّ السيِّدَ الإنسانَ يحملُ الطعامَ والشرابَ بيدِه ليضعَهُ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة «والتين» (٩٥): الآية ٤.

(٢) مسلم، برقم ٦٦٥٤.

(٣) مسلم، كتاب البر، باب ٣٢ برقم ٦٦٥٥.

في فمِه، حتى لا ينحنيَ أمامَ طعام أو شراب، وإنما ينحني أمامَ الله تعالى فقطِ الذي هو خالقُه ومعبودُه الحقيقيُّ:

**ـ إنك لم تُخلَقْ للأرضِ ولا للسَّماء، العالَمُ كلُّه خُلِق من أَجْلِك أنت، ولم تُخلَقْ أنت مِن أَجْلِه.**

لقد أَنْعم اللهُ تعالى على الإنسانِ بنِعَمٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، وينبغي للإنسانِ أن يتذكَّرَ جيِّدًا أنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العلم ظاهرَ كلِّ إنسانٍ وباطنَه، وما يُخْفيه في قلبِه من أسرارٍ وما يُعلنُه، وأنّ الجميعَ سيَمثُلونَ ذاتَ يوم في حضرةِ الله تعالى، وسيُحاسبُهم على كلِّ هذه النِّعم، ولهذا ينبغي استعمالُ النِّعَم في الأغراضِ التي خُلِقَتْ من أَجْلِها.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

٥ ـ كانت قَصَصُ قوم نُوح وقوم عادٍ وثمودَ وغيرِهم مشهورةً معروفةً عندَ العربِ بأنّ هؤلاءِ اختاروا الكُفرَ والظُّلم، فنَزَل عليهم العذابُ في الدُّنيا عقابًا لهم على ذلك، وسوف يُعاقَبونَ في الآخِرة بالعذابِ الأليم، وفي هذه الآيةِ تذكيرٌ لأهل الجزيرةِ العربيّة بأنْ يَعتبِروا ممّا حَدَث للكُفّار الذين كانوا من قبلِهم، وأن يؤمنوا، وإلّا فلن يُفلِتوا من العذابِ الأليم في الآخِرة.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

٦ ـ السَّببُ في تعذيبِ الكُفّارِ أنّ اللهَ تعالى أَرْسَلَ إليهم رُسُلَه، وأعطَى الرُّسُلَ معجِزاتٍ واضحةً، حتى يَعرِفَهم الكُفّارُ ويؤمنوا بهم، إلا أنّ الكفّارَ رَفَضوا الإيمانَ

بالرُّسُلِ، وأعرَضوا عن دعوتِهم، فرَفَع اللهُ أيضًا نَظَر رحمتِه عنهم، وتَرَكَهم في حالِهم؛ لأنّ اللهَ تعالى هو المستغني، وهو المستحِقُّ لكلِّ حمدٍ وثناء، سواءٌ حَمِدَه الحامدونَ أم لا.

ومن أسبابِ إنكارِ الكفّارِ أيضًا: أنّهم لم يكونوا على استعدادٍ للإيمانِ بإنسانٍ مِثلِهم نبيًّا، فقد كانوا يعتقدونَ أنه إذا كان اللهُ تعالى لا بدَّ مرسِلًا نبيًّا، فسيُرسِلُ مَلَكًا نبيًّا، ولكَ أن تتخيَّلَ مدى تفكيرِهم، فإذا أنكَروا كان إنكارُهم لأنْ يكونَ أشرَفُ المخلوقاتِ السيِّدُ الإنسانُ نبيًّا، وإذا آمَنوا كان إيمانُهم بأحجارٍ نَحَتُوها بأيديهم آلهةً.

إنّ إنكارَ بشَريّةِ الأنبياء كُفرٌ، مثلَما يقولُ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ رضا: ومَن ينفي بشَريّةَ سيّدِنا النبيِّ ﷺ نفيًا مطلَقًا فقد كَفر، فاللهُ تعالى يقول: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٣][1].

## لماذا لم يجعل الله من الملائكة أنبياء؟

لو جَعَل اللهُ مَلَكًا من الملائكةِ نبيًّا فله صُورتانِ؛ إمّا أن يأتيَ هذا المَلاكُ في صُورتِه الأَصْليّة، وبالتالي لن يستطيعَ البشَرُ أن يَستفيدوا منه في هذه الصُّورةِ بسببِ هَيْبتِه وجلالِه، وإنّما سيُصعَقُونَ بمجرَّدِ رؤيتِه، والصُّورةُ الثانيةُ هي أن يأتيَ هذا الملاكُ في صُورةِ بشَر، مثلَما كان سيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ يأتي إلى سيّدِنا محمدٍ ﷺ في صُورةِ إنسان، ورَآه الصّحابةُ الكرامُ رضي اللهُ عنهم أيضًا في هذه الصُّورة، وفي هذه الحالةِ سيَعترِضُ الكفّارُ قائلينَ: إنه بشَرٌ مِثلُنا، لماذا لم يُرسِل اللهُ مَلَكًا رسولًا؟

---

(١) تفسير تبيان القرآن، سورة التغابن (٦٤): الآية ٦.

وردًّا على هذا قال اللهُ تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٥]، يعني: لو أنّ الأرضَ يَسكُنُها الملائكةُ لَأرسَل اللهُ تعالى منهم رسُولًا على وجهِ اليقين، ولكنّ البشَرَ هم الذين يعيشونَ على الأرض، وبالتالي يصبحُ من الضَّروريِّ إرسالُ بشَرٍ رسولًا لهدايةِ البشَر أمثالَه، حتى يقدِّم لهم أُسوةً بأقوالِه وأفعالِه يمكنُ أن تكونَ وسيلةً لهدايةِ الآخَرين.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾

٧ ـ كان الكفّارُ يعتقِدونَ أنّهم لن يُبعَثوا من جديدٍ أحياءً بعدَ موتِهم، ولكنّ هذا كان مجرَّدَ اعتقادٍ منهم، وليس لديهِم أيُّ دليلٍ معقولٍ على ما يعتقدونَ، في حينَ أنّ الحقيقةَ هي أنهم سيُبعَثُونَ من جديدٍ أحياءً فعلًا.

وهناك دليلٌ على ذلك، وهو أنّ هذا هو ما كان يقولُه لهم الصَّادقُ الأمين، يعني: ذلك الذي لم يَكذِبْ أبدًا حتى في الظروفِ العاديّة، كيف يمكنُ أن يَكذبَ فيما يتعلَّقُ بكلام اللهِ تعالى؟

والدَّليلُ الثاني هو: أنّ الذي سيُحيينا ثانيةً يومَ القيامة هو اللهُ تعالى، واللهُ تعالى هو الذي خَلَق الناسَ جميعًا للمرّةِ الأولى، وبالتالي يصبحُ من السَّهلِ عليه أن يَخلُقَ ثانيةً مِثلَ هؤلاءِ الناسِ الذين خَلَقَهم من قبلُ.

والحِكمةُ في إحياءِ الخَلْق وبَعْثِهم من جديدٍ هي أن يُحاسَبَ كلُّ إنسانٍ على أعمالِه حسابًا كاملًا، فيَنالُ الثوابَ والعقابَ عليها طِبقًا لها؛ لأنّ بعضَ الأعمالِ تبقَى خافيةً في الدُّنيا لا يَعلمُ بها أحدٌ، وبعضُ أصحابِ القوة والنفوذِ يُفلتُونَ من العقابِ في الدُّنيا اعتمادًا على قوَّتِهم وتزييفِهم للحقائق، ولكنْ يومَ القيامةِ لن يبقى عمَلُ أحدٍ

خافيًا، إذ إنّ الله تعالى سيَكشِفُ أعمالَ الناسِ جميعًا، وسيقرِّرُ لهم الثوابَ والعقابَ طبقًا لهذه الأعمال.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

٨ ـ يعني: أنّ ما قرَأْتُموه في الآياتِ السّابقة من صفاتٍ لله تعالى، وعن المصيرِ السيِّئ للكفّار، يقتضي أنْ تؤمنوا باللهِ تعالى وبرسُولِه وبالنُّور الذي أُنزِلَ عليه، أي: بالقرآنِ الكريم، فإنْ لم تؤمنوا بعدَ كلِّ هذا فاعلَموا ـ جيِّدًا ـ أنّ الله تعالى يَعلمُ تمامَ العلم كلَّ أفعالِكمُ القبيحة، وأنكم لن تستطيعوا الإفلاتَ من العقابِ عليها.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾

٩ ـ قيلَ ليوم القيامة: «يومُ الجَمْع» لأنّ الأَوْلينَ والآخِرينَ سيُجمَعونَ في ذلك اليوم في ميدانٍ واحد، وقيلَ لذلك اليوم ـ يومِ «ظهورِ الخسارة» ـ: (التغابُنُ) لأنّ الكفّارَ والعُصاةَ سيَشعُرونَ في ذلك اليوم أنّهم أضاعوا حياتَهم في عصيانِ الله تعالى، واليومَ ظَهَر خسارةُ ذلك، وسيَشعُرُ أهلُ الإيمانِ في الجنّة بنَقْصٍ هم فيه، بمعنى: لو أنّهم زادوا في فعلِ الحسَنات في الدُّنيا لَكانت درَجاتُهم في الجنّةِ أرفعَ وأعلى ممّا هم فيه الآنَ، مثلَما وَرَد في سُورةِ «مريَمَ» من تسميةِ هذا اليوم بيوم الحَسْرة، ويقولُ العلّامةُ المَظْهَري في تفسيرِ هذه الآية: «أي: يومَ يتحسَّرَ الناسُ؛ المُسيءُ على إساءتِه والمُحسِنُ على قلةِ إحسانِه، ورَوى البَغَويُّ، عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِن أحدٍ يموتُ إلّا نَدِم»، قالوا: فما نَدَمُه يا رسولَ الله؟ قال: «إن كان مُحسِنًا نَدِم أنْ لا يكونَ ازداد، وإن كان مُسيئًا نَدِم أن لا يكونَ نَزَعَ»[١].

(١) التفسير المظهري، سورة مريم (١٩): الآية ٣٩.

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾

١٠ ـ كلُّ من يؤمنُ ويعملُ صالحًا تُغفرُ سيئاتُه ببركةِ حسَناتِه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

## الحسنات يذهبن السيئات

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنه سَمع النبيَّ ﷺ يقولُ: «أرأيتُم لو أنّ نَهرًا ببابِ أحدِكم، يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمسًا، ما تقولُ ذلك يُبقي من دَرَنِه؟»، قالوا: لا يبقي من دَرَنِه شيئًا. قال: «فذلك مَثَلُ الصَّلواتِ الخمس، يمحو اللهُ بها الخطايا»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو ذَرٍّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلَّم خَرَج زمنَ الشّتاء والوَرَقُ يتَهافت، فأخَذ بغُصنَيْنِ من شجرةٍ، قال: فجَعَل ذلك الورقُ يتهافَتُ، قال: فقال: «يا أبا ذرٍّ» قلتُ: لبَّيْك يا رسولَ الله. قال: «إنّ العبدَ المسلمَ لَيصلِّي الصّلاةَ يريدُ بها وجهَ الله، فتهافَتُ عنه ذنوبُه كما يتَهافَتُ هذا الورَقُ عن هذه الشّجرة»[٢].

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ

---

(١) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٦ برقم ٥٢٨.

(٢) مسند أحمد، ٥: ١٧٩.

ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾

١١ ـ خَلَق اللهُ تعالى هذه الحياةَ والموتَ للابتلاء، ولهذا فإنّ مَن تحُلُّ عليه مصيبةٌ تكونُ بإذنِ الله تعالى، وأحيانًا تكونُ هذه المصيبةُ عقابًا له على بعضِ أعمالِه السيِّئة، وأحيانًا يكونُ المقصودُ بها هو الابتلاءَ فقطْ.

وبعضُ الناس يَضْطَربُ في المصيبةِ ويَيْأَس، وبعضُ الناسِ يسيرُ على طريقِ الظُّلم والإيذاءِ بكلِّ تعنُّتٍ وصَلَف، لكنّ الذين يؤمنونَ بالله تعالى من صِدق قلوبِهم يَهدي اللهُ تعالى قلوبَهم، وهم يصبِرونَ على المصيبة، ويحاولونَ النَّجاةَ منها داعينَ الله تعالى بذلك؛ لأنّهم يكونونَ على يقينٍ من أنّ المصيبةَ تكونُ من الله تعالى، وهو ـ وحدَه ـ القادرُ على إبعادِها، وهكذا تكونُ المصيبةُ بالنِّسبة للصابرينَ عليها بمَثابةِ الوسيلةِ لرَفْع درجاتِهم.

## مصائب أهل الإيمان

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما يُصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا همٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذًى ولا غَمٍّ حتّى الشّوكةُ يُشاكُها، إلّا كفَّر اللهُ بها مِن خطاياه»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُصِبْ منه»(٢).

---

(١) البخاري، كتاب المرضى، باب ١ برقم ٥٦٤١.

(٢) البخاري، كتاب المرضى، باب ١ برقم ٥٦٤٥.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: «الدُّنيا سِجنُ المؤمن وجنّةُ الكافر»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا صُهَيبٌ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «عجبًا لأمرِ المؤمن، إنّ أمرَه كلَّه خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلّا للمؤمن، إن أصابَتْه سرّاءُ شَكَر فكان خيرًا له وإن أصابَتْه ضَرّاءُ صَبَر فكان خيرًا له»[٢].

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾

١٢ ـ يعني: أطيعوا اللهَ ورسولَه، فإنْ أعرَضْتُم فاعلَموا أنّ النبيَّ ﷺ قد أدَّى بكلِّ أمانةٍ مهمّةَ الدَّعوةِ والتبليغ التي عَهِدَ بها إليه، والآنَ سواءٌ عَمِل بها أحدٌ أم لا، فإنّ هذا ليس مسئوليّةَ النبيِّ، وإنما كلُّ إنسانٍ مسئولٌ عن عملِه، واللهُ تعالى لا يُجبِرُ أحدًا؛ لأنّ الإجبارَ يتنافَى معَ حِكمتِه.

ولها مفهومٌ آخَرُ أيضًا، وهو أنّ النبيَّ ﷺ قد بَلَّغكم الرِّسالةَ بكلِّ أمانة، والآنَ أصبح مسئوليّةُ الأُمةِ أن تُبلِّغَ رسالةَ الحقِّ هذه إلى كلِّ الأجيالِ القادمة إلى قيام الساعة، وأن لا تزيدَ فيها ولا تنقُص، ومن سيحاولُ إخفاءَ شيءٍ منها فإنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العلم ظاهرَ الناس جميعًا وباطنَهم، وسوف يُحاسبُهم على نواياهم ويُجازيهم عليها ثوابًا وعقابًا.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾

١٣ ـ التوكُّلُ على الله جزءٌ من الإيمان، يعني: أن يكونَ الإيمانُ راسخًا بأنّ حُكمَ الله قاطعٌ، وأنّ النجاحَ والفشَلَ بيدِ الله تعالى وحدَه، وحِكمةُ الله تعالى فاعلةٌ في كلٍّ منهما، كما أنّ الاعتمادَ الكُليَّ على الأسبابِ ـ اعتقادًا بأنّها كلُّ شيءٍ

(١) مسلم، كتاب الزهد، باب ٥٣ برقم ٧٤١٧.
(٢) مسلم، كتاب الزهد، باب ١٣ برقم ٧٥٠٠.

لحصولِ المطلوب ـ إنّما هو بمثابةِ العقيدةِ الشِّركيّة، وفي نفسِ الوقتِ فإنّ تَرْكَ الأسبابِ وادِّعاءَ التوكُّل ذنبٌ أيضًا، ولهذا يكونُ مفهومُ التوكُّل هو أن نجتهدَ في توفير وتهيئةِ الأسبابِ الضَّروريّة، ولكنْ لا نعتمدُ في النتائج على الأسباب، وإنّما نتوكّلُ على الله فقطْ، وبهذا تبقَى معنويّاتُ المسلمينَ وهِمّتُهم مرتفعةً، ويشمَلُهم اللهُ تعالى أيضًا بنُصرتِه، في حينَ أنّ الكافرَ يعتمدُ على الأسبابِ فقطْ، ويظَلُّ قَلِقًا بسببِ فقدانِه للطُّمَأْنينة الرُّوحانيّة، وإليك بعضَ الأمثلة في هذا الخصُوص:

## التوكل على الله

١ ـ حينَ كان النبيُّ ﷺ ينوي الخروجَ للحربِ، كان يستعدُّ لها، ويُشكِّلُ مجلسًا استشاريًّا لهذا الأمرِ، ويتخيَّرُ الزمانَ والمكانَ والطّريقَ والمجاهدينَ، وكذلك يتدبَّرُ أمرَ المطايا، وفي ميدانِ الحرب يتِمُّ تشكيلُ الجنودِ في صفوف، وباختصار: فإنه ﷺ كان يتدبَّرُ كلَّ الأسبابِ الضَّروريّة لتحقيقِ الانتصارِ في الحرب، ثم يرفَعُ يدَ السؤالِ إلى الله تعالى قائلًا: «اللّهُمّ... اهزِمْهم وانصُرْنا عليهم»(١).

٢ ـ عندَ الهجرة من مكةَ المكرَّمةِ إلى المدينةِ المنوَّرة أعَدَّ النبيُّ ﷺ الناقةَ للركوب، وكذا زادُ السَّفَر، كما اختار رفيقَ السَّفرِ أيضًا، ثم اصْطحبَ سيّدَنا أبا بكرٍ الصدِّيقَ رضي اللهُ تعالى في ظلام اللّيل ولَجَأ إلى غارِ ثَوْر، حتى لا يراهُ كفّارُ مكّةَ، وهكذا بعدَ الأَخْذِ بكلِّ الأسباب الماديّة الضَّرورية دَعا اللهَ قائلًا: «اللّهُمّ أعِنّي على هَوْل الدّنيا و بوائقِ الدَّهرِ ومصائبِ اللّيالي والأيّام، اللّهُمَّ اصحَبْني في سَفَري... وإلى النّاسِ فلا تَكِلْني»(٢).

وهكذا، عندَما خَرَجت جماعةٌ من كفّارِ مكةَ تبحثُ عن النبيِّ ﷺ، ووَصَلت

---

(١) البخاري، كتاب الجهاد، باب ١١٢ برقم ٢٩٦٦.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، المجلد الثاني: ٣: ١٧٨.

إلى بابِ غارِ ثَوْر، قال سيّدُنا أبو بكرٍ رضي الله عنهُ للنبيِّ ﷺ: لو أنّ أحدَهم نظَر تحتَ قدَميْهِ لأبصرَنا، فقال: «ما ظنُّك يا أبا بكرٍ باثنَيْنِ، اللهُ ثالثُهما؟»(١)، أي: فقال ﷺ مبيِّنًا التوكلَ على الله بألفاظٍ قاطعة: «ما ظنُّك يا أبا بكرٍ باثنَيْنِ، اللهُ ثالثُهما؟»، يعني: إنّنا قد أكمَلْنا الأَخْذَ بكلِّ الأسبابِ الممكنة وتوكَّلنا على الله، وهو الذي يحفَظُنا، وهكذا خَلَق اللهُ أسبابًا رآها الكفّارُ فعادوا من حيثُ جاءوا، وذلك حين قَيَّض حمامتَيْنِ ببَيْضِهما، وكذا شُبّاكُ العنكبوتِ على بابِ الغار، وبالتالي أنقَذَ اللهُ تعالى سيّدَنا محمدًا ﷺ وسيّدَنا أبا بكرٍ الصدِّيقَ رضي الله تعالى عنه من أيدي الكفّار.

٣ ـ عن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه، قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله، أَعقِلُها وأتوكّلُ أو أُطلقُها وأتوكّل؟ قال: «اعقِلْها وتوكّل»(٢)، حتى لا يسرقَها لصٌّ.

٤ ـ يقولُ سيّدُنا عُمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لو أنّكم كنتُم توَكَّلُونَ على الله حقَّ توكُّلِه لَرُزِقتُم كما تُرزَقُ الطَّير: تغدو خِماصًا وتَرُوحُ بِطانًا»(٣)، والمرادُ بالتوكُّلِ في هذا الحديث ليس تَرْكَ العمَل، وإنما فيه دليلٌ على بَذْلِ الجُهد والسَّعي من أَجْلِ الحصُولِ على الرِّزق، مثلَما أنّ الطُّيورَ تَخرُجُ أولًا باحثةً عن رِزقِها، وعندَئذٍ تعودُ في المساءِ مليئةً بطونُها، ولو بَقِيتِ الطيورُ في أعشاشِها ولم تَخرجْ منها لَما أتاها الرزقُ طائرًا إليها.

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: «الدّوابُّ هو: كلُّ ما دَبَّ من الحيَوان، فكلُّه لا يَحمِلُ رزقَه، ولا يَدَّخرُ إلّا ابنُ آدمَ والنَّملُ والفأر»(٤)، وهذه الأحياءُ الثلاثةُ تأكلُ قليلًا وتفكِّرُ كثيرًا في الجَمْع والتخزين.

---

(١) البخاري، فضائل الأصحاب، باب ٢ برقم ٣٦٥٣.

(٢) الترمذي، أبواب صفة القيامة، باب ٦٠ برقم ٢٥١٧.

(٣) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٣٣ برقم ٢٣٤٤.

(٤) تفسير القرطبي، سورة العنكبوت (٢٩): الآية ٦٠.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾

١٤ ـ إذا حَرَّضَكم أولادُكم وأزواجُكم على مَعصيةِ الله تعالى، أو أنّ محبَّتَكم لهم أغفَلتْكم عن الله تعالى، فإنّ هؤلاءِ الأولادَ والأزواجَ أعداءٌ لكم، ويمكنُهم أن يُفسِدوا آخرتكم، ولهذا عليكم أن تَحذَروهم، وأن تَنْجُوا من عصيانِ الله تعالى بسببِهم، ولو صَدَر خطأٌ من أولادِكم أو أزواجِكم، فلا يأخُذْكمُ الغضَبُ الشّديدُ إلى قَطْع علاقاتِكم بهم، وإنّما عليكم أن تَعْفُوا عنهم، وتُفهِمُوهم أن يتَجنَّبوا مِثلَ هذا الخطأِ مستقبَلًا، واللهُ تعالى سيَجزِيكم لقاءَ هذا العفوِ منكم بأنْ يرحمَكم، ويعفوَ عن سيّئاتِكم؛ لأنه هو العفوُّ الغَفور.

﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

١٥ ـ كما أنّ المالَ والأولادَ نعمةٌ من الله تعالى، يمكنُ أن يكونوا ابتلاءً للإنسانِ أيضًا، ومَن لا يعصي اللهَ تعالى انشغالًا بمحبّةِ مالِه وأولادِه فإنّ له عندَ الله أجرًا عظيمًا، أمّا مَن يعصي اللهَ تعالى انشغالًا بمالِه وأولادِه، فسيُحرَمُ من رحمةِ الله تعالى.

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾

١٦ ـ يعني: اجتهِدوا كثيرًا من ناحيتِكم في أن تَتَّقُوا اللهَ وتخشَوْه، والعمَلُ الذي يكونُ فوق طاقتِكم لن تُسأَلوا عنه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

١٧ ـ إن كنتُم تريدونَ فلاحَ الدارَيْنِ فأنفِقوا في سَبيل الله تعالى، ولا تبخَلوا؛ لأنّ البُخلَ مرضٌ يجعَلُ الإنسانَ أنانيًّا لدرجةٍ يقصِّرُ معَها في حقوقِ الله وحقوقِ

العباد، وينشغلُ في جَمْع المالِ دونَ تمييزٍ بينَ الحلالِ والحرام.

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «اتَّقوا الظُّلم؛ فإنّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامة، واتَّقوا الفُحشَ، فإنّ اللهَ لا يحبُّ الفُحشَ ولا التّفحُّشَ، وإيّاكم والشُّحَّ؛ فإنّه أهلَكَ مَن كان قبلَكم، أمَرَهم بالظُّلم فظَلَموا، وأمَرَهم بالفُجورِ ففَجَروا، وأمَرَهم بالقطيعةِ فقَطَعوا»[1].

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾

١٨ ـ إنْ أقرَضتُم اللهَ تعالى قرضًا حسَنًا، فسوف يُضاعِفُ لكم أجرَه أضعافًا مضاعفةً، وسوف تُغفَرُ سيّئاتُكم ببركتِه؛ لأنّ اللهَ تعالى أعظمُ مَن يُقدِّرُ العملَ الصالحَ، وهو يقدِّرُ الذين يعمَلونَ الصّالحاتِ تقديرًا صحيحًا.

## ما المراد بالقرض الحسن؟

المرادُ بالقَرْض الحَسَن: ذلك القرضُ الذي لا يتقاضَى عليه صاحبُه فائدةً أو ربحًا، على سَبيل المثال: لو أعطَى أحدٌ محتاجًا قرضًا حسَنًا بقيمةِ ألف جُنَيْه، فعلى مَن أخَذ القرضَ أن يُعيدَه إلى مَن أقرضَه في الوقتِ المحدَّد، والآنَ تخيَّلْ، إلى أيِّ مدًى يكونُ فضلُ الله تعالى وكرَمُه، إذ إنه هو الغنيُّ المستغني، ولا يحتاجُ إلى أحدٍ، فهو نفسُه الذي يُعطي المالَ للإنسان، ثم يقولُ له أنِ احتفِظْ بالجزءِ الأكبرِ من المالِ لنفسِك، ولكنْ أنفِقْ جزءًا منه لخيرِ الآخَرين، والفائدةُ هنا يَجْنيها بنو الإنسان، ولكنّ شأنَ كرمِ الله تعالى أن يتعهَّدَ به قرضًا حسَنًا عليه، وسيعيدُه إلى الإنسانِ أضعافًا مضاعَفةً في الوقتِ الذي يكونُ فيه الإنسانُ في أمسِّ الحاجةِ إليه.

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة الحشر (٥٩): الآية ٩.

يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «من تَصدَّقَ بعِدْلِ تمرةٍ من كَسْبٍ طيّبٍ ـ ولا يقبَلُ اللهُ إلّا الطّيّبَ ـ وإنّ اللهَ يتقبَّلُها بيمينِه، ثمّ يُربّيها لصاحبِه كما يربّي أحدُكم فُلُوَّه (أي: صدقةً قليلةً) حتّى تكونَ (أي: يومَ القيامة) مِثلَ الجبل»[1].

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة العصر من يوم الجمُعة ١٥ أكتوبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٦ ذي القعدة ١٤٣١هـ.**

**هذا وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سورة «التغابُن» في يومَيْنِ فقط، أي: من ١٣ إلى ١٥ أكتوبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيِّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.**



---

(١) البخاري، كتاب الزكاة، باب ٨ برقم ١٤١٠.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# (٦٥) سُورَةُ الطَّلَاقِ

هذه السُّورةُ مَدَنيّة، واسمُها: «الطَّلاقُ»؛ لأنها ذَكَرتْ مسائلَ الطَّلاق.

## الطلاق

مَرَّ بيانُ بعضِ مسائل الطَّلاقِ والعِدّةِ في سُورةِ البقرة وسُورةِ النِّساءِ وسُورة الأحزاب، وجاء بيانُ بعضِ المسائل الباقية في هذه السُّورة، على سَبيل المثال: الطّلاقُ يمكنُ إيقاعُه في الأيام التي أمَرَ اللهُ تعالى فيها بالطَّلاق، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما في تفسيرِ الآيةِ الأُولى من هذه السُّورة بأنْ «لا يُطلِّقَها وهي حائض، ولا في طُهرٍ قد جامَعَها فيه، ولكنْ يترُكُها، حتى إذا حاضَت وطَهُرت طَلَّقها تطليقةً»[1].

## العدة

جاء في الآيةِ الرابعةِ من هذه السُّورةِ بيانٌ لعِدّةِ ثلاثةِ أقسام من النِّساء:

١ ـ المرأةُ التي انقَطَع حَيْضُها بسببِ الشَّيخوخة، وعِدّتُها ثلاثةُ أشهر.

٢ ـ المرأةُ التي لم يأتِها المَحِيضُ بعدُ لصِغر سنِّها، وعِدّتُها ثلاثةُ أشهرٍ أيضًا.

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري، سورة الطلاق (٦٥): الآية ١.

٣ ـ المرأةُ الحامل، وعِدّتُها بالوَضْع، يعني: في اليوم الذي تَضَعُ فيه حَمْلَها، تنتهي عِدّتُها في هذا اليوم.

## الإيمان والعمل الصالح

بعد بيانِ مسائلِ الطَّلاق والعِدّة جاء التنبيهُ على المسلمينَ بأنْ يحافِظوا على حدودِ الله المقرَّرة، وأن يَعتبِروا من طُغيانِ الأُمم السّابقة ومن هلاكِهم، وأن يؤْمنوا بكلِّ إخلاصٍ من قلوبِهم، وأن يعمَلوا الصّالحاتِ حتى يستحِقُّوا الجنّةَ.

## قدرة الله تعالى

في الآيةِ الأخيرةِ من هذه السُّورةِ بيَّن اللهُ تعالى قُدرتَه، يعني: أنه خَلَق الأرضَ والسَّماءَ، وحُكمُ الله تعالى نافذٌ بينَهما، ولا يوجَدُ شيءٌ خارجَ حُكمِه، فإذا تأمَّلتُم نظامَ الكائناتِ هذا تيقَّنتُم من أنّ اللهَ تعالى قادرٌ على كلِّ شيء، وعِلمُه محيطٌ بكلِّ شيء.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة الظهر من يوم السبت ١٦ أكتوبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٧ ذي القَعْدة ١٤٣١هـ.**

* * *

# سُورَةُ الطَّلَاقِ (٦٥)،

## مدنية (٩٩)، آياتها (١٢)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا
تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ
وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا
بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟
ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ
مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ
جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ
ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ
يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ
لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ
أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم
بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ
فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾

١ ـ رَغْم أنّ الخطابَ في هذه الآيةِ للنبيِّ ﷺ، إلّا أنّ حُكمَها عامٌّ للأُمّةِ كلِّها، يعني: يا أيُّها المسلمونَ، عندَما تقرِّرونَ بجِدّيةٍ التطليقَ، فراعُوا عِدّةَ نسائكم، يعني: أن تُطلِقوا في الأيام التي أمَرَ اللهُ بالتطليقِ فيها.

## أيام التطليق

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عبّاس رضي الله عنهما ـ في تفسيرِ هذه الآية ـ: «لا يُطلِّقُها وهي حائضٌ، ولا في طُهرٍ قد جامَعَها فيه، ولكنْ يترُكُها حتى إذا حاضَتْ وطَهُرت طَلَّقها تطليقةً»(١).

ويقولُ سيّدُنا سالمٌ رضي الله عنه: إنّ سيّدَنا عبدَ الله بنَ عُمرَ رضي الله عنهما أَخْبر «أنّه طَلَّق امرأتَه وهي حائضٌ، فذَكَر عُمرُ لرسولِ الله ﷺ فتغيَّظَ فيه رسولُ الله ﷺ ثمّ قال: «ليُراجِعْها ثمّ يُمسِكْها حتّى تَطهُر، ثمّ تحيضَ فتَطهُرَ، فإنْ بدا له أن يُطلِّقَها فلْيطلِّقْها طاهرًا قبلَ أن يمَسَّها، فتلك العِدّةُ كما أمَرَه اللهُ»(٢).

## عدم التطليق في أيام الحيض

تَقِلُّ رغبةُ الزوجَيْنِ في بعضِهما أيامَ الحَيْض، فالرجلُ يكونُ محرومًا من الجِماع، والمرأةُ ليست في طبيعتِها العاديّة، فإذا وَقَع بينَ الزَّوجَيْنِ في هذه الأيام مُشادّةٌ كلاميّةٌ، فقد يَصِلُ الأمرُ إلى الطّلاقِ بسهولةٍ وسُرعة، ولهذا ينبغي للرَّجُل أنْ لا يُطلِّقَ في هذه الأيام، وإنّما ينتظرُ حتى تطهُرَ زوجتُه من الحَيْض، ومن الممكنِ أن يُعيدَ اللهُ تعالى إلى الزَّوجَيْنِ تلك الرَّغبةَ والجاذبيّةَ الطبيعيَّةَ، وذلك الحماسَ

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري، سورة الطلاق (٦٥)، الآية ١.

(٢) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الطلاق (١٥): باب ١ برقم ٤٩٠٨.

الذي خَمَد أثناءَ أيام الحَيْض، ويوافقُ الزَّوجانِ على البقاءِ معًا، كما أنّ الطلاقَ لو تمَّ أيامَ الحَيْض فإنّ هذا الحَيْضَ لا يُعَدُّ ضمنَ فترةِ العِدّة، وإنّما سيكونُ عليه انتظارُ ثلاثِ حَيْضاتٍ أُخْرَياتٍ، وبذلك تزيدُ عِدّةُ المرأة، بمعنى: أنّ عِدّةَ المرأةِ ستصبحُ أربعَ حَيْضاتٍ بدلًا من ثلاثٍ خلافًا لحُكم الله تعالى.

## التطليق قبل المباشرة في أيام الطهر

لو تَمَّ التطليقُ في طُهرٍ وَقَعتْ فيه المباشَرةُ، لا يَعلمُ أحدُ الزَّوجَيْنِ هل حَدَث الحَمْلُ بهذه المباشَرةِ أم لا؟ ومن الممكنِ ـ فعلًا ـ أن يكونَ الحَمْلُ قد حَدَث، وحينَ يَعلَمانِ ذلك بعدَ أن يتمَّ الطلاقُ يندَمان؛ تُرى كيف سيكونُ مستقبَلُ هذا الطِّفل؟ ولهذا لا ينبغي للزَّوج أن يُطلِّقَ في مِثلِ هذا الطُّهرِ الذي جامَعَ فيه زوجتَه.

## مكانة الطلاق وحيثيته

لو لم يُمكنِ الصُّلحُ بأيِّ شكلٍ من الأشكال بينَ الزَّوجَيْنِ برَغْم بَذْل الجهودِ المخلِصة في هذا الإطار، فإنّهما ينفصِلانِ بالطَّلاقِ أو بالخُلْع، واللهُ تعالى يتولَّى كلًّا منهما، فمنَ الممكنِ جدًّا أن يَجِدَ الزَّوجُ زوجةً أُخرى تُناسبُه، وتَجدُ الزَّوجةُ زوجًا آخَرَ يناسبُها.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أبغَضُ (الأعمالِ) الحلالِ إلى الله تعالى: الطَّلاقُ»[1]، ومعَ ذلك فقد أجازَه اللهُ تعالى؛ لأنه في بعض الأحيان تكونُ هناك ظروفٌ تجعَلُ من الخيرِ للزَّوجَيْنِ أن ينفصِلا عن بعضِهما.

---

(١) أبو داود، كتاب الطلاق، باب ٣ برقم ٢١٧٨.

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «تَزوَّجوا ولا تُطَلِّقوا، فإنّ الطّلاقَ يهتَزُّ منه العرشُ»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا مُعاذُ بن جَبَلٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال له: «يا مُعاذ، ما خَلَق اللهُ شيئًا على وَجْهِ الأرضِ أحبَّ إليه من العِتاقِ، ولا خَلَق اللهُ شيئًا على وَجْهِ الأرض أبغَضَ من الطَّلاق»(٢).

## حق الطلقات ثلاثًا

لم يكنْ للطَّلاقِ ولا للرُّجوع فيه في زمنِ الجاهليّةِ حدٌّ معيَّنٌ، فالمرأةُ التي يغضَبُ منها زوجُها، كان يُطلِّقُها مِرارًا، وفي كلِّ مرةٍ يُرجِعُها إليه قبلَ انتهاءِ العِدّة، وهكذا، فلا هو يَدَعُها تعيشُ في سلام، ولا هو يعطيها حرِّيتَها، وقد أَغْلق القرآنُ الكريمُ هذا البابَ من الظُّلم، وحَدَّد حقَّ الزَّوج في التطليق بثلاثِ مرّات، فيمكنُ له إرجاعُ زوجتِه إلى عصمتِه بعدَ أن يُطلِّقَها المرةَ الأُولى والمرّةَ الثانيةَ، وهذا وقتٌ كافٍ لكي يُعيدَ الزَّوجُ النظرَ في قرارِه، ولكنْ إن طَلَّقها الثالثةَ فهذا دليلٌ على أنه لا يريدُ الاحتفاظَ بهذه الزَّوجةِ بأيِّ صُورةٍ من الصُّور، ولم يَعُدْ من حقِّه الرُّجوعُ إليها، وفي مِثل هذا الموقفِ الحَرِج أيضًا يُرشدُ القرآنُ الكريمُ الزَّوجَ إلى أن يُحسنَ معاملةَ الزّوجة عندَ تطليقِها للمرّةِ الأخيرة، فإذا طَلَّقها فلا يَستردُّ منها ما أعطاه لها من صَداقٍ وهدايا، بل على العكس، إنِ استطاع قَدَّم لها المزيدَ إرضاءً لخاطرِها وتطييبًا لنفسِها.

## أقسام الطلاق

الطَّلاقُ عندَ الأحنافِ ثلاثةُ أقسام:

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الطلاق (٦٥): الآية ١.

(٢) مشكاة المصابيح، كتاب النكاح، باب الخلع والطلاق برقم ٣٢٩٤.

## الطَّلاقُ الأحسَن

وهو: أن يُطلِّقَ الزَّوجُ زوجتَه في طُهْرٍ لم يَقرَبْها فيه، ثم لا يُطلِّقَها الثانيةَ حتى تنتهيَ عِدّتُها؛ لأنّ النِّكاحَ يَبطُلُ بعدَ انقضاءِ العِدّة، وهذه هي أفضَلُ طريقةٍ في الطّلاق؛ لأنه يكونُ للرَّجُل حقُّ الرُّجوع في خلالِ فترةِ العِدّة، وبعدَ انتهاءِ العِدّة يمكنُ أن يتزَّوجا من جديدٍ بالاتِّفاقِ فيما بينَهما.

## الطَّلاقُ الحَسَن

وهو: أن يُطلِّقَ الزَّوجُ زوجتَه في طُهْرٍ لم يُباشِرْها فيه، وعندَما تمُرُّ حَيْضةٌ يُطلِّقُها الطَّلقةَ الثانيةَ دونَ أن يُباشرَها، وحينَ تنقضي الحَيْضةُ الثانيةُ يُطلِّقُها الثالثةَ دونَ مباشَرتِها، وحين تنقضي الحَيْضةُ الثالثةُ يَبطُلُ النِّكاحُ.

وهذه الطّريقةُ في الطلاقِ حسَنةٌ أيضًا؛ لأنه يكونُ من حقِّ الرَّجُل الرُّجوعُ في الطّلاقِ قبلَ الطَّلقةِ الثالثة، ولكنْ بعدَ الطَّلقةِ الثالثةِ لا يستطيعُ الرَّجلُ إعادةَ زوجتِه إليه، كما لا يستطيعُ أن يَنكِحَها كذلك، إلا أنّ هذه المرأةَ يمكنُها أن تتزوَّجَ برجُلٍ آخَرَ، وتعيشَ معَه، ويُجامعَها أيضًا، فإذا طَلَّقَها الزَّوجُ الثاني بعدَ ذلك برغبتِه، أو مات عنها، يجوزُ لزوجِها الأوّلِ عندَئذٍ أن يَنكِحَها، بشَرْطِ أن يَغلِبَ على ظَنِّ كلٍّ منهما أنهما سيؤدِّيانِ حقوقَ الزَّوجيّة كما يجبُ في هذه المرة، أمّا إذا أراد شخصٌ أن يُحلِّلَ زوجتَه التي طَلَّقها ثلاثًا، بأن يزوِّجَها لشخصٍ آخَرَ يَشترِطُ عليه أن يُطلِّقَها بعدَ الزواج، فإنّ هذا غيرُ جائزٍ من أساسِه، ولا يمكنُ أن تسمحَ به نفسُ إنسانٍ لديه كرامة.

## الطَّلاقُ البِدْعيُّ

وهو: أن يُطلِّقَ الزَّوجُ زوجتَه في طُهْرٍ باشَرَها فيه، أو أن يُطلِّقَها ثلاثًا في مجلسٍ واحد، أو أن يُطلِّقَها في أيام الحَيْض، كلُّ هذه من أشكالِ الطلاقِ البِدْعيِّ، وأيًا كانت صورةُ الطّلاقِ البِدْعيِّ فإنّ المطلِّقَ مذنبٌ، لكنّ الطلاقَ يقَعُ.

## ملحوظة

الأقسامُ الثلاثةُ السّابقةُ من الطَّلاق (يعني: الطلاقَ الأحسَنَ والطَّلاقَ الحَسَنَ والطَّلاقَ البِدْعيَّ) تتعلَّقُ بالمرأةِ التي يأتيها الحَيْضُ، وتمَّت مباشَرتُها، ولم يَظهَرْ لها حَمْلٌ، لكنّ المرأةَ التي توقَّف حَيْضُها بسببِ الشَّيخوخة، أو أنّ الحَيْضَ لم يأتِها أصلًا بسببِ صِغَرِ سنِّها، فإنه يمكنُ تطليقُها بعدَ المباشَرةِ أيضًا؛ لأنه ليس لديها إمكانيّةٌ للحَمْل، أمّا المرأةُ التي لم يُباشِرْها زَوْجُها أصلًا فيمكنُ تطليقُها في أيام الطُّهرِ والحَيْضِ على السَّواء، وإذا كانتِ المرأةُ حاملًا يمكنُ تطليقُها بعدَ المباشَرةِ أيضًا؛ لأنه قد تأكَّد أنها حاملٌ، والطريقةُ الأفضَلُ لتطليقِ أمثالِ هؤلاءِ النِّساءِ هو أن يُطلِّقَها مرةً واحدةً فقطْ، ثم تنفصلَ عنه بعدَ مُضيِّ العِدّة، أمّا الطريقةُ الحسَنةُ لذلك فهي أن يُطلِّقَها مرةً بعدَ كلِّ شهر، وبعدَ مرورِ الشهورِ الثلاثةِ تنفصلُ عنه المرأةُ.

﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾

٢ ـ المرادُ بالعِدّة: تلك الأيامُ التي تُمضيها المرأةُ بعدَ طلاقِ زوجِها لها، أو بعدَ وفاتِه عنها، وينبغي أن تُحْصُوا أيامَ العِدّةِ جيِّدًا؛ لأنّ المرأةَ تستطيعُ الزَّواجَ بآخَرَ بعدَ انقضاءِ العِدّة، بينَما يستطيعُ زوجُها إرجاعُها إليه خلالَ الطَّلقةِ الأُولى والطَّلقةِ الثانية، فإذا لم تَحفَظوا فترةَ بدايةِ العِدّة أو انتهائها ولم تتذكَّروها، فقد يؤدِّي ذلك إلى تعقيداتٍ في مسألةِ زَواج المرأةِ بآخَرَ، أو في مسألةِ رجوعِها إلى زَوْجِها خلالَ الطَّلقةِ الأُولى والثانية.

## مدة العدة

ـ المرأةُ التي يأتيها الحَيْضُ، وباشَرَها زوجُها، وليست حاملًا، فعِدّتُها ثلاثُ حَيْضات.

- إذا طُلِّقتِ المرأةُ قبلَ الجِماع أصلًا فلا عِدّةَ لها، ويُمكنُها أن تتزوَّجَ بآخَرَ وقتَما تشاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

- المطلَّقةُ التي لا يأتيها الحَيْضُ لشَيْخوخةٍ أو صِغَرِ سنٍّ عِدّتُها ثلاثةُ أشهر: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤].

- لو كانتِ المطَلَّقةُ حاملًا فعِدّتُها وَضْعُ الحَمْل: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

- المرأةُ التي مات عنها زَوْجُها عِدّتُها أربعةُ شهورٍ وعشَرةُ أيام: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وعلى كلِّ امرأةٍ أيًّا كانت أن تقضيَ هذه المدّة حُزنًا على زوجِها، ما عدا الحاملَ، فإنّ عِدّتَها بوَضْع الحَمْل.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾

٣ - هنا تنبيهٌ بصفةٍ خاصّةٍ للزَّوج والزَّوجة، وهو أن يتَّقيَ كلٌّ منهما اللهَ تعالى في أمورِ الطّلاقِ والعِدّة، يعني: أن يُطلِّقوا بالطّريقةِ الأحسَنِ أو الحسَنة، وأن يُحصُوا العِدّةَ بكلِّ احتياطٍ وحَذَر، وألّا يكذِبَ كلٌّ منهما على الآخَر في شيءٍ؛ لأنّهما سيَمثُلانِ - ذاتَ يوم من الأيام في النِّهاية - أمامَ ربِّهما، وهو يَعلمُ تمامَ العلم أعمالَ الجميع وأحوالَهم.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾

٤ ـ هنا أمرٌ للرِّجالِ بأنْ لا يُخرِجوا أزواجَهنَّ من بيوتِهنَّ فَوْرَ تطليقِهنَّ، ولا ينبغي للمرأةِ أن تَخرُجَ من البيتِ فَوْرَ الطّلاق، وإنّما عليها أن تقضيَ عِدّتَها في هذا البيت؛ لأنّ مسئوليّةَ طعامِها وشرابِها وكُسوتِها ومسكَنِها على الزَّوج، كما أنّ من الممكنِ في حالةِ بقائِها في البيتِ أن تتولَّدَ المحبّةُ في قلبَيْهِما من جديدٍ، فيعُودانِ إلى بعضِهما في حالةِ الطّلاقِ الرَّجْعي، ويَرجِعُ الزَّوجُ عن طلاقِه، أمّا إذا كانتِ المرأةُ قد خَرَّبت بيتَها بارتكابِها الفاحشةَ، أو بسَلاطةِ لسانِها، فللزَّوج عندَئذٍ الحقُّ في إخراجِها من البيت، وبنفسِ الطريقة، فإنّ المرأةَ التي طُلِّقتْ ثلاثًا ينبغي لها أن تَخرُجَ من بيتِ زوجِها السّابق؛ لأنه لا يَجوزُ له الآنَ مُراجعتُها.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾

٥ ـ الأحكامُ السّابقةُ هي تلك الحدودُ التي قرَّرها اللهُ تعالى، ومَن يتَعدَّى هذه الحدودَ من الزَّوجَيْنِ فقد ظَلَم نفسَه، وسيكونُ من الخاسِرينَ في الدُّنيا والآخرة، أمّا الزَّوجانِ اللَّذانِ يُحافظانِ على حدودِ الله ولا يتَعدَّيانِها سيُهيِّئُ اللهُ لهما ظروفًا أفضَلَ، يعني: من الممكِن ـ في حالةِ الطّلاقِ الرَّجْعيِّ ـ أن يشعُرَ كلٌّ منهما بخطأِه، ويَرجِعَ الزَّوجُ عن الطّلاق، وبهذا يَعمُرُ بيتُهما من جديدٍ، وفي حالةِ الطّلاقِ البائن من الممكنِ أن يُهيِّئَ اللهُ لكلٍّ منهما رفيقًا أفضَلَ من سابقِه.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾

٦ ـ عندَما تقتربُ العِدّةُ في صُورةِ الطّلاقِ الرَّجْعيِّ من الانقضاءِ، عليك أن تُعيدَ النظرَ بكلِّ جِدِّيّةٍ فيما قرَّرتَ، وإذا أردتَ الاحتفاظَ بزوجتِك بنيّةٍ خالصةٍ فارجعْ

عن الطَّلاقِ قبلَ انقضاءِ العِدّة، وواصِلا حياتكما معًا في محبّةٍ متبادَلة، أما إذا كنتَ لا تريدُ ذلك فعليكُما الانفصالَ بهدوءٍ ومعروف، وتجنَّبا الإساءةَ والمُعايَرةَ والتشنيعَ والشِّجارَ والخِصامَ وما إلى ذلك، بل عليكَ إذا استطعتَ أن تُعينَها ببعضِ المالِ حتى لا تُواجهَ مشاكلَ بعدَ الانفصالِ فافعَلْ.

﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾

٧ - عندَما تُطلِّقُ زوجَتك أو تُراجِعُها عليكَ أن تشهَدَ في الحالتَيْنِ شاهدَيْنِ معتبَرَيْنِ موثوقٍ في نزاهتِهما، ورَغْم أنّ اتِّخاذَ شاهدٍ ليس فرضًا، ويمكنُ التطليقُ والمراجعةُ بغيرِ شهودٍ كذلك، لكنّ اتِّخاذَ شاهدٍ هو الأفضَلُ، حتى إذا حَدَث اختلافُ بيْنَ الطَّرفَيْنِ، ونَتَج عنه نِزاعٌ، يمكنُ الفَصْلُ في الأمرِ بسهولة، وإذا مَسَّت الحاجةُ إلى شهودٍ فعلى الشهودِ أن يتَّقوا اللهَ تعالى، وأن يشهَدوا شهادةَ حقّ.

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾

٨ - الذي يؤمنُ باللهِ تعالى وباليوم الآخِر، عليه أن يتَّقيَ اللهَ دائمًا، وأن يعمَلَ بأحكامِه عزَّ وجَلّ مهما كانتِ الصُّعوباتُ في ذلك، فإنْ فَعَل فإنّ اللهَ تعالى يُهيِّئُ له أسبابَ النَّجاةِ من هذه الصُّعوباتِ، ويَرزُقُه من حيثُ لم يكنْ يتصوَّرُ أن يأتيَه الرِّزقُ من هناك.

- يقولُ سيّدُنا أبو ذَرٍّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّي لَأعرِفُ كلمةً - وقال عثمانُ: آيةً - لو أخَذ النّاسُ كلُّهم بها لَكفَتْهم». قالوا: يا رسولَ الله، أيّةُ آيةٍ؟ قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[1].

(١) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٢٤ برقم ٤٢٢٠.

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنهما: نَزَلت في عَوْفِ بن مالكٍ الأَشْجَعيِّ، أَسَر المشركونَ ابنًا له يُسمَّى سالمًا، فأتَى رسولَ الله ﷺ وشَكا إليه الفاقةَ وقال: إنّ العدوَّ أَسَر ابني وجَزِعَتِ الأُمُّ، فما تأمُرُني؟ فقال عليه السّلام: «اتَّقِ اللهَ واصبِرْ، وآمُرُك وإيّاها أن تَستكثِرا من قول: لا حولَ ولا قوّةَ إلّا بالله». فعاد إلى بيتِه وقال لا مرأتِه: إنّ رسولَ الله ﷺ أمَرَني وإيَّاكِ أن نَستكثرَ من قولِ: لا حولَ ولا قوّةَ إلّا بالله. فقالت: نِعْمَ ما أَمَرنا به. فجَعَلا يقُولان، فغَفَل العدوُّ عن ابنِه، فساق غَنَمَهم وجاء بها إلى أبيه، فنَزَلتِ الآيةُ[1].

ـ يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «استكثِروا من لا حولَ ولا قوّةَ إلّا بالله، فإنّها تَدفَعُ تسعةً وتسعينَ بابًا من الضُّرِّ، أدناها الهَمُّ»[2].

ـ يقولُ القاضي ثناءُ الله باني بتي في تفسيرِ هذه الآية: «اختار المجدِّدُ لجَلْبِ المنافع ودَفْع المضارِّ: الدِّينيّةِ والدُّنيَويّة إكثارَ لا حولَ ولا قوّةَ إلّا بالله، وعَيَّن في مقدارِ الإكثارِ أن يَقرَأَها في كلِّ يوم خمسَمائة مرةٍ ويصلِّيَ على النبيِّ ـ ﷺ ـ قبلَه مائةَ مرةٍ وبعدَه مائةَ مرة»[3].

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾

٩ ـ المؤمنُ الذي يَبذُلُ قُصارى جُهدِه في أمرٍ ما، ثم يتوكَّلُ على الله في النتائج، فإنّ اللهَ تعالى حَسْبُه وهُو يَكفيه، فاللهُ تعالى قادرٌ مطلَق، يفعَلُ ما يشاء، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يمنَعَه من شيء، ولكنّ كلَّ شيءٍ مكتوبٌ ومقدَّرٌ من قَبْلُ في اللَّوح

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الطلاق (٦٥): الآية ٢.

(٢) الجامع الصغير، الإمام جلال الدين السيوطي، ١: ٦٧.

(٣) التفسير المظهري، سورة الطلاق (٦٥): الآية ٢.

المحفوظِ وفي علم الله تعالى، ويَظهَرُ في الوقتِ المحدَّد له طِبقًا لذلك. ولمزيدٍ من التفصيل عن التوكُّل على اللهِ تعالى راجع الحاشيةَ رقم **١٣** للآيةِ رقم **١٣** من السُّورةِ السابقة، أي: سُورةِ «التغابُن».

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ ﴾

**١٠** ـ جاء في هذه الآيةِ ذِكرُ ثلاثةِ أقسام من النِّساء:

١ ـ المرأةُ التي انقطَع حَيْضُها بسببِ الشّيخوخة، وعِدّتُها ثلاثةُ أشهر.

٢ ـ المرأةُ التي لم يأتِها المَحِيضُ بعدُ لصِغَرِ سنِّها، وعِدّتُها ثلاثةُ أشهرٍ أيضًا.

٣ ـ المرأةُ الحاملُ، وعِدّتُها بالوَضْع، يعني في اليوم الذي تَضَعُ فيه حَمْلَها، تنتهي عِدّتُها في هذا اليوم.

﴿ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾

**١١** ـ من يَتَّقِ اللهَ تعالى، ويُواصِلِ العمَلَ بأحكامِه رَغْم مواجهتِه الصُّعوباتِ في سَبيل ذلك، فإنّ اللهَ تعالى يهيِّئُ له أسبابَ التيسير في أمورِه، ويمحو سيِّئاتِه، ويضاعفْ ثوابَ حسَناتِه.

﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ ﴾

**١٢** ـ عندَ الأحنافِ تقَعُ مسئوليّةُ طعام وشرابِ وكُسوةِ كلِّ امرأةٍ في فترة العِدّة على الزَّوج، أمّا المرأةُ التي تقضي عِدّةَ طلاقٍ رَجْعيٍّ، فينبغي للزّوج أن يُبقيَ عليها في بيتِه، وأن لا يتعمَّدَ إيذاءها بنيّةِ أن تَضِيقَ ذَرْعًا بالوَضْع وتترُكَ البيتَ مُضْطرَّةً، إذ

إنّ من الممكِن ـ بفَضْل البقاءِ معًا في فترةِ العِدّةِ هذه ـ أن يَثُورَ بداخلِهما الحَماسُ الطبيعيُّ لمُواصلةِ الحياة، فيَتَّفِقا على الرُّجوع، ويَعمُرَا البيتَ الذي كان في طريقِه إلى الخرابِ من جديدٍ، أمّا المرأةُ التي طُلِّقت ثلاثًا، فقد أصبحت مُراجعتُها غيرَ ممكنة، ولذلك ينبغي للزّوج في مِثلِ هذه الحالةِ أن يُدبِّرَ لها مسكَنًا مناسبًا منفصِلًا حسَبَ استطاعتِه؛ لأنه إذا ثار بداخِلهما الحماسُ الطبيعيُّ للحياة، فإنّ الشريعةَ لا تسمَحُ لهما بالمباشرة.

﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾

١٣ ـ عِدّةُ المرأةِ الحاملِ: بوَضْع الحَمْل، ولهذا فإنّ مسكَنَ وكُسوةَ وطعامَ وشرابَ مِثل هذه المرأةِ ـ حتى وَضْع الحَمْل ـ يكونُ على الرَّجُل، وحين يولَدُ الطِّفلُ تكونُ مسئوليّةُ إرضاعِه وتربيتِه على الأب، وبانقضاءِ العِدّة لا تبقى أُمُّ الطِّفل في عصمتِه، وتصبحُ أجنبيّةً عنه، وبالتالي لا يستطيعُ أبو الطِّفلِ إجبارَ أُمِّه على إرضاعِه، فإذا رَضِيَتْ بإرضاع الطِّفل فعلى الرجُلِ أن يؤدِّيَ لها أجرًا مناسبًا على ذلك طبقًا لاستطاعتِه، وعلى المرأةِ ألّا تطالبَه بأكثَر من طاقتِه، ولهذا ينبغي لهما أن يحدِّدا هذا الأَجْرَ المناسبَ بالتشاورِ معًا، فإذا لم يمكن الاتِّفاقُ فيما بينَهما على الأَجْر، يمكنُ للرجلِ أن يَستأجرَ امرأةً أخرى لإرضاع الطفل.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾

١٤ ـ على الرجُلِ إن كان مُوسِرًا أن يُعطيَ أَجْرَ الإرضاع بكَرَمٍ وسَخاء، أمّا إن كان مُعسِرًا فعليه أن يُنفقَ طِبقًا لاستطاعتِه، واللهُ تعالى لا يُكلِّفُ نفسًا إلّا وُسعَها.

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾

١٥ ـ لا ينبغي للشّخصِ المعسِرِ أن يَيْأسَ أو يُصيبَه إحباطٌ، وإنّما عليه أن يُواصلَ جهودَه باستقامةٍ، وأن يأمُلَ من اللهِ تعالى أن يُنعِمَ عليه بسَعةٍ في رزقِه.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾

١٦ ـ في هذه الآياتِ تنبيهٌ للمسلمينَ بأنّ الأُمَم التي أعرَضَت عن أحكام الله تعالى وأحكام رسُولِه وتمرَّدتْ عليها ولم تَرجِعْ عن الكُفرِ والشِّركِ والظّلم والطُّغيان، عاقَبَها اللهُ تعالى عقابًا شديدًا، وكان مصيرُها مُرعبًا ومُخيفًا، بحيثُ أنّهم لم يَنالوا غيرَ الخسارةِ والنَّدم، وكان هذا مصيرَهم في الدُّنيا، أمّا في الآخرةِ فينتظرُهم العذابُ الأليم.

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾

١٧ ـ على أهلِ الإيمانِ أن يَعتبروا من الخسارةِ التي لَحِقتْ بالأقوام السّابقةِ التي تمرَّدت على رسُلِها وأعرَضَتْ عنهم، فقد أرسَلَ اللهُ تعالى إليكم رسُولًا

مُخلَصًا لكم، يَنصَحُكم ويَعِظُكم، ويَتْلو عليكم آياتِ الله تعالى، حتى يُخرجَكم من ظلُماتِ الكُفرِ والظُّلمِ إلى نُورِ الإيمانِ والسَّلام، ولهذا عليكم أن تتَّقوا اللهَ تعالى، وتؤمنوا ـ بصِدقٍ ـ من قلوبِكم، وتعمَلوا الصّالحات، وسوف يُدخلُكم اللهُ تعالى في مقابلِ هذا جنّاتٍ خالدةً، وهذا أفضَلُ رزقٍ للمؤمن وخيرُ إنعام له.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ ﴾

١٨ ـ مثلَما خَلَق اللهُ تعالى السماوات، خَلَق الأرضَ كذلك، وحُكمُ اللهِ تعالى نافِذٌ فيما بينَهما، ولا يوجَدُ شيءٌ خارجَ حُكمِه، ولئن تدبَّرتُم نظامَ الكائناتِ هذا لَتيقَّنتُم من أنّ اللهَ تعالى قادرٌ على كلِّ شيء، وعِلمُه مُحيطٌ بكلِّ شيء.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ فجر يوم الأربعاء ٢٠ أكتوبر ٢٠١٠م**
**الموافق ١١ ذي القَعْدة ١٤٣١هـ.**

هذا وقدِ اكتَمل بفَضْل الله تعالى وكرمِه تفسيرُ سُورة «الطلاق» في أربعةِ أيام فقط، أي: من ١٦ إلى ٢٠ أكتوبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

# (٦٦) سورة التحريم

هذه السُّورةُ مَدَنيّة، واسمُها: «التحريم»، وهو مأخوذٌ من جُملة ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ من الآيةِ الأُولى منها.

## الحنث في القسم

جاء في بدايةِ هذه السُّورةِ الإخبارُ بأنه لو أَقْسم أحدٌ على عَدَم تناوُلِ طعام حلالٍ، فعليه أن يَحنَثَ في قَسَمِه هذا، يعني: أنْ يأكُلَ ما قد أَقْسم على عَدَم أكلِه، ثم يؤدِّيَ الكَفّارةَ.

## الأزواج المطهرات رضي الله عنهن

في الآيةِ الثالثةِ والرابعةِ والخامسةِ من هذه السُّورة تعليمُ الأدبِ لأزواج النبيِّ ﷺ المطَهَّرات، بأنّكُنَّ سُعَداءُ الطّالع، إذْ منَحكنَّ اللهُ تعالى شَرَفَ أن تكُنَّ زوجاتِ سيِّدِ كلِّ الأنبياءِ السابقينَ عليهمُ السَّلام، وبالتالي فإنّ هذا الشَّرفَ العظيمَ يقتضي منكُنَّ أن لا تُقصِّرْنَ مطلَقًا في الحصولِ على رضى رسولِ الله ﷺ، ولو حَدَث مِنكُنَّ تقصيرٌ في هذا الخصُوص يَجعَلُ النبيَّ ﷺ يحرِمُكُنَّ من شَرَفِ كونِكُنَّ زوجاتِه، فإنّ في هذا خسارةً عظيمةً لكُنَّ، أمّا النبيُّ ﷺ فسيُنعِمُ اللهُ تعالى

عليه بزوجاتٍ أفضَلَ منكُنَّ. ورَغمَ أنّ زوجاتِ النبيِّ ﷺ أفضَلُ من كلِّ نساءِ العالَم، لكنْ لو طلَّقهُنَّ النبيُّ ﷺ ـ معاذَ الله ـ بسببِ إغضابِهنَّ له، وتزوَّجَ غيرَهُنَّ، لَكانت هذه الزَّوجاتُ الأُخرَياتُ أفضَلَ منَ السّابقات[1].

## اتقوا النار

في الآيةِ السادسةِ من هذه السُّورةِ جاء الحُكمُ لأهل الإيمانِ أنْ جَنِّبوا أنفُسَكم وأهليكُم وأطفالَكم وزوجاتِكم النارَ، وأَنْقِذوهم منها، وعندَما نَزَلت هذه الآيةُ قال سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه، لرسولِ الله ﷺ: يا رسولَ الله، نَقِي أنفُسَنا، فكيف لنا بأهلينا؟ فقال: «تَنهَوْنَهم عمّا نَهاكمُ الله، وتأمُرونَهم بما أمَرَ الله»[2].

## توبوا إلى الله

جاء في الآيةِ رقم ٨ من السُّورةِ بيانٌ لأهميّةِ التّوبة وفَضْلِها.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «التّائبُ من الذَّنبِ كمَن لا ذَنْبَ له»[3].

## مثال النساء المؤمنات والكافرات

في نهايةِ هذه السُّورة جاء مِثالٌ لامْرأتَيْنِ أقامَتا على الكُفرِ رَغْمَ أنّ زوجَيْهِما كانا نبيَّيْنِ، كما جاء مِثالٌ لامْرأتَيْنِ مؤمنتَيْنِ ثبتَتا على الإيمانِ رَغْم ما واجَههما من مصاعبَ ومُشكلاتٍ، وعن طريقِ هذه الأمثِلةِ يكونُ ترغيبُ أهلِ الإيمانِ

---

(١) تفسير نور العرفان.

(٢) تفسير القرطبي، الآية ٦.

(٣) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٠ برقم ٤٢٥٠.

من النِّساءِ بأن يَثبُتْنَ على إيمانِهنَّ، وعندَما يواجِهْنَ مشكلاتٍ عليهِنَّ أن يتذكَّرْنَ المشكلاتِ التي واجَهَتِ السيِّدةَ آسِيَةَ من قَبْلِهنَّ.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة المغرب من يوم الأربعاء ٢٠ أكتوبر ٢٠١٠م**
**الموافق ١١ ذي القَعْدة ١٤٣١هـ.**

❋ ❋ ❋

# سُورَةُ التَّحْرِيمِ (٦٦)،

## مدنية (١٠٧)، آياتها (١٢)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

١ ـ ما هو الشَّيءُ الذي مَنَع النبيَّ ﷺ نفسَه من تناوُلِـه، وكان سببًا في نزولِ هذه الآيةِ؟ هناك روايتانِ تُذكَرانِ في هذا الشَّأن، وأنا هنا أَذكُرُ الرِّوايةَ التي رأى العلّامةُ القُرطبيُّ أنّها الراجِحةُ والأقرَبُ إلى الصِّحة، وهذه الروايةُ مذكورةٌ في كُتبِ الأحاديثِ معَ اختلافٍ في الألفاظ، وخلاصتُها أنّ النبيَّ ﷺ كان معتادًا على أن

يذهَبَ إلى حُجُراتِ زوجاتِه بعدَ صلاةِ العصر، ويَسألُ عن أخبارِهم وهُو واقف.

تقولُ السيِّدةُ عائشةُ أُمُّ المؤمنينَ رضي الله عنها: إنّ النّبيَّ ﷺ كان يَمكُثُ عند زَيْنبَ بنتِ جَحْشٍ فيشربُ عندَها عسلًا (وهكذا كان ﷺ يمَكُثُ عندَ السيّدةِ زَيْنبَ رضي الله عنها وقتًا أطولَ، وكانت نساءُ النبيِّ ﷺ جميعًا يُحببْنَه كثيرًا، وكلَّما زادتِ المحبّةُ زادتْ معَها الغَيْرة)، قالت: فتواطَأْتُ أنا وحَفْصةُ أنّ أيَّتَنا ما دَخَل عليها رسولُ الله ﷺ فلْتقُلْ: إنّي أجِدُ منكَ رِيحَ مَغافير! أكلتَ مَغافيرَ؟ (والمغافيرُ: عسلٌ يخرُجُ من شجرةٍ معيَّنة وله رائحةٌ كريهة)[1]، فدَخَل على إحداهُما فقالت لهُ ذلك. فقال: «بل شَربتُ عسَلًا عندَ زينبَ بنتِ جَحْشٍ ولن أعودَ له». فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ (أي: لعائشةَ وحَفْصَة)، و﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ لقولِه: «بل شربتُ عَسَلًا».

وعنها أيضًا، قالت: كان رسولُ الله ﷺ يُحبُّ الحَلْواءَ والعسَلَ، فكان إذا صَلّى العصرَ دارَ على نسائه فيَدْنو منهُنَّ، فدَخَل على حَفْصةَ فاحتبَس عندَها أكثر ممّا كان يَحتبسُ، فسألتُ عن ذلك فقيل لي: أَهْدَتْ لها امرأةٌ من قومِها عُكَّةً من عسلٍ، فسَقَتْ رسولَ الله ﷺ منه شربةً. فقلت: أمَا والله لَنحتالَنّ له، فذَكَرتُ ذلك لسَوْدةَ وقلتُ: إذا دَخَل عليكِ فإنّه سيَدْنو منكِ فقولي له: يا رسولَ الله، أكلتَ مَغافيرَ؟ فإنّه سيقولُ لك: لا. فقولي له: ما هذه الرّيح؟ ـ وكان رسولُ الله ﷺ يشتَدُّ عليه أن يوجَدَ منه الرِّيح ـ فإنه سيقولُ لكِ: سقَتْني حَفْصةُ شربةَ عسلٍ. فقولي له: جَرَسَتْ نَحْلُه العُرْفُطَ[2]. وسأقولُ ذلك له، وقوليه أنتِ يا صَفِيّةُ. فلمّا دَخَل على سَوْدةَ، قالت: تقولُ سَوْدةُ: واللهِ الّذي لا إلهَ إلّا هو، لقد كِدتُ أن أُبادئَه بالّذي قلتِ لي، وإنّه لَعلى

---

(١) مفرده مغفور، بالضم. مسند أحمد (الحاشية).

(٢) جرست: أكلت. والعرفط، بضم العين وسكون الراء وضم الفاء: شجر له صمغ كريه الرائحة، فإذا أكلته النحلة حصل في عسلها من ريحه. مسند أحمد (الحاشية).

الباب، فَرَقًا منكِ. فلمّا دَنا رسولُ الله ﷺ قالت: يا رسولَ الله، أكلتَ مغافيرَ؟ قال: «لا»، قالت: فما هذه الرّيح؟ قال: «سَقَتْني حَفْصةُ شربةَ عسل»، قالت: جَرَسَتْ نَحْلَه العُرفُطَ. فلمّا دَخَل عليّ قلتُ له مِثلَ ذلك. ثمّ دَخَل على صَفِيّةَ فقالت بمِثل ذلك. فلمّا دَخَل على حَفْصةَ قالتْ: يا رسولَ الله، ألَا أسقيكَ منه؟ قال: «لا حاجةَ لي به» قالت: تقولُ سَوْدةُ: سبحانَ الله! والله لقد حَرَمْناهُ. قالت: قلتُ لها: اسكُتي[1].

وهكذا، أَقْسم النبيُّ ﷺ ألّا يتناولَ العسلَ فيما بعدُ إرضاءً لزوجاتِه، وأكّد على السيِّدةِ حَفْصةَ رضي اللهُ عنها ألّا تُخبِرَ أحدًا بذلك؛ لأن فيه إيذاءً لمشاعرِ السيِّدةِ زينبَ رضي اللهُ عنها، لكنّ السيِّدةَ حَفْصةَ رضي اللهُ عنها أَخْبرتِ السيِّدةَ عائشةَ رضي اللهُ عنها بالأمر، وأَطْلع اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ على الأمرِ كلِّه، فنَزَلت هذه الآياتُ.

والحقيقةُ أنّ الاعتقادَ بحُرمةِ شيءٍ حلالٍ يُعَدُّ ذنبًا كبيرًا في الإسلام، بل ويُعَدُّ كُفرًا كذلك، ومن غيرِ الممكنِ وقوعُ مِثل هذا الأمرِ من أيِّ نبيّ؛ لأنّ الأنبياءَ جميعًا عليهم السَّلامُ معصومونَ من الذُّنوب، أمّا إذا حَدَث تجنُّبٌ لاستعمالِ شيءٍ ما إرضاءً لأحدٍ أو تطييبًا لخاطرِه، فلا يُعَدُّ ذنبًا، بل على الأكثرِ هو خلافُ الأَولى، لكنّ اللهَ تعالى أراد ألا يَقَع منه ﷺ ما هو خلافُ الأَوْلى أيضًا؛ لأنّ فعلَ ما هو خلافُ الأَوْلى لم يكنْ مناسبًا لمقام النبيِّ ﷺ الرَّفيع، ولهذا فإنّ اللهَ تعالى أشار إلى هذا وقال له: لا داعيَ للتفكُّرِ والانزعاج، فأنا الغفورُ الرَّحيم، وَقد عفَوْنا عمّا وَقَع منك ممّا هو خلافُ الأَوْلى.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾

٢ ـ لو أَقْسم شخصٌ على ألّا يأكلَ شيئًا ما حلالًا، فعليه أن يَحنَثَ في قَسَمِه هذا، ويؤدِّيَ الكفّارةَ.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة التحريم (٦٦): الآية ١. والخبر في الصحيحين، البخاري، برقم ٥٢٦٨، ٦٩٧٢، ومسلم، برقم ١٤٧٤.

## الصور المختلفة للكفارة

١ ـ إطعامُ عشَرةِ مساكينَ من أَوْسَطِ أنواع الطَّعام الذي نُطعِمُ منه أهلِينا.

٢ ـ كُسوةُ عشَرةِ مساكينَ، وهناك اختلافٌ فيما يتعلَّقُ بالكُسوة؛ كيف تكونُ وكم تكونُ؟ وعندي، أنّ هذه أيضًا مِثلُ الطَّعام، ينبغي أن تكونَ من أَوْسَطِ أنواع القماشِ الذي نَكْسو منه أهلِينا.

٣ ـ عِتقُ رقَبةٍ، وهو أمرٌ لا يمكنُ تحقيقُه في زمانِنا هذا؛ لأنّ الرِّقَّ قد انتهَى من الوجودِ تدريجيًّا ببركةِ المبادئ الإسلاميّة. ولمزيدٍ من التفصيل عن هذا الأمرِ راجع الحاشيةَ رقم ٧ للآية رقم ٣ من سُورة النِّساء.

٤ ـ إذا لم يَستطع الشَّخصُ تنفيذَ أيٍّ واحدةٍ من الصُّوَرِ الثلاثِ السابقةِ فعليه أن يصومَ ثلاثةَ أيام متتابعةٍ، وهذه هي كَفّارتُه.

ماذا نقولُ في شأنِ كرَم الله تعالى وجُودِه، فالعبدُ يُذنبُ، ويُلوِّثُ صحيفةَ أعمالِه، لكنّ اللهَ تعالى يَستُرُ هذا باقتراحٍ لطيفٍ منه، يختفي معَه جُرمُ العبد، وفي نفسِ الوقت يَحظَى بدُعاءِ المساكين الذين سيوفِّرُ لهم الطَّعامَ والكُسوةَ على ما يفعَلُه معَهم، وفي حالةِ الصَّوم يستفيدُ من بركاتِ الصَّوم، مثلَما يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه، من أنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقول: «... فوالّذي نفْسُ محمّدٍ بيدِه، لَخُلفةُ فم الصّائم أطيَبُ عندَ الله من ريح المِسْك »[1]. سبحانَ الله! فالعبدُ تُغفَرُ ذنوبُه من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ يصبحُ خُلوفُ فمِه سببًا في قُربِه من الله ومن رضاه، والحمدُ لله ربِّ العالَمين.

---

(١) مسلم، كتاب الصيام، باب ٣٠ برقم ٢٧٠٤.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾

٣ ـ قال النبيُّ الكريمُ ﷺ للسيّدةِ حَفْصةَ رضي الله عنها: إنه لن يتناولَ العسلَ عندَ السيّدةِ زَيْنبَ رضي الله عنها ثانيةً، وأكَّد عليها في نفسِ الوقتِ أنّ هذا الكلامَ سِرٌّ، ولا ينبغي أن تُخبِرَ به أحدًا؛ لأنّ فيه إيذاءً لمشاعرِ السيّدةِ زَيْنَب رضي اللهُ عنها، لكنّ السيّدةَ حَفْصةَ أَخْبَرت السيّدَةَ عائشةَ رضي الله عنهما بهذا السِّرّ، وعندَما أَخْبر النبيُّ ﷺ السيِّدةَ حَفْصةَ رضي الله عنها ببعضِ ما قالَتْه للسيِّدةِ عائشةَ رضي الله عنها قائلًا: لماذا أفشَيْتِ السّرَّ؟ أصابَتْها دهشةٌ عظيمة، إذ إنها لم تُخبِرْ سوى السيِّدةِ عائشةَ رضي الله عنها بالأمر، والسيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها لا يمكنُ أن تُخبِرَ أحدًا آخرَ به؛ لأنّ الأمرَ كان بالاتِّفاقِ معَها من البداية، ولهذا قالتِ السيّدةُ حَفْصةُ رضي الله عنها للنبيِّ ﷺ: مَن أخبرَكِ بذلك؟ فقال ﷺ: أَخْبَرَني اللهُ تعالى الذي يَعلمُ تمامَ العلم كلَّ شيء، ولا يخفَى عليه شيءٌ. ويُعلمُ منه أنّ الوحيَ كان يَنزلُ على النبيِّ ﷺ في أمورٍ أخرى بالإضافةِ إلى القرآنِ الكريم، وهو ما نُسمِّيه «الحديثَ النَّبويَّ»، ومُنكِرُ الحديثِ النَّبويِّ لا يستطيعُ أن يفهمَ المقصِدَ الصَّحيحَ للقرآنِ الكريم.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾

٤ ـ الخِطابُ في هذه الآيةِ للسيِّدةِ عائشةَ والسيّدةِ حَفْصةَ رضي اللهُ تعالى عنهما، بأنه رَغْمَ أنّ محبةَ النبيِّ ﷺ فَرْضٌ على كلِّ مؤمن، إلّا أنّ قلبَيْكُما قد مالا إلى ناحيةٍ من النواحي، فلم تستطيعا أن تَرْعَيا ما يحبُّه النبيُّ ﷺ، وخَلقتُم ظروفًا بالتشاوُرِ فيما بينَكما تأذَّى منها النبيُّ ﷺ، ولهذا عليكما أن تَتُوبا إلى الله تعالى بأنْ لا

تفعَلا مستقبَلًا ما قد يؤْذي النبيَّ ﷺ، وهذا هو الخيرُ لكما، وتَذكَّرا أنّكما إنْ لم تَتُوبا وتُرْضِيا رسولَ الله ﷺ، فإنّ هذا لن يَضُرَّ النبيَّ ﷺ في شيءٍ؛ لأنّ اللهَ تعالى هو مَوْلاه ومُدبِّرُ أمرِه، وجِبريلُ الأمينُ والصّالحونَ من المؤمنينَ والملائكةِ كلُّهم ينصُرونَه، ومَن كان ناصرَه اللهُ تعالى والملائكةُ والمؤمنون، لا يمكنُ أن يَضُرَّه أحدٌ بشيء.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾

٥ ـ في هذه الآيةِ تعليمُ الأدبِ لأزواج النبيِّ ﷺ المطَهَّرات، بأنَّكنَّ سعيداتُ الطَّالع، إذْ مَنَحَكنَّ اللهُ تعالى شرفَ أن تكُنَّ زوجاتِ سيّدِ كلِّ الأنبياءِ السابِقينَ عليهمُ السَّلام، وبالتالي فإنّ هذا الشرفَ العظيمَ يقتضي منكُنَّ أنْ لا تُقصِّرنَ مطلَقًا في الحصولِ على رضَى رسولِ الله ﷺ، ولو حَدَث منكنَّ تقصيرٌ في هذا الخصوصِ يَجعَلُ النبيَّ ﷺ يَحرِمُكنَّ من شَرَفِ كونِكُنَّ زوجاتِه، فإنّ في هذا خسارةً عظيمةً لكُنَّ، أمّا النبيُّ ﷺ فسيُنعِمُ اللهُ تعالى عليه بزَوْجاتٍ أفضَلَ منكُنَّ. ورَغْمَ أنّ زوجاتِ النبيِّ ﷺ أفضَلُ من كلِّ نساءِ العالَم، لكنْ لو طلَّقهُنَّ النبيُّ ﷺ (معاذَ الله) بسببِ إغضابِهنَّ له، وتزوَّجَ غيرَهُنَّ، لَكانت هذه الزَّوجاتُ الأُخرَياتُ أفضَلَ من السابِقات[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾

٦ ـ في هذه الآيةِ حُكمٌ لأهلِ الإيمانِ أن يُنقِذوا أنفُسَهم وأولادَهم وزوجاتِهم من نارِ جهنَّم.

ـ عندَما نَزَلت هذه الآيةُ قال سيّدُنا عُمرُ رضي اللهُ عنه لرسولِ الله ﷺ: يارسولَ الله، نَقي أنفُسَنا، فكيف لنا بأهلِينا؟. فقال: «تَنْهَوْنَهم عمّا نهاكُم الله وتأمُرونَهم بما أمَرَ الله»[2].

---

(١) تفسير نور العرفان.

(٢) تفسير القرطبي، الآية ٦.

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه في تفسيرِ هذه الآية: «قُوا أنفُسَكم: بأفعالِكم، وقوا أهلِيكم: بوَصِيَّتِكم»(١).

ـ نَقَل العلّامةُ القُرطبيُّ هذا القولَ للكِيا: «فعلينا تعليمُ أولادِنا وأهلِينا الدِّينَ والخيرَ، وما لا يُستغنَى عنه من الأدب»(٢).

## بعض الأحاديث النبوية عن إصلاح الأم والأب

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن عُمرَ رضي الله عنهما: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «كُلُّكم راع، وكلُّكم مسئولٌ عن رعيَّتِه، الإمامُ راع ومسئولٌ عن رعيَّتِه، والرّجلُ راع في أهلِه وهو مسئولٌ عن رعيّتِه، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسئولةٌ عن رعيّتِها، والخادمُ راع في مالِ سيّدِه ومسئولٌ عن رعيّتِه ـ قال: وحَسِبتُ أنْ قد قال ـ والرّجُلُ راع في مالِ أبيه ومسئولٌ عن رعيَّتِه، وكلُّكم راع ومسئولٌ عن رعيّتِه»(٣).

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ: كان رسولُ الله ﷺ يُصلِّي من اللّيل، فإذا أَوْتَر قال: «قومي فأَوْتِري يا عائشة»(٤).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «رَحِم اللهُ رجلًا قام من اللَّيل فصَلَّى وأَيْقَظَ امرأتَه (أي: للصَّلاة) فإنْ أبَتْ (أي: لم تَنهَضْ) نَضَح في وجهِها الماءَ، رَحِم اللهُ امرأةً قامَتْ من اللّيل فصَلَّتْ وأيقَظَتْ زوجَها، فإنْ أبَى نَضَحتْ في وجهِه الماء»(٥).

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) المرجع السابق.

(٣) البخاري، كتاب الجمعة، باب ١١ برقم ٨٩٣.

(٤) مسلم، صلاة المسافرين، باب ١٧ برقم ١٧٣٤.

(٥) أبو داود، كتاب التطوع، باب ١٨ برقم ١٣٠٨.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ وسيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أَيقَظَ الرّجُلُ أهلَه من اللّيل فصَلَّيا أو صَلّى ركعتَيْنِ جميعًا كُتِبا في الذّاكِرينَ والذّاكِرات»(١).

## تعليم الأولاد وتربيتهم

ـ يَروي سيّدُنا عَمْرُو بن شُعَيبٍ رضي اللهُ عنه، عن أبيهِ عن جَدِّه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مُروا أولادَكم بالصّلاةِ وهم أبناءُ سبع سنينَ، واضرِبوهم عليها وهم أبناءُ عشْرِ سنينَ، وفَرِّقوا بينَهم في المضاجع»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما من مولودٍ إلّا يولَدُ على الفِطرة (أي: على الإسلام)، فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه»(٣).

ـ يَروي سيّدُنا أيوبُ بنُ موسى رضي الله عنه، عن أبيه، عن جدِّه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما نَحَل والدٌ ولدًا من نَحَلٍ أفضَلَ من أدبٍ حَسَن»(٤).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن كانت له بنتٌ فأَدَّبها فأحسَنَ تأديبَها، وعَلَّمها فأحسَنَ تعليمَها، وأَسْبغَ عليها مِن نِعَم الله التي أَسْبغَ عليه، كانت له سِترًا من النّار»(٥).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن عبّاس رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال:

---

(١) أبو داود، كتاب التطوع، باب ١٨ برقم ١٣٠٩.
(٢) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ٢٦ برقم ٤٩٥.
(٣) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٨٠ برقم ١٣٥٩.
(٤) الترمذي، أبواب البر، باب ٣٣ برقم ١٩٥٢.
(٥) حلية الأولياء، ٥: ٦٧ برقم ٦٣٤٨، وكنز العمال، ١٦: ٤٥٢ برقم ٤٥٣٩١.

«افتَحوا على صِبيانِكم أوّلَ كلمةٍ: لا إلهَ إلّا الله، ولقِّنُوهم عندَ الموتِ لا إلهَ إلّا اللهُ، فإنّه مَن كان أوّلَ كلامِه لا إلهَ إلا الله وآخِرَ كلامِه لا إلهَ إلّا الله ثمّ عاشَ ألفَ سنةٍ، ما سُئل عن ذَنْبٍ واحد»[1].

﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

٧ ـ الملائكةُ المقرَّرونَ على نارِ جهنَّم أصحابُ طبيعةٍ قاسية، لا يمكنُ أن يؤثِّرَ فيهم صُراخُ أحدٍ أو عَويلُه ونَحِيبُه، كما أنّهم أقوياءُ للغاية أيضًا، فلا يمكنُ لأحدٍ أن يُفلتَ من قَبْضتِهم، والملائكةُ جميعًا ملتزمونَ بأمرِ الله تعالى، ولا يمكنُ لهم أن يَعصُوه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

٨ ـ عندَما يَرى الكفّارُ عاقبتَهم السيِّئةَ يومَ القيامة سيُحاولونَ اختلاقَ الأعذار، وعندَها سيُقالُ لهم بكلِّ وضوح: إنكم قد طَغَيْتُم في الدُّنيا، ولهذا لا مجالَ لأيِّ اعتذارٍ هنا الآنَ، وفي نفسِ الوقت لن تُظلَموا، وإنّما ستُعاقَبونَ فقطْ على أفعالِكم القبيحةِ التي كنتُم ترتكبونَها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا

(١) كنز العمال، ١٦: ٤٤١ برقم ٤٥٣٣٢.

وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾

٩ ـ عندما يعصي اللهَ أحدٌ سواءٌ كان عامدًا أم لا، فإنه ما إن يَشعُرَ بتقصيرِه حتى يتوبَ؛ لأنّ كثرةَ الذنوبِ تصيبُ الإنسانَ باليَأْس، وتدفَعُه إلى الانتحار، أو إلى سلوكِ طريقِ الظُّلم والعُدوان، بينَما بالتَّوبةِ يَنالُ الإنسانُ رضا الله تعالى وسَكِينةَ القلب، وهكذا ينسَى الإنسانُ ذنوبَه ويبدأُ صفحةً جديدةً من حياتِه، كما أنّ ارتكابَ الذَّنبِ والإصرارَ عليه بعدَ ذلك وعَدَمَ التَّوبة منه إنّما هو مِن صفاتِ الشَّيطان، أمّا ارتكابُ الذَّنبِ والنَّدمُ عليه بعدَ ذلك والتَّوبةُ منه فهو سُنّةٌ من سُنَنِ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يَنْجُوَ بنفسِه من حَماقةِ الشّيطان، وأن يعمَلَ بسُنّةِ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام.

## تعريف التوبة

المرادُ بالتَّوبةِ في الإسلام: أن يتّخلَّى الإنسانُ عن طريقِ السُّوء، مُراعيًا الشروطَ التالية:

١ ـ أن يَعترِفَ الإنسانُ بالذَّنب، ويَطلُبَ العفوَ والمغفرةَ من اللهِ تعالى، وأن يَنْدَمَ على ارتكابِه الذَّنبَ، بمعنى: أنه ظَلَم نفسَه بمعصيتِه لله تعالى، وأنه ما كان ينبغي له أن يفعَل هذا.

٢ ـ أن يَترُكَ الذَّنبَ فورًا، ويَعزِمَ عَزْمًا قويًّا على عَدَم ارتكابِه ثانيةً.

٣ ـ إنْ كان الذَّنبُ الذي ارتكَبَه يتعلَّقُ بحقوقِ العباد، فعليه أن يَرُدَّ المَظلِمةَ إلى مَن ظَلَمَه، وأن يَطلُبَ منه العفوَ، وإذا كان التقصيرُ حَدَث في الصَّلاةِ والصَّوم والزَّكاة وغيرِها فعليه أن يتدبَّرَ أمرَ تدارُكِ كلِّ هذا حسَبَ استطاعتِه.

## فضل التوبة

ـ عن أنسٍ رضى الله عنه، عن النّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلَّم قال: «كلُّ ابنِ آدمَ خَطّاءٌ وخيرُ الخطّائينَ التّوّابُونَ»[١].

ـ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النّبيّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم قال: «لو أخطَأتُم حتّى تبلُغَ خطاياكم السّماءَ ثمّ تُبتُم لَتابَ عليكم»[٢].

ـ عن عبدِ الله رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «التّائبُ من الذَّنبِ كمَن لا ذَنْبَ له»[٣].

ـ عن ابن عُمرَ رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: «يا أيُّها النّاس، توبوا إلى الله، فإنّي أتوبُ فى اليوم مائةَ مرّةٍ»[٤].

ـ عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: «إذا تابَ العبدُ من ذنوبِه أنسَى اللهُ عزَّ وجلَّ حَفَظتَه ذنوبَه، وأنسى ذلك جوارحَه ومعالمَه من الأرضِ حتّى يلقَى اللهَ يومَ القيامة وليس عليه شاهدٌ من الله بذنبٍ»[٥].

---

(١) الترمذي، صفة القيامة، باب ٤٩ برقم ٢٤٩٩.
(٢) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٠ برقم ٤٢٤٨.
(٣) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٠ برقم ٤٢٥٠.
(٤) مسلم، كتاب الذكر، باب ١٢ برقم ٦٨٥٩.
(٥) الترغيب والترهيب، كتاب التوبة، ٤: ٩٤.

وحين تُنصَبُ العدالةُ يومَ الحَشْر، فإنّ الملائكةَ والجوارحَ والأرضَ ستشهَدُ على صاحبِها لإتمام الحُجّة عليه، لكنّ سعيدَ الحظِّ الذي تابَ إلى اللهِ بصِدقٍ يُنسي اللهُ ـ من أَجْلِه ـ كلَّ الشهودِ على ذَنْبِه، وبالتالي يَنْجو من العقابِ، إذْ لا شاهدَ عليه، ويُعلمُ من هذا أنه إذا تابَ الإنسانُ إلى الله تعالى فلا يجبُ الطَّعنُ فيه بسببِ ما ارتكَبَ من ذَنْب، فإذا كان اللهُ تعالى قد طَهَّره من الذنوبِ، وأنسَى الملائكةَ ذنوبَه، فعلينا نحن أيضًا أن ننسَى ذنوبَه، وأن نُبرِزَ حسَناتِه.

ـ قال النبيُّ ﷺ: «مَن عيّر مؤمنًا بذنبٍ تابَ منه كان حقًّا على الله أن يَبتليَه به ويفضَحَه فيه في الدُّنيا والآخِرة»(١).

## وقت التوبة

أفضلُ وقتٍ للتوبةِ هو أن يقومَ بها المُذنبُ فورَ أن يشعُرَ بارتكابه الذَّنبَ، أو فورَ أن يَقرَأَ هذه الكلماتِ التي أكتبُها، فإذا ظَلَّ بالرَّغم من ذلك غافلًا، فلا مَناصَ من أن يتوبَ قبلَ الموتِ على أيةِ حال؛ لأنه إذا ما حَضَره مَلَكُ الموت، وفَقَد كلَّ أملٍ في الحياة، فتابَ عندَئذٍ، فإنّ توبتَه سواءٌ كانت من ذنبٍ أم من كُفر، فإنّ توبةَ النَّفسِ الأخيرِ هذه لا تُقبَلُ، فهي مِثلُ توبةِ فرعَوْنَ التي قام بها من الكُفر، وأعلنَ إيمانَه عندَ الغَرَق، وعندَما رأى الموتَ بعينَيْه، لكنّ توبتَه لم تُقبَلْ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، ولذا يجبُ الإسراعُ إلى التَّوبة، فمن يدري؟ قد يأتي الموتُ في اللَّحظةِ التالية، ولا تتيسَّرُ مُهلةٌ للتَّوبة.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الحجرات (٤٩): الآية ١١.

- عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: خَطَبَنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم فقال: «يا أيُّها النّاس، توبوا الى اللهِ قبلَ أن تموتوا، وبادِروا بالأعمالِ الصّالحة قبلَ أن تُشغَلوا»[1].

- عن ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما، عن النّبيِّ ﷺ، قال: «إنّ اللهَ يَقبَلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ»[2].

## ليعتبر الشاب من الشيوخ

التَّوبةُ ضرورةٌ لكلِّ رجلٍ وامرأةٍ من كلِّ عمُر، لكنّ الإنسانَ يغفُلُ أكثرَ في عمُرِ الشّباب، بينَما هذه المرحلةُ هي الأهمُّ في حياةِ الإنسان، والتي ينبغي التوبةُ فيها، ولو تابَ الشّخصُ بعدُ في عمُرِ السِّتينَ ونَصَح زوجتَه وأولادَه بالصَّلاةِ والعمَل الصالح، فقد تقولُ الزَّوجةُ: إنّني أعيشُ معَك منذُ ثلاثينَ عامًا، وقد كنتَ أنت غارقًا في ذنوبِك، وتَسحَقُ حقوقي، فلماذا فكَّرتَ اليومَ في العمل الصَّالح؟ ويمكنُ أن يقولَ الأولاد: يا أبانا العزيزُ، ظَلَلتَ تُعربِدُ حتى بَلَغْتَ من العمُرِ ستِّينَ سنةً، لهذا دَعْنا نفعَلْ ما نريدُ لأربعينَ عامًا قادمةٍ، ثم سنَتُوبُ بعدَ ذلك، فإذا لم تكنْ إجابةُ الزَّوجةِ والأبناءِ غيرَ صحيحة (لأنّ سعادةَ التَّوبةِ بمثابةِ الغَنِيمة إذا تيسَّرت للإنسانِ في أيِّ عمُر، ويمكنُ أن يأتيَ الموتُ في مرحلةِ الشباب، وانتظارُ عمُرِ الستينَ دون توبةٍ خطأٌ في الفَهْم)، لكنّ هذه الرُّدودَ من الزوجةِ والأبناءِ تُعَدُّ لمحةً فِكريّةً لهذا الشَّيخ الذي بَلَغ الستِّينَ من العمُر، ولو كان قد تابَ في مرحلةِ الشّباب لَترتَّبَ على ذلك آثارٌ جيِّدة، ولَما تعرَّضَ في شَيْخوختِه لهذا الكلام الجارح لقلبِه.

---

(١) ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب ٧٨ برقم ١٠٨١.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٩٨ برقم ٣٥٣٧.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

١٠ ـ الذين يتوبونَ إلى اللهِ من صِدقِ قلوبِهم، يكونُ الأملُ كبيرًا في أن يعفوَ اللهُ تعالى عن ذنوبِهم، ويُدخلَهم جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار.

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾

١١ ـ لن يُخزيَ اللهُ تعالى يومَ القيامة نبيَّه ﷺ والذين آمَنوا معَه، وإنّما سيعفو عن كثيرٍ من المُذنِبينَ بشَفاعتِهم.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾

١٢ ـ عندَما يَفرُغُ الناسُ من ميزانِ العدلِ يومَ القيامة ويتَّجهونَ إلى الصِّراط، سيكونُ هناك ظلامٌ دامس، وسيَضِلُّ العُصاةُ والطُّغاةُ في هذا الظلام، بينَما ستُبرِقُ صحائفُ الأعمال لامعةً في أيدي أهل الإيمانِ اليُمنى من الرِّجالِ والنِّساء، وسيكونُ أمامَهم نورُ إيمانِهم وأعمالِهم الصّالحة يضيءُ، ولكنّ هذا النُّورَ لن يضيءِ إلّا طريقَ أهل الإيمانِ فقطْ، مثلَما يربطُ كلُّ واحدٍ من العاملينَ في الأنفاقِ والمناجِم كَشّافًا على رأسِه ليضيءَ له، وهذا الكَشّافُ يضيءُ لصاحبِه فقطِ الطريقَ، ولا يتفرَّقُ الضوءُ إلى طريقِ الآخَرين، كذلك ستكونُ وجوهُ أهل الإيمانِ مثلَ الكَشّافاتِ تضيءُ لهم طريقَهم، ولكنّها لا تضيءُ طريقَ الآخَرين، وسيدعو أهلُ الإيمان ربَّهم قائلينَ: يا ربَّنا، اعفُ عنا، واحفَظْ علينا نورَنا حتى نَخرُجَ من هذا الظلام إلى الجنة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

١٣ ـ يعني: عندَما يَحِينُ وقتُ مُحاربةِ الكفّارِ فواجِهوهم بكلِّ قوة، وعندَما يَسخَرُ المنافقونَ من أحكام الإسلام فعاقِبوهم بكلِّ شدّةٍ، فهاتانِ الطائفتانِ ستَدخُلانِ

جهنَّمَ وبئسَ المصير؛ لأنّ واحدةً منهما أنكَرتِ اللهَ تعالى علانيَةً، والثانيةُ تَعصيه مِن وراءِ ستارِ النِّفاق.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾

١٤ ـ عندَما كان كفّارُ مكّةَ يُنذَرونَ مِن عذابِ يوم القيامةِ كانوا يقولون: إنه إذا قامتِ الساعةُ فإنّ محمدًا ﷺ سيَشفَعُ لنا؛ لأننا أقاربُه وجِيرانُه، وفي هذه الآيةِ أزال اللهُ تعالى سُوءَ الفَهْم هذا لديهِم وأبطَلَه بمثالٍ ضَرَبَه، وهو أنّ زوجةَ سيّدِنا نوح وزوجةَ سيّدِنا لُوطٍ عليهما السَّلام كانتا كافرتَيْنِ ومنافقتَيْن، ولم تؤمِنا بزوجَيْهما النبيَّيْنِ الكريمَيْنِ عليهما السَّلام، وهكذا لم يُنجِهما من عذابِ الله كونُهما زوجتَيْنِ لنبيَّيْنِ كريمَيْنِ، وسوف تَدخُلانِ جهنَّمَ معَ أهل جهنَّمَ الآخَرين، ولهذا ينبغي لكفّارِ مكةَ أيضًا أن يتذكَّروا أنّهم إن لم يؤمنوا فلن يَشفَعَ لهم أحدٌ، ولن تنفَعَهم شفاعةُ أحدٍ أيضًا، فأهلُ الإيمانِ فقطْ هم أولئك السُّعَداءُ الذين سيَستحِقُّونَ الشَّفاعةَ ببركةِ إيمانِهم.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾

١٥ ـ يقولُ المفسِّرونَ في تفسيرِ هذه الآية: «ما كانت خيانتُهما؟ نقول: نفاقُهما وإخفاؤهما الكُفرَ، وتظاهرُهما على الرَّسُولَيْن، فامرأةُ نوحٍ قالت لقومِه: إنّه لَمجنونٌ، وامرأةُ لُوطٍ كانت تدُلُّ على نزولِ ضَيْفِ إبراهيمَ، ولا يجوزُ أن تكونَ خيانتُهما بالفُجور، وعن ابنِ عبّاسٍ: ما بَغَتِ امرأةُ نبيٍّ قطّ، وقيل: خيانتُهما في الدّين»[1].

---

(١) التفسير الكبير، وتفسير القرطبي، سورة التحريم (٦٦): الآية ١٠.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾

١٦ ـ في الآيةِ السابقةِ جاء مِثالُ المرأتَيْنِ الكافرتَيْنِ بغَرَض تنبيهِ الكفّارِ بأنه رَغْم أنّ زوجَ كلٍّ من هاتَيْنِ المرأتَيْنِ كان نبيًّا، إلّا أنّهما ستَدخُلانِ النارَ بكُفرِهما، وفي هذه الآيةِ جاء مثالُ المرأةِ المؤمنة، بغَرَضِ التَّسريةِ عن قلوبِ أهلِ الإيمان، بأنه رَغْم أنّ زوجَ هذه المرأةِ كان كافرًا موغِلًا في كُفرِه، إلّا أنها دَخَلتِ الجنّةَ بإيمانِها.

آمَنَتِ السيّدةُ آسيةُ زوجةُ الفِرعَونِ بسيّدِنا موسى عليه السَّلام، ولمّا عَلِم الفِرعَونُ بذلك أهالَ جبالَ الظُّلم عليها، لكنّ السيِّدةَ آسيةَ ظلَّت ثابتةً على إيمانِها برَغْم كلِّ هذه المصائب. وذاتَ يوم أرسَلَ الفرعَوْنُ بعضَ رجال بَلاطِه إلى زوجتِه يهدِّدونَها بأنّها إن لم تَرجِعْ عن إيمانِها فسيُلقُونَ فوقَها صخرةً ثقيلةً من الحَجَر تقتُلُها، «فلمّا أتَوْها رَفَعت بصرَها إلى السّماءِ فأبصَرتْ منزلَها في الجنّة، فمَضَت على قولِها فانتُزِع رُوحَها، وأُلقِيَت الصَّخرةُ على جسَدِها وليس في جسَدِها رُوحٌ»[1].

قال الحَسَنُ وابنُ كَيسانَ: «نجَّاها اللهُ أكرمَ نجاةٍ، ورَفَعَها إلى الجنّة، فهي فيها تأكُل وتشرب»[2].

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾

١٧ ـ ومثالٌ آخَرُ لأهلِ الإيمان، وهو: مثالُ السيّدةِ مريَمَ ابنةِ عِمرانَ، والتي أَوْقَفها والداها على خدمةِ بيتِ المقدِس، وكانت من أُسرةٍ صالحةٍ عابدة، وكانت هي نفسُها سيّدةً صالحةً عفيفةً طاهرةً، فنَفَخَ اللهُ تعالى فيها من رُوحِه، فوَلَدتْ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة طه (٢٠): الآية ٧٣.

(٢) تفسير القرطبي، سورة التحريم (٦٦): الآية ١١.

سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ، ورَغْمَ أنّ الناسَ اتَّهموها باتّهاماتٍ خطيرةٍ بسببِ مولِدِ سيّدِنا عيسى عليه السلام بغيرِ أبٍ، إلّا أنّها تحمَّلت كلَّ هذا بصبرٍ وثَبات، وصَدَّقت بالكتُبِ والصُّحفِ السَّماويّة وآمَنَت بها، وكانت من المُطيعينَ لربِّها، وقد جَعَل اللهُ تعالى تصديقَها هذا جُزءًا من القرآنِ المجيد ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [الأنعام: ٧٥].

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعد صلاة الظهر من يوم الاثنين ٢٥ أكتوبر ٢٠١٠م**
**الموافق ١٦ ذي القعدة ١٤٣١هـ**

**هذا، وقد اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرمِه تفسيرُ سُورة «التحريم» في خمسةِ أيام فقط، أي: من ٢٠ إلى ٢٥ أكتوبر، وقد بدأتُ كتابةَ تفسير الجزء الثامن والعشرين في ١٩ سبتمبر ٢٠١٠م، وأكملته اليومَ ٢٥ أكتوبر ٢٠١٠م، أي: اكتمل تفسيرُ جزءٍ كاملٍ في شهر وستة أيام، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسلامُ على سيّد المرسَلين، وعلى آله وأصحابِه أجمعين.**

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

# (٦٧) سورة الملك

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «المُلْك»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

## ما الحكمة في خلق الحياة والموت؟

في الآية رقم ٢ من هذه السُّورة أَخْبَرنا اللهُ تعالى أنّ الحِكمةَ من وراءِ خَلْقِ الحياةِ والموت هي أن يَبتلِيَنا؛ مَن منّا أحسَنُ عملًا، واللهُ تعالى عالِمُ الغيب، ويَعلمُ تمامَ العلم أعمالَ كلِّ إنسانٍ منذُ الأزل، ولكنّ الهدفَ من الابتلاءِ هو أن يَعلمَ الآخَرونَ أيضًا أعمالَ هذا الإنسان، ولا يكونَ لمعترِضٍ حُجّةٌ يومَ القيامة عندَ الحساب.

## آيات القدرة الإلهية

بعدَ ذلك بَيَّن اللهُ تعالى خَلْقَ السماءِ وما يُزيِّنُها من النُّجوم، وتحَدَّى أهلَ الدُّنيا جميعًا أن يَجِدوا فيها نقصًا أو عيبًا، فإذا لم تَستطيعوا أن تَجِدوا عيبًا فيها رَغْمَ إمعانِكم النظرَ إليها مراتٍ ومرات، فينبغي لكم إذًا أن تؤمنوا بقُدرةِ الله تعالى، أمّا إذا لم تؤْمنوا برَغْم كلِّ هذا فعليكم أن تَستعِدُّوا لمواجهةِ عذابِ النار، وسوف تندَمونَ في ذلك اليوم كثيرًا، ولكنْ بلا فائدةٍ. أما الذين سيؤْمنونَ بقُدرةِ الله تعالى عندَما يرَوْنَ آياتِه ومعجِزاتِه، فإنّ اللهَ تعالى سوف يغفرُ خطاياهم، ويُعطيهِم أجرًا عظيمًا على صالح أعمالِهم.

## مثال المؤمن والكافر

في الآيةِ رقم ٢٢ من هذه السُّورةِ جاء مثالٌ للكافرِ والمؤمن، يعني: أنّ الكافرَ مِثلُ ذلك الشَّخصِ الذي يمشي مُكِبًّا على وجهِه، والأمرُ الأولُ هو أنّ اللهَ تعالى أنْعم عليه بأقدام يمشي عليها، ولا يمكنُ لأيِّ إنسانٍ في هذه الدُّنيا أن يَطويَ سَفَرَه ماشيًا على وجهِه أو رأسِه، وإذا جَرَّب أحمَقُ أن يسيرَ عكسَ الفِطرة، فإنّه لن يرى شيئًا عن يمينِه ولا عن يسارِه ولا من أمامِه، وسيظَلُّ طيلةَ اليوم يتعثَّرُ في المكانِ نفسِه، فلا يرى الطريقَ بشكلٍ صحيح، ولا يستطيعُ الوصولَ إلى حيثُ يريد، وهذا هو مثالُ الكافر، فهو لا يستخدمُ عقلَه في البحثِ عن الطّريقِ القَويم، ولهذا يبقَى دائمًا متخبّطًا في ضَلالِه.

أمّا مثالُ المؤمنِ فهو كالذي يمشي على قدمَيْهِ مستقيمًا، وينظُرُ عن يمينِه وعن يسارِه متحقِّقًا من الطّريقِ القَويم متأكّدًا منه، ويَجِدُّ في السَّيرِ عليه، وهو بهذا سيصلُ ـ في نهايةِ المطاف ـ إلى هَدَفِه، والآنَ قرِّروا أنتم؛ منِ الذي يسيرُ على الطّريقِ الصَّحيح، ومن الذي يَعْمَهُ في الضَّلال؟

## متى تقوم الساعة؟

عندَما كان الكفّارُ يُنذَرونَ بعذابِ القيامة، فلأنّهم كانوا يُنكرونَ يومَ القيامة، ويَعتبرونَها مجرَّدَ تهديدٍ فارغٍ لهم من المسلمين، كانوا كثيرًا ما يقولونَ على سَبيل السُّخْرِية: إن كنتَ صادقًا في دعواكَ فمتى تأتينا الساعةُ التي تُحذّرُنا منها إذًا؟ وقد جاء الردُّ على هذا الكلام في الآيةِ رقم ٢٦ من هذه السُّورة، يعني: أنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم: إنّ الذي يَعلمُ الوقتَ الصَّحيحَ لقيام السّاعة هو اللهُ تعالى وحدَه، وقد أُرسِلتُ لأُنذِرَكم بها، وليس من الضَّروريِّ أن يتحقَّقَ العلمُ بوقتِ قيام الساعة لكي يتحقَّقَ الإنذارُ بها.

ويمكنُ استيعابُ هذه الحقيقةِ من خلالِ المثالِ التالي، يعني: مثلَما نَعلمُ جميعًا أنّ كلَّ إنسانٍ لا بد سيموتُ في يوم من الأيام، ولكنَّنا لا نَعلمُ وقتَ وفاتِه، ومعَ ذلك فإنّنا نؤكِّدُ على كلِّ إنسانٍ أن يُسرعَ إلى عمل كلِّ ما يَلزَمُه عمَلُه قبلَ الموت؛ لأنّ الموتَ يأتي فجأةً، ولن يجدَ عندَها فرصةً لعمَل شيءٍ، وبنفسِ الطريقة فإنّنا جميعًا على يقينٍ من أنّ الساعةَ ستقومُ، ولكنَّنا لا نَعلمُ الوقتَ المحدَّدَ لها، وبالرَّغم من ذلك ينبغي أن نستمرَّ في التأكيدِ على كلِّ إنسانٍ أن يخشَى القيامةَ، وأن لا يفعَلَ شيئًا يندَمُ عليه عندَ قيامِها.

## فضل سورة الملك

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ سُورةً من القرآنِ ثلاثونَ آيةً شَفَعت لرجُلٍ حتّى غُفِر له، وهي سُورةُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»[1].

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: ضَرَب بعضُ أصحابِ النّبيِّ ﷺ خِباءه على قبرٍ وهو لا يحسَبُ أنّه قبرٌ؛ فإذا فيه إنسانٌ يقرَأُ سُورةَ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ حتّى خَتَمَها، فأتى النّبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إنّي ضَرَبتُ خِبائي على قبرٍ وأنا لا أحسَبُ أنّه قبرٌ فإذا فيه إنسانٌ يقرأُ سُورةَ المُلكِ حتّى ختَمَها. فقال رسولُ الله ﷺ: «هي المانعةُ، هي المُنْجِيَةُ تُنْجيهِ من عذابِ القبر»[2].

- يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «سورةٌ في القرآنِ خاصَمَتْ عن صاحبِها حتّى أدخَلتْه الجنّةَ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»[3].

---

(١) الترمذي، فضائل القرآن، باب ٩ برقم ٢٨٩١.
(٢) الترمذي، فضائل القرآن، باب ٩ برقم ٢٨٩٠.
(٣) تفسير ابن كثير، تعارف سورة الملك (٦٧).

ـ يقولُ خالدُ بن مَعْدانَ: «إنها تُجادلُ عن صاحبِها في القبر، تقولُ: اللهُمَّ إنْ كنتُ من كتابِك فشفِّعْني فيه، وإن لم أكنْ من كتابِك فامُحني عنه، وإنها تكونُ كالطَّير يَجعَلُ جناحَها عليه فيشفَعُ له فيمنَعُه من عذابِ القبر»[1].

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة العصر من يوم الثلاثاء ٢٦ أكتوبر ٢٠١٠م**
**الموافق ١٧ ذي القَعْدة ١٤٣١هـ.**

* * *

---

(١) التفسير المظهري، سورة الملك (٦٧): الآية ٣٠.

# سُورَةُ المُلْكِ (٦٧)،

## مكية (٧٧)، آياتها (٣٠)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

١ ـ اللهُ تعالى ذو بَرَكةٍ ما بعدَها بَرَكة، ومُلكُ العالَمينَ كلِّه في يدِه، يتصرَّفُ فيه كيف يشاء، وهو القادرُ على كلِّ شيء، فيَخلُقُ ما يشاء.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾

٢ ـ خَلَق اللهُ تعالى الموتَ والحياةَ ليبلُوَكم أيُّكم أحسَنُ عملًا، واللهُ تعالى عالِمُ الغيب، ويَعلمُ تمامَ العلم أعمالَ كلِّ إنسانٍ منذُ الأزل، ولكنّ الهدفَ من الابتلاءِ هو أن يَعلمَ الآخَرونَ أيضًا أعمالَ هذا الإنسان، ولا يكونَ لمعترِضٍ حُجّةٌ يومَ القيامة عندَ الحساب.

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما: «تلا النّبيُّ ﷺ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ حتّى بَلَغ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فقال: «أَوْرَعُ عن محارِمِ الله وأسرَعُ في طاعةِ الله»[(١)].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾

٣ ـ خَلَق اللهُ تعالى هذه الكائناتِ جميلةً وقويّةً، بحيث لا تجدُ في أيِّ شيءٍ منها نقصًا ولا عيبًا، فكلُّ شيءٍ كاملٌ طبقًا لحاجتِه وما خُلِق له، فارفَعوا أنظارَكم إلى السَّماء، هل ترَوْنَ فيها أيَّ تشقُّقٍ أو تَصدُّعٍ رَغْم مرورِ هذا الزمنِ الطويل على خَلْقِها؟ إنّنا ـ بصفةٍ عامّة ـ لا نستطيعُ اكتشافَ الكثيرِ من عيوبِ الأشياءِ بمجرَّدِ النظرِ إليها مرةً واحدة، ولهذا تحَدَّى اللهُ تعالى الناسَ بأن انظُروا إلى السَّماءِ مراتٍ ومرات، بل وانظُروا إليها نَظَر الفاحصِ الناقد، ومعَ ذلك ستتعبُ أنظارُكم وتكِلُّ، ولكنّكم لن تَجِدوا في نظام الكائناتِ وترتيبِها أيَّ خَلَلٍ أو عَيْب.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾

٤ ـ جاء في هذه الآيةِ بيانُ مَقصِدَيْنِ من مقاصدِ خَلْق النُّجوم، أولُهما: أنّها زينةٌ للسَّماء؛ لأنها تضيءُ في اللّيلَ كالمصابيح، وثانيهما: أنه عندَما تحاولُ الشّياطينُ

---

(١) تفسير القرطبي.

التَّسلُّلَ إلى السَّماءِ تَخرُجُ من هذه النُّجوم شُعُلاتٌ تُمطرُ الشَّياطينَ بنارِها، واللهُ تعالى أعَدَّ للشياطينِ في الآخِرة أيضًا عذابَ النار.

﴿ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ﴾

٥ ـ عندَما ترتفعُ درجةُ حرارةِ الماءِ في القِدْرِ على النّار يبدَأُ في الغَلَيان، وتَصدُرُ عنه ضَجّةٌ من غَلَيانِه وفَوَرانِه، وهكذا جهنَّمُ، عندما تَصلُ إلى قمةِ اشتعالِها يَصدُرُ عنها أصواتٌ مُخيفةٌ كأنّها تَفُورُ وتَغْلي، وعذابُ النارِ لا يمكنُ تحمُّلُه أصلًا، فما بالُكَ حين تَفُورُ هذه النارُ وتَبلُغُ المدى في توهُّجِها، وتَصدُرُ عنها أصواتُ الفَوَران؟ فيُمكنُك عندَئذٍ أن تتصوَّرَ إلى أيِّ مدًى يكونُ عذابُها، وحين يُلقَى بأهل النارِ فيها فإنّهم يسمَعونَ أصواتًا مُرعبةً، فيبدو لهم وكأنّ النارَ تنفجّرُ وتتمزَّقُ من شدّةِ غَيْظِها وغَضَبِها، وأنّ كلَّ شُعلةٍ فيها ستحرِقُ من تصيبُه وتُحيلُه رمادًا.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾

٦ ـ يومَ القيامةِ سيُلقَى بالعُصاةِ في جهنَّمَ أفواجًا بعدَ أفواجٍ، وستَسأَلُ خَزَنةُ جهنَّمَ من الملائكةِ كلَّ فَوْج من هؤلاءِ قائلةً: ألم يأتِكُم الأنبياءُ الذين أخبَروكم أنّكم إنْ عصَيْتُم اللهَ تعالى فسيُدخِلُكم نارَ جهنَّم؟ والملائكةُ يَعلَمونَ أنّ الأنبياءَ قد جاءوهم بالفعل، ولكنّهم يسأَلونَهم إقامةً للحُجّةِ عليهم، حتّى يَعلَم أهلُ النارِ أنه ليس هناك ظُلمٌ يَقعُ عليهم، وإنّما كلُّ ما هم فيه إنّما هو نتيجةُ أعمالِهم السيِّئة عقابًا عليها. فيقولُ هؤلاءِ: لقد جاءنا الأنبياءُ فعلًا، وحَذَّرونا من عذابِ النّارِ فعلًا، لكنَّنا كذَّبناهم، وقُلنا عنهم: إنّهم قد ضَلُّوا بتَرْكِهم دِينَ آبائهم وأجدادِهم، وأنّ اللهَ تعالى لم يُنزِلْ عليهم أيَّ كتابٍ من عندِه، وإنّما هم الذين يؤلِّفونَ الكلامَ من عندِ أنفُسِهم، وينسُبونَه إلى اللهِ تعالى.

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

٧ ـ حين يُلقَى بالعُصاةِ في نارِ جهنَّمَ يندَمونَ ويقولون: ليتَنا سَمِعنا بتمعُّنٍ وتدبُّرٍ ما كان يقولُه الأنبياء، وحاوَلْنا فَهْمَه واستيعابَه، ولو فعلْنا هذا لَما كنّا الآنَ من أصحابِ النار، وعندَما يعترِفُونَ بذنوبِهم يَطرُدُهم اللهُ تعالى من رحمتِه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

٨ ـ الذين يتَّقونَ اللهَ تعالى دونَ أن يرَوْهُ، بمعنى: أنّهم لم يرَوا اللهَ تعالى، لكنّهم يؤمنونَ بوجودِه في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ وقت، ويخافونَ من عِصيانِه، فإنّ هؤلاءِ الناسَ عندَما يَصدُرُ عنهم من الأخطاءِ ما هو من مقتَضَياتِ البشَريّة، فإنّ اللهَ تعالى يغفرُ لهم هذه الأخطاءَ، ويُضاعفُ لهم أَجْرَهم على صَالح أعمالِهم.

الإنسانُ الذي يتولَّدُ في قلبِه خوفُ الله تعالى لا يخافُ أبدًا من أيِّ ظالم، ولا يَظلِمُ ضعيفًا أبدًا، وإنّما يصبحُ ملاكًا للرَّحمة، وتجسيدًا للحقِّ والصِّدق.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

٩ ـ يعني: سواءٌ تحدَّثتُم هامِسينَ أم بصوتٍ عالٍ لِيسمَعكُم الآخَرونَ، فإنّ اللهَ تعالى يَعلمُ تمامَ العلم كلَّ ما تقولونَ، بل إنّ اللهَ تعالى يَعلمُ الأسرارَ في قلوبِكم، بل ويَعلمُ حتى تلك الأسرارَ التي لم تَذكُروها على ألسنتِكم أيضًا، فكيف يمكنُ أن يكونَ غافلًا عمّا تقولون؟ لهذا عليكم قبلَ أن تقولوا شيئًا بألسنتِكم، أو تُفكِّروا فيه بقلوبكم، أن تتذكَّروا جيِّدًا أنّ اللهَ تعالى لا يخفَى عليه شيءٌ مما تقولونَ، أو حتى مما يَدورُ في خَلَدِكم.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

١٠ ـ الإنسانُ الذي يخترعُ آلةً من الآلاتِ يكونُ على عِلم تامٍّ بأجزائها ومكوِّناتِها

وكيفيّةِ عمَلِها، وهكذا اللهُ تعالى خالقُ كلِّ شيءٍ في الكائنات، وهو الذي خَلَق قلبَ الإنسانِ ولسانَه، فكيف يمكنُ أن يخفَى عليه ما يفعَلُه القلبُ واللسان؟ واللهُ تعالى ليس خالقَ كلِّ شيءٍ فقطْ، وإنّما يرى كلَّ التفاصيل وإنْ دقَّت، ويَعلمُ تمامَ العلم كلَّ شيءٍ وإن صَغُر.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾

١١ ـ لقد جعَل اللهُ تعالى هذه الأرضَ ليّنةً ومُسَخَّرةً لكم، وتستطيعونَ التصرُّفَ فيها كيفما تشاءون، ولهذا سِيروا فيها وسِيحوا، وامشُوا في طُرُقاتِها ودروبِها، وكُلوا من الرِّزقِ الذي يَخرُجُ منها، ولكنْ تذكَّروا اللهَ تعالى في غَمْرةِ كلِّ هذا، فهو الذي خَلَق لكم

أسبابَ الحياةِ ووسائلَها هذه، واشكُروا اللهَ تعالى على نِعَمِه؛ لأنّ الناسَ جميعًا ـ في نهايةِ الأمر ـ سيَمثُلونَ في حضرةِ الله تعالى بعدَ موتِهم، وهناك سيُحاسبُهم اللهُ تعالى على نِعَمِه عليهم.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾

١٢ ـ رَغْمَ أنّ اللهَ تعالى ليس في السَّماءِ فقطْ، وإنّما هو موجودٌ في كلِّ مكانٍ وناحية، ولكنْ عندَما يكونُ الهدفُ هو الإشارةَ إليه، فإنّنا نشيرُ إلى السَّماءِ لِعظَم شأنِه، ونَرفَعُ أيدِيَنا إلى السَّماءِ أيضًا عندَ الدُّعاء، ونقولُ عن الكُتُبِ التي أَنْزلَها اللهُ تعالى: إنّها «كُتبٌ سَماويّةٌ»، وربّما لهذا السّببِ أيضًا نُسِبَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ إلى السَّماء، وقد ذَكَرت الأحاديثُ النَّبويّةُ أيضًا اللهَ تعالى بأنه مَن في السَّماء:

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرِو بن العاص رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «الرّاحِمُونَ يرحَمُهم الرَّحمن، ارحَموا مَن في الأرضِ يرحَمْكم مَن في السّماء»[١].

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾

١٣ ـ في هذه الآيةِ تنبيهٌ لكفّارِ مكّةَ بأنِ اتَّقوا اللهَ واخشَوْه، ولئن بَقِيتم مُصِرّينَ على عصيانِه فسوف يجعَلُ الأرضَ ترتجفُ وتهتزُّ وتبتلعُكم، ولن يستطيعَ أحدٌ عندئذٍ مساعدتَكم، مثلَما قال اللهُ تعالى عن قارونَ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]. وبنفسِ الطريقة، حَدَث هذا عند الهجرةِ النَّبويّة، مثلَما يقولُ سيّدُنا أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي الله عنه: وتَبِعَنا سُراقةُ بنُ مالكٍ ونحن في جَلَدٍ[٢] من الأرض، فقلتُ: يا رسولَ الله، هذا الطَّلبُ قد

---

(١) الترمذي، أبواب البر، باب ١٦ برقم ١٩٢٤.

(٢) بالتحريك، أي: أرض صلبة. وروى: «جدد»، وهو المستوي، وكانت الأرض مستوية صلبة. صحيح مسلم (الحاشية).

لَحِقَنا. قال: «لا تحزَنْ، إنّ اللهَ معَنا». فلمَّا دَنَا منّا وكان بينَنا وبينَه قَدْرُ رُمحٍ أو رُمحَيْنِ، فساخَتْ به فرسُه في الأرضِ إلى بطنِها فوَثَبَ عنها، ثم قال: يا محمَّد، قد عَلِمتُ أنّ هذا عمَلُك، فادعُ اللهَ أن يُنجيَني ممّا أنا فيه، فواللهِ لَأُعمِّينَّ على مَن ورائي من الطَّلَب»[1].

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾

١٤ ـ في هذه الآيةِ أيضًا تحذيرٌ لكفّارِ مكةَ بأنّكم إنْ ظَللتُم على عصيانِكم لله تعالى وعَدَم الخوفِ منه، فيُمكنُه أن يُهلكَكم بإرسالِ ريحٍ تُمطرُكم بالحجارة، مثلَما حَدَث معَ قوم لُوط: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]، وأصحابِ الفِيل: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤]، حيث أهلَكَهم اللهُ تعالى بأمطارٍ من الحِجارة، وعندما تَرَوْنَ أنتم أيضًا هذا العذابَ، فستعلَمونَ عاقبةَ إنذارِكم، وستندَمُونَ كثيرًا، ولكنّ النَّدمَ في ذلك الوقتِ لن ينفَعكم بشيءٍ؛ لأنّ وقتَ التوبةِ ينتهي عندَ مجيءِ العذاب.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

١٥ ـ في هذه الآيةِ تسريةٌ عن قلبِ النبيِّ ﷺ من جانبٍ بأنْ لا تحزَنْ ولا تغتَمَّ يا رسولَ اللهِ ﷺ من تكذيبِهم لك، فقد كذَّبَ الناسُ من قبلِهم أنبياءهم، وعندما لم يَرجِعوا عن طُغيانِهم أنْزلنا عليهم عذابًا شديدًا، وعلى الجانبِ الآخرِ في الآيةِ تنبيهٌ لكفّارِ مكّةَ بأنِ اعتبِروا من أطلالِ الأقوام السابقة عليكم وآثارِهم مِثلَ: قوم عادٍ وثمُودَ وغيرِهما، فحين لم يَرجِعوا عن مخالفةِ أنبيائهم أهلَكْناهم، وإذا لم تَرجِعوا أنتم أيضًا عن طُغيانِكم فسنُهلِكُكم.

---

(١) سبل الهدي والرشاد، ٢: ٣٥٤. والخبر في الصحيحين، البخاري، برقم ٣٦١٥، ومسلم، برقم ٢٠٠٩.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾

١٦ ـ مثلَما سَخَّر اللهُ تعالى الأرضَ لكي يمشيَ فيها الإنسانُ، وسَخَّر المياهَ لكي تُسبِّحَ فيها الأسماكُ، كذلك سَخَّر الأجواءَ لكي تطيرَ فيها الطُّيور.

عندما تطيرُ الطُّيورُ في الفضاءِ تَبسُطُ أجنحتَها، وأحيانًا تضُمُّها إليها أثناءَ الطَّيرانِ وتقبِضُها، ولكنّها معَ ذلك لا تَسقُطُ على الأرض، فتأمَّلوا قليلًا، من يا تُرى ذلك الذي أعطى الطُّيورَ القُدرةَ على أنْ تطيرَ في الفضاءِ لساعاتٍ طِوالٍ بحيث لا تسقُط؟ إنّها نموذَجٌ على قُدرةِ الله تعالى، وهو الذي يُراقبُ كلَّ شيءٍ ويراه.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾

١٧ ـ كان كفّارُ مكةَ يعتقِدونَ أنّ قوّتَهم العدَديّةَ، وأفواجَ أصنامِهم، سيُنقِذونَهم من عذابِ الله تعالى، ولكنّ هذا وَهْمٌ كبيرٌ وخِداعٌ عاشُوا فيه، فقد مَضَت أُممٌ من قبلِهم أكثرُ منهم عددًا، ولم يستطيعوا إنقاذَ أنفُسِهم من عذابِ الله تعالى؛ لأنّ اللهَ تعالى هو خالقُ كلِّ شيءٍ في الكائنات، ولا يمكنُ لمخلوقٍ أن يتساوى معَ خالقِه.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾

١٨ ـ يعني: لو لم يُنزِلِ اللهُ تعالى المطرَ، أو لو أنه مَنَع الأرضَ من الإنبات، فمَن ذلك الذي يُهيِّئُ لكمُ الرِّزقَ عندئذٍ؟ إنكم عندها ستَتضوَّرونَ جُوعًا، وستَزهَقُ أرواحُكم من الجُوع، ولن يكونَ هناك مَن يسألُ عنكم، ولكنّ كفّارَ مكّةَ أصحابُ عنادٍ شديدٍ وتعصُّبٍ مَقيتٍ، ولا يقبَلونَ نصيحةً من أحد، وإنّما يُصِرُّونَ على طُغيانِهم وكراهيَتِهم للحق.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

١٩ ـ جاء في هذه الآيةِ مثالٌ للمؤمنِ والكافرِ، يعني: أنّ الكافرَ مثلُ ذلك الشَّخصِ

الذي يمشي مُكِبًّا على وجهِه، والأمرُ الأولُ هو أنّ اللهَ تعالى أَنْعم عليه بأقدام يمشي عليها، ولا يمكنُ لأيِّ إنسانٍ في هذه الدُّنيا أن يَطويَ سَفَرَه ماشيًا على وجهِه أو رأسِه، وإذا جَرَّب أحمَقُ أن يسيرَ عكسَ الفِطرة، فإنه لن يرى شيئًا عن يمينِه ولا عن يسارِه ولا من أمامِه، وسيظَلُّ طيلةَ اليوم يتعثَّرُ في المكانِ نفسِه، فلا يرى الطريقَ بشكل صحيح، ولا يستطيعُ الوصولَ إلى حيث يريدُ، وهذا هو مثالُ الكافر، فهو لا يستخدمُ عقلَه في البحث عن الطّريقِ القويم، ولهذا يبقَى دائمًا متخبّطًا في ضَلالِه.

أمّا مثالُ المؤمنِ فهو كالذي يمشي على قدمَيْه مستقيمًا، وينظُرُ عن يمينِه وعن يسارِه متحقِّقًا من الطريقِ القَويم متأكِّدًا منه، ويَجِدُّ في السَّير عليه، وهو بهذا سيصلُ في نهايةِ المطافِ إلى هدَفِه، والآنَ قرِّروا أنتم؛ منِ الذي يسيرُ على الطريق الصَّحيح، ومن الذي يَعْمَهُ في الضَّلال؟

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

٢٠ ـ اللهُ تعالى خَلَقَكم، وأعطاكمُ الآذانَ والأعيُنَ والقلوبَ والأفئدةَ، حتى تتدبَّروا في الكائناتِ وتتأمَّلُوها، وتَعرِفوا خالقَكم الحقيقيَّ، وتشكُروه على نِعَمِه، لكنْ للأسفِ الشَّديد! إنّكم قليلًا ما تشكُرونَ، فالآذانُ والأعيُنُ والقلوبُ والأفئدةُ نِعَمٌ عظيمةٌ، وإن أَرَدتُم معرفةَ قَدْرِ هذه النِّعم فاسأَلوا أعمىً أو أصمَّ أو مريضًا بالقلب.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

٢١ ـ خَلَقَكمُ اللهُ تعالى وجَعَلَكم تنتشِرونَ في الأرض، وسوف يَجمَعُكم يومَ القيامة في حضرتِه، حيث سيُحاسبُكم على أعمالِكم، فيُثيبُكم على حُسنِها، ويُعاقبُكم على سيِّئِها.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

٢٢ ـ عندما كان الكفّارُ يُنذَرُونَ بعذابِ القيامة، فلأنّهم كانوا يُنكرونَ يومَ القيامة، ويَعتبِرونَها مجرَّدَ تهديدٍ فارغ لهم من المسلمين، كانوا كثيرًا ما يقولونَ للنبيِّ ﷺ على سَبيل السُّخْرِية: إن كنتَ صادقًا في دعواكَ فمتى تأتينا الساعةُ التي تُحذِّرُنا منها إذًا؟ وقد قال النبيُّ ﷺ ردًّا عليهم: إنّ الذي يَعلمُ الوقتَ الصَّحيحَ لقيام السّاعةِ هو اللهُ تعالى وحدَه، وقد أُرسِلتُ لأُنذِرَكم بها، وليس من الضَّروريِّ أن يتحقَّقَ العلمُ بوقتِ قيام السّاعةِ لكي يتحقَّقَ الإنذارُ بها.

## وقت الموت ووقت القيامة

ويمكنُ استيعابُ هذه الحقيقةِ من خلالِ المثالِ التالي، يعني: مثلَما نَعلمُ جميعًا أنّ كلَّ إنسانٍ لا بدَّ سيموتُ في يوم من الأيام، ولكنَّنا لا نَعلمُ وقتَ وفاتِه، ومعَ ذلك فإنّنا نؤكِّدُ على كلِّ إنسانٍ أن يُسرعَ إلى عمَل كلِّ ما يلزَمُه عمَلُه قبلَ الموت؛ لأنّ الموتَ يأتي فجأةً، ولن يجدَ عندَها فرصةً لعمَل شيء، وبنفسِ الطريقةِ فإنّنا جميعًا على يقينٍ من أنّ الساعةَ ستقومُ، ولكنَّنا لا نَعلمُ الوقتَ المحدَّدَ لها، وبالرَّغم من ذلك ينبغي أن نَستمرَّ في التأكيدِ على كلِّ إنسانٍ أن يخشَى القيامةَ، وأن لا يفعَلَ شيئًا يندَمُ عليه عندَ قيامِها.

## الحكمة من إخفاء العلم بالقيامة

يَنقُلُ العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي عن الباحثينَ والمحقِّقينَ قولَهم بأنّ «السَّببَ في إخفاءِ السّاعةِ عن العباد أنّهم إذا لم يَعلَموا متى تكونُ كانوا على حَذَرٍ منها، فيكونُ ذلك أدعَى إلى الطاعة، وأَزْجَرَ عن المعصية»[١]، ولهذا السَّببِ أيضًا

---

(١) التفسير الكبير، سورة الأعراف (٧): الآية ١٨٧.

أخفَى اللهُ تعالى وقتَ الموتِ عن عامّةِ الناس؛ لأنه إذا أُخْبِر أحدٌ أنه سيموتُ بعدَ عشْرِ سنواتٍ مثلًا، فمنَ الممكنِ أن يتغلَّبَ عليه الشّيطانُ، فيقرِّرَ أن يقضيَ تسعَ سنواتٍ من العشْرِ في اللَّهوِ واللَّعب، ثم يتوبَ بعدَ ذلك، أو أن يتملَّكَه الخوفُ من الموتِ بحيث يترُكُ كلَّ الأعمال ويتفرَّغُ للعبادةِ فقطْ، ويعيشُ أهلُ بيتِه في فَقْرٍ مُدقِع، والحالتانِ غيرُ محمودتَيْنِ له. وباختصار: أخفَى اللهُ تعالى وقتَ قيام السّاعةِ عن عامّةِ الناس حتى يعمَلوا على التخلُّص من الذُّنوبِ والآثام.

أمّا الأنبياءُ عليهمُ السَّلامُ فقد طَهَّرهُم اللهُ من الذُّنوبِ من الأصل، وهم يخشَوْنَ اللهَ تعالى في كلِّ حال، ولذا لم يكنْ هناك داعٍ لإخفاءِ وقتِ قيام السّاعة عنهم، وفي هذا الخصُوص يقولُ الشَّيخُ أحمدُ الصَّاوي: «إنّها من الأمرِ المكتوم الذي استَأْثَرَ اللهُ بعلمِه فلم يَطَّلعْ عليه أحدٌ إلّا منِ ارتضاهُ من الرسُل... والذي يجبُ الإيمانُ به أنّ رسولَ الله لم ينتقلْ من الدُّنيا حتى أعلَمَه اللهُ بجميع المغيَّباتِ التي تَحصُلُ في الدُّنيا والآخِرة، فهو يَعلَمُها كما هي عينَ يقينٍ لِما وَرَد: رُفِعَتْ ليَ الدُّنيا، فأنا أنظُرُ فيها كما أنظُرُ إلى كفِّي هذا، ووَرَد أنه اطَّلَعَ على الجنّةِ وما فيها والنارِ وما فيها، وغيرُ ذلك بما تواتَرتْ به الأخبارُ، ولكنْ أُمِر بكِتمانِ البعض»[1]، ولهذا أَخبرَ النبيُّ ﷺ بعلاماتِ الساعة، ولكنّه أخفى وقتَها، كما أنّ إرادةَ الله تعالى هي أن تقومَ السّاعةُ بَغْتةً، وألّا يعلَمَ الناسُ بها قبلَ وقوعِها، مثلَما جاء في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، وبنفسِ الطريقة، أخفى اللهُ تعالى وقتَ ليلةِ القَدْر، حتى يقضيَ الناسُ أكثرَ عددٍ من اللَّيالي في عبادتِه تعالى، كما أخفَى وقتَ قَبولِ الدُّعاءِ يومَ الجمُعةِ أيضًا، حتى يقضيَ الناسُ أكبرَ الوقتِ من يوم الجمُعةِ في ذِكرِه جَلَّ وعلا.

---

(١) حاشية الصاوي، سورة الأعراف (٧): الآية ١٨٧.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾

٢٣ ـ الكفّارُ اليومَ يقولونَ على سَبيل السُّخْرية: أين عذابُ القيامة؟ ولكنْ عندما يرَوْنَ العذابَ قدِ اقتربَ كثيرًا يومَ القيامة، ستتغيَّر وجوهُهم وتصبحُ مشوَّهةً من خوفِه وتسوَدُّ، وعندئذٍ سيُقال لهم: نعَمْ، هذا هو عذابُ القيامةِ الذي كنتُم تطالبونَ به مرةً بعدَ المرة، واليومَ لن ترَوْهُ فقطْ، وإنّما ستذوقُونَه أيضًا.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

٢٤ ـ كان كفّارُ مكّةَ يُطَمئِنُونَ رِفاقَهم قائلينَ لهم: لا حاجةَ لكم إلى الانزعاج من هذا الدِّينِ الجديد؛ لأنّ محمدًا شاعر، وسوف يموتُ، مَثَلُه مَثَلُ مَن سَبقَه من الشُّعراء، وعندئذٍ سيتفرَّقُ أصحابُه ﷺ، وينتهي دِينُه بنفسِه، فرَدَّ النبيُّ ﷺ قائلًا: سواءُ أماتَنيَ اللهُ تعالى أنا وأصحابي سريعًا أو رَحِمَنا وأطالَ في عمُرِنا، بمعنى: سواءٌ مِتْنا اليومَ أو بعدَ عشَرةِ أعوام، لن ينفَعَكم هذا الأمرُ بشيءٍ في كلتا الحالتَيْنِ، لأنّ العذابَ الأليمَ الذي ستَلقَوْنَه بسببِ كُفرِكم لن يستطيعَ أحدٌ أن يُنجيَكم منه.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

٢٥ ـ قال النبيُّ ﷺ للكفّارِ بأمرٍ من الله تعالى: سواءٌ آمنتُم باللهِ تعالى أم لم تؤمنوا، فإنّنا نؤمنُ به تعالى، ونتوكَّلُ عليه، ومَن يتوكَّلْ على الله فهُو حَسْبُه، وقريبًا ستَعرفونَ أنتم أيضًا في القبرِ ويومَ القيامة من هو في الضَّلال المبين، يعني: أنكم ستتيقَّنونَ ـ عندما ترَوْنَ عاقبتَكم الوخيمةَ ـ أنكم كنتُم في ضلالٍ مُبين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾

٢٦ ـ في هذه الآيةِ خطابٌ للكفّار، يعني: إذا جَفَّتِ المياهُ في الأنهارِ والعيون،

أوِ امتَصَّتِ الأرضُ الماءَ وجَذَبتْه إلى بطنِها، بحيث لا تستطيعونَ استخراجَه، عندئذ أخبِروني من أين ستَحصُلونَ على الماءِ الجاري النظيف؟ ومن أين ستشربُ أنعامُكم وتُروَى حقولُكم؟ إنّ هذا ـ من رحمةِ الله تعالى فقطْ ـ أنه لا يَحرِمُكم من نعمةِ الماءِ رَغْمَ عصيانِكم، ولهذا ينبغي لكم أن تشعُروا بنِعَم اللهِ هذه، وألّا تعبُدوا أحدًا سِواه.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين پيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعدَ صلاة المغرب من يوم الجمُعة ٢٦ أكتوبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٠ ذي القَعْدة ١٤٣١هـ**

**هذا وقد اكتَمل بفَضْل الله وكرمِه تفسيرُ سُورة «المُلك» في ثلاثةِ أيام فقط، أي: من ٢٦ إلى ٢٩ أكتوبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.**

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# (٦٨) سُورَةُ القَلَمِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «القَلَم»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها، وللسُّورةِ اسمٌ آخَرُ هو «ن والقَلَم»، وهو الكلماتُ الأُولى منها.

## أهمية القلم

جاءتِ الإشارةُ في بدايةِ هذه السُّورةِ إلى أهميّة القَلَم والكتابة، مثلَما قال سيّدُنا قَتادةُ: «القَلَمُ نعمةٌ من الله تعالى عظيمةٌ، لولا ذلك لم يَقُمْ دينٌ، ولم يَصلُحْ عيشٌ»(١).

واليومَ يوجَدُ القرآنُ الكريم وكذا الحديثُ الشَّريفُ مكتوبًا عندَنا، ومعَ ذلك فإنّ سُوقَ الاختلافاتِ رائجة، ويمكنُكَ أن تتصوَّرَ ماذا يمكنُ أن تكونَ عليه الاختلافاتُ لو لم يكنْ هذانِ المصدرانِ موجودَيْنِ في شكلٍ مكتوب.

## لم يكن النبي ﷺ مجنونًا

كان كفّارُ مكةَ يقولونَ عنه ﷺ: مجنونٌ! حسَدًا من عندِ أنفُسِهم وبُغضًا له، وقد رَدَّ اللهُ تعالى عليهم في الآيةِ الثانية من هذه السُّورةِ بأنْ أَقْسم مؤكِّدًا أنه ﷺ ليس مجنونًا، وإنما فَضْلُ الله عليه عظيمٌ، وأنه صاحبُ أخلاقٍ عظيمة، ومَن كان

---

(١) تفسير القرطبي، سورة العلق (٩٦): الآية ١.

فضلُ الله عليه عظيمًا، وصاحبَ أخلاقٍ عظيمةٍ، لا يمكنُ أن يكونَ مجنونًا، كما جاء الردُّ على كلام الكفّارِ في آخِرِ السُّورةِ أيضًا من الله تعالى بأنه إذا كان القرآنُ الكريمُ نصيحةً وهدايةً للعالَمين، فكيف يكونُ مجنونًا مَن نَزَل عليه هذا القرآنُ؟ ولهذا فإنّ نزولَ القرآنِ الكريم عليه ﷺ دليلٌ كافٍ على أنه ﷺ لم يكنْ مجنونًا، وإنّما كان تجسيدًا للعلم والحِكمة.

## لا تغتروا بالمال والثروة

أَنْعَم اللهُ تعالى على كفّارِ مكةَ بالمالِ والثَّروة، وكانت لهم مكانةٌ محترمةٌ وكريمةٌ بيْنَ العرب جميعًا، لكونِهم المتوَلِّينَ أمورَ الكعبة، ولكنْ لا يجبُ أن يغتَرُّوا بذلك؛ لأنّ هذا كلَّه ابتلاءٌ من الله تعالى، فإنْ لم يؤدُّوا شُكرَ الله تعالى على هذه النِّعَم، وأصَرُّوا على عصيانِهم له، فمنَ الممكِن أن يَنزِلَ العذابُ عليهم ممّا كان يَنزِلُ على العُصاةِ من الأقوام السابقة. وقد جاء في الآياتِ من **١٧** إلى **٣٣** ذِكرُ عُصاةٍ من الناس كان اللهُ قد أَنْعم عليهم بالمالِ والمكانة، ولكنْ عندما لم يَرجِعوا عن طُغيانِهم زالت كلُّ هذه النِّعَم وهَلَكتْ.

## دعوة إلى الكفار للتفكير

جاء التنبيهُ في الآياتِ من **٣٤** إلى **٤٧** على الكفّارِ ـ بطُرُقٍ مختلفة ـ بأنْ لا يَعصُوا اللهَ تعالى؛ لأنّ العُصاةَ والمطيعينَ لن يتساوَيا يومَ القيامة، وإنّما سيُصيبُ العصاةَ عندئذٍ الخِزيُ والعار، بينَما سيَدخُلُ المطيعونَ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهار.

## إيذاء الكفار للنبي ﷺ

في هذه السُّورةِ تعليمٌ للنبيِّ ﷺ بأنْ يصبِرَ على إيذاءِ الكفّارِ له، وأن ينتظرَ

حُكمَ الله فيما يتعلَّقُ بهم، وألّا يفعلَ مِثلَ سيّدِنا يونُسَ عليه السَّلام، حيث رَحَل عن قومِه دونَ أن ينتظرَ أمرَ الله له، وكانت نتيجةَ ذلك أنْ لبِثَ في بطنِ الحوتِ فترةً.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**قبلَ صلاة الفجر من يوم الأحد ٣١ أكتوبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٢ ذي القَعْدة ١٤٣١هـ**

❋ ❋ ❋

# سُورَةُ القَلَمِ (٦٨)،

## مكية (٢)، آياتها (٥٢)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

﴿نٓ﴾

١ ـ واحدٌ من الحروفِ المقطَّعات، وهو سِرٌّ بينَ اللهِ تعالى وبينَ رسولِه ﷺ،

ولمزيدٍ من التفصيل عنها راجع الحاشيةَ رقم ١ من سُورة البقرة، كما أنّ من مقاصدِ ذِكر الحروفِ المقطَّعات: إخبارَ المنكِرينَ بأنّ هذا القرآنَ مركَّبٌ من مِثل هذه الحروفِ التي يتكوَّنُ منها كلامُكم، ولهذا إذا كنتُم تعتقِدونَ أنه ليس كلامَ الله تعالى فأْتُوا بكلام مِثلِه.

﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾

٢ ـ المرادُ من القَلَم عندَ بعضِ المفسِّرين هو: القَلَمُ الذي يَكتُبُ القَدَرَ، مِثلَما يقولُ سيِّدُنا عُبادةُ بنُ الصّامتِ رضي الله عنه، من أنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّ أوّلَ ما خَلَق اللهُ القَلَمَ فقال له: اكتُبْ. قال: ربِّ، وماذا أكتُب؟ قال: اكتُبْ مقاديرَ كلِّ شيءٍ حتّى تقومَ السّاعة»[١].

وأكثرُ المفسِّرينَ على أنّ المرادَ بالقَلَم: جِنسُ القَلَم عمومًا، يعني: أنّ اللهَ تعالى أَقْسم بكلِّ قَلَم يُكتَبُ به في السَّماءِ والأرض[٢]، ففي الوَحْي الأوّل للقرآنِ الكريم ذِكرٌ للقَلَم العاديِّ، أي: من جِنس الأقلام، وهو الذي قال اللهُ تعالى فيه: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [العلق: ٣-٤].

## الوحي الأول والثاني للقرآن المجيد

تقولُ السيِّدةُ عائشةُ الصدِّيقةُ رضي الله عنها: إنّها (أي: سُورةَ العَلَق) أوّلُ سُورةٍ أُنزِلت على رسُولِ الله ﷺ، ثم بعدَها ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾[٣]. يعني: أنه لم يَنزِلْ حُكمُ

---

(١) أبو داود، كتاب السنة، باب ١٦ برقم ٤٧٠٠.

(٢) «والقلم أكثر المفسرين على أن المراد به جنس القلم الذي يكتب به، أقسم الله سبحانه بكل قلم يكتب به في السماء وفي الأرض». التفسير المنير، سورة القلم (٦٨): الآية ١.

(٣) تفسير القرطبي، سورة العلق (٩٦): الآية ٤.

الصّلاةِ أو الصِّيام أو الزَّكاةِ أو الحجِّ في الوَحْي الأوّل ولا في الوّحْي الثاني للقرآنِ الكريم، وإنّما جاء فيهما ذِكرُ العِلم والقَلَم، وفي السُّورة الثانية أَقْسم اللهُ بالقَلَم، واسمُ السُّورة كلِّها «القَلَمُ» أيضًا، ويمكنُكَ من خلالِ هذا كلِّه التعرُّفُ على مدى أهميّة القَلَم والكتابة، والحقيقةُ أيضًا هي أنّ الكتابةَ تَفضُلُ القراءةَ؛ لأنّ المقروءَ يُنسَى، والمكتوبَ يُحفَظ، مثلَما يقولُ سيّدُنا عُمرُ الفاروقُ رضي الله عنه: «قَيِّدوا العِلمَ بالكتاب»[1].

## دم الشهيد ومداد القلم

لقد أحدَث الحاسبُ الآليُّ (الكمبيوتر) ثورةً في عصرِنا الحاضر، فقد أتَى بمعلوماتِ الدُّنيا كلِّها مجتمِعةً ووَضَعها أمامَنا على المِنضَدة، والحاسبُ الآليُّ (الكمبيوتر) في الواقع ما هُو إلّا صورةٌ متطوِّرةٌ من صُوَرِ الكتابة، وأمامَ أهميّةِ الكتابة هذه قال النبيُّ ﷺ قبلَ ألفٍ وأربعِمائة عام: «يوزَنُ يومَ القيامة مِدادُ العلماءِ ودَمُ الشُّهداء، فيَرجَحُ مِدادُ العلماءِ على دم الشُّهداء»[2]، ولكَ أن تتخيَّل كيف أنّ شهيدًا ضَحَّى بدمائه ورُوحِه في سَبيل وطنِه وأُمّتِه، وحصَل على درجةِ الشّهادةِ بفَضْل هذه التضحية، لكنّ مِدادَ قَلَم عالِم يَفضُلُ دمَ هذا الشَّهيد، ويبدو ـ في الظاهرِ ـ أنّ فَهْمَ هذا الأمرِ صعبٌ، ولكنَّك إن تمعَّنتَ في المثالِ التالي سيَسهُلُ فَهْمُه. يَعلَمُ اللهُ كم من الناسِ قدِ استَشهَدوا في زمنِ الإمام البخاريِّ، فضحَّوْا بدمائهم، واستحَقُّوا بذلك الجنّةَ، وندعو اللهَ تعالى أن يرفعَ درجاتِهم، لكنَّنا لا نعلمُ حتى أسماءَ هؤلاءِ الشُّهداء، أمّا الإمامُ البخاريُّ الذي دَوَّن بمدادِ قلمِه أحاديثَ النبيِّ ﷺ، فإنّ هذه الأحاديثَ النَّبويّةَ هي التي تُرشدُ الناسَ وتَهديهم منذُ ألفٍ ومائتَيْ عام، وستظَلُّ كذلك إلى قيام الساعة.

---

(١) الدارمي، المقدمة، باب ٤٣.

(٢) كنز العمال، ١٠ : ٤١ برقم ٢٨٨٩٩.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾

٣ ـ أَقْسم اللهُ تعالى ـ معَ القَلَم ـ بما يُكتَبُ بالقَلَم أيضًا، وبه تَبرُزُ أهميّةُ الكتابةِ والتأليف، فما المرادُ بـ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ في هذه الآية؟ إذا فَهِمناهُ على أنه قَلَمُ التقدير، فقد جاء في صيغةِ الجَمْع وإن كان مفرَدًا تعظيمًا له وتكريمًا، مثلَما نستعملُ صيغةَ الجَمْع لرجُل عظيم تكريمًا له، وإذا فَهِمناهُ على أنه جِنسُ القَلَم عمومًا، سيكونُ المرادَ عندئذٍ الملائكةُ الذين يَكتُبونَ صحائفَ الأعمال، أو العلماءُ الذين يكتُبونَ علومَ الدِّين.

## كتابة القرآن الكريم

عيَّن النبيُّ ﷺ جماعةً من الصَّحابةِ المَهَرةِ في الكتابةِ لكتابةِ القرآنِ الكريم، وكان يقالُ لهذه الجماعة: «كُتّابُ الوَحْي»، فكلما نَزَلتْ آيةٌ كان النبيُّ ﷺ يقولُ لهم أن يَكتُبوها في المكانِ الفُلانيِّ، وهكذا كُتِب القرآنُ الكريمُ كلُّه بإشرافِ النبيِّ ﷺ ورعايتِه المباشِرة، ولكنّ هذه الكتاباتِ لم تكنْ مُدوَّنةً في شكل كتابٍ، وإنّما دُوِّنت على الأوراقِ والأحجارِ والعظام وما شابَهَ.

وكانت أهمَّ وسيلةٍ لحفظِ القرآنِ في ذلك الوقتِ هو حِفظُه شَفَهيًّا، وكان النبيُّ ﷺ نفسُه يحفَظُ القرآنَ الكريم، وحَثَّ الصّحابةَ الكرامَ على حفظِه أيضًا، وكان نتيجةُ ذلك أنّ كثيرًا من الصّحابةِ الكرام رضي الله عنهم أيضًا حَفِظوه شفَهيًّا.

وبعدَ انتقالِ النبيِّ ﷺ إلى الرَّفيقِ الأعلى استُشهِدَ مئآتٌ من حُفّاظِ القرآنِ الكريم، فخافَ الصّحابةُ الكرامُ رضي الله عنهم أن يصبحَ حِفظُ القرآنِ الكريم صعبًا إذا استمرَّ استشهادُ حُفّاظِه بهذه الوَتِيرة، وهكذا جُمِع القرآنُ الكريمُ بأمرِ سيِّدِنا أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنه في شكل كتابٍ تحتَ إشرافِ ورعايةِ كُتّابِ الوحي الأَصْليِّين، وظلَّ القرآنُ بعدَ تدوينِه في شكل كتابٍ يُحتفَظُ به عندَ خليفةِ العصر.

وقد كان العربُ هم المخاطَبينَ الأُوَلَ للقرآنِ المجيد، وكانت لَهَجاتُ القبائل العربيَّة يختلفُ بعضُها عن بعضٍ، وكانوا يقرَأونَ القرآنَ الكريمَ كلٌّ بلهجتِه ولهجةِ قبيلتِه، ولأنّ لغتَهم الأُمَّ هي اللُّغةُ العربيّة، لهذا لم يكنْ هناك خوفٌ من وقوع لَبْسٍ أو خطأٍ في الفَهْم بسببِ اختلافِ اللَّهجات، ولكنْ حينَ انتشَرَ الإسلامُ خارجَ حدودِ شبهِ الجزيرةِ العربيّة، ووَصَلَ إلى أماكنَ وبلادٍ مختلفة، وأخَذَ غيرُ العربِ في تعلُّم القرآنِ الكريم من القبائل العربيّةِ المختلفةِ بلَهَجاتِهم المختلفةِ أيضًا، وبالتالي كان من الطبيعيِّ ظهورُ الاختلافاتِ في القراءة، وهكذا أمَرَ سيّدُنا عثمانُ رضي الله عنه بكتابةِ القرآنِ الكريم بلهجةِ قُريش، ووَزَّع نُسَخًا منه على كلِّ البلادِ الإسلاميّةِ التي تنتشرُ اليومَ في رُبوع العالَم، وليس بينَها أدنى اختلافٍ ولو بقَدْرِ ذَرّةٍ.

## تدوين الحديث الشريف

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: كنتُ أكتُبُ كلَّ شيءٍ أسمَعُه من رسولِ الله ﷺ أريدُ حِفظَه، فنهَتْني قُريشٌ، وقالوا: تكتُبُ كلَّ شيءٍ سمِعتَه من رسول الله ﷺ ، ورسولُ الله ﷺ بشَرٌ يتكلَّمُ في الغضَبِ والرّضا؟ فأمسَكتُ عن الكِتاب، فذَكَرتُ ذلك لرسول الله ﷺ ، فأَوْمَأَ بإصبعِه إلى فيه، وقال: «اكتُبْ، فوالّذي نَفْسي بيدِه، ما خَرَج منه إلّا حقٌّ»[1].

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾

٤ ـ المجنونُ يقالُ لذلك: الشَّخصِ الذي يقَعُ فُتورٌ في عقلِه، فلا يستطيعُ التمييزَ بينَ الصِّدقِ والحِكمة والحَماقةِ والأمانةِ والخِيانة، ويتكلَّمُ بكلام غيرِ

(١) الدارمي، المقدمة، باب ٤٣.

مترابِط وبلا معنى، لكنّ النبيَّ ﷺ كان في أعلى مراتِب الصِّدقِ والأمانةِ ويقَظةِ الضَّمير، ومعَ ذلك عندَما كان كفّارُ مكّةَ يقولونَ عنه: إنه مجنونٌ، كان النبيُّ ﷺ يتأذَّى كثيرًا من هذا الكلام، أيُّ حَمْقَى هؤلاء! لقد ظَلُّوا أربعينَ عامًا كاملةً يدعونَني الصّادقَ الأمينَ، ويحتَفِظونَ بأماناتِهم عندي، ويُحكِّمونَني بينَهم في خلافاتِهم، والآنَ يقولونَ عنِّي: مجنون!

وفي هذه الآياتِ أبطَلَ اللهُ تعالى ما يقولُه كفّارُ مكةَ من جانب، فأَقْسم مؤكِّدًا على أنّ النبيَّ ﷺ ليس مجنونًا، بل إنّ فضلَ اللهِ تعالى عليه خاصٌّ وعظيم، حيث أَنْعم عليه بنعمةِ النُّبوة، ومن يتفضَّلُ اللهُ عليه لا يكونُ مجنونًا، وإنّما يكونُ معلِّمًا للناسِ وهاديًا لهم، ومن جانبٍ آخَرَ سَرَّى اللهُ تعالى عن قلبِ النبيِّ ﷺ بأنْ يا رسولَ الله ﷺ، إنّك تَعلَمُ تمامًا أنك لستَ مجنونًا، وأنك بفَضْل الله نبيُّ الله تعالى، واللهُ تعالى سيَجزيكَ على تبليغ الإسلام بكلِّ هذا الثَّباتِ والاستقامة، رَغْمَ إيذاءِ كفّارِ مكةَ المستمرِّ لك، أجرًا لا ينتهي أبدًا، وسيأتي وقتٌ قريبٌ للغايةِ حيث ستَرى أنت، ويَرى كفّارُ مكةَ أيضًا، مَن مِنكم المجنونُ.

يعني: أنّهم هم المجانينُ في الحقيقة، وسوف يشاهِدونَ بأنفُسِهم جنونَهم هذا سريعًا، وهكذا عندَما بدَأَ العربُ يَدخُلونَ في دِينِ الله أفواجًا بعدَ فَتْح مكّةَ، تيقَّن الجميعُ من أنّ النبيَّ ﷺ ليس مجنونًا، وإنّما نبيُّ اللهِ تعالى.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

٥ ـ عندما يمدَحُ الإنسانُ أحدًا فقد يكونُ لسُوءِ الفَهْم أو المبالغةِ أو الطَّمَع أو الخوفِ دَخْلٌ في ذلك، ولكنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَق، وهو المستغني، وهو العالِمُ بأسرارِ القلوب، فإذا مَدَح اللهُ تعالى أحدًا أو أثنَى عليه، فلا مجالَ إذًا للزِّيادةِ أو النُّقصانِ فيه، والآنَ يمكنُكَ أن تقرِّرَ بنفسِك، إذا قال شخصٌ ـ عن الإنسانِ الذي

يقولُ عنه اللهُ تعالى: إنه على خُلُقٍ عظيمٍ - إنه مجنون، ألا يكونُ هو نفسُه المجنونَ؟ لأنّ كلامَ الله تعالى لا يمكنُ أن يكونَ خاطئًا.

## ومضات من حسن أخلاق النبي ﷺ

١ - يقولُ سيّدُنا مالكٌ رضي الله عنه: إنه بَلَغَه أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «بُعِثتُ لأُتمِّمَ حُسنَ الأخلاق»[1].

٢ - يقولُ سيّدُنا ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أَدَّبني ربّي فأحسَنَ تأديبي»[2].

٣ - يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: قيل: يا رسولَ الله، ادعُ على المشركين، قال: «إنّي لم أُبعَثْ لَعّانًا، وإنّما بُعِثتُ رحمةً»[3].

٤ - يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنه: خَدَمتُ النّبيَّ ﷺ عشْرَ سنينَ فما قال لي: أفٍّ قطّ، وما قال لشيءٍ صنَعتُه: لمَ صنعتَه؟ ولا لشيءٍ تركتُه: لمَ تركتَه؟ وكان رسولُ الله ﷺ من أحسنِ النّاس خُلُقًا، ولا مَسَسْتُ خَزًّا قطّ ولا حَريرًا ولا شيئًا كان ألينَ من كفِّ رسولِ الله ﷺ، ولا شَمَمْتُ مِسكًا قطُّ ولا عِطرًا كان أطيبَ من عَرَقِ النّبيِّ ﷺ»[4].

٥ - يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: ما عابَ النّبيُّ ﷺ طعامًا قطُّ، إنِ اشتَهاهُ أكلَه، وإلّا تَرَكَه[5].

---

(١) الموطأ، كتاب حسن الأخلاق، باب ١.

(٢) الجامع الصغير ١: ٢٥ برقم ٣١٠، وكنز العمال ١١: ٤٠٦ برقم ٣١٨٩٥.

(٣) مسلم، كتاب البر، باب ٢٤ برقم ٦٦١٣.

(٤) الترمذي، أبواب البر، باب ٦٩ برقم ٢٠١٥.

(٥) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٣ برقم ٣٥٦٣.

٦ ـ يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي الله عنه: ما سُئلَ النّبيُّ ﷺ عن شيءٍ قطُّ فقال: لا[١].

٧ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: ما ضَرَب رسولُ الله ﷺ شيئًا قطُّ بيدِه ولا امرأةً ولا خادمًا إلّا أنْ يجاهدَ في سَبيل الله[٢].

٨ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بينَ أمرَيْنِ قطّ إلّا أخَذ أيسَرَهما، ما لم يكنْ إثمًا، فإنْ كان إثمًا كان أبعدَ النّاسِ منه، وما انتقم رسولُ الله ﷺ لنفسِه في شيءٍ قطُّ، إلّا أن تُنتهَكَ حُرمةُ الله، فينتقمُ بها لله[٣].

٩ ـ قال كفّارُ مكةَ عن النبيِّ الكريم ﷺ: إنه ساحرٌ ومجنونٌ، وقاطَعوه اجتماعيًّا، وتآمَروا على قتلِه ﷺ، وأجبَروه على الهجرةِ من مكةَ المكرّمة، وقَتَلوا عمَّه سيّدَنا حمزةَ رضي الله عنه ومَثَّلوا بجُثّتِه، ولكنْ حين فَتَح النبيُّ ﷺ مكةَ بعدَ ثماني سنواتٍ، خَطَب في هؤلاءِ الأعداءِ الألِدّاءِ داخلَ حَرَم الكعبةِ قائلًا: «يا معشَر قُريشٍ، ما ترَوْنَ أنّي فاعلٌ فيكم؟»، قالوا: خيرًا، أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: «أقولُ كما قال أخي يوسُف: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، اذهَبوا وأنتم الطُّلَقاءُ»[٤]، وهذا المِثالُ الذي ضَرَبَه النبيُّ ﷺ في العفوِ والتسامح وحُسن الخُلُق، لا نجدُ له مثيلًا في التاريخ الإنسانيِّ، فلمّا رأى أهلُ مكةَ هذا الكرَمَ العظيمَ من النبيِّ ﷺ تقدَّموا أفواجًا، وأَسْلَموا على يدَيْه الطاهرتَيْنِ.

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣٩ برقم ٦٠٣٤.

(٢) مسلم، كتاب الفضائل، باب ٢٠ برقم ٢٣٢٨.

(٣) البخاري، كتاب الأدب، باب ٨٠ برقم ٦١٢٦.

(٤) سبل الهدى والرشاد، ٥: ٣٦٤، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني، كتاب المغازي، باب دخول النبي ﷺ من أعلى مكة، ٨: ١٨ برقم ٤٢٨٩، وضياء النبي، المجلد ٤: ٤٤٥.

١٠ ـ يقولُ سيّدُنا عثمانُ بنُ طلحةَ رضي الله عنه، وهو من بني شَيْبَة، وكان لدَيْهِ مِفتاحُ الكعبة: لقِيَني رسولُ الله ـ ﷺ ـ بمكةَ قبلَ الهجرة، فدَعاني إلى الإسلام فقلتُ: يا محمد، العَجَبُ لك حيث تطمَعُ أن أتَّبِعَك وقد خالَفْتَ دِينَ قومِك وجئتَ بدينٍ محدَث، وكنّا نفتَحُ الكعبةَ في الجاهليّة الاثنينِ والخميسَ، فأَقْبَلَ يومًا يريدُ أن يَدخُلَ الكعبةَ معَ النّاسِ فأَغْلظتُ عليه ونِلتُ منه، فحَلُم عنّي، ثم قال: «يا عثمان، لعلّك ستَرى هذا المِفتاحَ يومًا بيدي أضَعُه حيث شئتُ»، فقلتُ: لقد هَلَكتْ قُريشٌ وذَلَّت. قال: «بل عَمَرتْ يومَئذٍ وعَزَّت»، ودَخَل الكعبةَ، فوَقَعتْ كلمتُه منّي موقعًا فظَنَنْتُ أنّ الأمرَ سيصيرُ كما قال، فأردتُ الإسلامَ، فإذا قومي يَزجُرونَني زَجْرًا شديدًا (أي: وتخَلَّى عن إرادتِه في ذلك)، فلمّا كان يومُ الفَتْح قال لي: «يا عثمان، ائتِ بالمفتاح» فأتَيْتُه به. فأخَذَه منّي، ثم دَفَعَه إليّ وقال: «خُذوها خالدةً تالدةً لا يَنزِعُها منكم إلّا ظالمٌ، يا عثمان، إنّ اللهَ استَأْمنَكم على بيتِه، فكُلوا ممّا وَصَل إليكم من هذا البيتِ بالمعروف»، فلمّا ولَّيتُ ناداني، فرَجَعتُ إليه، فقال: «ألم يكنِ الذي قلتُ لك؟» فذَكَرتُ قولَه لي بمكةَ قبلَ الهجرة: «لعلّك ستَرى هذا المِفتاحَ يومًا بيدي أضَعُه حيث شئتُ»، فقلتُ: بلى. أشهَدُ أنك رسولُ الله[1]. وهكذا، مَضَتْ ألفٌ وأربعُمائةِ سنة، ولا يزالُ مِفتاحُ الكعبة يتنقلُ في ذُرِّيةِ سيّدِنا عثمانَ بن طلحةَ رضي الله عنه، وسيبقَى هكذا حتى يوم القيامةِ يقينًا، وهذه معجزةٌ حَيّةٌ للنبيِّ ﷺ، ونموذَجٌ رائعٌ لإحسانِ النبيِّ ﷺ ولحُسن أخلاقِه ردًّا على قَسْوةِ سيّدِنا عثمانَ بن طلحةَ رضي الله عنه في الحديثِ معه.

١١ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ: «لم يكنْ فاحشًا ولا متفحِّشًا، ولا صَخّابًا في الأسواقِ، ولا يَجْزي بالسَّيّئةِ السّيّئَة ولكنْ يعفو ويصفَح[2].

---

(١) سبل الهدى والرشاد، ٥: ٣٦٦، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني، وكتاب المغازي، باب دخول النبي ﷺ من أعلى مكة برقم ٤٢٨٩.

(٢) الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ٦٩ برقم ٢٠١٦.

١٢ ـ سَأَل سيّدُنا سعدُ بنُ هشام رضي الله عنه السيّدةَ عائشةَ رضي الله عنها عن خُلُقِ النبيِّ ﷺ فقالت: ألستَ تقرَأُ القرآنَ؟ قلتُ: بلى. قالت: فإنّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كان القرآنَ[١]، يعني: أنّ كلَّ ما جاء في القرآنِ الكريم حقَّقه النبيُّ ﷺ عمليًّا.

وما أحسَنَ ما قاله سيّدُنا أحمدُ رضا خان:

**ـ قال الحقُّ عن خُلُقِك: عظيمٌ، وجَمَّل الحقُّ خَلْقَك.**

**ـ أَقْسم بمَن خَلَق حُسنَك وجَمالَك، لم يولَدْ مِثلُك يا سيِّدي ولن يولَدَ.**

**ـ أعطاك اللهُ مرتبةً ومقامًا لم ولن يَنالَه غيرُك.**

**ـ فقد أَقْسم القرآنُ الكريمُ بمدينتِك وكلامِك وخُلودِك يا سيِّدي.**

١٣ ـ يقولُ العلّامةُ ابنُ حجرٍ العَسْقلانيُّ والعلّامةُ ابنُ الأثير: إنّ قُطّاعَ الطُّرقِ من بني قَيْس هاجَموا قبيلةَ أُمِّ زيد، ونَهَبوا متاعَ البيت، وأخَذوا زيدًا معَهم عَنْوةً، وباعوهُ في سوقِ عُكاظ، حيث اشتراه حَكيمُ بنُ حِزام بأربعِمائة درهم وأهداهُ لعمَّتِه السيِّدةِ خديجةَ رضي الله عنها، ولمَّا تزوَّجتِ السيّدةُ خديجةُ رضي الله عنها برسولِ الله ﷺ أهدَتْه زيدًا، فقام النبيُّ ﷺ في نَفْس الوقتِ بإعتاقِه واتّخَذ منه ابنًا له.

وسافَرَ حارثةُ والدُ زيدٍ إلى مناطقَ عديدةٍ بحثًا عن ابنِه، وذاتَ يوم عَرَف أنّ ابنه في مكةَ، «فخَرَج حارثةُ وكعبٌ أخوُه بفِدائه، فقَدِما مكةَ، فسأَلا عن النّبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، فقيل: هو في المسجد، فدَخَلا عليه، فقالا: يا ابنَ عبدِ المطَّلِب، يا ابنِ سيِّدِ قومِه، أنتم أهلُ حَرَم الله تَفُكُّونَ العانيَ وتُطعِمونَ الأسير، جئناكَ في وَلَدِنا عبدِك، فامنُنْ علينا، وأحسِنْ في فدائه، فإنّا سنرفَعُ لك. قال: «وما ذاك؟»، قالوا: زيدُ بنُ حارثةَ. فقال: «أوَ غيرَ ذلك؟ أَدْعوهُ، فخيِّروه، فإنِ اختارَكم فهُو لكم بغير

---

(١) مسلم، كتاب المسافرين، باب ١٨ برقم ١٧٣٩.

فداءٍ، وإنِ اختارني فو الله ما أنا بالذي أختارُ ـ على مِن اختارني ـ فِداءً»، قالوا: زِدتَنا على النَّصَف، فدَعاه، فقال: هل تعرفُ هؤلاءِ؟ قال: نعم، هذا أبي وهذا عمّي، قال: فأنا مَن قد عَلِمتَ، وقد رأيتَ صُحبتي لكَ فاختَرْني أو اختَرْهما. فقال زيدٌ: ما أنا بالذي أختارُ عليكَ أحدًا، أنتَ منِّي بمكانِ الأبِ والعمّ. فقالا: وَيْحَك يا زَيْد! أتختارُ العبوديّةَ على الحُرِّية، وعلى أبيكَ وعمِّك وأهل بيتِك؟ قال: نعَمْ، إنّي قد رأيتُ من هذا الرجُل شيئًا ما أنا بالذي أختارُ عليه أحدًا. فلمّا رأى رسولُ الله ﷺ ذلك أَخْرجَه إلى الحَجَر، فقال: «اشهَدوا أنّ زيدًا ابني، يَرِثُني وأرِثُه»، فلمَّا رأى ذلك أبوهُ وعمُّه طابَتْ أنفُسُهما، وانصَرَفا، فدُعِي زَيْدَ بنَ محمد، حتى جاء اللهُ بالإسلام..... وقال ابنُ عُمر: ما كنّا ندعو زَيْدَ بنَ حارثةَ إلّا زيدَ بنَ محمّدٍ حتى نَزَلت: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] (أي: فنادوه بزيدِ بن حارثةَ)»[١]. وهذا هو سعيدُ الحظِّ زيدُ بنُ حارثة رضي الله عنه، والذي جَعَلَه النبيُّ ﷺ أميرًا على الجيشِ الإسلامي يومَ مؤتة، وقد استُشهِدَ رضي الله عنه في هذه المعركة.

## ومضات من حسن طباع النبي ﷺ

١ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال ذاتَ مرةٍ لأصحابِه: «إنّي لَأمزَحُ، ولا أقولُ إلّا حقًّا». قالوا: إنّك تُداعبُنا يا رسولَ الله. قال: «إنّي لا أقولُ إلّا حقًّا»[٢].

٢ ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ رجُلًا استَحْمَلَ رسولَ الله ﷺ فقال: «إنّي حامِلُك على ولدِ النّاقة». فقال: يا رسولَ الله، ما أصنَعُ بولدِ النّاقة؟ فقال

---

(١) أسد الغابة، ٢: ٢٣٨.

(٢) مجمع الزوائد، ٩: ١٧.

رسولُ الله ﷺ «وهل تَلِدُ الإبلُ إلّا النُّوقَ؟»[١]، فقد فَهِم هذا الرجلُ أنّ النبيَّ ﷺ يقول: صغيرِ النّاقة، بينَما كان يقصِدُ ابنَ الناقة.

٣ ـ يقولُ سيّدُنا الحَسَن رضي الله عنه: أتَتْ عجوزٌ إلى النّبيِّ ﷺ، فقالت: يا رسولَ الله، ادعُ اللهَ أن يُدخلَني الجنّةَ، فقال: «يا أُمَّ فلانٍ، إنّ الجنّةَ لا تَدخُلُها عجوزٌ»! قال: فوَلَّتْ تبكي، فقال: «أخبِروها أنّها لا تَدخُلُها وهي عجوزٌ، إنّ اللهَ تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧]»[٢]، فقد فَهِمتْ هذه العجوزُ أنّ النبيَّ ﷺ يتحدَّثُ عنها هي، ولهذا بَكَتْ، لكنّ النبيَّ ﷺ كان يَقصِدُ أنّ العجوزَ لن تدخُلَ الجنةَ؛ لأنّ كلَّ مَن في الجنّةَ من النِّساءِ سيكُنّ في عمُرِ الشباب، وستكونُ أعمارُهنَّ ما بين ٣٠ و٣٣ عامًا[٣].

٤ ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنّ رجلًا من أهل الباديةِ كان اسمُه زاهرًا، وكان يُهدي إلى النبيِّ ﷺ هديّةً من البادية، فيُجهِّزُه النبيُّ ﷺ إذا أراد أن يَخرُج. فقال النبيُّ ﷺ: «إنّ زاهرًا باديتُنا ونحن حاضِروه»، وكان ﷺ يُحبُّه، وكان رجلًا دَمِيمًا، فأتاهُ النبيُّ ﷺ يومًا وهو يبيعُ متاعَه، فاحتَضَنَه من خَلْفِه وهو لا يبصرُه. فقال: من هذا؟ أَرْسِلْني، فالتفَتَ، فعرَفَ النبيَّ ﷺ، فجَعَل لا يَأْلو ما أَلصَقَ ظهرَه بصَدْرِ النبيِّ ﷺ حين عَرَفَه، فجَعَل النبيُّ ﷺ يقول: «مَن يشتري هذا العبدَ؟»، فقال: يا رسولَ الله، إذًا ـ والله ـ تجِدُني كاسدًا. فقال النبيُّ ﷺ: «لكنْ عندَ اللهِ لستَ بكاسدٍ». أو قال: «أنت عندَ الله غالٍ»[٤]، في مِثل هذه المواقفِ يكونُ المرادُ بالعبدِ

---

(١) الترمذي، أبواب البر، باب ٥٧ برقم ١٩٩١.

(٢) شمائل الترمذي، ٢: ١١١، باب في صفة رسول الله ﷺ.

(٣) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ١٢ برقم ٢٥٤٥.

(٤) مسند أحمد، ٣: ١٦١، وشرح شمائل الترمذي، باب في صفة مزاح النبي ﷺ، ٢: ١٠٧.

في الظاهرِ هو الغلامَ، لكنّه كان ذلك الشَّخصَ الحُرَّ، وكان النبيُّ ﷺ يقصِدُ أنه عبدُ الله تعالى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾

٦ ـ اللهُ تعالى يَعلمُ تمامَ العلم أولئك الذين ضَلُّوا عن الطَّريقِ القَويم، كما يَعلمُ تمامَ العلم أيضًا الذين يَسيرونَ على هذا الطّريقِ رَغْمَ الصُّعوباتِ الجَمَّةِ التي يواجهونَها، وسيَجزي اللهُ تعالى يومَ القيامة كلًّا من الطائفتَيْنِ طِبقًا لأعمالِهم.

﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾

٧ ـ الذين رَفَضُوا الإيمانَ بكَ نبيًّا لا يمكنُ أن يكونوا مخلِصينَ لك، ولهذا لا تُبالِ بهم؛ لأنهم ـ أصلًا ـ يريدونَ أن تتخَلَّى عن بعضِ أحكام دينِك، حتى يترُكوا هم أيضًا بعضَ أحكام شِركِهم[1]، ولو بَدَأت سِلسلةُ التعديل والتَّرميم هذه في دينِ الإسلام، فسيأتي يومٌ ينتهي فيه هذا الدِّينُ تمامًا، ولهذا لا تنخدِعْ بكلامِهم، واثبُتْ على أحكام دِينِك كلِّها.

النبيُّ يكونُ معصومًا من الذُّنوب، ولا يمكنُ أن يفكِّرَ مجرَّدَ التفكيرِ في حَذْفِ أيِّ حُكم من أحكام الدِّين، ولهذا فإنّ في هذه الآياتِ تنبيهًا للأُمّةِ المسلمةِ من خلالِ سيِّدِنا محمدٍ ﷺ بأنْ لا يَنخدِعوا بكلام الكفّارِ فيما يتعلَّقُ بالدِّين.

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾

٨ ـ يقولُ المفسِّرونَ: «نَزَلتْ في الوليدِ بن المُغيرة»[2]، وفي هذه الآياتِ تسريةٌ

---

(١) «قال الحسن: «ودّوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم». تفسير القرطبي.

(٢) صفوة التفاسير.

عن قلبِ النبيِّ ﷺ بأنْ لا يَحزَنَ ولا يغتمَّ من الكلام الجارح لذلك الخَبيث، إذ إنه سيكونُ ذليلًا مَخْزِيًّا إلى الأبد.

يُروَى أنّ «الآيةَ لمّا نَزَلت جاءَ الوليدُ إلى أُمِّه فقال لها: إنّ محمدًا وَصَفَني بتسع صفاتٍ، كلُّها ظاهرةٌ فيَّ أعرِفُها غيرَ التاسع منها، يريدُ أنه ﴿ زَنِيمٍ ﴾، فإنْ لم تَصدُقيني ضَرَبتُ عُنقَكِ بالسيف، فقالت له: إنّ أباك كان عِنِّينًا أي: لا يستطيعُ معاشَرةَ النِّساء ـ فخِفتُ على المالِ فمكّنتُ راعيًا من نَفْسي، فأنت ابنُ ـ ذلك الراعي»[1].

## ذم النميمة

تقولُ السيِّدةُ أسماءُ بنتُ يزيدَ بن سَكَنٍ الأنصاريّةُ رضي الله عنها: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ألا أُخبرُكم بخِيارِكم؟»، قالوا: بلى، قال: «فخِيارُكم الّذين إذا رُؤوا ذُكِر اللهُ تعالى، ألا أُخبرُكم بشِرارِكم؟»، قالوا: بلى، قال: «فشِرارُكم المفسِدونَ بينَ الأحِبّة، المَشّاءونَ بالنّميمة، الباغُونَ البُرَآءَ العَنَتَ»[2].

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾

٩ ـ يعني: أنّ ذلك الشَّخصَ كان قد قَطَع شوطًا كبيرًا في الطُّغيانِ والغرورِ بسببِ كثرةِ مالِه وأولادِه، بحيث أنه كان يقولُ عندَما تُتلَى عليه آياتُ الله تعالى: إنّ هذه قَصَصٌ كاذبةٌ من قَصَصِ السابقين.

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾

١٠ ـ الأنفُ هو العضوُ الأعلى في الوجه، وهو مَظهَرٌ من مظاهرِ الجمالِ في الإنسان، فمَن كان أنفُه مجدوعًا، أو مُشوَّهًا كان قبيحَ المنظر، ولهذا تُستخدَمُ

---

(١) صفوة التفاسير.

(٢) مسند أحمد، ٦: ٤٥٩.

عباراتٌ مِثلُ: جَدْع الأنفِ وتشويهِه وقَطْعِه وغيرِها للدِّلالةِ على الذُّلِّ والخِزْي للإنسان، وقدِ استعمَلَ اللهُ تعالى أيضًا تعبيرَ تشويهِ الأنفِ وكَيِّه على سَبيل الكنايةِ لبيانِ ذُلِّ الوليدِ وخِزْيِه، يعني: أنّنا سنضَعُ على أنفِه الكبيرِ شبيهَ خُرطوم الفيل وَصْماتِ العارِ والذُّلِّ قريبًا، بحيث لا يستطيعُ أن يُريَ وجهَه لأحدٍ أو يُواجهَه، وهكذا عندَما تيقَّن الناسُ من أنه ذو أصل سيِّءٍ بعدَ نزولِ هذه الآية وتأكيدِ أُمِّه لها، كانوا يكرَهونَه ويَنفِرونَ منه بمجرَّدِ رؤيةِ وجهِه.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾

١١ ـ أَنْعم اللهُ تعالى على كفّارِ مكّةَ بالمالِ والثَّروة، كما أَنْعم عليهم بالمكانةِ الرَّفيعةِ والاحترام في شِبهِ الجزيرةِ العربيّةِ كلِّها لكَوْنِـهم القائمينَ على خِدمةِ الكعبة، ولكنْ لا ينبغي لهم أن يَغترُّوا بهذا الأمر؛ لأنّ هذا ابتلاءٌ لهم من الله تعالى، فإنْ لم يؤدُّوا شُكرَ هذه النِّعَم، وظَلُّوا مُصِرِّينَ على عصيانِهم لله، فسيُصيبُهم أيضًا ذلك العذابُ الذي أصابَ العُصَاةَ من الأُمم السابقة. وفي الآياتِ الستَّ عشْرةَ التاليةِ جاء الحديثُ عن قصّةِ عُصاةٍ مثلِ هؤلاءِ أَنْعم اللهُ عليهم بالمال والاحترام، لكنْ عندَما لم يَرجِعوا عن طُغيانِهم أَهْلَك كلَّ ما لدَيْهم ودمَّرَه، وقد بيَّنَ المفسِّرونَ هذه الواقعةَ بألفاظٍ وأسلوبٍ مختلف، وأنا هنا أُقدِّمُ خُلاصةَ كلِّ ما أَوْردوه:

كان أحدُ الأغنياءِ يعيشُ بالقربِ من صنعاءَ في اليمن، وكان رجُلًا صالحًا من متَّبِعي سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام، وقد جَعَل من بعضِ أرضِه بُستانًا من العِنَب، بينَما كان يزرَعُ الجزءَ الآخَرَ منها بمحاصيلَ أخرى، وكان من عادةِ هذا الرَّجُل الصَّالح أنه عندَما ينضِجُ المحصولُ ويَحينُ موعدُ حَصَادِه وقَطْفِ ثمارِه، كان الفقراءُ والمساكينُ في منطقتِه يجتمِعونَ عندَ أرضِه، وكان هو يقومُ بتقسيم بعض الغِلال والثِّمارِ بينَهم، وكان لهذا الرَّجلِ الصّالح ثلاثةُ أبناءٍ، فلمّا مات وَورِثَه أبناؤه الثلاثةُ،

تشاوَروا فيما بينَهم بأنّ إنفاقَنا قدِ ازداد، ولهذا سنذهَبُ لجَمْع الثِّمارِ غدًا في الصَّباح الباكرِ قبلَ أن يجتمعَ الفقراءُ عندَ الأرض، فقال الأخُ الأوسَطُ لأخوَيْه ـ وكان الأكثرَ ذكاءً بينَهم ـ: ينبغي لنا أن نَشكُرَ اللهَ تعالى، وأن نستمرَّ في مساعدةِ الفقراء، وعلينا أن نَحرِصَ على تقديم المشيئةِ قائلينَ: «إن شاء اللهُ» أيضًا، وعليه أَقْسم أخَواهُ بأنّ البستانَ بستانُنا، ونحن الذين نعمَلُ فيه بجِدٍّ واجتهاد، ولهذا لن نعطيَ أولئك العاطلينَ منه شيئًا. وهكذا اغتَرُّوا بثمارِهم ومحصولِهم إلى درجةِ أنّهم لم يَشعُروا بحاجةٍ إلى تقديم المشيئة، وباختصار، فإنّ منِ استيقَظَ منهم مُبكِّرًا قبلَ الآخَر أيقَظَ باقيَ أُسرتِه، واتَّجَهوا مُسرِعينَ إلى البستان، وكانوا يتحدَّثونَ فيما بينَهم بهَمْسٍ حتى لا يسمعَهمُ الفقراءُ، فيستيقِظُونَ هم أيضًا ويَلحَقُونَ بهم من خَلْفِهم، وكانوا يعتقِدونَ أنّهم قادرونَ على تنفيذِ ما أرادوا، وأنّهم سيَجمَعونَ ثمارَهم ومحصُولَهم قبلَ أن يجتمعَ عندَهم الفقراء، ولكنْ حين وَصَلوا بالقربِ من البستانِ فوجئوا بأنه قدِ احتَرقَ واستحالَ رَمادًا، وفَسَدت كلُّ ثمارِه أيضًا. في البداية اعتقَدوا أنّهم أخطَأوا الطريقَ إلى بستانِهم في عَتْمةِ اللَّيل، وأنّهم وَصَلوا إلى بستانٍ ليس لهم، ولكنْ حينَ تمعَّنوا في المكانِ وتأمَّلوهُ أصابَتْهم دهشةٌ عظيمة، إذ تأكَّد لهم أنّ هذا البستانَ المحترِقَ هو بستانُهم، وأنّ حظَّهم قد ساء، وأنّهم قد حُرِموا من بستانِهم، وعندَئذٍ أخَذ أخوهم الأوسَطُ يُذكِّرُهم قائلًا: ألم أَقُلْ لكم: تَذكَّروا اللهَ تعالى ولا تَظلِموا الفقراءَ، فلمّا شَعَروا بخطئهم، وأخَذ كلٌّ منهم يَلُومُ الآخَرَ على هذا الخطأ، تابوا إلى الله تعالى قائلين: يا ربَّنا، سبحانَك، لقد طغَيْنا واعتدَيْنا يقينًا، فاعفُ عنّا، وأَنْعِمْ علينا ببستانٍ خيرٍ منه.

وباختصار، فإنّ الذين يَعصُونَ اللهَ تعالى ويَطْغَوْنَ يَنزِلُ عليهمُ العذابُ بهذا الشكل، وهذا هو عذابُ الدُّنيا، أمّا عذابُ الآخِرةِ فهو أشدُّ منه وأعظم.

## ملحوظة

رَغْمَ أنّ الأخَ الأوسَطَ قـام بعمَـل طيِّبٍ للغايـة بأنْ حـاوَلَ مَنْعَ إخوتـه من ارتكابِ ما ارتكَبوه، ولكنْ حينَ لم يستطعْ إنقاذَ نفسِه، واشتركَ معَهم في الفعل، كان حُكمُه هو حُكمَهم أيضًا.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

### ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾

١٢ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «فإذا سَمِعوا (أي: سادةُ قُريشٍ) بحديثِ الآخِرةِ وما وَعَد اللهُ المؤمنينَ قالوا: إن صَحَّ أنّا نُبعَثُ كما يَزعُمُ محمّدٌ ومَن معَه لم يكنْ حالُنا وحالُهم إلّا مِثلَ ما هي في الدُّنيا، وإلّا لم يزيدوا علينا ولم يَفضُلونا، وأقصَى أمرِهم أن يُساوونا»[1]، وقد أبطَلَ اللهُ تعالى زَعمَهم في هذه الآية، ولا يمكنُ أن يستويَ في أيِّ بلدٍ متحضِّرٍ المواطنُ الملتزِمُ بالقانون معَ نظيرِه المجرم، فكيف يمكنُ إذًا أن يتساوى المطيعونَ لله معَ العُصاةِ له؟ ما الذي دهاكم؟ كيف تقولونَ مِثلَ هذا الكلام

(١) تفسير القرطبي.

الذي لا يَقبَلُه أيُّ عقلٍ أو منطِق، إلّا إذا كان لديكم كتابٌ سَماويٌّ مكتوبٌ فيه أنكم ستفوزونَ في الآخِرة بما تريدون، فأحضِروا هذا الكتابَ وأَرُونا إياه، وإذا لم يكنْ لديكُم مِثلُ هذا الكتابِ السَّماويِّ فاتَّقوا اللهَ إذًا وخافوه، ولا تُفسِدوا آخِرتَكم.

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾

١٣ ـ إذا لم يكن لديكُم أيُّ دليل: عَقْليٍّ أو نَقْليٍّ، فهل لديكُم أَيْمانٌ من اللهِ تعالى وعهدٌ وميثاقٌ على أنّكم ستفوزونَ يومَ القيامة بما تُقرِّرونَه أنتم بأنفُسِكم؟ فإن كان لديكُم مِثلُ هذا العهدِ والميثاق، فمَن يا تُرى الضامِنونَ له والشُّهودُ عليه، مَن أولئك الذين أُبرِمَت هذه المعاهدةُ بضمانِهم وشهادتِهم، ولهذا إن كنتُم صادقينَ فيما تقولونَ فأْتُوا بأولئك الشُّهود، وإن لم يكنْ لديكُم شهودٌ، ومن المؤكد أنه ليس لديكم بالفعل أي شهود، فاتقوا الله وخافوه، ولا تفسدوا آخرتكم.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾

١٤ ـ عندما يَكشِفُ اللهُ تعالى عن نُورِ ساقِه يومَ القيامة، ويدعو الناسَ للسُّجود، سيَخِرُّ أهلُ الإيمانِ المخلَصونَ ساجدينَ له، أمّا الكفّارُ فسوف تتصلَّبُ ظهورُهم، ولن يستطيعوا السُّجودَ رَغْم محاولاتِهم ذلك، في حينَ أنّهم كانوا يُدعَوْنَ إلى السُّجودِ في الدُّنيا، لكنْ لم يكونوا يَسجُدونَ رَغْمَ صحّةِ أبدانِهم، ولهذا فإنّهم سيُحرَمُونَ اليومَ من السُّجودِ عقابًا لهم على ذلك، وستكونُ أبصارُهم خاشعةً من النَّدم والخَجَل، ويغشَى وجوهَهم الذُّلُّ والخِزْيُ.

يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ رضي الله عنه: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «يَكشِفُ ربُّنا عن ساقِه، فيسجُدُ له كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ويبقَى من كان يسجُدُ في الدُّنيا رياءً وسُمعةً، فيذهَبُ ليسجُدَ فيعودُ ظهرُه طَبَقًا واحدًا»[١].

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة القلم (٦٨): باب ٢ برقم ٤٩١٩.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾

١٥ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لا تُبالِ بالذين يُكذِّبونَ القرآنَ الكريم، واترُكْ أمرَهم إليّ أنا، وأنا سأنتقمُ منهم.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾

١٦ ـ الذين يُكذِّبونَ القرآنَ المجيدَ، لا يتمُّ عقابُهم فَوْرًا في أحيانٍ كثيرة، بل على العكسِ، يزيدُهم اللهُ سَعةً في الدُّنيا ورفاهيَةً في العيش، وهكذا يَفهَمون خطأً أنّ عمَلَهم صحيحٌ، بينَما الحقيقةُ هي أنّهم يتقدَّمُونَ إلى الهلاكِ والدَّمارِ تدريجيًّا، واللهُ تعالى يُمهِلُهم لكي يُصلِحوا من أنفُسِهم ويهتَمُّوا بهذا، لكنّ الذين لا يتُوبونَ برَغْم كلِّ هذا، فإنّ مؤاخَذةَ الله لهم تَنزِلُ عليهم في شكل عذابٍ شديدٍ يُصيبُهم، ولو أراد اللهُ لَأخَذَهم في هذه الدُّنيا وفي أيِّ وقتٍ شاء، ولو أراد لَأخَّر ذلك إلى الآخِرة، ولكنّه عندَما يأخُذُهم لا يُفلِتُهم، ولا يَقدِرُ أحدٌ على إفلاتِهم، لأنّ أَخْذَه شديدٌ، فإذا وَجَد أحدُ العُصاةِ سَعةً في رزقِه في هذه الدنيا، لا ينبغي أن يظُنَّ أنّ هذه نِعَمٌ من الله عليه، فمنَ الممكنِ أن تكونَ هذه السَّعةُ وسيلةً لابتلائه وهلاكِه.

يَنقُلُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية حديثًا يقولُ: «إنّ رجلًا من بني إسرائيلَ قال: يا ربِّ، كم أعصيكَ وأنت لا تعاقبُني! قال: فأوحَى اللهُ إلى نبيِّ زمانِهم أن قُلْ له: كم من عقوبةٍ لي عليكَ وأنت لا تشعُر. إنّ جمودَ عينَيْك وقساوةَ قلبِك استدراجٌ منّي وعقوبةٌ لو عَقَلْتَ»[1].

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾

١٧ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لو أنّك تطلُبُ منهم أَجْرًا على دعوتِك لهم

---

(١) تفسير القرطبي، سورة القلم (٦٨): الآية ٤٤.

بما لا يستطيعونَ تحمُّلَه لَكان لإنكارِهم سببٌ مفهوم، لكنّك تسعَى إلى خَيْرِهم بغيرِ أَجْر، فما أحمَقَ هؤلاءِ الناسَ وما أجهَلَهم إذْ لا يسمَعونَ ما تقول!

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾

١٨ ـ يا أَيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، هؤلاءِ الكفّارُ لا يؤمنونَ بكَ برَغْم نُزولِ القرآنِ والمعجِزات، فسَلْهم؛ هل لديهِم دليلٌ على إنكارِهم هذا؟ إن كان يأتيهِم من الغيبِ خبرٌ يكتبونَه، فلْيُقدِّموا هذا الذي كتَبُوه، ولكنْ ليس لديهم بالفعل أيُّ شيءٍ مكتوبٍ من علم غَيْبي، وإنّما يرفُضُونَ الإيمانَ بكَ بسببِ تعصُّبِهم وعنادِهم لا أكثَرَ.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾

١٩ ـ يعني اصبِرْ على إيذاءِ الكفّارِ لك، وانتظِرْ حُكمَ الله تعالى فيما يتعلَّقُ بهم، ولا تفعَلْ مِثلَ ما فَعَل سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلام، إذْ رَحَل عن قومِه دونَ أن ينتظرَ حُكمًا منّا وأمرًا، وكانت نتيجةَ ذلك أنْ مَكَث في بطنِ الحوتِ لفترةٍ، ثم تضَرَّعَ إلى الله تعالى في حالةٍ من الحُزنِ والغضَبِ قائلًا: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

## قصة سيدنا يونس عليه السلام والحوت

أَرسَلَ اللهُ تعالى سيّدَنا يونُسَ عليه السَّلامُ نبيًّا إلى أهل نِينَوَى في العراق، فنهَى أهلَ نِينَوى عن الشِّرك، ودعاهم إلى التوحيد، لكنَّهم كذَّبوه، وازدادوا عنادًا وطُغيانًا وتعنُّتًا، فأَخْبَرهم بالوعيدِ بالعذابِ على كلِّ هذا بأنّ العذابَ سيَنزِلُ عليهم في غضونِ ثلاثةِ أيام، وغَضِبَ هو نفسُه من هؤلاءِ الناسِ ورَحَل من عندِهم، ولم ينتظرْ وَحْيًا من الله في أمرِ هذه الهجرةِ التي قام بها، ورَغْمَ أنّ من المستحسَنِ لعامّةِ

المؤمنينَ أن يُهاجِروا من بلادِ أمثالِ هؤلاءِ المشركينَ المعانِدينَ، لكنّ الذي يَليقُ بشأنِ النبيِّ هو أن ينتظرَ الوحيَ من اللهِ تعالى.

يقولُ العلّامةُ الرازي: إنّ سيّدَنا يونُسَ عليه السَّلامُ «رَكِبَ معَهم (أي: في السَّفينة)، فلمّا تَلجَّجتِ السَّفينةُ تكفَّأَتْ بهم وكادوا أن يَغرَقوا، فقال المَلّاحونَ: هاهنا رجُلٌ عاصٍ أو عبدٌ آبِقٌ؛ لأنّ السَّفينةَ لا تفعَلُ هذا من غيرِ ريحٍ إلّا وفيها رجلٌ عاصٍ، ومِن رَسْمِنا أنّا إذا ابتُلِينا بمِثلِ هذا البلاءِ أن نَقترِعَ، فمَن وَقَعتْ عليه القرعةُ ألقَيْناهُ في البحر، ولأَن يغرَقَ أحدٌ خيرٌ من أن تغرَقَ السَّفينةُ، فاقترَعوا ثلاثَ مرّاتٍ فوَقَعتِ القُرعةُ فيها كلُّها على يونُسَ عليه السّلام، فقال: أنا الرّجلُ العاصي والعبدُ الآبِق، وألقَى نفسَه في البحرِ، فجاء حوتٌ فابتَلَعه، فأوحَى اللهُ تعالى إلى الحوتِ لا تؤْذِ منه شعرةً فإنّي جَعَلتُ بطنَك سِجنًا له ولم أجعَلْه طعامًا لك»[1].

خَرَج سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلامُ دونَ أن ينتظرَ الوحيَ، وكان يظُنُّ أنه لا يرتكبُ بهذا خطأً، ولهذا لا مؤاخَذةَ عليه، ولكنّه بعدَ ذلك شَعَر وهو في بطنِ الحوتِ أنّ الهجرةَ قبلَ نزولِ الحُكم بها من الله تعالى كان خطأً في اجتهادِه، ولهذا اعتَرفَ بخطأِه، ودعا اللهَ وهو في ظُلُماتِ بطنِ الحوت، وقَبِلَ اللهُ دعاءه، وأَخْرجه الحوتُ من بطنِه وألقَى به على شاطئِ البحر.

## فضل دعاء سيدنا يونس عليه السلام

ـ قال النبيُّ الكريمُ ﷺ فيما رواه سَعدٌ رضي الله عنه: «دعوةُ ذي النُّونِ إذْ دعا وهو في بطنِ الحوتِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فإنّه لم يدعُ بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطُّ إلّا استجابَ اللهُ له»[2].

---

(١) التفسير الكبير، سورة الأنبياء (٢١): الآية ٨٧.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٨٢ برقم ٣٥٠٥.

ـ ذاتَ مرةٍ قال النبيُّ ﷺ لأصحابِه: «ألا أُخبِرُكم بشيءٍ إذا نَزَل برجلٍ منكم كَرْبٌ، أو بلاءٌ من بلايا الدُّنيا، دَعَا به يُفرَّجُ عنه؟»، فقيل له: بلى، فقال: «دعاءُ ذي النُّون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»(١).

﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾

٢٠ ـ لو لم يُسبِّحْ سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلامُ اللهَ في بطنِ الحوتِ، ولو لم يَقبَلِ اللهُ تعالى توبتَه، لَأُلقيَ به في ميدانٍ صَخْريٍّ، ولَما كان هناك مَن يسأَلُ عنه، أو بقيَ في بطنِ الحوتِ حتى قيام الساعة، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

٢١ ـ جَعَل اللهُ سبحانَه وتعالى سيّدَنا يونُسَ عليه السَّلامُ من الصَّالحينَ بفَضْل تسبيحِه في بطنِ الحوتِ وتوبتِه إلى الله، وعاد أمرُه لِما كان عليه من قبلُ، وعندَما عادَ عليه السَّلامُ إلى قومِه فَرِحوا به جميعًا، وآمَنوا به، وهم الذين كانوا قد كَذَّبوهُ من قبلُ، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ۞ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨].

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾

٢٢ ـ عندما كان النبيُّ ﷺ يَتْلو القرآنَ كان الكفّارُ يُحدِّقُونَ فيه بعيونِهم، وكأنّهم سيأكلونَه إنِ استطاعوا، كما أنّ الذين اشتُهِروا بالحَسَدِ في ذلك الوقتِ،

---

(١) المستدرك، الإمام الحاكم، ١: ٦٨٥ برقم ١٨٦٤.

قاموا بتقديم خَدَماتِهم أيضًا في هذه الخصوصِ بالنَّظرِ إلى النبيِّ ﷺ بعيونٍ حاسدةٍ ليُلحِقُوا به ضَرَرًا، لكنّ الشَّمعةَ التي يريدُ اللهُ أن يَحفَظَ نُورَها، لا يمكنُ لأيٍّ أحدٍ من سيِّئي الطَّوِيَّةِ أن يَضُرُّوها بنَظَراتِهم السيِّئة.

## النظرة السيئة (الحسد)

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «العَيْنُ حقٌّ»، ونَهى عن الوَشْم[١].

- تقولُ السيِّدةُ أُمُّ سَلَمةَ رضي الله عنها: إنّ النّبيَّ ﷺ رأى في بيتِها جاريةً في وجهِها سَفْعةٌ[٢]، فقال «استَرْقُوا لها، فإنّ بها النَّظرةَ»[٣].

- يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ رضي الله عنه: «كان رسولُ الله ﷺ يتعوَّذُ من الجانِّ وعَيْنِ الإنسان، حتّى نَزَلتِ المعوِّذتانِ، فلمّا نَزَلتا أَخَذ بهما وتَرَك ما سِواهما»[٤].

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «العَيْنُ حقٌّ، ويَحضُرُها الشّيطانُ، وحسَدُ ابنِ آدم»[٥].

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾

**٢٣** - إذا كان القرآنُ الكريمُ نصيحةً وهدايةً للعالَمينَ جميعًا، فكيف يمكنُ

---

(١) البخاري، كتاب الطب، باب ٣٦ برقم ٥٧٤٠. ومسلم، كتاب ٣٩، باب ٢١ برقم ٢١٩٧.

(٢) بفتح السين، الفعلة الواحدة، أي: علاقة من الشيطان. النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، وتفسير غريب ما في الصحيحين لابن فتوح.

(٣) البخاري، كتاب الطب، باب ٣٥ برقم ٥٧٣٩.

(٤) الترمذي، أبواب الطب، باب ١٦ برقم ٢٠٥٨.

(٥) تفسير ابن كثير، سورة القلم (٦٨): الآية ٥١، ٤: ٣٥٨.

أن يكونَ من نَزَل عليه هذا القرآنُ مجنونًا؟ ولهذا فإنّ نزولَ القرآنِ الكريم يُعَدُّ في ذاتِه دليلًا كافيًا على أنه ﷺ ليس مجنونًا، وإنما هو تجسيدٌ للعلم والحِكمة.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعد إشراق يوم الجمُعة ٥ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٧ ذي القَعْدة ١٤٣١هـ**

**هذا وقدِ اكتَمل بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سورةُ «القَلَم» في خمسة أيام فقط، أي: من ٣١ أكتوبر إلى ٥ نوفمبر، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلام على سيِّد المرسَلين، وعلى آله وأصحابِه أجمعين.**

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

# (٦٩) سورة الحاقة

هذه السُّورةُ مكِّيَّة، واسمُها: «الحاقَّةُ»، وتبدَأُ به السُّورةُ.

## قيام الساعة أمر يقيني

في الآياتِ الأُولى لهذه السُّورةِ جاء التنبيهُ للكفّارِ بأنّ قيامَ الساعةِ أمرٌ يقينيٌّ، والأقوامُ التي جاءت من قبلِكم وكذَّبت بالسّاعةِ مثلُ: قوم ثمودَ وعادٍ وقوم فِرعَوْنَ وقوم لُوطٍ وقوم نُوح وغيرِهم، نَزَلت عليهم أنواعٌ مختلفةٌ من العذابِ مما تسمَعونَ عنه من آبائكم وأجدادِكم، ولهذا ينبغي لكم أن تَعتبِروا من أحوالِ الأقوام السّابقة، وتؤْمنوا بيوم القيامة.

## أهوال القيامة

جاء في الآياتِ من ١٣ إلى ١٧ من السُّورةِ بيانٌ لأهوالِ القيامة، يعني: أنّ سيّدَنا إسرافيلَ عليه السَّلامُ سيَنفُخُ في الصُّور، فتتشقَّقُ الأرضُ والجبالُ وتتفتَّتْ، وتنشَقُّ السَّماءُ وتتطايرُ كالعِهْنِ المنفوش.

## صحائف الأعمال

في الآياتِ من ١٨ إلى ٣٧ من السُّورةِ جاء ذِكرُ إثابةِ الناسِ وعقابِهم طِبقًا

لأعمالِهِمُ الحسَنةِ وأعمالِهِمُ السيِّئة، يعني: أنه عندما يصلُ الناسُ إلى ميزانِ العدلِ يومَ القيامة، فسوف تُكشَفُ الأعمالُ الظاهرةُ والأحوالُ الباطنةُ للناسِ جميعًا، فمَن كان منهم يؤمنُ بيوم القيامة، وكان يعمَلُ صالحًا خوفًا من عذابِها، سيُعطَوْنَ صحائفَ أعمالِهم في أيديهم اليُمنى، وسيَعيشونَ حياةً يحبُّونَها في جَنّاتٍ عالية، أمّا من كان منهم يُنكرُ القيامةَ، وانشَغلَ في الدُّنيا بالأعمالِ السيِّئة، فسيُعطَوْنَ صحائفَ أعمالِهم في شمائلِهم، وسيَندَمُونَ في جهنَّمَ كثيرًا.

## القرآن المجيد

من الآيةِ ٣٨ وحتى نهايةِ السُّورة جاء بيانُ صِدقِ القرآنِ الكريم وأهميَّتِه، يعني: أنّ القرآنَ المجيدَ ليس كلامَ شاعرٍ ولا كلامَ كاهن، وإنّما هو كلامُ الله المنزَّلُ، ولا مَجالَ فيه للشكِّ ولا للزِّيادةِ أو النُّقصان، والذين يُكذِّبونَ القرآنَ الكريمَ اليومَ، سيَستَغيثُونَ يومَ القيامةِ في حَسْرةٍ قائلين: ليتَنا لم نُكذِّبْ بالقرآنِ المجيد، لكنّا دخَلْنا الجنّةَ نحن أيضًا.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعدَ صلاة المغرب من يوم الجمُعة ٥ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٧ ذي القَعْدة ١٤٣١هـ**

* * *

# سُورَةُ الحَاقَّةِ (٦٩)،

## مكية (٧٨)، آياتها (٥٢)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ
فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾
فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ
وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ
وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ
رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ
بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾
فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾
وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ
ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾
ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ
ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾

١ ـ المرادُ بالحاقّة: القيامةُ، والتي مجيئُها حقٌّ، ولبيانِ شدّتِها جاء السُّؤالُ عنها مرتَيْنِ، يعني: هل تتصوَّرونَ ما القيامةُ؟ إنّ أهوالَ يوم القيامةِ رهيبةٌ إلى درجةِ أنّ أعظمَ المفكّرينَ لا يستطيعُ إدراكَ أهوالِها بشكل كامل، وبالطبع كيف يُمكنُ لإنسانٍ بيانُ شدّةِ أهوال القيامة؟ وهي التي تنشَقُّ السَّماءُ بمجيئِها، وتتطايَرُ الجبالُ في الفضاءِ بقيامِها.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾

٢ ـ المرادُ بالقارعةِ أيضًا: القيامةُ، فعندَما تقومُ السّاعةُ يَصدُرُ عن تمزُّقِ كلِّ شيءٍ وتفتُّتِه صوتٌ مُرعِبٌ تطيرُ منه حواسُّ الإنسان، وهنا تنبيهٌ لكفّارِ مكةَ بأنّ قيامَ السّاعة أمرٌ يقينيٌّ، وعليكمُ الإيمانُ بها، والاعتبارُ من أحوالِ الأقوام التي جاءت من قَبْلِكم، على سَبيل المثال: عندَما كذَّبَ قومُ ثمودَ نبيَّهم سيّدَنا صالحًا عليه السَّلامُ، وأنكَروا يومَ القيامة، ولم يَرجِعوا عن طُغيانِهم، أهلَكَهم اللهُ بعذابِ الصَّيحةِ الشّديدة، والتي بَلَغ من شدّتِها أنْ زُلزِلتِ الأرضُ كلُّها، وهكذا جاء الصَّباحُ فكان قومُ ثمودَ مُلْقَيْنَ على وجوهِهم موتَى في بيوتِهم، وقد مرَّ ذِكرُ أحوال قوم ثمودَ في سُوَرٍ عديدةٍ، ويمكنُكَ مُراجعةُ الآياتِ من ٧٣ إلى ٧٩ من سُورةِ الأعراف (٧)، والآياتِ من ٦١ إلى ٦٨ من سُورة هود (١١)، وكذا الآياتُ من ١٤١ إلى ١٥٩ من سُورة الشُّعراء (٢٦).

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾

٣ ـ كان قومُ عادٍ أشِدّاءَ ضِخامَ الجُثث، وكانوا يَعتبِرونَ أنفُسَهم عُظماءَ

والآخَرينَ حُقَراءَ، وكانوا يُنكرونَ القيامةَ مِثلَ قوم ثمودَ، وقد أَفْهَمَهم نبيُّهم سيّدُنا هودٌ عليه السَّلامُ كثيرًا بأنْ تَعقَّلوا، فالذي خَلَقَكم وجَعَلَكم أقوياءَ، هو نفسُه أقوى منكم، ولكنْ لمَّا لم يَرجِعوا عن طُغيانِهم، وأصَرُّوا على الإنكارِ الدائم لآياتِ الله تعالى، عندئذٍ أَرسَلَ اللهُ تعالى عليهم ريحًا عاصفًا، استمرَّ من صباح الأربعاءِ إلى مساءِ الأربعاء التالي، يعني: ثمانيةَ أيام وسبعَ ليالٍ بصفةٍ مستمرَّة، فرَفَعَهم إلى أعلى في الفضاء، ثم ألقَى بهم إلى الأرضِ بشدّةٍ فَصَلت رءوسَهم عن أجسادِهم، حتى بَدَت جُثَثُهم وكأنّها أعجازُ نَخْل مقطوعةٍ متناثرةٍ على الأرض، وقد هَلَك كلُّ قومِ لوطٍ في هذه العاصفة، ولهذا لا يوجَدُ اليومَ أحدٌ من ذُرِّيّتِهم على وجهِ الأرض، وقد مرَّ ذِكرُ أحوالِ قوم عادٍ في سُوَرٍ عدّةٍ سابقة، ولمزيدٍ من التفصيل راجِعْ على سَبيل المثالِ: الآياتِ من ٦٥ إلى ٧٢ من سُورةِ الأعراف (٧)، والآياتِ من ٥٠ إلى ٦٠ من سُورةِ هود (١١)، وكذا الآياتُ من ١٢٣ إلى ١٤٠ من سُورة الشُّعراء (٢٦).

﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةً رَّابِيَةً﴾

٤ ـ بالإضافةِ إلى قوم عادٍ وثمودَ، كانت هناك أقوامٌ أخرى كافرةٌ من قَبْلِهم، كما أنّ قُرى قوم لوطً قد قُلِبت رأسًا على عَقِب، وكلُّ هؤلاءِ الأقوام عَصَوْا رُسُلَهم، فأخَذَهم اللهُ أَخْذًا عزيزًا، وأهلَكَهم ولم يُفلِتْهم.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾

٥ ـ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ جاء الخِطابُ لكفّارِ مكةَ، يعني: حين جاء طُوفانُ الماءِ في زمَنِ سيِّدِنا نُوح عليه السَّلام، غَرِق فيه البشَرُ جميعًا، لكنّنا أنقَذْناكم، يعني: أنقَذْنا آباءكم وأجدادَكم بأنْ جعَلْناهم يركَبونَ السَّفينةَ؛ لأنه لم يَنْجُ في ذلك الوقتِ سوى بعضِ أهل الإيمانِ بالرُّكوبِ في السَّفينة، وهمُ الذين استمرَّ من خلالِهمُ

النَّسلُ البشَريُّ، وأنتم أيضًا من ذُرِّيّـتِهم، ولو لم نُنْجِ آباءكم وأجدادَكم لَما كنتُم أنتم موجودينَ في هذه الدُّنيا، ولهذا عليكم أن تسمَعو لهذه الواقعةِ بآذانِكم وقلوبِكم، وتَذكَّروها، واعتَبِروا منها، كيف نَجّى اللهُ تعالى آباءكم وأجدادَكمُ المؤمنين، وأَغْرقَ العُصاةُ من الناسِ في الماءِ، كما أن عليكم أن تتمعنوا في هذه الحقيقة بأن آباءكم وأجدادكم كانوا مؤمنين، فنجوا من الغرق، فلماذا لا تؤمنون أنتم إذًا.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾

٦ ـ في هذه الآيةِ بيانٌ لبعضِ أحوال قيام السَّاعة، يعني: عندَما يَنفُخُ سيِّدُنا إسرافيلُ في الصُّورِ للمرَّةِ الأُولى تقومُ السّاعةُ عندئذٍ، وترتفعُ الأرضُ والجبالُ من أماكِنها وتَصطَدِمُ ببعضِها، بحيث تتَفتَّتُ منَ اصطدامٍ واحدٍ.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾

٧ ـ السَّماءُ مُحكَمةٌ قويّةٌ، بحيث أنها لم يَحدُثْ فيها أيُّ تصَدُّع أو تشَقُّقٍ برَغْم مرورِ مئآتِ الآلافِ من السِّنين على خَلْقِها، ولكنَّها تصبحُ في غايةِ الضَّعفِ يومَ القيامة خوفًا من الله تعالى، بحيث تتطايَرُ كالعِهْنِ المنفوش.

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾

٨ ـ حين تنشَقُّ السَّماءُ ينتقلُ الملائكةُ الذين يعيشونَ فيها إلى أطرافِها، وسيَحمِلُ العرشَ الإلهيَّ عندَئذٍ ثمانيةٌ من الملائكةِ المخصُوصِين.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾

٩ ـ عندَما تمثُلونَ بينَ يدَي اللهِ تعالى يومَ القيامة، لا يستطيعُ من يريدُ الاختباءَ أن يختبئَ، كما لن يبقَى سرُّ أحدٍ خفيًّا، فاليومَ أيضًا لا يخفَى شيءٌ أبدًا على اللهِ

تعالى، ولكنّ أحوالَ الجميع وأعمالَهم سيتِمُّ الكشفُ عنها في ذلك اليوم لإقامةِ الحُجّةِ على الناس.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾

١٠ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: إن «إعطاءَ الكتابِ باليمينِ دليلٌ على النَّجاة»[1]، ومن العلاماتِ على كَوْنِ الإنسانِ من أُمّةِ النبيِّ الكريم محمدٍ ﷺ يومَ القيامة في ميدانِ الحَشْر: أنّ صحيفةَ أعمالِه ستُعطَى له في يمينِه.

## علامات الأمة المحمدية في ميدان الحشر

يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أنا أوّلُ من يؤْذَنُ له بالسُّجودِ يومَ القيامة، وأنا أوّلُ من يؤْذَنُ له أن يرفَعْ رأسِه، فأنظُرُ إلى بينَ يدَيَّ، فأعرِفُ أُمّتي من بينِ الأُمم، ومِن خَلْفي مِثلُ ذلك، وعن يميني مِثلُ ذلك، وعن شِمالي مِثلُ ذلك»، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، كيف تعرفُ أُمّتَك من بينِ الأُمم فيما بينَ نوحٍ إلى أُمّتِك؟ قال: «هم غُرٌّ محَجَّلونَ من أثَرِ الوضوء، ليس أحدٌ كذلك غيرُهم، وأعرِفُهم أنّهم يؤْتَوْنَ كتُبَهم بأيْمانِهم، وأعرِفُهم يسعى بينَ أيديهِم ذُرّيّتُهم»[2].

﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾

١١ ـ عندَما يُبشَّرُ طالبٌ بعدَ اجتهادِه طيلةَ العام بأنه قد نَجَح في الامتحان، ويُمنَحُ الشَّهادةَ الدالّةَ على ذلك، فإنه يكادُ يطيرُ من فرحتِه، ويقولُ لوالدَيْه وأصدقائِه وأحبابِه وإخوتِه وأخَواتِه: تعالَوْا، اقرَأُوا شهادتي، لقد أثمَرَ اجتهادي العامَ كلَّه، ونَجَحتُ، وبنفسِ الطريقة في ميدانِ الحَشْر، حيث يُعطَى السَّعيدُ صحيفةَ أعمالِه

(١) تفسير القرطبي.
(٢) مسند أحمد، ٥: ١٩٩.

في يمينِه، فيكادُ لا تَسَعُه فرحتُه، ويقولُ لأصدقائه وأحبابِه وأقاربِه وأعزائه: تعالَوْا، اقرَأُوا صحيفةَ أعمالي، لقد قَبِلَ اللهُ تعالى حسَناتي في حياتي، ومُنِحتُ التَّصريحَ بدخولِ الجنّة.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾

١٢ ـ كنتُ على يقينٍ من أنَّني سأَمْثُلُ بينَ يدَيْ ربِّي يومَ القيامة للحساب، ولهذا اتَّقيتُ اللهَ في حياتي، ولم أرتكبْ شيئًا يُخجِلُني اليومَ أمامَ ربِّي.

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾

١٣ ـ الذين سيُعطَوْنَ صحائفَ الأعمالِ يومَ القيامة في أَيْمانِهم، سيَدخُلونَ جنّاتٍ عاليةً، قُطوفُها دانية، وعندَما يريدُ أحدُهم تناوُلَ شيءٍ من هذه الفاكهة، فإنّها تتدَلَّى أمامَه وتقتربُ منه، فيَقطِفُها بيدِه ويتناوَلُها، وسيقالُ لهم: لقد تحمَّلتُم الجُوعَ والعطشَ والمصاعبَ الأُخرى في الحياةِ الدُّنيا من أَجْل التغلُّبِ على شهَواتِكم النَّفسانيّة، ولهذا عيشوا هنا حياةً منعَّمةً، وكُلوا واشربوا جزاءً لكم على تحمُّلِكم تلك المصاعبَ، والآنَ ستَخلُدونَ في هذه الجنّةِ التي دخَلتُموها.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «يُنادي مُنادٍ: إنّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبدًا، وإنّ لكم أن تَحيَوْا فلا تموتوا أبدًا، وإنّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرَموا أبدًا، وإنّ لكم أن تنعُموا فلا تبتئسُوا أبدًا»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: «تَدْنو الشّجرةُ حتّى يجتنيَها وليُّ الله إن شاء قائمًا وإن شاء قاعدًا وإن شاء مُضْطَجِعًا، لا يَرُدُّ يدَه بُعدٌ ولا شَوْكٌ»[٢].

---

(١) مسلم، صفة الجنة، باب ٨ برقم ٧١٥٧.

(٢) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٥٤.

ـ جاء في الحديث: «إنّك لَتشتهي الطّيرَ في الجنّة، فيَخِرُّ بينَ يدَيْك مَشْوِيًّا»[1].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾

١٤ ـ يقولُ العلّامةُ محمَّد علي الصَّابُونيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «وأمّا من أُعطِيَ كتابَه بشِمالِه، وهذه علامةُ الشَّقاوةِ والخُسران»[2]، ولهذا فإنّ الشَّخصَ الذي سيُعطَى صحيفةَ أعمالِه في شِماله، سيَصرُخُ مُناديًا في حسرةٍ ونَدَم ويقول: ليتَني لم أُعطَ صحيفةَ أعمالي، وليتَني لم أدرِ ما حسابي، وليتَ الموتَ قضَى علَيّ إلى الأبد، حتى لا أحيا من جديدٍ، ولا أُواجهَ هذا الذُّلَّ والعارَ.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾

١٥ ـ إنّ المالَ والمتاعَ والقوّةَ والجاهَ والسُّلطانَ الذي ظَلَلتُ أسعَى لتحقيقِه في الحياةِ الدُّنيا، لم ينفَعْني شيءٌ منه هنا، وفي هذا درسُ عبرةٍ لأهلِ الدُّنيا من الذين يترُكونَ اللهَ تعالى، وينهَمِكونَ في الحصُول على العظَمةِ والجاهِ الدُّنيَويِّ، بأنّهم لن ينالوا في الآخِرةِ سوى الذُّلِّ والعارِ والخُسران.

﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾

١٦ ـ الشَّخصُ الذي سيُعطَى صحيفةَ أعمالِه في يدِه اليُسرى سيكونُ مشغولًا بالصُّراخ والعَويل حين يأمُرَ اللهُ تعالى ملائكةَ جهنَّمَ قائلًا: خُذوا هذا العاصيَ، وألبِسوه طَوْقًا في عنُقِه، وألقُوا به في جهنَّم، ثم قَيِّدوهُ بسلسلةٍ طُولُها سبعونَ ذراعًا، حتى لا يُفكِّرَ مجرَّدَ التفكيرِ في الهروبِ من جهنَّم.

---

(١) تفسير روح البيان، سورة الطور (٥٢): الآية ٢٢.
(٢) صفوة التفاسير.

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾

١٧ ـ جاء هنا بيانٌ لسببَيْنِ من أسبابِ عقابِ ذلك الذي جاء ذِكرُه في الآياتِ السابقةِ من أهل جهنَّم:

السَّببُ الأولُ هو: أنه كان لا يؤمنُ بالله العظيم، فاغتَصَبَ بذلك حقوقَ الله تعالى، ولهذا كيف يمكنُ أن يكونَ له صديقٌ أو متعاطِفٌ في الآخِرة، مَن لم يكنِ اللهُ تعالى له وَليًّا ولا نَصيرًا؟

أمّا السَّببُ الثاني فهو: أنه لم يكنْ يُطعِمُ المسكينَ والجائع، فاغتَصَب ـ بذلك ـ حقوقَ العباد، ولهذا سيُطعَمُ في الآخِرة من القَيْح الخارج من جُروح المجرِمين؛ لأنّ هذا هو الطعامُ الذي تَقرَّر للمُذنِبينَ في جهنَّم.

وفيه دَرسُ عبرةٍ لأهل الإيمانِ بأنْ يهتَمُّوا اهتمامًا خاصًّا بحقوقِ الله وحقوقِ العباد، وأن يعمَلوا على توفيرِ الطَّعام للمساكين، فمَن لم يكنْ ذا مال، ولم يُرغِّبِ الآخَرينَ في الاهتمام بالفقراءِ والإنفاقِ عليهم، ستكونُ عاقبتُه في غايةِ السُّوءِ بهذا الشَّكل، فما بالُك بمَن يمتلكُ المالَ، ولا يُطعِمُ المسكينَ، إلى أيِّ مدًى سيكونُ سوءُ عاقبتِه؟

## حقوق المساكين

قال اللهُ تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، يعني: أنّ اللهَ تعالى قَرَّرَ للفقراءِ زكاةً في أموالِ الأغنياء بمقدارِ اثنَيْنِ ونصفٍ في المائة، بالإضافةِ إلى ما عندَ الحكومة، ولهذا فإنّ هذه النِّسبةَ أمانةٌ للفقراءِ لدى الأغنياء، ومن الفَرْض على الأغنياءِ أن يُسارعوا بقَدْرِ الإمكان إلى أداءِ هذه الأمانة إلى أهلِها، فمن الممكنِ أن يكونوا في أشدِّ الحاجةِ إليها، كما أنّ اللهَ تعالى لم يَفرِضْ على الفقراءِ أن يذهَبوا إلى الأغنياءِ لطلبِ حقِّهم هذا، وإنّما فَرَض على الأغنياءِ أن

يذهَبوا - بأنفُسِهم - إلى الفقراءِ ويبحَثوا عنهم ليُؤَدُّوا إليهم حقوقَهم. ليتَ المسلمينَ جميعًا يُؤَدُّونَ هذا الفَرْضَ بكلِّ أمانة، لَما رأَيْنا فقيرًا واحدًا في العالَم الإسلاميِّ.

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ اللهَ عزَّ وجَلّ يقولُ يومَ القيامة: يا ابنَ آدم، مَرِضتُ فلم تَعُدْني، قال: يا ربِّ، كيف أعودُك وأنت ربُّ العالَمين، قال: أمَا عَلِمتَ أنّ عبدي فلانًا مَرِض فلم تَعُدْه، أَما عَلِمتَ أنّك لو عُدتَه لوجَدْتني عندَه؟ يا ابنَ آدم، استَطعمْتُك فلم تُطعِمْني، قال: يا ربِّ، كيفَ أُطعِمُك وأنت ربُّ العالَمين، قال: أمَا عَلِمتَ أنّه استَطعَمَك عبدي فلانٌ فلم تُطعِمْه؟ أمَا عَلِمتَ أنّك لو أطعمتَه لَوجَدتَ ذلك عندي؟ يا ابنَ آدم، استَسْقَيْتُك فلم تَسْقِني، قال: يا ربِّ، كيف أسقيكَ وأنت ربُّ العالَمين، قال: استَسْقاكَ عبدي فلانٌ فلم تَسْقِهِ، أَما إنّك لو أسقَيْتَه وجَدتَ ذلك عندي»[1].

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عبّاس رضي الله عنهما: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «ليس المؤمنُ الّذي يَشبَعُ وجارُه جائعٌ إلى جَنْبِه»[2].

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «السّاعي على الأرمَلةِ والمِسكين كالمُجاهد في سَبيل الله، أوالقائم اللّيلَ الصّائم النّهارَ»[3].

- يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن مَسَح رأسَ يتيمٍ لم يَمسَحْه إلّا لله كان له بكلِّ شعرةٍ مرَّتْ عليها يدُه حسَناتٌ، ومَن أحسَن إلى يتيمةٍ أو يتيمٍ عندَه كنتُ أنا وهو في الجنّةِ كهاتَيْن» وفَرّقَ بين أُصبُعَيْه: السّبّابةِ والوُسطى[4].

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٣ برقم ٦٥٥٦.

(٢) مشكاة المصابيح، باب الشفقة، الفصل الثالث، رواه البيهقي في شعب الإيمان برقم ٤٩٩١.

(٣) البخاري، كتاب النفقات، باب ١ برقم ٥٣٥٣.

(٤) مسند أحمد، ٥: ٢٥٠.

ـ لم يكنْ سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ يتناولُ طعامَه وحدَه أبدًا، «فإذا حَضَر طعامُه أَرسَلَ يطلُبُ مَن يأكُل معَه، فلقيَ يومًا رجُلًا، فلمّا جَلَس معَه على الطّعام، قال له إبراهيمُ: سَمِّ اللهَ، قال الرّجلُ: لا أدري ما اللهُ؟ فقال له: فاخرُجْ عن طعامي، فلمّا خَرَج نَزَل إليه جِبريلُ فقال له: يقولُ اللهُ: إنّه يَرزُقُه على كُفرِه مدى عمُرِه، وأنت بَخِلتَ عليه بلُقمةٍ، فخَرَج إبراهيمُ فَزِعًا يَجُرُّ رداءه، وقال: ارجِعْ، فقال: لا أرجِعُ حتّى تُخبِرَني لمَ تَرُدُّني لغيرِ معنًى؟ فأَخْبَره بالأمر، فقال: هذا ربٌّ كريمٌ، آمَنتُ، ودَخَل وسَمَّى اللهَ وأكلَ مؤمنًا»[١].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾

١٨ ـ أَقْسم اللهُ تعالى بكلِّ ما خَفِيَ وما ظَهَر مؤكِّدًا أنّ القرآنَ المجيدَ كتابٌ يَتْلوه النبيُّ الكريمُ ﷺ، وأنه ليس كلامَ شاعرٍ أو كاهن، وإنّما كلامُ الله تعالى أنزَلَه إلى الناسِ جميعًا، وأبلَغَه لكم النبيُّ الكريمُ ﷺ، لكنَّكم قليلًا ما تقبَلونَ النَّصيحةَ.

القرآنُ المَجيدُ ليس كلامَ شاعر؛ لأنّ الشِّعرَ في الغالبِ يحتوي على كلامٍ خياليٍّ ومبالغاتٍ كثيرة، في حينَ أنّ تعاليمَ القرآنِ الكريم مَبْنيّةٌ على حقائقَ، وتُطابِقُ الاعتدالَ والتوازُن. والقرآنُ الكريمُ ليس كلامَ كاهنٍ كذلك؛ لأنّ الكَهَنةَ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة هود (١١): الآية ٦٩.

يُحدِّسُونَ عن المستقبَل تخمينًا، وكثيرًا ما يُخطئُ حَدْسُهم أيضًا، في حينَ أنّ كلَّ ما في القرآنِ المجيدِ صِدقٌ وحَقّ.

﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴾

١٩ ـ يعني: أنّ مَن نَبعثُه نبيًّا، ونُعطِيه المعجِزاتِ على نُبوّتِه، لا يزيدُ ولا يَنقُصُ في الكلام الإلهيِّ، وإنّما يقولُ ما يُنزَلُ عليه فقطْ، وعلى فَرْضِ المستحيل لو أنّ نبيًّا من الأنبياءِ نَسَب إلى اللهِ تعالى ما ليس من كلامِه، فإنه ـ في هذه الحالة ـ قد خانَ في النُّبوّةِ من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ تصبحُ طاعتُه ـ في الضَّلال الذي هو من وراءِ ستارِ الصِّدقِ ـ لازمةً؛ لأنّ طاعةَ النبيِّ واجبةٌ باعتبارِ أنّ كلَّ نبيٍّ صادقٌ، ولهذا فإنّنا في مِثل هذه الحالةِ نُمسِكُ بيدِه، ونقطَعُ بكلِّ قوةٍ وريدَه، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يمنَعَنا من هذا.

وبما أنّ اللهَ تعالى لم يؤاخِذْ نبيَّنا الحبيبَ ﷺ بمِثل هذه المؤاخَذة، فإنّ معنى هذا أنه ﷺ لم يَنسُبْ شيئًا من كلامِه إلى الله تعالى، وإنّما أوصَلَ أحكامَ الله تعالى إلى خَلْقِه بكلِّ أمانة.

والحُكمُ بقَطْع وريدِ النبيِّ إنّما وَرَد في الحديثِ عن الأنبياءِ الصّادقينَ فقطْ، فالكَذّابونَ من الناسِ لا يَدَّعُونَ النُّبوّةَ فقطْ، وإنّما يَدَّعي بعضُ الظالمينَ منهمُ الأُلوهيّةَ أمثالَ الفِرعَون، ولكنّهم لم يؤْخَذوا على الفَوْر؛ لأنّ طاعةَ مدَّعي النُّبوّةِ ومدَّعي الأُلوهيّةِ غيرُ لازمة، ولهذا يُمهَلُ أمثالُ هؤلاءِ لكي يُصلِحوا من أنفُسِهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾

٢٠ ـ أَنْزلَ اللهُ تعالى القرآنَ المجيدَ نصيحةً وهدايةً للناس جميعًا، ولكنْ جاء التخصيصُ في هذه الآيةِ بالمتَّقين؛ لأنّ الذين يَحصُلونَ على النَّصيحةِ من القرآنِ المجيدِ بالمعنى الصَّحيح هم أولئك الذين يَتَّقُونَ اللهَ تعالى ويخافونَه.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

٢١ ـ الذين يُكذِّبونَ القرآنَ المجيدَ اليومَ، سيكونُ هذا القرآنُ سببًا في حَسْرتِهم يومَ القيامة، وذلك حين يرَوْنَ أنّ الذين صَدَّقوا القرآنَ المجيدَ يدخُلونَ الجنّةَ، وعندَئذٍ سيقولونَ في حسرةٍ: ليتَنا لم نُكذِّبْ بالقرآنِ المَجيد، لَكُنّا دخَلْنا الجنةَ اليومَ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾

٢٢ ـ يعني: أنّ القرآنَ المجيدَ حقٌّ تمامًا، ولا شيءَ فيه من الباطل، وكلُّ حُكم فيه يقينيٌّ، ولا مجالَ فيه لأيِّ شكٍّ.

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾

٢٣ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لا تحزَنْ ولا تغتَمَّ عندَما يُكذِّبُ الكفّارُ القرآنَ المَجِيد، فقد أدَّيتَ أنت حقَّ تبليغ القرآنِ إليهم، ولهذا لا تهتمَّ بهم ولا تُبالِ، وإنما سَبِّحْ باسم ربِّك، لكي يطمئنَّ قلبُك.

ـ يقولُ سيّدُنا عُقبةُ بنُ نافع رضي الله عنه: لمّا نَزَلت ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ قال رسولُ الله ﷺ: «اجعَلوها في ركوعِكم» (أي: اقرَأُوا في الرُّكوع سبحانَ ربِّيَ العظيم). فلمّا نَزَلت ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١] قال: «اجعَلُوها في سجودِكم (أي: اقرَأُوا في السُّجودِ: سبحانَ ربِّيَ الأعلى)»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا رَكَع أحدُكم فقال في ركوعِه: سبحانَ ربّيَ العظيم، ثلاثَ مرّاتٍ، فقد تَمَّ ركوعُه، وذلك

---

(١) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ١٤٦ برقم ٨٦٩.

أدناه. وإذا سَجَد فقال في سجودِه: سبحانَ ربّيَ الأعلى، ثلاثَ مرّاتٍ، فقد تَمَّ سجودُه، وذلك أدناه»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا حُذَيفةُ رضي الله عنه: إنّه صلّى معَ النّبيِّ ﷺ، فكان يقولُ في ركوعه: «سبحانَ ربّيَ العظيم»، وفي سجودِه: «سبحانَ ربّيَ الأعلى». وما أتَى على آيةِ رحمةٍ إلّا وَقَف وسأَل، وما أتَى على آيةِ عذابٍ إلّا وَقَف وتعوَّذَ»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «كلِمتانِ حَبِيبتانِ إلى الرَّحمن، خفيفتانِ على اللِّسان، ثقيلتانِ في الميزان: سبحانَ الله وبحَمْدِه، سبحانَ اللهِ العظيم»[3].

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، إنجلترا**
**بعد إشراق يومِ الاثنين ٨ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق الأولَ من ذي الحجة ١٤٣١هـ**

**هذا، وقد اكتَمل بفضل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سورة «الحاقّة» في ثلاثة أيام فقط، أي: من ٥ إلى ٨ نوفمبر، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسّلام على سيِّد المرسَلين، وعلى آله وأصحابِه أجمعين.**

* * *

(١) الترمذي، أبواب الصلاة، باب ٧٩ برقم ٢٦١.
(٢) الترمذي، أبواب الصلاة، باب ٧٩ برقم ٢٦٢.
(٣) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٥٨ برقم ٧٥٦٣.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# (٧٠) سُورَةُ المَعَارِجِ

هذه السُّورةُ مكِّيَّة، واسمُها: «المعارِج»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم **٣** منها.

## عذاب القيامة

كان كفّارُ مكّةَ يطالبونَ النبيَّ ﷺ قائلين: متى يأتينا عذابُ القيامةِ الذي تُنذِرُنا به يوميًّا؟ فجاء الردُّ عليهم في الآياتِ الأُولى من هذه السُّورة، بأنّ عذابَ القيامةِ جاهزٌ في انتظارِ المنكِرين، وسيأتي في يوم من الأيام تأكيدًا، لكنّ الذي يَعلمُ تمامَ العلم وقتَه تحديدًا هو اللهُ تعالى وحدَه، على أيِّ حال، عندما يَحِينُ ذلك الوقتُ، فلن يستطيعَ أحدٌ أن يوقِفَه؛ لأنه عذابٌ من الله تعالى، واللهُ هو الغالبُ على الجميع، وهو القادرُ على كلِّ شيء، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يمنعَه مِن فِعل ما يريد.

كان الكفّارُ يعتقِدونَ أنّ قيامَ السّاعةِ أمرٌ بعيدٌ عن العَقْل والمنطِق، حتى وإنْ كان سيأتي فهو لا يزالُ بعيدًا للغاية، بينَما يَعلمُ المسلمونَ أنّ قيامَ السّاعةِ أمرٌ يقينيٌّ، والأمرُ الذي يكونُ وقوعُه يقينيًّا يعني أنه قريبٌ أيضًا؛ لأنه يقتربُ كلَّ ساعةٍ عن السّاعةِ التي سبَقَتْها، وبالتالي سيأتي على وجهِ اليقين، إلا أنه عندَما يأتي هذا الوقتُ ستتغيَّرُ خريطةُ الدُّنيا، فستكونُ السَّماءُ كالنُّحاسِ الذي يَغْلي، وستَتَطايَرُ الجبالُ كالصُّوفِ ذي الألوانِ المتعدِّدة، إذْ بما أنّ ألوانَ الجبالِ مختلفةٌ، فستبدو عندَما تتفتَّتُ كأنَّها أصوافٌ ملوَّنة.

## حال الأصدقاء في ميدان الحشر

كلُّ شخصٍ في هذه الدُّنيا يحاولُ قَدْرَ إمكانِه مساعدةَ صديقِه، لكنْ يومَ القيامةِ سينظُرُ كلُّ شخصٍ ليرى ماذا يحدُثُ لصديقِه المقرَّب، وفي نفسِ الوقتِ يكونُ مشغولًا غايةَ الانشغال بنفسِه، بحيث لا ينتبهُ إلى السُّؤال عن أحوالِ غيرِه، إلا أنّ أولياءَ الله سيهتَمُّونَ في ذلك اليوم بأمرِ أحِبّائهم، وسيُساعدُ كلٌّ منهُم الآخَرَ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

في ذلك اليوم لن يَرتدعَ المجرِمونَ والعُصاةُ من الناس حتى عن التضحيةِ بأعزّائهم من أَجْل إنقاذِ أنفُسِهم، يعني: أنّهم يتمنَّوْنَ لو أنّهمُ استطاعوا أن يُقدِّموا أبناءهم وإخوانَهم وعائلاتِهم، وإنْ أمكَنَ كلَّ مَن في الأرضِ أيضًا فِديةً يُنقذونَ بها أنفُسَهم، ولكنّ مِثلَ هذا الظُّلم لن يحدُثَ يومَ القيامة، بأنْ يؤخَذَ آخَرُ بدلًا من المجرِمِ، وإنّما سيكونُ على المجرمينَ مواجهةُ عقابِ جرائمِهم بأنفُسِهم.

## ضعف الإنسان الفطري

جاء ذكرُ ضَعْفِ الإنسانِ الفِطريِّ في الآياتِ من **١٩** إلى **٢١**، يعني: أنّ الإنسانَ قليلُ الصَّبر طَمّاعٌ إلى أقصى درجة، إذا أصابَه ضُرٌّ خاف واضْطَرَب، وجَزِع وفَزِع، وإذا أصابَتْه راحةٌ بَخِل بدلًا من أن يشكُر، لكنّ الناسَ جميعًا ليسوا على هذا المِنْوال، فهناك محترمونَ مكرَّمونَ من الناس منزَّهونَ عن هذا الوَصْف، ويمكنُكَ التعرُّفُ على مزيدٍ من التفصيل في تفسيرِ الآيات من **٢٢** إلى **٣٤**.

## ادعاء مشركي مكة

يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «فإذا سَمِعوا (أي: سادةُ قُريش) بحديثِ الآخِرةِ

وما وَعَد اللهُ المؤمنينَ، قالوا: إنْ صَحَّ أنّا نُبعَثُ كما يَزعُمُ محمّدٌ ومَن معَه لم يكنْ حالُنا وحالُهم إلّا مِثلَ ما هي في الدُّنيا، وإلّا لم يَزيدوا علينا ولم يَفضُلونا، وأقصَى أمرِهم أن يُساوونا»[١].

في آخِرِ هذه السُّورةِ رَدَّ اللهُ تعالى على زَعْم مُشرِكي مكةَ هذا قائلًا بأنه لا يمكنُ أن يَحدُثَ مِثلُ هذا، ولا يمكنُ أن يستويَ المواطنُ الملتزِمُ بالقانونِ في أيِّ دولةٍ متحضِّرة بنَظِيرِه الذي يَخرِقُ القانونَ، فكيف يمكنُ أن يدخُلَ المطيعونَ والعُصاةُ كلاهما الجنّةَ؟

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعدَ صلاة المغرب من يوم الاثنين ٨ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق الأولَ من ذي الحجة ١٤٣١هـ.**

❋ ❋ ❋

(١) تفسير القرطبي، سورة القلم (٦٨): الآية ٣٥.

# سُورَةُ المعارج (٧٠)،

## مكية (٧٩)، آياتها (٤٤)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ (٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ (١١) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ (١٣) وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ (١٨) ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ (٢٣) وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (٢٥) وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٢٦) وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٣١) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٣٢) وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ (٣٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥)

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾

١ ـ طالَبَ أحدُ مندوبي كفّارِ مكّةَ النبيَّ ﷺ قائلًا: متى يأتينا عذابُ القيامةِ

الذي تُنذِرُنا به؟، فجاء الردُّ عليهم بأنّ عذابَ القيامةِ جاهزٌ في انتظارِ المنكِرين، وسيأتي في يوم من الأيام تأكيدًا، لكنّ الذي يَعلمُ تمامَ العلم وقتَه تحديدًا هو اللهُ تعالى وحدَه، على أيِّ حال، عندَما يَحِينُ ذلك الوقتُ، فلن يستطيعَ أحدٌ أن يوقِفَه؛ لأنه عذابٌ منَ الله تعالى، واللهُ هو الغالبُ على الجميع، وهو القادرُ على كلِّ شيء، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يمنَعَه من فعلِ ما يريد.

﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾

٢ ـ اللهُ تعالى مالكُ العُلى كلِّه طِبقًا لشأنِه عزَّ وجَلّ، وهناك دَرجاتٌ لا تُحصَى للوصولِ إلى القُرب من حَضْرتِه، وكما أنّ الصالحينَ يَطْوُونَ منازلَ القُربِ الإلهيِّ طبقًا لحسَناتِهم، كذلك يَعرُجُ جِبريلُ الأمينُ والملائكةُ عليهمُ السَّلامُ إلى القُربِ الإلهيِّ طِبقًا لمَراتبِهم.

﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾

٣ ـ يعني: أنّ العذابَ الذي يُطالبونَ به سيقَعُ في يومٍ مقدارُه خمسونَ ألفَ سنةٍ.

جاء تقديرُ يوم القيامة في هذه الآية بخمسينَ ألفَ سنةٍ، بينَما جاء هذا التقديرُ في الآيةِ رقم ٤٧ من سورة الحج (٢٢)، والآيةِ رقم ٥ من سُورة السَّجدة (٣٢) بألفِ سنةٍ، وقيل: إنّ السَّببَ في هذا أنّ مقدارَ يوم القيامةِ بالفعل ألفُ سنة، لكنّ الكفّارَ بسببِ خوفِهم وقَلَقِهم يَشعُرونَ وكأنّه يَعدِلُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، بينَما يشعُرُ أهلُ الإيمانِ بأنّ وقتَ القيامةِ مختصَرٌ للغايةِ بما يَعدِلُ الوقتَ الذي تؤدَّى فيه صَلاةٌ مفروضة، وذلك بسببِ تبشيرِهم بالجنَّة، مثلَما يقولُ سيِّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ

رضي الله عنه: قيل لرسولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: يومًا كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنة، ما أطولَ هذا اليوم! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والّذي نَفْسي بيدِه، إنّه لَيُخفَّفُ على المؤمنِ حتّى يكونَ أخفَّ عليه من صَلاةٍ مكتوبةٍ يُصلِّيها في الدُّنيا»[1].

كم منَ الوقتِ سيَستغرِقُه حسابُ الناسِ جميعًا: من سيّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ وحتى قيام السَّاعة؟ لمزيدٍ من التفصيل عن ذلك راجع الحاشيةَ رقم ٦٠ للآية رقم ٦٢ من سُورة الأنعام (٦).

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾

٤ ـ يعني: لا تَضْطَرِبْ ولا تنزعجْ من إيذاءِ الكفّارِ لك، وإنّما اصبِرْ صبرًا جميلًا، وإذا لم يَرجِعوا عن طُغيانِهم فسوف ننتقمُ نحن منهم.

يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «والصَّبرُ الجميلُ: هو الّذي لا جَزَعَ فيه ولا شكوى لغيرِ الله. وقيل: هو أن يكونَ صاحبُ المصيبةِ في القوم لا يُدرَى من هو»[2].

﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾

٥ ـ كان الكفّارُ يقولونَ: إنّ قيامَ السّاعةِ أمرٌ بعيدٌ عن العقل والمنطِق، حتى وإن كان سيأتي فهو لا يزالُ بعيدًا للغاية، بينَما يَعلمُ المسلمونَ أنّ قيامَ السّاعةِ أمرٌ يقينيٌّ، والأمرُ الذي يكونُ وقوعُه يقينيًّا يعني أنه قريبٌ أيضًا؛ لأنه يقتربُ كلَّ ساعةٍ عن السّاعةِ التي سَبَقتْها، وبالتالي سيأتي على وَجْهِ اليقين، إلّا أنه عندما يأتي هذا

---

(١) مسند أحمد، ٣: ٧٥.

(٢) تفسير القرطبي، سورة المعارج (٧٠): الآية ٥.

الوقتُ ستتغيَّرُ خريطةُ الدُّنيا، فستكونُ السَّماءُ كالنُّحاسِ الذي يَغْلي، وستَتطايرُ الجبالُ كالصُّوفِ ذي الألوانِ المتعدِّدة، إذْ بما أنّ ألوانَ الجبالِ مختلفةٌ، فستبدو عندما تتفتَّتُ كأنّها أصوافٌ ملوَّنة.

وإذا كانت القيامةُ بعيدةً فإنّ الموتَ قريبٌ للغاية، والموتُ بمَثابةِ القيامةِ لمن يموت؛ لأنّ عمليَّةَ الثوابِ والعقابِ تبدَأُ بمجرَّدِ وفاةِ الشخص.

يقولُ سيِّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا مات أحدُكم فقد قامت قيامتُه، فاعبُدوا اللهَ كأنّكم ترَوْنَه، واستغفِروهُ كلَّ ساعةٍ»[1].

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾

٦ ـ كلُّ شخصٍ في هذه الدُّنيا يحاولُ قَدْرَ إمكانِه مساعدةَ صديقِه، لكنْ يومَ القيامةِ سيَنظُرُ كلُّ شخصٍ ليرى ماذا يحدُثُ لصديقِه المقرَّب، وفي نفسِ الوقتِ يكونُ مشغولًا غايةَ الانشغال بنفسِه، بحيثُ لا ينتبهُ إلى السُّؤالِ عن أحوالِ غيرِه، إلّا أنّ أولياءَ الله سيهتَمُّونَ في ذلك اليوم بأمرِ أحِبّائهم، وسيُساعدُ كلٌّ منهُم الآخَرَ.

ـ قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ـ رُوِيَ عن سيِّدِنا عثمانَ بن عَفّانَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «يَشفَعُ يومَ القيامةِ ثلاثةٌ: الأنبياءُ ثمّ العلماءُ ثمّ الشُّهداء»[2].

ـ رَوى الإمامُ مسلمٌ حديثًا طويلًا، عن سيِّدِنا أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، جاء فيه: «ثمّ يُضرَبُ الجِسرُ على جهنَّمَ وتَحِلُّ الشَّفاعةُ ويقولونَ: اللهُمَّ سلِّمْ

---

(١) كنز العمال، ١٥: ٦٨٦ برقم ٤٢٧٤٨.

(٢) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٧ برقم ٤٣١٣.

سلِّمْ... فيمُرُّ المؤمنونَ: كطَرْفِ العَيْن وكالبَرْق وكالرِّيح وكالطَّيْر وكأجاويدِ الخَيْلِ والرِّكاب، فناجٍ مُسلَّمٌ، ومخدوشٌ مرسَلٌ، ومكدوسٌ في نارِ جهنَّم. حتّى إذا خَلَص المؤمنونَ من النّار، فوالّذي نَفْسي بيدِه، ما مِنكم من أحدٍ بأشدَّ مناشدةً لله ـ في استقصاءِ الحقّ ـ من المؤمنينَ لله يومَ القيامة لإخوانِهمُ الّذين في النّار يقولونَ: ربَّنا كانوا يصُومونَ معَنا ويُصَلُّونَ ويَحُجُّونَ. فيقالُ لهم: أَخْرِجوا مَن عرَفتُم. فتُحرَّمُ صُوَرُهم على النّار، فيُخرِجونَ خَلْقًا كثيرًا قد أَخذَتِ النّارُ إلى نصفِ ساقَيْه وإلى رُكبتَيْه...»[(١)]، ويُعلَمُ منه أنّ صُحبةَ الصّالحينَ ومَعِيَّتَهم ستكونُ وسيلةً للنَّجاةِ من جهنَّم.

﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾

٧ ـ في ذلك اليوم لن يَرتدعَ المجرِمونَ والعُصاةُ من الناس حتى عن التَّضحيةِ بأعِزّائهم من أَجْل إنقاذِ أنفُسِهم، يعني: أنّهم يتمنَّوْنَ لو أنّهمُ استطاعوا أن يُقدِّموا أبناءهم وإخوانَهم وعائلاتِهم، وإنْ أمكَنَ كلَّ مَن في الأرضِ أيضًا فِديةً يُنقِذونَ بها أنفُسَهم، ولكنّ مِثلَ هذا الظُّلم لن يَحدُثَ يومَ القيامة، بأنْ يؤخَذَ آخَرُ بدَلًا من المجرِم، وإنّما سيكونُ على المجرِمينَ مواجهةُ عقابِ جرائِمهم بأنفُسِهم.

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾

٨ ـ ستكونُ نارُ جهنَّم في غايةِ الشِّدةِ بحيث أنّها ستَحرِقُ الجِلدَ واللَّحم، وستدعو إليها أولئك التُّعَساءَ الذين أعرَضوا عن دِينِ الحقِّ في الدُّنيا، وكانوا يَكنِزونَ الأموالَ والثّروةَ، ويَحرُسونَها كالثعابينِ حتى لا يقتربَ منها أحدٌ، ولم يؤدُّوا حقوقَ الله، كما لم يُبالوا بحقوقِ العباد.

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨١ برقم ٣٠٢.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾

٩ ـ يقالُ للصِّفاتِ التي يولَدُ بها الإنسانُ: الفِطرةُ أو الجِبِلّة، وفي هذه الآياتِ الثلاثِ جاء ذِكرُ بعضٍ من فِطرةِ الإنسان، يعني: أنّ الإنسانَ قليلُ الصَّبر طَمّاعٌ إلى أقصى درجةٍ، إذا أصابَه ضُرٌّ خافَ واضْطَرَب، وجَزِع وفَزِع، وإذا أصابَتْه راحةٌ بَخِل بَدلًا من أن يشكُرَ، لكنّ الناسَ جميعًا ليسوا على هذا المِنوال، فهناك محترمونَ مكرَّمونَ من الناس منزَّهونَ عن هذا الوَصْف، وسيأتي ذِكرُهم في الآياتِ الثلاثَ عشْرةَ التاليةِ.

وهنا يتبادَرُ إلى الذِّهن سؤالٌ فَحْواهُ أنه: إذا كان اللهُ تعالى قد خَلَق الإنسانَ قليلَ الصَّبر، فما ذَنْبُه إذا وَقَع منه عَدَمُ الصَّبرِ إذًا، باعتبار أنه مجبورٌ بفِطرتِه؟

وجوابُ هذا: أنّ اللهَ تعالى أَوْدَعَ في فِطرةِ الإنسان ـ بقَصْدِ ابتلائه ـ الاستعدادَ للخيرِ والشرِّ، يعني: القيامَ بعمَلَيْنِ متضادَّيْنِ، ولهذا فإنّ كلَّ إنسانٍ لا يكونُ طيِّبًا أو سيِّئًا طِبقًا لاستعدادِه الفِطريِّ، وإنّما الشَّخصُ السيِّءُ هو الذي يترُكُ الحسَنةَ عامدًا متعمِّدًا، ويختارُ طريقَ السيِّئة، والشَّخصُ الخيِّرُ هو ذلك الشَّخصُ الذي يترُكُ السيِّئةَ عامدًا متعمِّدًا، ويَسلُكُ طريقَ الخير.

وكما أنّ اللهَ تعالى أَوْدعَ في الإنسانِ الاستعدادَ لقَبولِ الكُفر، أَوْدعَ فيه كذلك الاستعدادَ لقَبولِ الإيمان، مثلَما يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما مِن مولودٍ إلّا يولَدُ على الفِطرة، فأبَواهُ يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه، كما تُنتجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعاءَ؟». ثمّ يقولُ أبو هريرة ـ رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠][1].

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٧٩ برقم ١٣٥٩.

ويُعلَمُ منه أنّ اللهَ تعالى قد أَوْدَعَ في فِطرةِ الناسِ جميعًا صَلاحيّةَ قَبولِ الإسلام، فإذا جَعَل الوالدانِ أو البيئةُ أحدًا غيرَ مسلم، فإنّ صلاحيّةَ قَبولِ الإسلام تظَلُّ موجودةً بداخِله، فإذا ما فكَّر وتدبَّر وتمَعَّنَ، يُمكنُه قَبولُ الإسلام، ولو لم تكنْ صَلاحيةُ قَبول الإسلام في فِطرةِ أبي جهل وأبي لَهَب موجودةً فعلًا، لَما صَحَّت دعوتُهم لقَبولِ الإسلام، ولَما صَحَّ أيضًا الحُكمُ بدخولِهم جهنَّمَ عقابًا لهم على عَدَم قَبولِهم له.

في رأيي تنقسمُ فِطرةُ الإنسانِ إلى قِسمَيْن، أحدُهما: تلك الفِطرةُ التي يختارُها الإنسانُ أو لا يختارُها بمَحْضِ إرادتِه، وهذه هي الفِطرةُ التي يُثابُ أو يُعاقَبُ على أساسِها الإنسانُ، أمّا الفِطرةُ الثانيةُ فهي تلك التي لا يُمكنُ أن يطرَأَ عليها تغييرٌ أو تبديل، كأنْ يكونَ اللهُ تعالى قد كَتَب الجُنونَ في فِطرةِ إنسانٍ ما، فهذا لا يمكنُ لأحدٍ أن يُبدِّلَه، وهذه هي الصُّورةُ التي لن يُحاسَبَ عليها؛ لأنه مُضْطَرٌّ فيها، مثلَما يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي الله عنه: بينما نحن عندَ رسول الله ﷺ نتذاكَرُ ما يكون، إذْ قال رسولُ الله ﷺ: «إذا سَمِعتُم بجبلٍ زالَ عن مكانِه، فصَدِّقوا، وإذا سَمِعتُم برجُلٍ تغيَّرَ عن خُلُقِه، فلا تُصدِّقوا به، وإنّه يصيرُ إلى ما جُبِلَ عليه»[1]، وهذا الحديثُ صحيحٌ، ولمزيدٍ من التفصيل عن الفِطرة تدبَّرِ المسألَةَ التاليةَ.

## ثلاثة مذاهب فيما يتعلق بالتقدير

الإنسانُ عندَ الجَبْرِيِّينَ مجبورٌ مَحْض، وعندَ القَدَرِيِّينَ (الإنسانُ مختارٌ تمامًا، ولكنْ عندَ أهلِ السُّنّةِ والجماعةِ النَّظريّتانِ تُخالِفانِ الإسلامَ، والأصلُ أنّ الإنسانَ ليس مجبورًا بشكلٍ كامل كالحَجَر، ولا هو مختارٌ تمامًا كمِثلِ اللهِ تعالى، وإنّما

---

(١) مسند أحمد، ٦: ٤٤٣، ومجمع الزوائد، ٧: ١٩٦.

أعطَى اللهُ تعالى الإنسانَ الصَّلاحيةَ والقُدرةَ على اختيارِ الحَسَنِ أو السيِّئ كلَيْهما، وأعطاه في نفسِ الوقتِ العقلَ والتمييزَ، ولهذا أَرسَلَ اللهُ تعالى إلى بني الإنسانِ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام، حتى يستطيعوا التمييزَ بينَ الخيرِ والشرِّ، وهكذا فإنّ الإنسانَ يستطيعُ أن يفعَلَ الخيرَ بإرادتِه ورضاه، وهو ما سيَنالُ عليه الثوابَ، كما أنه يستطيعُ أن يفعَلَ الشرَّ بإرادتِه ورضاه، وهو ما سيَنالُ عليه العقابَ، إلّا أنّ هناك بعضَ الأشياءِ يكونُ الإنسانُ فيها عاجزًا، مثلًا: الحياةُ والموت؛ أين سيكونُ مولدُه؟ وأين سيكونُ موتُه؟ وكيف سيكونُ شكلُه، وغيرُ ذلك، ولكنّ الإنسانَ لن يُسألَ عن هذه الأمورِ كلِّها، وبنفسِ الطريقة فإنّ الفِطرةَ التي خَلَقَها اللهُ غيرُ قابلةٍ للتبدُّل، ولا يستطيعُ الإنسانُ أن يُحدِثَ فيها تبديلًا، كما أنه لن يكونَ مسئولًا عن شيءٍ فيها، أمّا الفِطرةُ التي أُعطِيَ الإنسانُ الاختيارَ فيها، فهو مسئولٌ فيها عن جُرم معصيةِ الله تعالى إذا ارتكَبَه.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾

١٠ ـ في الآياتِ الثلاثَ عشْرةَ التاليةِ جاء ذِكرُ أهل الإيمانِ الذين يعمَلونَ بأحكام الله تعالى، فيَحصُلونَ على النَّجاةِ من الجَزَع والفَزَع والبُخل وغيرِها من الضَّعفِ الفِطْرِيِّ، ويُعلمُ منه أنّ التعاليمَ الإسلاميّةَ تُمثِّلُ ضرورةً من ضروريّاتِ الإنسانِ التي تَهْديه إلى طريقِ النّجاةِ من الضَّعف والأمراضِ الفِطريّة.

ـ يقولُ سيّدُنا صُهَيبٌ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «عَجَبًا لأمرِ المؤمن، إنّ أمرَه كلَّه خيرٌ وليس ذاك لأحدٍ إلّا للمؤمن، إن أصابَتْه سَرَّاءُ شَكَر فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرّاءُ صَبَر فكان خيرًا له»(١).

---

(١) مسلم، كتاب الزهد، باب ١٣ برقم ٧٥٠٠.

والصِّفةُ الأُولى من صفاتِ أهل الإيمانِ التي وَرَدت في هذه الآياتِ هي: أنّهم ملتزِمونَ تمامًا ودائمًا بالصَّلاة، يعني: يؤدُّونَ الصّلاةَ بكلِّ آدابِها الظاهرة، والمرادُ بالآدابِ الظاهرة: الالتزامُ بأداءِ الصّلواتِ كلِّها في أوقاتِها الصَّحيحة، وطبقًا لسُنّة نبيِّنا الحَبيب ﷺ.

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ مَّعۡلُومٌ﴾

١١ ـ الصِّفةُ الثانيةُ من صفاتِ أهل الإيمان: أنّهم لا يَكنِزونَ الأموالَ والثّرواتِ بحيث لا يُنفقونَ منها، وإنّما يؤدُّونَ ما فَرَض اللهُ عليهم فيها من زكاةٍ إلى السائل والمحروم، ويمكنُ أن يكونَ المرادَ بالمحروم أيضًا ذلك الشَّخصُ المحرومُ من الرِّزق، كما يمكنُ أن يكونَ المرادَ به ذلك المحتاجُ الذي لا يَمُدُّ يدَ السُّؤال أمامَ أحدٍ، وزكاةُ المال ـ في الحقيقة ـ حقٌّ للفُقراءِ وأمانةٌ لهم عندَ الأغنياء، وعليهم أن يؤدُّوها إلى الفُقراءِ في أسرع ما يمكن، إذ قد يكونُ هؤلاءِ في أمسِّ الحاجة إليها، كما أنّ اللهَ تعالى لم يَفرِضْ على الفُقراءِ أن يذهبَوا إلى الأغنياءِ للمطالبة بحقِّهم، وإنّما فَرَض على الأغنياءِ أن يذهَبوا بأنفُسِهم ويبحَثوا عن الفقراءِ ويؤدُّوا إليهم ما فَرَضَه اللهُ عليهم؛ لأنّ من الممكنِ تمامًا أن يكونَ هناك محتاجونَ، لكنَّهم لا يَملِكونَ الجُرأةَ على السُّؤالِ والطلب.

يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ مَّعۡلُومٌ﴾ يريدُ الزّكاةَ المفروضةَ، قاله قَتادةُ وابنُ سِيرين. وقال مجاهدٌ: سوى الزّكاة. وقال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابن عبّاسٍ: صِلةُ رَحِمٍ وحَمْلُ كلٍّ. والأوّلُ أصَحُّ؛ لأنّه وصفُ الحقّ بأنّه معلومٌ، وسوى الزّكاةِ ليس بمعلومٍ، إنّما هو على قَدْرِ الحاجة، وذلك يَقِلُّ ويكثُر»[١]. كما

(١) تفسير القرطبي.

أنّ صَدَقاتِ التطوُّع يمكنُ أن تنقُصَ وتزيدُ طِبقًا لمقدِرةِ المتصدِّقِ وحاجةِ المتصدَّقِ عليه، في حينَ أنّ الزكاةَ تكونُ اثنَيْنِ ونصفًا في المائةِ بشكل محدَّد.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

١٢ ـ الصِّفةُ الثالثةُ من صفاتِ أهل الإيمان: أنّهم يُصدِّقُونَ بيوم الحساب، يعني: أنّهم على يقينٍ من أنّ السّاعةَ لا بدَّ قائمةٌ في يوم من الأيام، حيث سيُحاسَبُونَ فيه على أعمالِهم، ولهذا فهم لا يَظلِمونَ أحدًا في هذه الدُّنيا، حتى لا يندَموا عند الحساب.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾

١٣ ـ الصِّفةُ الرابعةُ من صفاتِ أهل الإيمان أنّهم يخافُونَ من عذابِ ربِّهم، وعذابُ اللهِ تعالى مُخيفٌ بالفعل؛ لأنّ عَدَم الخوفِ من عذابِ الله يُغري الإنسانَ بعَدَم العمَل.

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾

١٤ ـ الصِّفةُ الخامسةُ من صفاتِ أهل الإيمان هي: أنّهم يحافظونَ على عِفَّتِهم، يعني: أنّهم لا يَقرَبُونَ سوى أزواجِهم أو ما مَلَكتْ أَيْمانُهم بغَرَض قضاءِ حاجتِهم الجِنسيّة؛ لأنّ الشريعةَ الإسلاميّةَ حَرَّمت كلَّ الطُّرقِ الأخرى لقضاءِ الحاجة الجِنسيّة باستثناءِ السَّبيلَيْنِ السابقَيْن، والآنَ لم يَبْقَ سوى سَبيلٍ واحد، وهو الأزواج، باعتبارِ أنه لم يَعُدْ هناك وجودٌ لمِلكِ اليمين.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾

١٥ ـ الصِّفةُ السادسةُ من صفاتِ أهل الإيمان هي: أنّهم يُحافظونَ على الأمانات، فكلُّ حُكم من أحكام الإسلام، وكلُّ شيءٍ يتعلَّقُ بالمسلم هو بمَثابةِ

أمانةٍ لله تعالى عندَ المسلم، وسواءٌ كان هذا الحُكمُ يتعلَّقُ بالمسلم نفسِه أم بغيرِه، وسواءُ كان يتعلَّقُ بالأمورِ الدُّنيويّة أم بالعباداتِ الدِّينية، وسواءٌ كان يتعلَّقُ بمنصِبٍ ما أم بسُلطةٍ ما، فإنّ كلَّ نَفَسٍ في حياتِنا، وكلَّ قول يَصدُرُ عن أفواهِنا، وكلَّ فعل يَصدُرُ عن أيدينا، كلُّها أماناتٌ عندَنا، وحقُّ الأمانة يمكنُ تأديتُه حين تؤدَّى الأماناتُ بكلِّ آدابِها ومستلزَماتِها، ودونَ زيادةٍ أو نُقصانٍ أو ظُلم واعتداء، والجميعُ سواءٌ في هذا الحُكم، سواءٌ كانوا أغنياءَ أم فقراءَ، وسواءٌ كانوا حُكّامًا أم محكومين.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنه سَمع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسئولٌ عن رعيّتِه، الإمامُ راعٍ ومسئولٌ عن رعيّتِه، والرّجلُ راعٍ في أهلِه وهو مسئولٌ عن رعيّتِه، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسئولةٌ عن رعيّتِها، والخادمُ راعٍ في مال سيّدِه ومسئولٌ عن رعيّتِه ـ قال: وحَسِبتُ أنْ قد قال ـ والرّجلُ راعٍ في مالِ أبيه ومسئولٌ عن رعيّتِه، وكلُّكم راعٍ ومسئولٌ عن رعيّتِه»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ثلاثٌ ليس لأحدٍ من النّاسِ فيهِنَّ رخصةٌ:

١ ـ بِرُّ الوالدَيْنِ مسلمًا كان أو كافرًا.

٢ ـ والوفاءُ بالعهدِ لمسلمٍ كان أو كافرًا.

٣ ـ وأداءُ الأمانةِ إلى أهلِها مسلمًا كان أو كافرًا»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا عُمرُ بن الخَطّاب رضي الله عنه: «لا تَغُرَّنَّك صلاةُ رجلٍ ولا صيامُه، مَن شاء صام ومَن شاء صَلّى، ولكنْ لا دِينَ لمَن لا أمانةَ له»[3].

---

(١) البخاري، كتاب الجمعة، باب ١١ برقم ٨٩٣.

(٢) كنز العمال، ١٦: ٢٨ برقم ٤٣٧٩١، وجمع الجوامع، ٤: ١٣٤ برقم ١٠٧٦٠.

(٣) كنز العمال، ٤: برقم ٨٤٣٦.

ـ يقولُ سيّدُنا عُمرُ بن الخَطّاب رضي الله عنه: «لا تنظُروا إلى صلاةِ أحدٍ ولا إلى صيامِه، ولكنِ انظُروا إلى مَن إذا حَدَّث صَدَق، وإذا اؤتُمِن أدَّى، وإذا أَشْفى وَرِع»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّها ستأتي على النّاسِ سِنونَ خَدّاعةٌ، يُصدَّقُ فيها الكاذب، ويُكذَّبُ فيها الصّادق، ويؤتَمَنُ فيها الخائن، ويُخَوَّنُ فيها الأمين»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: بينَما النّبيُّ ﷺ في مجلسٍ يُحدِّثُ القومَ، جاءه أعرابيٌّ فقال: متى السّاعةُ؟ فمضَى رسولُ الله ﷺ يُحدِّث، فقال بعضُ القوم: سَمِع ما قال، فكَرِه ما قال، وقال بعضُهم: بل لم يسمَعْ، حتّى إذا قضَى حديثَه قال: «أين ـ أُراه ـ السّائلُ عن السّاعة؟». قال: ها أنا يا رسولَ الله. قال: «فإذا ضُيِّعتِ الأمانةُ فانتظِر السّاعةَ». قال: كيف إضاعتُها؟ قال: «إذا وُسِّد الأمرُ إلى غيرِ أهلِه فانتظِرِ السّاعةَ»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «التّاجرُ الصَّدُوقُ الأمينُ، معَ النّبيِّينَ والصّدِّيقينَ والشُّهداء»(٤).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «التّاجرُ الأمينُ الصَّدُوقُ المسلمُ معَ الشُّهداءِ يومَ القيامة»(٥).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومَن كانت فيه خَصْلةٌ منهُنّ كانت فيه خَصْلةٌ من

---

(١) كنز العمال، ٤: برقم ٨٤٣٥.

(٢) مسند أحمد، ٢: ٢٩١.

(٣) البخاري، كتاب العلم، باب ٢ برقم ٥٩.

(٤) الترمذي، أبواب البيوع، باب ٤ برقم ١٢٠٩.

(٥) ابن ماجه، أبواب التجارات، باب ١ برقم ٢١٣٩.

النّفاقِ حتّى يَدَعَها: إذا اؤتُمِن خان، وإذا حَدَّث كَذَب، وإذا عاهَدَ غَدَر، وإذا خاصَمَ فَجَر»[١].

﴿وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾

١٦ ـ الصِّفةُ السابعةُ من صفاتِ أهل الإيمان هي: أنّهم يُحافظونَ على عهودِهم ومواثيقِهم، والمرادُ منه كلُّ تلك المعاهَداتِ التي تكونُ منعَقِدةً بينَ الإنسانِ وربِّه، وبينَ الإنسانِ والإنسان، وسواءٌ كانت هذه العهودُ والمواثيقُ تتعلَّقُ بالأحكام الدِّينية أم بالمعاملاتِ الدُّنيويّة، وسواءٌ كانت معَ أهل الإيمان أم معَ غيرِ المسلمين، كلُّها يجبُ الالتزامُ بها، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، لكنْ إذا أَبْرم شخصٌ ما عهدًا أو وعدًا فيه عِصيانٌ لله تعالى ولرسولِه الكريم ﷺ، فلا يجبُ الوفاءُ به.

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: ما خَطَبَنا نبيُّ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم إلّا قال: «لا إيمانَ لمَن لا أمانةَ له، ولا دِينَ لمَن لا عهدَ له»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا حُذَيفةُ بنُ اليَمَانِ رضي الله عنه: ما مَنَعَني أن أشهَد بدرًا إلّا أنّي خَرَجتُ أنا وأبي حُسَيْلٌ. قال: فأخَذَنا كفّارُ قُريشٍ قالوا: إنّكم تريدونَ محمّدًا، فقلنا: ما نريدُه، ما نريدُ إلّا المدينةَ. فأخَذوا منّا عهدَ الله وميثاقَه لَننصَرِفَنَّ إلى المدينةِ ولا نُقاتلُ معَه، فأتَيْنا رسولَ الله ﷺ فأَخْبرناهُ الخبرَ، فقال: «انصَرِفا نَفِي لهم بعهدِهم ونستعينُ اللهَ عليهم»[٣].

---

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب ٢٥ برقم ٣٤.
(٢) مسند أحمد، ٣: ١٣٥.
(٣) مسلم، كتاب الجهاد، باب ٣٥ برقم ١٧٨٧.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن قَتَل مُعاهَدًا لم يَرَحْ رائحةَ الجَنّة، وإنّ رِيحَها توجَدُ من مسيرةِ أربعينَ عامًا»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا البراءُ بن عازِب رضي الله عنه: صالَحَ النّبيُّ ﷺ المشركينَ يومَ الحُدَيْبِيَة على ثلاثةِ أشياءَ: على أنّ مَن أتاه من المشركينَ رَدَّه إليهم، ومَن أتاهُم من المسلمينَ لم يرُدُّوه، وعلى أن يَدخُلَها (أي: مكةَ من أَجْل أداءِ العُمرة) من قابِلٍ ويُقيمَ بها ثلاثةَ أيّامٍ، ولا يَدخُلَها إلّا بجُلُبّانِ السِّلاح: السّيفِ والقَوْس ونحوِه. فجاء أبو جَنْدَلٍ (والذي كان قد أَسْلَم) يَحجِلُ في قيودِه فرَدَّه إليهم[٢]. فبَيْنا رسولُ الله ﷺ يكتُبُ الكتابَ هو وسُهَيلُ بن عَمْرٍو، إذ جاء أبو جَنْدَل بنُ سُهَيل بن عَمْرٍو يَرسُفُ في الحديد،... فلمّا رأى سُهَيلٌ أبا جَنْدلٍ قام إليه فضَرَب وجهَه، وأخَذ بتلبيبِه، ثمّ قال: يا محمّد، قد لَجَّت القضيّةُ بيني وبينَك قبلَ أن يأتيَكَ هذا، قال: «صَدَقتَ»، فجَعَل ينتُرُه بتلبيبِه، ويَجُرُّه ليرُدَّه إلى قُريشٍ، وجَعَل أبو جَنْدلٍ يصرُخُ بأعلى صوتِه: يا معشرَ المسلمين، أأُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فزاد ذلك النّاسَ إلى ما بهم، فقال رسولُ الله ﷺ: «يا أبا جَنْدلٍ، اصبرْ واحتسِبْ، فإنّ الله جاعلٌ لكَ ولمن معَك من المستضعَفِينَ فَرجًا ومَخْرَجًا، إنّا قد عقَدْنا بيْنَنا وبينَ القوم صُلحًا، وأعطَيْناهم على ذلك، وأعطَونا عهدَ الله، وإنّا لا نَغدرُ بهم»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ أبي الحَمْساءِ رضي الله عنه: بايَعتُ النّبيَّ ﷺ ببيعٍ قبلَ أن يُبعَثَ وبَقِيتْ له بقيّةٌ، فوَعَدتُه أن آتيَه بها في مكانِه فنَسِيتُ ثمّ ذَكَرتُ بعدَ ثلاثٍ فجئتُ فإذا هو في مكانِه فقال: «يا فتى، لقد شقَقْتَ علَيَّ أنا ها هنا منذُ ثلاثٍ أنتظرُك»[٤].

---

(١) البخاري، كتاب الجزية، باب ٥ برقم ٣١٦٦.
(٢) البخاري، كتاب الصلح، باب ٧ برقم ٢٧٠٠.
(٣) سيرة ابن هشام، ٣: ٢٠٤.
(٤) أبو داود، كتاب الأدب، باب ٩٠ برقم ٤٩٩٦.

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الغادرُ يُرفَعُ له لواءٌ يومَ القيامة، يقالُ: هذه غَدْرةُ فلانٍ ابنِ فُلانٍ»[1].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾

١٧ - الصِّفةُ الثامنةُ من صفاتِ أهل الإيمانِ هي: أنّهم إذا اضْطُرُّوا إلى الشَّهادةِ أدَّوْها كاملةً صحيحةً وبكلِّ أمانة، لا يزيدونَ أو ينقُصونَ فيها طمَعًا في شيءٍ أو خوفًا من شيء.

## شهادة الزور

لو شَهِد أحدٌ شهادَة زُورٍ فيما يتعلَّقُ بالله تعالى فقدِ اعتدَى على حقوقِ الله تعالى، وإنْ شَهِدَها فيما يتعلَّقُ بالناسِ فقدِ اعتدَى على حقوقِ العبادِ وضيَّعَها، ولهذا فإنّ عبادَ الله الصّالحينَ لا يشاركونَ في مجلسٍ أو عمَلٍ أو حديثٍ يكونُ فيه اعتداءٌ على حقوقِ الله أو حقوقِ العباد، ولو حَدَث مصادَفةً أنْ وُجِدوا في مجلسٍ بهذا الشكل فإنّهم سُرعانَ ما ينسَحِبونَ منه بطريقةٍ وَقُورة، محافظينَ - في نفسِ الوقت - على طهارةِ أنفُسِهم من هذا الكذب.

يقولُ الدكتور وَهْبة الزُّحَيلي: «وكان عُمرُ بنُ الخطاب يَجلِدُ شاهدَ الزُّور أربعينَ جَلْدةً، ويُسخِّمُ وجهَه (يَطْليه بالسَّواد) ويَحلِقُ رأسَه، ويُطوِّفُ به السُّوقَ»[2]، حتى ينفرَ الناسُ من شهادةِ الزُّور.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾

١٨ - الصِّفةُ التاسعةُ من صفاتِ أهل الإيمان هي: أنّهم يُحافظونَ على صَلَواتِهم،

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٩٩ برقم ٦١٧٧.

(٢) التفسير المنير، سورة الفرقان (٢٥): الآية ٧٢.

يعني: يؤدُّونَها بكلِّ خشوع وخضوع وإخلاصِ نيّةٍ لله تعالى، حتى لا يضيعَ أجرُهم بسببِ الرِّياء.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾

١٩ ـ أصحابُ الصِّفاتِ التِّسع السّابقةِ هم أولئك السُّعَداءُ الذين يَصبِرونَ ولا يَبخَلون، وإنما يَرْضُونَ ربَّهم بصَبْرِهم وسَخائهم، واللهُ تعالى يُدخِلُهم الجنّةَ، حيث يعيشونَ حياةً كريمةً بكلِّ عزٍّ واحترام.

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾

٢٠ ـ ما أعجَبَ كفّارَ مكةَ من بشَر! إذْ عندما يكونُ النبيُّ ﷺ جالسًا في مجلسِ أصحابِه رضي الله عنهم، فإنّ هؤلاءِ الكفّارَ كانوا يُسارعونَ إليه ﷺ في جماعاتٍ عن اليمين وعن الشِّمال، وبَدلًا من أن يؤمنوا به ﷺ، ويستفيدوا من حديثِه المليءِ حكمةَ، كانوا على العكسِ من ذلك يَسخَرونَ منه ﷺ ومن أصحابِه الكرام رضي الله عنهم قائلينَ: إذا كان هؤلاءِ المسلمونَ سيَدخُلونَ الجنّةَ، فسنَدخُلُها قبلَهم يقينًا[١].

---

(١) «قال المفسرون: كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ حلقًا حلقًا، يسمعون كلامه ويستهزئون به وبأصحابه، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم، فنزلت الآية» صفوة التفاسير.

﴿كَلَّآ﴾

**٢١** - يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «فإذا سَمِعوا بحديثِ الآخِرةِ وما وَعَد اللهُ المؤمنينَ قالوا: إنْ صَحّ أنّا نُبعَثُ كما يَزعُمُ محمّدٌ ومَن معَه لم يكنْ حالُنا وحالُهم إلّا مِثلَ ما هي في الدُّنيا، وإلّا لم يَزيدوا علينا ولم يَفضُلونا، وأقصَى أمرِهم أن يُساوونا»[1].

في هذه الآيةِ أبطَلَ اللهُ تعالى مزاعمَ مشركي مكّةَ قائلًا: إنّ هذا لا يمكنُ، ولا يمكنُ أن يتساوَى مواطنٌ ملتزمٌ بالقانونِ معَ نَظيرِه المجرِمِ في أيِّ بلدٍ متحضِّر، فكيف يمكنُ أن يَدخُلَ العاصي لله الجنّةَ معَ المُطيع له؟

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾

**٢٢** - كان كفّارُ مكّةَ يُنكِرونَ مسألةَ البَعْثِ ثانيةً، ولهذا جاء التنبيهُ لهم بأنّهم يَعلَمونَ جيِّدًا أنهم خُلِقوا من قَطْرةٍ حقيرة، وإذا كان اللهُ تعالى يستطيعُ أن يَخلُقَ من هذه القَطرةِ هذا الإنسانَ الجميلَ العاقل، فكيف لا يُمكنُه أن يَخلُقَه ثانيةً؟

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾

**٢٣** - يقالُ للمكانِ الذي تَشرُقُ منه الشمسُ: مشرِقٌ، وللمكانِ الذي تَغرُبُ فيه: مغرِبٌ، ورَغْمَ أنّ الشمسَ تطلُعُ من المشرِقِ وتغرُبُ في المغرِب، إلا أنّها تَطلُعُ وتَغرُبُ كلَّ يوم من مكانٍ جديد، وهكذا يكونُ للشمسِ في العام الواحدِ **٣٦٥** مكانًا تَشرُقُ منهُ، ومِثلُها تَغرُبُ فيه، وقدِ استُعمِلت ألفاظُ المشارقِ والمغاربِ بسببِ هذه الأماكنِ المختلفة لطلوع الشمسِ وغروبِها.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾

**٢٤** - أَقْسَم اللهُ تعالى بذاتِه قائلًا: إنّنا قادرونَ على أن نُهلِكَكم ونأتيَ بخيرٍ منكم

---

(١) تفسير القرطبي: سورة القلم (٦٨): الآية **٣٥**.

بدَلًا منكم، ولا يُعجِزُنا هذا الأمرُ أبدًا، وفيه إشارةٌ إلى القيامة، بمعنى: أنه إذا كان بإمكانِنا أن نَخلُقَ خيرًا منهم بدَلًا منهم، فكيف لا نستطيعُ أن نُحيَيهم مِن جديد؟

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾

٢٥ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لقد أدَّيتَ حقَّ تبليغ الرِّسالة، فإذا لم يؤْمنوا بك برَغْم هذا، وإنّما سَخِروا منك، فلا تَحزَنْ عليهم ولا تغتَمَّ، ولا تُبالِ بهم، ودَعْهم مُنهمِكينَ في لَهْوِهم ولعبِهم وكلامِهم التافِه، إلى أن يَمثُلوا في عدالتِنا يومَ القيامة، وعندَئذٍ سنُعاقبُهم أشدَّ العقابِ على أفعالِهمُ القبيحة.

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾

٢٦ ـ حينَ ينهَضُ الكفّارُ من قبورِهم يومَ القيامة سيُهَرولونَ باتِّجاهِ مَن يناديهم، مثلَما كانوا يُسارعونَ إلى الأصنام في الدُّنيا، ولكنّ أبصارَهم في ذلك اليوم ستكونُ خاشعةً ذليلةً مَثَلُهم مَثَلُ المجرِمين، وسوف تسوَدُّ وجوهُهم من الخِزْي والعارِ والذُّلِّ، فهذا هو اليومُ الذي وُعِدوا به، ولكنَّهم لم يؤْمنوا به.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعدَ صلاة العصر من يوم الجمُعة ١٢ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ١٥ ذي الحجة ١٤٣١هـ.**

**هذا، وقد اكتَملَ بفضل الله تعالى وكرمِه تفسير سورة «المعارج» في أربعة أيام فقط، أي: من ٨ إلى ١٢ نوفمبر، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسلامُ على سيّد المرسَلين، وعلى آله وأصحابِه أجمعين.**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# (٧١) سُورَةُ نُوحٍ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها: «نُوحٌ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

## دعوة سيدنا نوح عليه السلام

جاء بيانُ قصّةِ سيّدِنا نوح عليه السَّلامُ في هذه السُّورة، فقد ظَلَّ سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ يدعو قومَه لتسعِمائةٍ وخمسينَ عامًا، وأَفْهَمَهم مِرارًا أنِ استغفِروا اللهَ تعالى، وعندَئذٍ لن يغفرَ اللهُ لكم ذنوبَكم فقطْ، وإنّما سيُمطرُكم بأمطارٍ تُنبتُ حدائقَكم وبساتينَكم، وتَجري منها أنهارُكم، وسيَرزُقُكم بالكثيرِ من الأموالِ والأولاد.

## قدرة الله تعالى

في الجزءِ الأوسَط من هذه السُّورةِ عَبَّر اللهُ تعالى عن قُدرتِه، يعني: أنه خَلَق السَّماءَ والشمسَ والقمرَ والأرضَ، ثم خَلَقَ إنسانًا جميلًا وعظيمًا من قَطْرةٍ حقيرةٍ، ولئن تدبَّر الإنسانُ في هذه الأشياء، لَوجَدَ فيها آياتٍ عديدةً على قُدرةِ الله تعالى.

## دعاء سيدنا نوح عليه السلام على قومه

لم يتأثَّرْ قومُ نوح بدعوةِ سيّدِنا نُوح عليه السَّلامُ لهم ليلَ نهارَ، ولم يؤمنْ به

سوى عددٍ قليل من الناس، بل إنّهم تآمَروا على قتلِه، ولمّا لم يبقَ لديه عليه السَّلامُ أيُّ أمل، حينَئذٍ دعا عليهم، فأَغْرقَهم اللهُ تعالى في الماء.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعدَ صلاة الفجر من يوم السبت ١٣ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق السادسَ من ذي الحجة عام ١٤٣١هـ.**

❋ ❋ ❋

# سُورَةُ نُوحٍ (٧١)،

## مكية (٧١)، آياتها (٢٨)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾

١ - وُلِد سيّدُنا نُوحُ عليه السَّلامُ بعدَ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ بألفَيْ عام تقريبًا، خلالَ هذه الفترةِ الطويلة تَرَك الناسُ التوحيدَ، وأصابَهم ضلالُ الشِّرك، ولهذا أَرسَلَ اللهُ تعالى سيّدَنا نوحًا عليه السَّلامُ إلى قومِه نبيًّا، حتى يُنذرَهم بعذابِ اللهِ

تعالى، وأنّهم إذا أَصرُّوا على كُفرِهم وشِركِهم، فسيأتيهم عذابٌ أليم، وفي ذلك الوقتِ لن تَجِدوا مُهلةً للتَّوبة، ولهذا ينبغي لكم أن تَتُوبوا من كُفرِكم وتؤمنوا باللهِ تعالى قبلَ أن يأتيَكم العذابُ.

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

٢ ـ ولهذا أَخْبر سيّدُنا نُوحٌ عليه السَّلام قومَه قائلًا: إنّني جئتُ إليكم لأُنذِرَكم من عذابِ الله تعالى، والسَّبيلُ إلى النَّجاةِ من عذابِ الله تعالى هو أن تعبُدوه، وتَتَّقوه، وأن تُطيعوني، فإذا فَعَلتُم فإنّ اللهَ تعالى سيغفرُ لكم ذنوبَكم، وسيؤَخِّرُ عنكم ذلك العذابَ الذي كنتُم تستحِقُّونَه بسببِ كُفرِكم وشِركِكم؛ لأنّ الذين يتُوبونَ بصِدقٍ قبلَ مجيءِ العذابِ يؤخِّرُ عذابَهم، وإذا بقِيتُم على إيمانِكم وظَلَلتُم ثابتينَ عليه، عندَئذٍ سيؤخِّرُ عنكم بشكلٍ مستقِلٍّ، ولن يأتيَكم أبدًا بعدَ ذلك، لكنْ إذا لم تَستفيدوا من هذه المُهلة، وحانَ وقتُ عذابِكم، فإنّ توبتَكم لن تُقبَلَ عندَئذٍ، ولن يؤخَّرَ عنكمُ العذابُ، ليْتَكم تَفهَمُونَ هذه الحقيقةَ، وتتوبونَ إلى اللهِ قبلَ مجيءِ العذاب.

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾

٣ ـ ظَلَّ سيّدُنا نُوحٌ عليه السَّلامُ يدعو قومَه إلى التوحيدِ لمدّةِ تسعِمائةٍ وخمسينَ عامًا قبلَ مجيءِ الطُّوفان، ولكنْ لمّا لم يبدُ له شُعاعُ أمل في إيمانِهم، توَجَّه إلى اللهِ تعالى ودعاه قائلًا في حَضْرتِه: لقد دعَوْتُ قومي ليلًا ونهارًا، ولكنَّهم معَ ذلك لم يؤْمنوا، بل إنّهم ما إن يَسمَعوا صوتَ دعوتي حتى يَفِرُّونَ بعيدًا.

## عمر سيدنا نوح عليه السلام وفترة دعوته

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: «بُعِثَ نوحٌ بعدَ أربعينَ سنةً،

ولَبِثَ يدعو قومَه تسعَمائةٍ وخمسينَ سنةً، وعاشَ بعدَ الطُّوفانِ ستِّينَ سنةً (وظَلَّت سلسلةُ الدَّعوةِ متواصلةً، وبهذا) فكان عُمرُه ألفًا وخمسينَ سنةً»[1]. وكانت فترةُ دعوتِه ألفَ عام وعشَرةَ أعوام، ورَغْمَ أنّ العُمُرَ الطبيعيَّ للإنسانِ ليس طويلًا إلى هذا الحدِّ، لكنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَق، يفعَلُ ما يريد.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾

٤ ـ يا إلهي، إنّني كلَّما دعَوْتُهم إلى التوحيدِ حتى يؤمنوا بك، فتَغفِرَ لهم ذنوبَهم، فإنّهم يضَعُونَ أصابعَهم في آذانِهم، حتى لا يسمَعوا ما أقول، بل ويَلُفُّونَ ثيابَهم فوقَ رءوسِهم لكي لا يرَوْني ولا أستطيعَ أنا التعرُّفَ عليهم، وقد تَعنَّتوا إلى حدٍّ بعيدٍ في شِركِهم وكُفرِهم إلى درجةِ أنّهم لم يَعُودوا على استعدادٍ للتخلِّي عنه، ولهذا يتكبَّرونَ، ولا يُعِيرونَ كلامي اهتمامًا.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾

٥ ـ ثُم إنّي دعَوْتُهم علانيَةً بشكلٍ اجتماعيٍّ في مجالسِهم، وأفهَمْتُهم ـ بشكلٍ فرديٍّ في بيوتِـهم ـ أنِ استغفِروا اللهَ تعالى، وعندَئذٍ لن يَغفِرَ اللهُ لكم ذنوبَكم فقطْ، وإنّما سيُمطرُكم بأمطارٍ تُنبتُ حدائقَكم وبساتينَكم، وتَجري منها أنهارُكم، وسيَرزُقُكم بالكثيرِ من الأموالِ والأولاد.

## فضل الاستغفار

ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «وقال مُقاتلٌ: لمّا كذَّبوا نوحًا زمانًا طويلًا حَبَس اللهُ

(١) تفسير الخازن، سورة هود (١١): الآية ٢٧.

عنهمُ المطرَ، وأَعْقَم أرحامَ نسائهم أربعينَ سنةً، فهَلَكت مواشيهم وزُروعُهم، فصاروا إلى نوحٍ عليه السّلامُ واستغاثوا به. فقال: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾»[١].

- يقولُ الإمامُ الشَّعبيُّ: «خَرَج عُمَرُ يَستسقي، فلم يَزِدْ على الاستغفارِ، حتّى رَجَع، فأُمطِروا، فقالوا: ما رأيناك استَسْقَيْتَ؟ فقال: لقد طَلَبْتُ المطرَ بمَجاديح السّماءِ الّتي يُستنزَلُ بها المطر، ثمّ قرأَ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۞ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾»[٢].

- يقولُ ابنُ صُبَيْح: «شَكَا رجلٌ إلى الحَسَن الجُدوبةَ، فقال له: استغفِرِ الله. وشَكَا آخَرُ إليه الفقرَ فقال له: استغفِرِ اللهَ. وقال له آخَر: ادعُ اللهَ أن يَرزُقَني ولدًا، فقال له: استغفِرِ الله. وشَكَا إليه آخَرُ جفافَ بستانِه، فقال له: استغفِرِ اللهَ. فقُلنا له في ذلك، فقال: ما قلتُ من عندي شيئًا، إنّ اللهَ تعالى يقولُ في سورة «نوح»: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۞ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۞ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾»[٣].

- يقولُ سيّدُنا سَلْمانُ الفارسيُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أكثِروا من الاستغفار، فإنّ اللهَ لم يُعلِّمْكم الاستغفارَ إلّا وهو يريدُ أن يَغفِرَ لكم»[٤].

- رُوي عن سيّدِنا أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ الرّجُلَ لَتُرفَعُ درجتُه في الجنّة، فيقولُ: أنّى هذا؟ فيقالُ: باستغفارِ وَلَدِك لك»[٥].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة نوح (٧١): الآية ١٠.
(٢) المرجع السابق، سورة نوح (٧١): الآية ١٠.
(٣) المرجع السابق، سورة نوح (٧١): الآية ١٠.
(٤) تفسير الدر المنثور، سورة نوح (٧١): الآية ١٠.
(٥) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ١ برقم ٣٦٦٠.

- يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ إبليسَ قال لربِّه: بِعزّتِك وجَلالِك، لا أَبرَحُ أُغْوي بني آدمَ ما دامتِ الأرواحُ فيهم، فقال له الله: فبِعزّتي وجَلالي، لا أَبرَحُ أغفِرُ لهم ما استغفَروني»[١].

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «واللهِ إنّي لَأستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليوم أكثرَ من سبعينَ مرّةً»[٢].

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾

٦ - يا أيُّها الإنسانُ، هل فكَّرتَ مرةً ما هو أصلُك؟ كيف جَعَل اللهُ تعالى منكَ إنسانًا جميلًا عظيمًا بحيث تَحكُمُ المخلوقاتِ كلَّها، وقد خَلَقَك من قَطْرةٍ لا رُوحَ فيها، وجَعَلَك تَطْوي مراحلَ عديدةً خلالَها، وكان ينبغي لك أن تعترفَ بأفضالِ المُحسِنِ الحقيقيِّ عليك، وتُصبحَ عبدًا شَكُورًا له، ولكنْ ماذا دهاك حتى لا تعترفَ بعظَمةِ خالقِك الحقيقيِّ، ولا بقدرتِه؟

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾

٧ - يا أيُّها الإنسان، هل تدبَّرتَ ذاتَ مرةٍ أنّ اللهَ تعالى ليس خالقَك أنت فقطْ، وإنّما هو خالقُ السّماواتِ أيضًا، وخَلَق تحتَها القمرَ يضيءُ اللَّيلَ، وخَلَق الشمسَ لتضيءُ النهارَ، وكلُّ هذه آياتٌ تدُلُّ على عظَمةِ الله تعالى وقُدرتِه.

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾

٨ - مثلَما يُنبتُ اللهُ تعالى النباتاتِ من الأرض، خَلَق أباكم آدمَ عليه السَّلامُ منَ

---

(١) مسند أحمد، ٣: ٤١.

(٢) البخاري، كتاب الدعوات، باب ٣ برقم ٦٣٠٧.

الطِّينِ بنفسِ الطريقة، ولهذا يُنسَبُ الإنسانُ إلى الطِّين باعتبارِ الأصل، ولا تزالُ صلةُ الإنسانِ قائمةً بالطِّين من عدّةِ اعتباراتٍ، مثلًا: النُّطفةُ التي خُلِق الإنسانُ منها يأتي غذاؤها أيضًا من الطِّين، كما أنّ سُرَّةَ الإنسانِ عندَ ولادتِه تُصبَغُ بلونِ التُّرابِ أيضًا، مثلَما يقولُ سيّدُنا ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه، من أنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما مِن مولودٍ إلّا وفي سُرَّتِه من تُربتِه التي يولَدُ منها، فإذا رُدَّ إلى أرذَلِ العُمرِ رُدَّ إلى تُربتِه التّي خُلِق منها حتّى يُدفَنَ فيها، وإنّي وأبو بكرٍ وعُمَرُ خُلِقنا من تُربةٍ واحدةٍ وفيها نُدفَن»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما مِن مولودٍ إلّا وقد ذُرَّ عليه من تُرابِ حُفرتِه». قال أبو عاصم: ما تجدُ لأبي بكرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما فضيلةً مِثلَ هذه؛ لأنّ طينتَهما من طِينةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: «يُدفَنُ كلُّ إنسانٍ في التُّربةِ التي خُلِق منها»(٣).

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾

٩ ـ جَعَل اللهُ لكمُ الأرضَ ـ مِثلَ الفراشِ ـ منبسِطةً، وجَعَل فيها طُرُقًا واسعةً فَسِيحةَ حتى تستطيعوا المشيَ فيها بسُهُولَةٍ ولا تُواجِهوا صعوباتٍ في التنقُّلِ من مكانٍ إلى مكان.

قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ

(١) كنز العمال، ١١: ٥٦٥ برقم ٣٢٦٧٣.
(٢) حلية الأولياء، ٢: ٣١٨ برقم ٢٣٨٩.
(٣) مصنف عبد الرازق، ٣: ٥١٥ برقم ٦٥٣١.

وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾

١٠ ـ يا إلهي، لقد دعَوْتُ قومي إلى التوحيدِ، لكنَّهم عَصَوْني، واتَّبَعوا أولئك الزُّعماءَ الذين جَعَلتْهم كثرةُ أولادِهم وأموالِهم طُغاةً في هذه الدُّنيا، وأضافت إليهم مزيدًا من الضُّرِّ والخُسرانِ في الآخِرة.

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾

١١ ـ كان زُعماءُ الكفّارِ يعمَلونَ جاهدينَ ليلَ نهارَ على الكَيْدِ والخِداع لسيِّدِنا نُوح عليه السَّلامُ، ولمَّا لم تُثمِرْ جهودُهم شيئًا في هذا الخصُوص، عَزَموا فيما بينَهم على تنفيذِ مؤامرةٍ كبيرةٍ ضدَّه عليه السَّلامُ، يعني: تَآمَروا على قَتْلِه مثلَما جاء في القول الذي نَقَله العلّامةُ القُرطبيُّ: «فقيل: تحريشُهم سَفَلتَهم على قَتْل نُوح»[1].

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾

١٢ ـ مِن أشهَرِ الأصنام التي كان يَعبُدُها قومُ نُوح خمسةُ أصنام هي: وُدٌّ، وسُوَاعٌ، ويَغُوثُ، ويَعُوقُ، ونَسْرٌ، وحين نَهى سيِّدُنا نُوحٌ عليه السَّلامُ قومَه عن عبادةِ الأصنام، ودَعاهم إلى التوحيد، قال زعماءُ قوم نُوح لعامّةِ الناس: إنّ نوحًا عليه السلام مجنون! لهذا لا تَترُكوا ـ بناءً على كلامِه ـ عبادةَ أصنامِكم أبدًا، وإنّما استمِرُّوا

(١) تفسير القرطبي، سورة نوح (٧١): الآية ٢٢.

في عبادتِها. وعليه قال سيّدُنا نوحٌ عليه السلام: يا إلهي، لقد أضَلَّ هؤلاءِ الظالمونَ كثيرًا من الناس، فعاقِبْ هؤلاءِ الظالمينَ على ظُلمِهم، وزِدْ في ضَلالِهم.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾

١٣ ـ لمّا لم يَرجِعْ قومُ نوح عن ضَلالِهم وطُغيانِهم أَغْرَقَهم اللهُ تعالى بسببِ ذنوبِهم، ثم سَلَّطَ عليهم بعدَ ذلك مباشرةً عذابَ القبر، أمّا الأصنامُ التي كانوا يعبُدونَها فلم تستطعْ إنقاذَهم من عذابِ الله تعالى.

يقولُ العلّامةُ الآلوسيُّ: «فأُدخِلوا نارًا هي نارُ البَرْزَخ، والمرادُ عذابُ القبر، ومَن مات في ماءٍ أو نارٍ أو أكلَتْه السِّباعُ أو الطَّيرُ مثلًا أصابَه ما يصيبُ المقبورَ من العذاب»[1].

## ما المراد بالقبر؟

المرادُ بالقبرِ ليس تلك الحُفرةِ التي يُدفَنُ فيما الميِّتُ فقطْ، وإنّما المرادُ منه أيضًا ذلك المكانُ الذي توجَدُ فيه الأجزاءُ الأَصْليّةُ للإنسانِ بعدَ موتِه، سواءٌ كان ذلك المكانُ عبارةً عن الترابِ، أو الماءِ أو بَطْنِ حَيوانٍ من الحيَوانات.

## ما المراد بالميت في القبر؟

المرادُ بالميِّتِ في القبرِ ليس ذلك الجسَدَ الذي يكونُ معَنا في هذه الدُّنيا فقطْ؛ لأنّ هذا الجسَدَ تأكُلُه الأرضُ بعدَ فترةٍ من وفاةِ صاحبِه، كما أنّ الميِّتَ الذي تأكلُ النارُ جسَدَه، أو الذي يأكلُه حيَوانٌ، لا يبقَى من جسَدِه شيءٌ، فلأيِّ جسدٍ إذًا يكونُ العقابُ أو الإثابةُ في القبر؟ والجوابُ عن هذا: أنّ لرُوحِ الإنسانِ علاقةً مخصوصةً بالأجزاءِ الأَصْليّةِ للإنسان تظَلُّ قائمةً معَه، وبها يَشعُرُ الميِّتُ بالفرحةِ

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة نوح(٧١): الآية ٢٥.

والأذى أيضًا، ومِثلُ ذلك الشَّخصِ الذي يَرى في المنام أنه رَحَل إلى بلدٍ آخَرَ، وهناك حَدَث له ما يُسعِدُه أو يؤْذيه ويُحزِنُه، في هذه الحالةِ لا يكونُ جسَدُ هذا النائم مصاحِبًا له، ومعَ ذلك يَشعُرُ بالفرحةِ وبالتَّعبِ أيضًا، وبنفسِ الطريقة فإنّ الميِّتَ الذي يَتلَفُ جسَدُه، يَشعُرُ بالفرحةِ والأسَى بسببِ ذلك التعلُّقِ المخصوص للرُّوح مَع أجزاءِ الإنسانِ الأَصْليّة.

لمزيدٍ من التفصيل عن العذابِ في القبر، والنَّعيم في القبر، والاستعاذةِ من عذابِ القبر، وصوتِ عذابِ القبر، والتخفيفِ في عذابِ القبر، راجع الحاشيةَ رقم ٣٨ للآية رقم ٤٦ من سُورة غافر (٤٠).

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾

١٤ ـ ظَلَّ سيّدُنا نُوحٌ عليه السَّلامُ يدعو قومَه إلى التوحيدِ قبلَ الطُّوفانِ لمدةِ تسعِمائةٍ وخمسينَ عامًا، ولمّا لم يَرجِعوا عن الطُّغيانِ والعِصيان حتى بعدَ هذه الفترةِ الطويلة من الدَّعوةِ والتبليغ، عندَئذٍ شَعَر سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ بأنّهم لن يؤمنوا أبدًا، واللهُ تعالى أَخْبره بذلك فعلًا، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، وبالتالي دعا سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ عليهم، واستجابَ اللهُ دعاءه، وأَغْرقَهم جميعًا، ونَجّى سيّدَنا نوحًا عليه السَّلامُ ومَن آمَنوا معَه فقطْ، وكان تَعدادُهم ثمانينَ فردًا.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾

١٥ ـ مِثْلَ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ، دَعَا سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ أولًا لنفسِه بالمغفِرة، ثم دَعا لوالدَيْه، ثم دَعا لأهلِ الإيمان. يا الله، هذا الفقيرُ إليك ـ عمَلًا

بسُنَّةِ أنبيائك الكرام المقرَّبينَ عليهمُ السَّلامُ ـ يَضرَعُ إليك قائلًا: يا ربَّنا، اغفِرْ لي ولوالدَيَّ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ، آمين.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعدَ صلاة الفجر من يوم الأحد ١٤ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٧ ذي الحجة ١٤٣١هـ**

**هذا، وقدِ اكتَملَ تفسيرُ سورة «نوح» في يوم واحدٍ فقطْ، أي: من ١٣ إلى ١٤ نوفمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسلام على سيّدِ المرسَلين، وعلى آله وأصحابِه أجمعين.**

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# (٧٢) سُورَةُ الجِنِّ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «الجِنُّ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

## قبول الجن للإسلام

جاء في الجزءِ الأوّلِ من هذه السُّورةِ بيانٌ لأحوالِ مجموعةٍ من الجِنِّ كانوا مشركينَ، وحين سَمِعوا القرآنَ الكريمَ من النبيِّ الكريم ﷺ تابوا من الشِّركِ وأَسْلَموا، وقد مَرَّ ذِكرُ مجموعةٍ من الجِنِّ أيضًا قبلَ ذلك في الآية **٢٩** من سُورةِ الأحقافِ (٤٦)، وكانوا أهلَ كتابٍ، فلمّا سَمِعوا القرآنَ الكريمَ من النبيِّ ﷺ أَسْلَموا أيضًا. يقولُ العلّامةُ الآلوسيُّ: «وقد دَلَّت الأحاديثُ على أنّ وِفادةَ الجِنِّ كانت ستَّ مراتٍ»[(١)]، وكما أنّ في بني الإنسانِ فِرَقًا عديدةً، ومنهم الأشخاصُ الطيِّبونَ والسيِّئونَ، كذلك في الجِنِّ فِرَقٌ عديدةٌ أيضًا، ومن بينِهم جِنٌّ صالحونَ لا يؤْذونَ أحدًا، ومنهم جِنٌّ شِرِّيرونَ وسيِّئونَ يُضايقونَ الناس.

## الدعوة إلى التوحيد

في الجزءِ الأوسَطِ من السُّورةِ جاءتِ الدَّعوةُ إلى التوحيدِ ودَحْضِ الشِّرك، والتأكيدِ على أنّ الهدفَ من بناءِ المساجدِ أيضًا هو أنْ لا يُعبَدَ فيها سوى اللهِ تعالى،

(١) تفسير روح المعاني، سورة الجن (٧٢): الآية ١.

ولهذا فإنّ مَن يُشرِكُ من الإنسِ أو الجِنِّ، ويعصي اللهَ تعالى ورسولَه ﷺ، فإنه سيَخلُدُ في جهنّمَ إلى الأبد.

في هذه الآياتِ جاء التنبيهُ لكفّارِ مكّةَ بأنه عندَما يدعُوكم نبيِّي الحَبيبُ ﷺ إلى التوحيد، فإنّكم تَسخَرونَ منه، وتتفاخَرونَ بقوَّتِكم وكثرتِكم، ولكنْ إن لم تَرجِعوا عن شِركِكم، فسيأتي يومٌ قريبٌ تكونُ فيه القوّةُ والكثرةُ لدى نبيِّي الحبيبِ ﷺ، وتكونونَ أنتم بلا مُعينٍ أو نَصير. وهكذا ظَهَرت أُولى بوادرِ هذا الأمرِ في ميدانِ بدر، وسيكونُ آخِرُها في ميدانِ الحشر.

## علم الغيب

في نهايةِ هذه السُّورةِ أَخبَرنا اللهُ تعالى أنّ عِلمَ الغيبِ مخصوصٌ به هو فقطْ، لكنّه يَعلمُ أنبياءه ورسُلَه فقطْ بالغيبِ، ولا يُعطي عِلمَ الغيبِ للجِنِّ أو السَّحَرةِ أو الكَهَنة.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعدَ صلاة الفجر من يوم الاثنين ١٥ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٨ ذي الحجة ١٤٣١هـ.**

❋ ❋ ❋

# سُورَةُ الجِنِّ (٧٢)،

## مكية (٤٠)، آياتها (٢٨)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا
بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ
سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ
ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾
وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ
لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ
أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن
نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ
فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ
لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ
ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾

١ ـ جاءت مجموعاتٌ مختلفةٌ من الجنِّ إلى النبيِّ ﷺ في أوقاتٍ متفاوتة،

واستَمَعوا إلى رسالةِ القرآنِ الكريم وأَسْلَموا. يقولُ العلّامةُ الآلوسيُّ: «وقد دَلَّتِ الأحاديثُ على أنّ وفادةَ الجنِّ كانت ستَّ مرات»[١].

في هذا الخصوصِ مَرَّ ذِكرُ مجموعةٍ من الجِنِّ أيضًا قبلَ ذلك في الآيةِ **٢٩** من سُورةِ «الأحقاف» (٤٦)، وكانوا أهلَ كتابٍ من أَتْباعِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ، وطائفةُ الجنِّ الذين جاء ذِكرُهم هنا كانوا مشركينَ، «وفيه دليلٌ على أنّ أولئك النَّفرَ كانوا مشركين»[٢]؛ لأنه عندَما سَمِعَتْ هذه المجموعةُ من الجِنِّ القرآنَ الكريمَ، ثم عادوا إلى رِفاقِهم من الجِنِّ الآخَرِينَ قالوا: لقد سَمِعْنا قرآنًا عَجَبًا، لا نَظيرَ له باعتبارِ الفصاحةِ والبلاغة، ولا مَثِيلَ له باعتبارِ العلم والحِكمة، ويهدي إلى الطريقِ المستقيم، ولقد تأكَّد لنا أنه ليس كلامَ بشَر، وإنّما هو كلامُ اللهِ تعالى، ولهذا آمَنّا به، ولن نُشرِكَ به أحدًا في المستقبَل، ويُعلَمُ منه أنّهم كانوا من قبلُ مشرِكين، ثم تابوا من الشِّركِ وقَبِلوا الإسلام، وإليكَ في هذا الخصوصِ واقعةً أضَعُها بين يدَيْك فتأمَّلْها:

يقولُ العلّامةُ الرازي: «قال ابنُ مسعودٍ: قال عليه الصّلاةُ والسّلام: أُمِرتُ أن أتلوَ القرآنَ على الجِنّ، فمَن يذهبُ معي؟»، فسَكَتوا، ثمّ قال الثّانيةَ فسَكَتوا، ثمّ قال الثّالثةَ، فقال عبدُ الله قلتُ: أنا أذهبُ معَك يا رسولَ الله، قال: فانطَلَق، حتّى إذا جاء الحَجُونَ عندَ شِعبِ ابنِ أبي دُبٍّ، خَطَّ علَيَّ خطًّا فقال: «لا تُجاوزْه»، ثمّ مضَى إلى الحَجُونِ فانْحَدروا عليه أمثالَ الحَجَل كأنّهم رجالُ الزُّطِّ يقرَعُونَ في دفوفِهم كما تَقرَعُ النِّسوةُ في دفوفِها حتّى غَشُوهُ، فغابَ عن بَصَري فقُمتُ، فأَوْمأَ إليّ بيدِه أنِ: اجلسْ، ثمّ تلا القرآنَ، فلم يزَلْ صَوتُه يرتفعُ، ولَصِقوا بالأرض حتّى صِرتُ أسمَعُ صوتَهم ولا أراهم. وفي روايةٍ أخرى: فقالوا لرسولِ الله ﷺ: ما أنت؟ قال: «أنا نبيُّ الله»،

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة الجن (٧٢): الآية ١.
(٢) تفسير الخازن، سورة الجن (٧٢): الآية ١.

قالوا: فمن يشهَدُ لكَ على ذلك؟ قال: «هذه الشّجرةُ، تعالَيْ يا شجرة»، فجاءت تَجُرُّ عروقَها لها قَعاقعُ حتّى انصَبَّت بينَ يدَيْه، فقال: «على ماذا تشهدينَ لي؟»، قالت: أشهَدُ أنّك رسولُ الله، قال: «اذهَبي»، فرَجَعتْ كما جاءت حتّى صارَتْ كما كانت. قال ابنُ مسعودٍ: فلمّا عاد إليَّ، قال: «أردتَ أن تأتيَني؟»، قلت: نعم يا رسولَ الله، قال: «ما كان ذلك لك، هؤلاء الجِنُّ أتَوْا يستمِعونَ القرآنَ، ثمّ وَلَّوْا إلى قومِهم مُنذِرين»[1].

كما أنّ في هذه الآيةِ تنبيهًا لكفّارِ مكّةَ بأنّ الجِنَّ سَمِعوا القرآنَ الكريمَ مرةً واحدة، وتوَصَّلوا بعدَها إلى نتيجةٍ أنّ هذا القرآنَ ليس كلامَ بشَر، وإنّما هو كلامُ الله تعالى، فماذا دهاكُم أنتُم الذين تستمِعُونَ كلَّ يوم إلى القرآنِ الكريم من النبيِّ ﷺ، ومعَ ذلك لم تُحاولوا فَهْمَ حقيقتِه.

ويُعلَمُ من هذا أنّ منَ الجِنِّ أهلَ كتابٍ ومُشركينَ ومسلمين، ويُعلَمُ منه أيضًا أن مجموعاتِ الجنِّ الذين التَقُوا النبيَّ ﷺ كانوا يَعرِفونَ اللُّغةَ العربيّةَ جيِّدًا، ولهذا أَسْلموا لَمّا سَمِعوا القرآنَ الكريم.

## من هم الجن؟

الجِنُّ مخلوقٌ من نار، ولا نَراهم، وقد أعطاهمُ اللهُ تعالى المقدرةَ على أنْ يَتشكَّلوا بالشَّكل الذي يُريدونَ، وهم - فيما يتعلَّقُ بالطّعام والشّرابِ والعقل والشُّعورِ والحياةِ والموتِ والأولاد - مَثَلُهم مَثَلُ بني الإنسان، لكنّ أعمارَهم أكثرُ طُولًا.

الجِنُّ كالبشَرِ أيضًا يجبُ عليهمُ الإيمانُ باللهِ تعالى والعمَلُ بالأحكام الإلهيَّة، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]،

---

(١) التفسير الكبير، سورة الجن (٧٢): الآية ١.

وبعضُ الجِنِّ مسلمٌ وبعضُهم كافرٌ، ومنهُم الشِّرِّيرُ والكافر، وهم الذين يقالُ عنهم: الشّياطين، وكان إبليسُ أيضًا من الجِنِّ، مِثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾

٢ ـ مثلَما أنّ في بني الإنسانِ فِرَقًا كافرةً عديدةً، يعتقِدونَ بأنّ لله زوجةً وبناتٍ وأولادًا، كذلك الجِنُّ الذين جاءوا هذه المرّةَ إلى النبيِّ ﷺ، كانوا أيضًا يعتقدونَ بمِثل هذه الأمور، ولكنْ عندَما سَمِعوا عن عظَمةِ الله تعالى وجَلالِه من خلالِ القرآنِ الكريم قالوا: إنّ شأنَ ربِّنا في غايةِ الرِّفعةِ والسُّموِّ، وهو ليس في حاجةٍ إلى زوجةٍ وأطفال.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾

٣ ـ قال الجِنُّ الذين قَبِلوا الإسلامَ: لقد كان زُعماؤنا يَفتَرُونَ الكذبَ على اللهِ تعالى، وكنا نظُنُّ أنه لا يمكنُ لإنسانٍ أو جِنٍّ أن يَكذبَ على الله تعالى، ولهذا ابتُلِينا بالشِّركِ والكُفرِ بسببِ هؤلاءِ الحمقى، لكنّنا عَلِمنا الآنَ بعدَ سَماعِنا للقرآنِ الكريم أنّ زُعماءنا كذّابونَ ومتجاوِزونَ للحدود، ولهذا تُبنا إلى اللهِ من الكُفرِ والشِّرك، وقَبِلنا الإسلامَ.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾

٤ ـ كان أهلُ الجزيرةِ العربيّة يعتقِدونَ أنّ الجِنَّ يسيطرونَ على الأماكنِ غيرِ العامرة، ولئن أقام فيها أحدٌ دونَ أن يَستجيرَ بهم، فإنّ الجِنَّ يضايقونَه، مثلَما يقولُ

الحافظُ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ هذه الآية: «كان عادةُ العرَبِ في جاهليّتها يَعُوذونَ بعظيم ذلك المكانِ من الجانّ أن يُصيبَهم بشيءٍ يَسُوؤُهم، فلمّا رَأَتِ الجِنُّ أنّ الإنسَ يَعُوذُونَ بهم من خَوْفِهم منهم، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾»[1]، فقال زعماءُ الجِنِّ: إنّنا سادةُ الجِنِّ من قبلُ، بل وأصبحنا سادةً لبني الإنسانِ أيضًا؛ لأنّهم يَعُوذُونَ بنا الآنَ أيضًا[2].

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾

٥ ـ فيما يلي خلاصةَ أقوالِ المفسِّرينَ في تفسيرِ هذه الآية:

١ ـ قال الجِنُّ الذين قَبلوا الإسلامَ للجِنِّ الذين يشاركونَهم نفسَ العقيدة: كما أنّكم كنتُم تعتقِدونَ أنّ اللهَ تعالى لن يُحييَ أحدًا من جديد، ولن يُرسلَ أحدًا نبيًّا، لهذا فإنّ عقيدةَ أكثرِ البشَرِ أيضًا كانت فاسدةً، فأنكَروا هم أيضًا الآخِرةَ ومجيءَ أيِّ نبي، ولكنّهم بعدَ نزولِ القرآنِ الكريم آمَنوا بالآخِرة وبسيّدِنا محمدٍ ﷺ، ولهذا عليكم أنتم أيضًا أن تؤمنوا بالآخِرةِ وبسيّدِنا محمدٍ ﷺ.

٢ ـ القولُ الآخَرُ هو أنّ هذا الخطابَ لكفّارِ مكةَ، يعني: مثلَما كنتُم تعتقدونَ أنّ اللهَ تعالى لن يُحييَ أحدًا من جديدٍ، ولن يُرسلَ أحدًا نبيًّا، لهذا فإنّ عقيدةَ أكثرِ الجِنِّ أيضًا كانت فاسدةً، فأنكَروا هم أيضًا الآخِرةَ ومجيءَ أيِّ نبيّ، ولكنّهم بعدَ نزولِ القرآنِ الكريم آمَنوا بالآخِرة وبسيّدِنا محمدٍ ﷺ، ولهذا عليكم أنتُم أيضًا أن تؤْمنوا بالآخِرةِ وبسيّدِنا محمدٍ ﷺ.

وفي ألفاظِ القرآنِ الكريم متّسَعٌ لهذَيْنِ القولَيْن، ولا فَرْقَ مطلَقًا بينَ الاثنَيْنِ باعتبارِ النتيجة.

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة الجن (٧٢): الآية ٦.

(٢) «حتى قالت الجن: سدنا الإنس والجن» تفسير القرطبي.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾

٦ ـ هنا يَنقُلُ العلّامةُ القُرطبيُّ الأقوالَ المختلفةَ، وخلاصتُها: أنه «لم تكنْ تُحرَسُ السَّماءُ في الفترةِ بينَ عيسى ومحمّدٍ صَلَواتُ الله عليهما وسَلامُه: خمسمَائةِ عامٍ (وخلال هذه الفترةِ لم تكنْ هناك قيودٌ مشدَّدةٌ على الجِنِّ، ولهذا كان الجِنُّ يصعَدونَ إلى السَّماء، ويسمَعونَ إلى كلام الملائكة)، وإنّما كان من أَجْل بَعْثةِ النّبيِّ ﷺ، فلمّا بُعِث محمّدٌ ﷺ مُنِعوا من السَّمواتِ كلِّها، وحُرِسَتْ بالملائكةِ والشُّهُب... كانت الشّياطينُ في الفترةِ تَسمَعُ فلا تُرمَى، فلمّا بُعِث رسولُ الله ﷺ رُمِيَت بالشُّهُب»[1].

يقولُ العلّامةُ الرازي: «إنّ هذه الشُّهُبَ كانت موجودةً قبلَ المبعَثِ (ولكن كانت هناك بعضُ الأماكن في السماءِ ليس فيها ملائكةٌ ولا شُهُب)، إلّا أنّها زِيدت بعدَ المبعَثِ وجُعِلَتْ أكمَلَ وأقوى، وهذا هو الّذي يدُلُّ عليه لفظُ القرآنِ؛ لأنه قال: ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ﴾، وهذا يدُلُّ على أنّ الحادثَ هو المَلْءُ والكثرةُ، وكذلك قوله: ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ﴾ أي: كنّا نجدُ فيها بعضَ المقاعدِ خاليةً من الحَرَس والشُّهُب، والآنَ: مُلئتِ المقاعدُ كلُّها»[2].

وليس معنى هذا أبدًا أنه لو لم تكنْ هناك حراسةٌ من الملائكةِ والشُّهُبِ فإنّ الجِنَّ يستطيعونَ الاختباءَ والصُّعودَ إلى أعلى، هذا لا يمكنُ أبدًا، فالحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى هو الذي أعطَى الجِنَّ القُدرةَ على الطَّيرانِ إلى أعلى، ثم إنّ الهدفَ من إعادتِهم عن طريقِ الملائكةِ والشُّهُبِ هو أن يَعلمَ الناسُ أنّ الجِنَّ الذين يَعصُونَ اللهَ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الجن (٧٢): الآية ٩.

(٢) التفسير الكبير، سورة الجن (٧٢): الآية ٩.

تعالى ستَتِمُّ مطاردتُهم أذِلّاءَ مَخْزِيِّينَ، ولا يمكنُ أن يَصِلوا إلى العُلى في القُربِ الإلهيِّ.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾

٧ ـ عندَما أُغلِقَت كلُّ طُرُقِ الذَّهابِ إلى السَّماءِ أمامَ الجِنِّ قال بعضُهم لبعضٍ: إنه قد يكونُ من بينِ أسبابِ مَنْعِهم أنّ عذابًا قريبًا سيَنزلُ بمَن في الأرض، ويجري إخفاءُ خَبَرِه عن الناس، وذلك لكي لا تَسمَعَه الجِنُّ فتُخبِرَهم به، وقد يكونُ من بين الأسبابِ أيضًا أنّ اللهَ تعالى سيُرسِلُ قريبًا نبيًّا لهدايةِ البشَر، ويَجري إخفاءُ خَبَرِه عن الجِنِّ، حتى لا تَنشُرَ أخبارًا كاذبةً عن هذا النبيِّ قبلَ بَعْثتِه.

يقولُ الحافظُ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ هذه الآية: «وهذا هو السَّببُ الّذي حَمَلَهم على تطلُّبِ السَّببِ في ذلك، فأخَذوا يضرِبونَ مشارقَ الأرض ومغارِبَها، فوجَدوا رسولَ الله ﷺ يقرأُ بأصحابِه في الصّلاة، فعرَفوا أنّ هذا هو الّذي حُفِظَت من أَجْلِه السَّماءُ، فآمَن مَن آمَن منهم، وتمرَّدَ في طُغيانِه من بقي»(١).

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾

٨ ـ كما أنّ في بني الإنسانِ فِرَقًا عديدةً، ومنهمُ الأشخاصُ الطيِّبونَ والسيِّئون، كذلك في الجِنِّ فِرَقٌ عديدةٌ أيضًا، ومِن بَيْـنِهم جِنٌّ صالحونَ لا يؤْذونَ أحدًا، ومنهم جنٌّ شِرِّيرونَ وسيِّئونَ يضايقونَ الناسَ.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾

٩ ـ لقد تأكّد لنا بعدَ سَماع القرآنِ المجيدِ أنّ اللهَ تعالى هو القادرُ على كلِّ

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة الجن (٧٢): الآية ١٠.

شيء، وهو الغالبُ على كلِّ شيء، ولئن عَصَيْناهُ فلن نستطيعَ الإفلاتَ من عذابِه، فلا يمكنُ لنا أن نُعجِزَه في الأرضِ إنْ بَقِينا فيها، ولا يمكنُ لنا أن نُعجِزَه بالهروبِ منها؛ لأنّ اللهَ تعالى هو الحاكمُ والمالكُ لكلِّ مكان.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾

١٠ ـ إنّنا ما إنْ سَمِعنا كلامَ الحقِّ والهدايةِ حتّى آمَنّا به، ولهذا عليكم أنتُم أيضًا أن تؤْمنوا، ومن يؤمنُ بالله، سيُجزَى الجزاءَ الأَوْفَى على حسَناتِه، ولن يُنقَصَ منه شيئًا، وسيُعاقَبُ أيضًا على سيّئاتِه، ولن يُظلَمَ في ذلك شيئًا.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾

١١ ـ الجِنُّ الذين سَمِعوا القرآنَ الكريمَ من بَيْنِنا أَسْلَموا، وأطاعوا أحكامَه، وهؤلاءِ هم المفلِحونَ الذين تحَرَّوْا طريقَ الحقِّ واتَّبعوه، وأمَّا الجِنُّ الذين عصَوا اللهَ تعالى من بَيْـنِنا، فهؤلاءِ هم الظالمونَ، وهم وَقُودُ جهنَّم.

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾

١٢ ـ يعني: يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، أَخْبِرْ أهلَ الإيمانِ أنّهم إنِ استقاموا على الطريقِ القَويم وعلى دِينِ الفِطرةِ، فسوف يُغدِقُ اللهُ تعالى عليهم بالماءِ الكثير، أي: برَغَدِ العيش، ولكنْ سيكونُ في رَغَدِ العيشِ هذا ابتلاءٌ لهم أيضًا؛ لأنّ اللهَ تعالى خَلَق هذه الحياةَ الدُّنيا ومالَها ومتاعَها لابتلاءِ الإنسان، والذين لا يشكُرونَ اللهَ تعالى على وَفْرةِ أموالهم ومتَاعِهم، ويُعرِضُونَ عن أحكامِه، سوف يُدخِلُهمُ اللهُ تعالى عذابًا شديدًا، عقابًا لهم على هذا الجحودِ منهم والطُّغيان.

## المال والمتاع أيضًا ابتلاء

ـ يقولُ سيّدُنا عَمْرُو بن عَوْفٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «... فوالله ما الفقرَ أخشَى عليكم، ولكنْ أخشَى عليكم أن تُبسَطَ عليكمُ الدّنيا، كما بُسِطَت على مَن كان قبلَكم، فتنافَسُوها كما تنافَسُوها، وتُلهيَكم كما ألهَتْهم»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا عُقبةُ بنُ عامرٍ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ خَرَج يومًا فصَلَّى على أهلِ أُحُدٍ صَلاتَه على الميِّت، ثمّ انصَرفَ إلى المِنبَر، فقال: «إنّي فَرَطُكم وأنا شهيدٌ عليكم، وإنّي ـ والله ـ لأنظُرُ إلى حَوْضيَ الآنَ، وإنّي قد أُعطِيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرض ـ أو مفاتيحَ الأرض ـ وإنّي والله ما أخافُ عليكم أن تُشركوا بعدي، ولكنّي أخافُ عليكم أن تَنافَسوا فيها»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضيَ الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ أكثَرَ ما أخافُ عليكم ما يُخرجُ اللهُ لكم من بَرَكاتِ الأرض». قيل: وما برَكاتُ الأرض؟ قال: «زهرةُ الدُّنيا».... ثم قال رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: «وإنّ هذا المالَ حُلوةٌ، مَن أخَذَه بحقِّه ووَضَعَه في حقِّه، فنِعَم المَعُونةُ هو، ومَن أخَذَه بغيرِ حقِّه، كان الّذي يأكلُ ولا يَشبَع»[٣].

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾

١٣ ـ المسجدُ يقالُ لذلك: المكانِ الذي يُسجَدُ فيه، ورَغْمَ أنّ الأرضَ كلَّها بمثابةِ المسجدِ للأُمّةِ المسلمة، ولكنْ يقالُ للمَبْنى الذي اختَصَّ بالسُّجود: مسجدٌ،

---

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٧ برقم ٦٤٢٥.

(٢) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٧ برقم ٦٤٢٦.

(٣) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٧ برقم ٦٤٢٧.

وهو الذي يُبنَى لعبادةِ الله فقطْ، ولهذا فإنّ المسجدَ يَستحِقُّ أن لا يُعبَدَ فيه أحدٌ سوى اللهِ تعالى، وكان مشركو مكّةَ قد نَصَبوا الأصنامَ في بيتِ الله، ولهذا يَجري نَهْيُهم بصفةٍ خاصّةٍ هنا بأنّ عبادةَ غيرِ الله لا تجوزُ في أيِّ مكانٍ أصلًا، ولكنَّكم تعبُدونَ غيرَ الله في بيتِ الله، فارجِعوا عن هذا.

## أول مسجد

إنّ أولَ مسجدٍ بُني لله في الأرضِ هو بيتُ الله، أي: المسجدُ الحرام، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

يقولُ سيّدُنا أبو ذَرٍّ الغِفَاريُّ رضيَ اللهُ عنه: قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ مسجدٍ وُضِع أوّلَ؟ قال: «المسجدُ الحرام»، قلتُ: ثمّ أيٌّ؟ قال: «ثمّ المسجدُ الأقصى»، قلت: كم كان بينَهما؟ قال: «أربعون»[1].

ويُعلَمُ منه أنّ أولَ مُهندسٍ للمسجدِ الحرام كان سيّدَنا آدمَ عليه السَّلام، وأولُ مُهندِسٍ للمسجدِ الأقصَى كان أحدَ أبناءِ سيّدِنا آدمَ عليه السلام، وقد تَهدَّم هذانِ المسجدانِ في طُوفانِ نُوح، فقام سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ بإعادةِ بناءِ المسجدِ الحرام بأمرٍ من الله تعالى، وبنَى سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ المسجدَ الأقصى.

## فضل المسجد الحرام

يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «صَلاةُ الرّجُل في بيتِه بصلاةٍ، وصَلاتُه في مسجدِ القبائل بخمسٍ وعشرينَ صلاةً، وصلاتُهُ في

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٤٠ برقم ٣٤٢٥.

المسجد الّذي يُجَمَّعُ فيه بخمسِمائةِ صلاةٍ، وصلاتُه في المسجدِ الأقصى بخمسينَ ألفَ صلاةٍ، وصَلاتُه في مسجدي بخمسينَ ألفَ صلاةٍ، وصَلاتُه في المسجدِ الحرام بمائةِ ألفِ صلاة»[١]. وإليكَ هذه الحكايةَ فيما يتعلَّقُ ببَركاتِ الكعبةِ فتدبَّرْها: «رُويَ أنّ الكعبةَ تقول: إيذَنْ لي يا ربِّ في زيارةِ قبرِ رسول الله ﷺ، قال: فيُؤذَنُ لها، فاذا جاءت إلى قبرِ رسولِ الله ﷺ تقولُ لرسولِ الله ﷺ : لاتهتَمَّ لثلاثةٍ، فإنّي أشفَعُ لهم: مَن طاف بي، ومَن خَرَج من البيتِ ولم يَصِلْ إليّ، والثالثُ: منِ اشتهى أن يَقصِدَني فلم يَجِدْ سبيلًا إلى ذلك»[٢].

## المساجد التي بناها الأنبياء الكرام عليهم السلام

في الدُّنيا أربعةُ مساجدَ بناها الأنبياءُ الكرامُ عليهم السَّلام، وهي: بيتُ الله المسجدُ الحرام، وبيتُ المقدِس المسجدُ الأقصَى، ومسجدُ قُباءٍ، والمسجدُ النَّبويُّ[٣].

### بناء المساجد

ـ يقولُ سيّدُنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «من بنَى لله مسجدًا من مالِه بنَى اللهُ له بيتًا في الجنّة»[٤].

ـ رُوِيَ عن سيّدِنا جابرِ بن عبدِ الله رضي الله عنهما، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن بنَى مسجدًا لله كمَفْحَصِ قَطاةٍ أو أصغَرَ، بنَى اللهُ له بيتًا في الجنّة»[٥]، وعُشُّ الحمَامةِ لا

---

(١) ابن ماجه، كتاب الصلاة، باب ١٩٨ برقم ١٤١٣.

(٢) نزهة المجالس، ١: ١٥٣، وشرف المصطفى لعبد الملك النيسابوري، ٢: ٢٤٠.

(٣) التفسير المظهري، سورة النور (٢٤): الآية ٣٦.

(٤) ابن ماجه، أبواب المساجد، باب ١ برقم ٧٣٧.

(٥) ابن ماجه، أبواب المساجد، باب ١ برقم ٧٣٨.

يزيدُ عن مقدارِ نصفِ لَبِنَةٍ، وهو ما لا يَستوعِبُ حتى مجرَّدَ قَدَم مصَلٍّ، فأين سيضَعُ المصَلِّي قدمَه الثانيةَ، وأين سيَسجُد؟ والمقصودُ أنّ من يُنفقُ في بناءِ مسجدٍ ولو بمقدارِ نصفِ لَبِنَةٍ سيَبْني اللهُ تعالى له في الجنّةِ بيتًا كاملًا، وشأنُ البيتِ في الجنةِ أنه لو جُمِعَت مميِّزاتُ بيوتِ الأرض كلُّها من حُسنٍ وجَمالٍ فإنّها لن تَعدِلَ بيتًا في الجنّة؛ لأنّ كلَّ شيءٍ في الجنّةِ يَفُوقُ تصوُّرَنا وتخيُّلَنا.

## نظافة المسجد

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، يعني: نظِّفوا مَبْناهُ من الترابِ والغُبار، حتى تستريحَ إليه عيونُ العابِدينَ وأنظارُهم، وطهِّروا جَوَّه من الكُفرِ والشِّركِ حتى تطمئنَّ قلوبُ العابِدين، فيَسجُدوا لله تعالى خالقِهمُ الحقيقيِّ بكلِّ سَكِينةٍ واطمئنان، ويُعلَمُ منه أنّ الحِفاظَ على نظافةِ المساجدِ حُكمٌ من الله تعالى، وسُنّةٌ من سُنَن الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: إنّ امرأةً كانت تَلقُطُ القَذَى من المسجدِ، فتُوفِّيت فلم يُؤذَنِ النبيُّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم بدَفْنِها، فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا مات لكم ميِّتٌ فآذِنوني»، وصَلَّى عليها، وقال: «إنّي رأيتُها في الجنّة تَلقُطُ القَذَى من المسجد»[1].

## آداب المسجد

عندَ الدُّخولِ إلى المسجدِ عليكَ أن تَدخُلَ برِجلِك اليُمنى أولًا، وأن تمشيَ فيه بمنتَهى الأدب؛ لأنّ هذا ليس بيتًا خاصًّا بك، وإنّما هو بيتُ اللهِ تعالى، واللهُ

---

(١) الترغيب والترهيب، تنظيف المساجد، برقم ٣.

تعالى يَراك، ولهذا حيثُما وَجَدتَ مكانًا في المسجدِ اعبُدِ اللهَ فيه بكلِّ هدوءٍ، ولا تُضايقْ أحدًا فيه، ولا تتحدَّثْ فيه بحديثٍ لا قيمةَ له، وعندَ الخروج من المسجدِ عليك أن تَخرُجَ برِجلِك اليُسرى أولًا.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو حُمَيدٍ وسيّدُنا أبو أُسَيْد رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا دَخَل أحدُكم المسجدَ فلْيَقُل: اللّهُمَّ افتَحْ لي أبوابَ رحمتِك، وإذا خَرَج فلْيقُل: اللّهُمّ إنّي أسألُكَ من فَضْلِك»[1].

ـ عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا مَرَرتُم برِياضِ الجنّةِ فارتَعوا». قلت: يا رسولَ الله، وما رياضُ الجنّة؟ قال: «المساجد». قلت: وما الرَّتْعُ يا رسولَ الله؟ قال: «سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلّا الله، واللهُ أكبر»[2].

## فضل المساجد

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدْريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا رأيتُم الرجُلَ يعتادُ المسجدَ فاشهَدوا له بالإيمان، قال اللهُ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾»[3].

ـ **حديثٌ قُدُسيٌّ**: عن أنسٍ ـ مرفوعًا ـ: «يقولُ الله: وعِزّتي وجَلالي، إنّي لَأَهُمُّ بأهلِ الأرضِ عذابًا، فإذا نَظَرتُ إلى عُمّارِ بيوتي وإلى المتحابِّينَ فيَّ، وإلى المُستغفِرينَ بالأسحار، صَرَفتُ ذلك عنهم»[4].

---

(١) النسائي، كتاب المساجد، باب ٣٦ برقم ٧٣٠.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٨٢ برقم ٣٥٠٩.

(٣) تفسير الدر المنثور، سورة التوبة (٩): الآية ١٧.

(٤) المرجع السابق، سورة التوبة (٩): الآية ١٧.

ـ يقولُ سيّدُنا سَلْمانُ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن توضَّأَ في بيتِه ثمّ أتَى المسجدَ فهو زائرُ الله، وحقٌّ على المَزُورِ أن يُكرمَ الزّائرَ»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن أَلِفَ المسجدَ أَلِفَهُ اللهُ»[٢].

ـ عن ابن عَبّاس رضي الله عنهما، قال: المساجدُ بيوتُ اللهِ في الأرضِ تُضيءُ لأهلِ السّماءِ كما تضيءُ نجومُ السّماءِ لأهلِ الأرض[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن عَلَّق قِنديلًا في مسجدٍ صَلّى عليه سبعونَ ألفَ مَلَك، واستغفَرَ له ما دام ذلك القِنديلُ يَقِدُ»[٤].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن أحبَّ اللهَ عزَّ وجلّ فلْيُحِبَّني، ومن أحَبَّني فلْيُحِبَّ أصحابي، ومَن أحبَّ أصحابي فلْيُحِبَّ القرآنَ، ومن أحَبَّ القرآنَ فلْيُحِبَّ المساجدَ، فإنّها أَفْنِيةُ الله أبنيتُه أَذِنَ اللهُ في رَفْعِها وبارَكَ فيها، ميمونةٌ ميمونٌ أهلُها، محفوظةٌ محفوظٌ أهلُها، هم في صلاتِهم واللهُ عزَّ وجَلَّ في حوائجِهم، هم في مساجِدِهم واللهُ مِن ورائهم»[٥].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «سبعةٌ يُظِلُّهمُ اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلّا ظِلُّه:

١ ـ الإمامُ العادلُ (الحاكم).

---

(١) تفسير الدر المنثور، سورة التوبة (٩): الآية ١٧.
(٢) المرجع السابق، سورة التوبة (٩): الآية ١٧.
(٣) المرجع السابق، سورة التوبة (٩): الآية ١٧.
(٤) المرجع السابق، سورة التوبة (٩): الآية ١٧.
(٥) تفسير القرطبي، سورة النور (٢٤): الآية ٣٦.

٢ ـ وشابٌّ نَشَأَ في عبادةِ ربِّه.

٣ ـ ورجلٌ قلبُه مُعلَّقٌ في المساجد.

٤ ـ ورجُلانِ تَحابّا في الله اجتَمَعا عليه وتفرَّقا عليه.

٥ ـ ورجلٌ طلَبَتْه امرأةٌ ذاتُ منصِبٍ وجَمالٍ فقال: إنّي أخافُ اللهَ.

٦ ـ ورجلٌ تصَدَّق أخفَى حتّى لا تَعلَم شِمالُه ما تُنفِقُ يمينُه.

٧ ـ ورجلٌ ذَكَرَ اللهَ خاليًا ففاضَتْ عيناه »[1].

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾

١٤ ـ المرادُ بعبدِ الله ـ في هذه الآية ـ نبيُّنا الحَبيبُ سيّدُنا محمدٌ ﷺ، فعندَما كان النبيُّ ﷺ يقومُ لعبادةِ الله تعالى، كان الكفّارُ يغضَبونَ غضَبًا شديدًا، ويأتُونَ مندفِعينَ، فيَسخَرونَ منه ﷺ، ويمنَعونَ الناسَ من دخولِ الإسلام، ولكنْ بعدَ فتح مكةَ جاء عهدٌ دَخَل فيه الكفّارُ أنفُسُهم في دينِ الله أفواجًا، وقَبِلوا الإسلامَ.

قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٠﴾ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ﴿٢١﴾ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ﴿٢٤﴾ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾

---

(١) البخاري، كتاب الأذان، باب ٣٦ برقم ٦٦٠.

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾

١٥ ـ قال مشركو مكةَ للنبيِّ ﷺ: إنّنا على الشِّركِ منذُ فترةٍ طويلة، فإذا كنتَ نبيًّا حقًّا فلماذا لا تأتينا بالعذاب؟ فقال النبيُّ ﷺ لهم بأمرٍ من الله تعالى: إنّ واجبي هو أنْ أُبلِغَكم رسالةَ الله تعالى، وهو ما أفعَلُه الآنَ، أمّا عقابُكم إذا أنكرتُم رسالةَ الله، أو إثابتُكم إذا قَبِلتُموها، فهذا ليس من عمَلي، وإنّما هو أمرٌ في يدِ اللهِ تعالى، وسوف يُحاسبُكم على أعمالِكم وقتَما يشاء.

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾

١٦ ـ قال وَفْدٌ من المشركينَ لرسولِ الله ﷺ: لقد جَعَلتَ من أهل مكّةَ كلِّهم أعداءً لكم بدعوتِكَ لهم إلى الإسلام، ولهذا فإنّنا نشيرُ عليك أن تتخلّى عن دعوةِ التوحيد، وإذا نَزَل عليك عذابٌ بهذا السَّبب، فإنّنا نَعِدُكَ أن نُجيرَك، وأن نحميَك. فنَزَلتْ هذه الآياتُ ردًّا عليهم، وقال لهمُ النبيُّ ﷺ بأمرٍ من الله تعالى: إنّني لن أُشركَ معَ الله أحدًا بأيِّ حالٍ من الأحوال، وعلى فَرْضِ المستحيل لو أنّني قَصَّرتُ في تبليغ أحكام الله تعالى، فلن يستطيعَ أحدٌ أن يُنجِيَني من حسابِ الله تعالى، وليس لي مُجيرٌ سوى اللهِ تعالى.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾

١٧ ـ يعني: أنّ واجبي هو أن أُبلِّغَكم أحكامَ الله تعالى، وهذا هو ما أفعَلُه، فإذا أعرضَ أحدُكم عن أحكام الله تعالى ورسولِه، فإنّ له جهنَّمَ خالدًا فيها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾

١٨ ـ كفّارُ مكّةَ يُنكِرونَ عذابَ الآخِرة اليومَ، ويغتَرُّونَ كثيرًا بقُوّتِهم وكثرتِهم،

ويَسخَرونَ من المسلمينَ لفَقْرِهم وقلّةِ عدَدِهم، ولكنْ في الغدِ القريبِ، حينَ يتواجَهونَ في ميدانِ الحرب، وحينَ يكونُ الحسابُ في ميدانِ الحَشْر، ستُفتَحُ أعيُنُ المشركينَ عندئذٍ، وسيَعرِفونَ منِ الأضعَفُ ناصرًا والأقلُّ عددًا، فلن يكونَ هناك من يَسأَلُ عن أحوالِ المشركين، في حينَ أنّ الأنبياءَ الكرامَ والملائكةَ عليهمُ السَّلامُ سيَشفَعونَ لأهل الإيمان.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾

**١٩** ـ كان المشركونَ يقولونَ: متى يأتينا ذلك العذابُ الذي تُخوِّفُنا منه؟ فقال النبيُّ ﷺ ردًّا عليهم: إنّ قيامَ السّاعة أمرٌ يقينيٌّ على أيِّ حال، وسيَحدُثُ ذلك يومًا ما، ولكنْ في أيِّ تاريخ سيَحدُثُ هذا؟ إنه أمرٌ يتعلَّقُ بعِلم الغَيْب، ولهذا فأنا لا أعلمُ بنفسي؛ هل هو قريبُ الحدوثِ أم لا يزالُ بعيدًا؟ لكنّ هذا العِلمَ يمكنُ أن يكونَ لديه ﷺ بإخبارِ الله تعالى له؛ لأنّ اللهَ تعالى يُطلِعَ أنبياءه على الغَيْبِ مثلَما سيتَّضحُ من الآياتِ التالية.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾

**٢٠** ـ اللهُ تعالى عالِمُ الغَيْب، وهو يُطلِعُ أنبياءه فقطْ على غَيْبِه، وحين يوحِي اللهُ تعالى إلى رسولٍ من رُسُلِه، فإنّه عندئذٍ يُعيِّنُ من الملائكةِ محافظينَ من حولِه، حتى لا تستطيعَ الشياطينُ والجِنُّ سَماعَ الوحي. ولمزيدٍ من التفصيل عن علم الغَيْب راجع الحاشيةَ رقم ٦٠ للآية رقم ٦٥ من سُورة النَّمل (٢٧)، وكذا الحاشيةُ رقم ٣١ للآية رقم ٣٤ من سُورة لُقمان (٣١).

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾

**٢١** ـ يُعيِّنُ اللهُ تعالى مُحافظينَ حولَ النبيِّ حينَ يوحي إليه، حتى يُظهِرَ للناسِ

أنّ أنبياءه يُبلِّغونَهم رسالاتِ الله تعالى بطريقةٍ صحيحة، ولا يزيدونَ فيها أو يَنقُصونَ منها، والله تعالى عالِمُ الغَيْب، هو أيضًا يَعلمُ تمامَ العلم أعمالَ الرسُلِ جميعًا، كما أنه يَعلمُ تمامَ العلم أعدادَ الكائناتِ ويُحصيهم.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعدَ صلاة الفجر من يوم السبت ٢٠ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ١٣ ذي الحجة ١٤٣١هـ**

**هذا، وقدِ اكتَملَ بفضلِ الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سورة «الجن» في خمسةِ أيام فقط، أي: من ١٥ إلى ٢٠ نوفمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسلامُ على سيّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.**

❋ ❋ ❋

بسم الله الرحمن الرحيم

# (٧٣) سورة المزمل

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها «المُزَّمِّل»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها، ويَرى بعضُ العلماءِ أنّ الآيةَ الأخيرةَ من هذه السُّورةِ نَزَلت في المدينة؛ لأنّ فيها ذِكرًا للزَّكاةِ والقتال، وقد نَزَل هذانِ الحُكمانِ في المدينة.

## صلاة التهجد

عندَما نَزَل الأمرُ إلى النبيِّ ﷺ في بدايةِ هذه السُّورةِ أنْ عليكَ أن تُصلِّيَ صلاةَ التهجُّدِ في منتصَفِ اللَّيل أو قبلَه أو بعدَه بقليل، بدَأَ بعضُ الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم في الانتظام في صَلاةِ التهجُّدِ معَه أيضًا، وقيامُ اللَّيل هذا كان يمتَدُّ أحيانًا إلى ثُلُثِ اللّيل، وأحيانًا إلى نصفِه، وأحيانًا أُخرى إلى ثُلُثَيْه. يقولُ العلّامةُ القُرطبي: «شَقَّ ذلك عليهم، وكان الرّجلُ لا يدري متى نصفُ اللّيل من ثُلُثِه، فيقومُ حتّى يصبحَ مخافةَ أن يُخطِئَ، فانَتفَختْ أقدامُهم، وانتقَعَت ألوانُهم، فرَحِمَهم اللهُ وخفَّف عنهم»[1]، يعني: أنّ اللهَ تعالى قد تفضَّل عليكم بأنْ أنهَى فَرْضيَّةَ صلاةِ التهجُّدِ أيضًا، كما رَفَع عنكم قَيْدَ الالتزام بنصفِ اللّيل أو أقلَّ أو أكثرَ منه قليلًا، والآنَ هذه صلاةُ مستحَبّة، وبقَدْرِ ما يتيسَّرُ لكم صَلاتُها فصَلُّوها، ولهذا فإنّ صلاةَ التهجُّدِ في أقلِّها ركعتانِ، وفي أكثرِها اثنتا عشْرةَ ركعةً، وهذه الصّلاةُ نافلةٌ على

(١) تفسير القرطبي، سورة المزمل (٧٣): الآية ٢٠.

الأُمّةِ المسلمة، لكنّها كانت بالنِّسبةِ للنبيِّ ﷺ صلاةً خاصّةً التزم بها وأدّاها بانتظام.

## تلقين الصبر

في الآيةِ رقم ١٠ من السُّورةِ جاء تلقينُ النبيِّ ﷺ الصَّبرَ؛ لأنّ المَوْلى الحقيقيَّ ومدبِّرَ الأمرِ هو اللهُ تعالى، لهذا توكَّلْ عليه هو وحدَه، واصبرْ على إيذاءِ الكفّارِ لك، وعلى سُوءِ حديثِهم إليك، وحينَ تتواجَهُ معَهم اعتزِلْهم بأخلاقٍ حسَنةٍ طيِّبة، ولا تُبالِ أيضًا بالذين يكذِّبونَك اغترارًا بأموالِهم، واترُكْ أمرَهم إليّ أنا، وأنا سأنتقمُ منهم.

## تنبيه لأهل مكة

جاء في الآياتِ من ١٥ إلى ١٩ من هذه السُّورةِ تنبيهٌ لأهل مكّةَ بأنّ سيّدَنا محمدًا ﷺ ليس رسولًا لم يأتِ من قبلِه مِثلُه، بل إنّنا أرسَلْناهُ إليكم كما أرسَلْنا سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ من قبلُ إلى فِرعَونَ وقومِه، وعندَما عصَى فرعونُ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ أخَذْناه أخذًا شديدًا، فأَغْرقناه وجيوشَه في البحر، ولئن عَصَيْتُم أنتم أيضًا سيَّدنا محمدًا ﷺ فسيُنزِلُ عليكم أيضًا العذابَ.

## الأجر العظيم على الحسنات

في نهايةِ هذه السُّورة جاء تذكيرٌ للإنسانِ بالآخِرة، يعني: يجبُ على الإنسانِ أن يجمَعَ في حياتِه الدُّنيويّة الفانيةِ هذه ثروةً من الصّلاةِ والصِّيام والصَّدَقاتِ والزَّكَوات وغيرِها من الحسَنات، حتى يستفيدَ من الأَجْرِ العظيم عليها في الحياةِ الآخِرة.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعدَ صلاة الظهر من يوم السبت ٢٠ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ١٣ ذي الحجة ١٤٣١هـ.**

# سُورَةُ المُزَّمِّلِ (٧٣)،

## مكية (٣)، آياتها (٢٠)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾

١ ـ في الوقتِ الذي نَزَلت فيه هذه الآياتُ كان النبيُّ ﷺ مُضْطَجِعًا مُلتَحِفًا بردائه متزمِّلًا به، ويقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «فإنّ العربَ إذا قَصَدتْ مُلاطفةَ المخاطَب وتَرْكَ المعاتبةِ سَمَّوْه باسمٍ مشتَقٍّ من حالتِه الّتي هو عليها، كقولِ النّبيِّ ﷺ لعليٍّ ـ حين غاضَبَ فاطمةَ رضيَ الله عنهما، فأتاه وهو نائمٌ

وقد لَصِقَ بجَنْبِه التّرابُ ـ فقال له: «قُمْ يا أبا تُرابٍ»[١]، وهكذا خاطَبَ اللهُ تعالى سيّدَنا محمدًا ﷺ بنفسِ الحالةِ التي كان متجلِّيًا بها؛ لأنّ كلَّ حركةٍ من الحبيبِ عزيزةٌ على المُحبّ.

﴿ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴾

٢ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، قُمْ بالليل وصَلِّ صلاةَ التهجُّد، ولكنْ لا يكنْ قيامُك اللَّيلَ كلَّه، وإنّما نصفُه أو أقلُّ من ذلك أو أكثرُ منه قليلًا، يعني: لا حَرَج إن كان أقلَّ من نصفِ اللّيل أو أكثرَ منه قليلًا.

## صلاة التهجد

صَلاةُ التهجُّدِ تُقالُ: للصَّلاةِ النافلةِ التي تؤدَّى بعدَ الاستيقاظِ من النَّوم ليلًا، وأقلُّها ركعتانِ وأكثرُها اثنتا عشْرةَ ركعةً، وكانت هذه الصّلاةُ في بداية أمرِها فَرْضًا على الأُمّةِ المسلمة، ثم جَعَلَها اللهُ تعالى نافلةً ليلةَ المعراج بعدَما فُرِضَ الصّلواتُ الخمسُ، لكنّها معَ ذلك ظلَّتْ تُمثِّلُ للنبيِّ ﷺ صلاةً خاصّةً التزم بها وأدَّاها بانتظام.

## فضل صلاة التهجد

ـ يقولُ سيّدُنا عَمْرُو بن عَبَسةَ رضي الله عنه: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «أقربُ ما يكونُ الرّبُّ من العبدِ في جَوْفِ اللّيل الآخِر، فإنِ استطعتَ أن تكونَ ممّن يَذكُرُ اللهَ في تلك السّاعةِ فكنْ»[٢].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة المزمل (٧٣): الآية ١.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ١١٨ برقم ٣٥٧٩.

- يقولُ سيّدُنا بلالٌ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «عليكم بقيام اللّيل، فإنّه دَأْبُ الصّالحينَ قبلَكم، وإنّ قيامَ اللّيل قُربةٌ إلى الله، ومَنْهاةٌ عن الإثم، وتكفيرٌ للسَّيِّئات، ومَطْرَدةٌ للدّاءِ عن الجسَد»[(١)].

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ينزِلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السّماءِ الدُّنيا حين يبقى ثُلُثُ اللّيل الآخِر، يقول: مَن يدعوني فأستَجيبَ له، من يسألُني فأُعطيَه، من يستغفرُني فأغفِرَ له؟»[(٢)].

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أفضَلُ الصّيام بعدَ رمضانَ شهرُ الله المحرَّم، وأفضَلُ الصّلاةِ بعدَ الفريضةِ صلاةُ اللّيل»[(٣)].

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ سَلَام رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «يا أيّها النّاسُ، أفشُوا السّلام، وأطعِموا الطّعام، وصَلُّوا والنّاسُ نِيامٌ تدخُلوا الجنّةَ بسلام»[(٤)].

- تقولُ السيِّدةُ عائشةُ أُمُّ المؤمنينَ رضي الله عنها: إنّ نبيَّ الله ﷺ كان يقومُ من اللّيل حتّى تتفطَّرَ قَدَماهُ، فقالت عائشةُ: لِمَ تصنَعُ هذا يا رسولَ الله! وقد غَفَر اللهُ لك ما تَقدَّم من ذَنْبِك وما تأخَّر؟ قال: «أفلا أحبُّ أن أكونَ عبدًا شكورًا؟»[(٥)].

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: ذُكِر عندَ النّبيِّ ﷺ رجلٌ، فقيل: ما زال نائمًا حتّى أصبح ما قام إلى الصّلاة. فقال: «بالَ الشّيطانُ في أُذُنِه»[(٦)].

---

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ١٠١ برقم ٣٥٤٩.
(٢) البخاري، كتاب التهجد، باب ١٤ برقم ١١٤٥، والترمذي، برقم ٤٤٦.
(٣) مسلم، كتاب الصيام، باب ٣٨ برقم ١١٦٣.
(٤) الترمذي، صفة الجنة، باب ٤٢ برقم ٢٤٨٥.
(٥) البخاري، كتاب التفسير، سورة الفتح (٤٨) برقم ٤٨٣٧.
(٦) البخاري، كتاب التهجد، باب ١٣ برقم ١١٤٤.

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾

٣ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيّ: «أي: لا تَعجَلْ بقراءةِ القرآن، بل اقرَأْه في مَهَلٍ وبيانٍ مَع تدبُّرِ المعاني»[١].

ويقولُ العلّامةُ الرازي: «واعلَمْ أنّه تعالى لَمّا أمَرَه بصلاةِ اللّيل أمَرَه بترتيل القرآنِ حتّى يتمكّنَ الخاطرُ من التّأمُّل في حقائقِ تلك الآياتِ ودقائقِها، فعندَ الوصول إلى ذِكرِ الله يستشعرُ عظَمتَه وجَلالتَه، وعندَ الوصول إلى الوعدِ والوعيدِ يَحصُلُ الرّجاءُ والخوف، وحينَئذٍ يَستنيرُ القلبُ بنوُرِ معرفةِ الله، والإسراعُ في القراءةِ يدُلُّ على عَدَم الوقوفِ على المعاني؛ لأنّ النَّفْسَ تبتهجُ بذِكرِ الأمورِ الإلهيّةِ الرُّوحانيّة، ومنِ ابتَهَج بشيءٍ أَحبَّ ذِكرَه، ومَن أحبَّ شيئًا لم يَمُرَّ عليه بسرعةٍ، فظَهَر أنّ المقصودَ من الترتيل إنّما هو حضورُ القلبِ وكما المعرفةُ»[٢].

ويقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «يقالُ لصاحبِ القرآن: اقرَأْ وارتَقِ (أي: درجاتِ الجنّة) ورتِّلْ كما كنتَ تُرتِّلُ في الدّنيا، فإنّ منزلتَك عندَ آخِرِ آيةٍ تقرَأُ بها»[٣].

﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلًا ثَقِيلًا﴾

٤ ـ كان الوحيُ إذا تأخَّر عن النبيِّ ﷺ في السَّنواتِ الأُولى للبَعْثةِ النَّبويّة، فإنه كان ينتظرُه بفارغ الصَّبر، ويظَلُّ يفكِّر: لماذا توقَّف الوحيُ؟ وذاتَ مرةٍ وبينَما كان النبيُّ ﷺ مُستلقِيًا متزمِّلًا بردائه يفكِّرُ في هذا الأمر، إذ نَزَل عليه الوحيُ،

(١) تفسير القرطبي، سورة المزمل (٧٣): الآية ٤.
(٢) التفسير الكبير، سورة المزمل (٧٣): الآية ٤.
(٣) الترمذي، فضائل القرآن، باب ١٨ برقم ٢٩١٤.

يعني: يا أيُّها المزمِّلُ بردائه، استمرَّ في قيام اللَّيل وتلاوةِ القرآنِ ـ الذي نَزَل عليكَ من قبلُ ـ ترتيلًا، ولا تحزَنْ ولا تغتمَّ، فسوف نُنزِّلُ عليك باقيَ القرآنِ الكريم قريبًا.

## القرآن المجيد كلام ثقيل

١ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ أُمُّ المؤمنينَ رضي الله عنها: إنّ الحارثَ بنَ هشامٍ ـ رضي الله عنه ـ سألَ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، كيف يأتيك الوحيُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «أحيانًا يأتيني مِثلَ صَلْصلةِ الجرَس ـ وهو أشَدُّه عليّ ـ فيَفصِمُ عنّي وقد وَعَيتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثَّلُ ليَ المَلَكُ رجُلًا فيُكلِّمُني فأَعِي ما يقول». قالت عائشةُ رضي الله عنها: ولقد رأيتُه يَنزِلُ عليه الوحيُ في اليوم الشّديدِ البَرْدِ، فيَفصِمُ عنه وإنّ جبينَه لَيتفصَّدُ عَرَقًا[1].

٢ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: سألتُ النّبيَّ ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله، هل تُحِسُّ بالوحي؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «نَعمْ، أسمَعُ صَلاصلَ، ثمّ أسكُتُ عندَ ذلك، فما مِن مرّةٍ يوحَى إليّ إلّا ظننتُ أنّ نَفْسي تَفيض»[2].

٣ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: كان إذا أُوحيَ إليه وهو على ناقتِه وَضَعت جِرانَها فما تستطيعُ أن تتحوَّلَ حتّى يُسرَّى عنه، وتَلَتْ ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[3].

٤ ـ يقولُ سيّدُنا زيدُ بن ثابتٍ رضي الله عنه: أَنْزلَ اللهُ على رسولِه ﷺ وفَخِذُه على فَخِذي، فثَقُلَتْ علَيَّ حتّى خِفْتُ أن تُرَضَّ فَخِذي»[4].

---

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٢ برقم ٢.

(٢) مسند أحمد، ٢: ٢٢٢.

(٣) تفسير الدر المنثور، سورة المزمل (٧٣): الآية ٥، ومسند أحمد، ٦: ١١٨.

(٤) البخاري تعليقًا، كتاب الصلاة، باب ١٢، وكتاب الجهاد والسير، ٤٥٩٢: كتاب تفسير القرآن.

## بعض الأسباب وراء وصف القرآن بالقول الثقيل

١ ـ القرآنُ الكريمُ ـ باعتبارِ قَدْرِه ومنزلتِه وعظَمتِه وجلالِه ـ ثقيلٌ لدرجةِ أنه لو أُنزِلَ على جبل لَخشَعَ وتصَدَّع، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ولكنْ مِن فَضْلِ الله تعالى وكرمِه أنه خَلَق نبيَّنا الحبيبَ ﷺ قويًّا ومتماسكًا بحيثُ أنه استطاع تحمُّلَ هذا القرآنِ الذي لا تستطيعُ الجبالُ تحمُّلَه.

٢ ـ نَقَل العلّامةُ الخازنُ قولًا هو: «قيل:هو خفيفٌ على اللِّسانِ بالتلاوة ثقيلٌ في الميزانِ بالثوابِ يومَ القيامة»(١)، مثلَما يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه، من أنّ النبيَّ ﷺ قال: «كلِمتانِ حبيبتانِ إلى الرّحمن، خفيفتانِ على اللّسان، ثقيلتانِ في الميزان: سبحانَ الله وبحَمْدِه، سبحانَ الله العظيم»(٢).

٣ ـ عندَما يكونُ كلامُ شخصٍ ما صادقًا وحكيمًا فإنّ السامعينَ له يقولون: إنّ لكلامِه وزنًا، وبنَفْسِ الطريقة؛ لأنّ كلَّ كلمةٍ في القرآنِ الكريم صادقةٌ وممتلئةٌ حِكمةً، لهذا فإنّ لكلِّ كلمةٍ فيه وزنًا.

٤ ـ القرآنُ الكريمُ ثقيلٌ على الكفّارِ والمنافقين؛ لأنّ فيه إبطالًا لعقائدِهم وأعمالِهم.

٥ ـ وقيل: السَّببُ في وَصْفِه بالكلام الثَّقيل أيضًا إنّ اهتمامَ النبيِّ ﷺ كلَّه قبلَ نزولِ القرآنِ كان منصَبًّا على الله تعالى فقطْ، فكان يَعبُدُه في غارِ حِراءٍ بعيدًا، ويَدخُلُ السَّكينةُ إلى قلبِه بذِكرِ الله تعالى، ولكنْ بعدَ نزولِ القرآنِ جاءه الأمرُ

---

(١) تفسير الخازن، سورة المزمل (٧٣): الآية ٥.

(٢) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٥٨ برقم ٧٥٦٣.

بتوجيهِ الاهتمام إلى المخلوق، حتى يدعوَ الذين يعبُدونَ مئاتٍ من الأصنام إلى عبادةِ الله الواحدِ الأحد، وهو أمرٌ ثقيلٌ وعَمَلٌ في غايةِ الصُّعوبة.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾

٥ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّما النّاشئةُ: القيامُ باللّيل بعدَ النَّوم، ومَن قام أوّلَ اللّيل قبلَ النَّوم فما قام ناشئةً. فقال ابنُ كَيْسانَ: «هو القيامُ من آخِرِ اللّيل»(١).

يحتاجُ الإنسانُ إلى النَّوم والراحةِ باللَّيل، وخاصّةً أنّ الاستيقاظَ باللّيل بعدَ نومٍ لأداءِ الصلاةِ يكونُ في غايةِ الثِّقَلِ والصُّعوبة، ولكنّه أفضَلُ سلاح للتغلُّبِ على الشَّهَواتِ النَّفْسانيّة، وإذا اختار أحدُ السُّعداءِ أن يلتزمَ بقيام اللَّيل، فإنّ نَفْسَه عندئذٍ تَتْبَعُه، ويستمتعُ كثيرًا بتلاوةِ القرآنِ الكريم؛ لأنه في ذلك الوقتِ إنّما نَهَض واستَيقَظَ لأَجْل رضا الله تعالى فقطْ، وفي نَفَسِ الوقتِ لا يَراهُ أحدٌ بحيث يُداخلُه الرِّياءُ، أمّا في وقت النهار فهناك مشاغلُ أخرى كثيرةٌ يُضْطَرُّ الإنسانُ إلى القيام بها بعدَ الصلاة، ولهذا تُراودُ هذه المشاغلُ فكرَه، أمّا بعدَ صلاةِ التهجُّدِ تكونُ صلاةُ الصُّبح هي التي تَليها، ولا يكونُ ذهنُ الإنسانِ مشتَّتًا في التفكيرِ في المشاغلِ الدُّنيويّة، بل لو أنّ أمرًا ما طَرَأ على بالِه، فإنه ينشغلُ عنه بالدُّخولِ إلى الصَّلاةِ التالية، بمعنى أنّ عبادةَ الله تعالى تكونُ مسيطرةً ومتجلِّيةً على عَقْلِه وذهنِه وضميرِه، كما الناسُ في هذه الأوقاتِ يكونونَ نائمين، وليس هناك صَخَبٌ أو ضوضاءُ وضَجيجٌ يُخِلُّ بعبادتِه، إذ في ذلك الوقتِ لا يكونُ هناك أيُّ حائلٍ بينَ العبدِ وربِّه، فالعبدُ يترُكُ نومَه مخلصًا ليتلوَ القرآنَ الكريمَ أمامَ ربِّه، والله تعالى في السماءِ الدُّنيا يستمعُ إلى تلاوةِ عبدِه للقرآنِ بما يَليقُ بشأنِه، ويُعلنُ المغفرةَ له. ما

---

(١) تفسير القرطبي، سورة المزمل (٧٣): الآية ٦.

أسعدَ أولئك الذين ينهَضُونَ باللّيل ليُرضوا ربَّهم، يا إلهي، اكتُبْ لعبدِك المقصِّرِ هذا دوامَ هذه النِّعمة.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾

٦ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، إنّك تكونُ مشغولًا بالنّهارِ في تبليغ الأحكام الإلهيَّة، ومناقشةِ القضايا السياسيّة، واستقبالِ الوُفود، والحُكم في الخصُومات، والاستعدادِ للجهاد، والمشاركةِ في الحروبِ وما شابَهَ ذلك، ورَغْم أنّ كلَّ هذه الأعمالَ يُعَدُّ بشكلٍ غيرِ مباشر عبادةً بالنِّسبةِ لك، لكنّ الوقتَ المناسبَ للعبادةِ المباشرة هو وقتُ الليل.

وفيه ترغيبٌ للأُمّةِ المسلمة كلِّها في صلاةِ التهجُّد، بأنّهم أيضًا يكونونَ مشغولينَ بالنّهارِ في الأعمالِ الدُّنيويّة، لهذا يجبُ عليهم أن ينهَضوا باللّيل لأداءِ صلاةِ التهجُّدِ، بعدَ أن يناموا ويستريحوا بقَدْرِ الحاجة؛ لأنّ اللهَ تعالى يتَجلَّى على السّماءِ الدُّنيا بما يليقُ بشأنِه، داعيًا بني الإنسانِ إلى طلبِ المغفرةِ منه، مثلَما يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه من أنّ النبيَّ ﷺ قال: «يَنزِلُ ربُّنا تبارَكَ وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السّماءِ الدّنيا حين يبقَى ثُلُثُ اللّيلِ الآخِر، يقول: مَن يدعوني فأستجيبَ له، من يسألُني فأُعطيَه، من يَستغفرُني فأغفرَ له؟»[1].

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا﴾

٧ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، اذكُرِ اسمَ ربِّك بكثرة، بلِ اذكُرِ اسمَه قبلَ الشروع في أيِّ عمل، وتوكَّلْ على اللهِ دائمًا في تكميل هذا العمل، يعني: أقِمْ ذِكرَ الله تعالى في قلبِك بحيث يتغلَّبُ على كلِّ المشاغل الدُّنيَويّة فيه، ولا تخطُ قدَمُك خُطوةً إلّا

---

(١) البخاري، كتاب التهجد، باب ١٤ برقم ١١٤٥، والترمذي، برقم ٤٤٦.

في رضاهُ وبرضاه، وهذا الحُكمُ ليس خاصًّا بالنبيِّ ﷺ فقطْ، وإنّما هو حُكمٌ له وللأُمّةِ المسلمة كلِّها، بأن يَذكُروا اللهَ تعالى، وأن لا يعبُدوا سِواه، وأن يتوكَّلوا عليه، وأن يَعتزِلوا العُصاةَ جميعًا ويُطيعوا اللهَ تعالى فقطْ، وأن يعيشوا حياتَهم طبقًا لرضاه.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾

٨ - اللهُ تعالى ربُّ المشرِقِ والمغرِب، يعني: ربُّ الكائناتِ كلِّها، ولا يستحِقُّ العبادةَ أحدٌ إلّاهُ، ولهذا ينبغي لكلِّ مسلم أن يتوكَّلَ عليه؛ لأنّ مَن يتوكَّلْ على الله فهُو حَسْبُه، ولمزيدٍ من التفصيل عن التوكُّل راجع الحاشيةَ رقم **١٣** للآيةِ رقم **١٣** من سُورة التغابُن (٦٤).

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾

٩ - يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، هؤلاءِ الكفارُ الذين يتحدَّثونَ ضدَّك ويؤْذُونَ قلبَك، عليك أن تصبِرَ على سُوءِ حديثِهم، وإذا تواجَهت معَهم فاعتزِلْهم بأحسنِ الخُلُق.

﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾

١٠ - يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لا تُبالِ بهؤلاءِ الكفّارِ الذين يكذِّبونَك اغترارًا بأموالِهم، بلِ اترُكْ أمرَهم إليّ أنا، وأنا سأنتقمُ منهم بنفسي، وأَمْهِلْهم أنت مُهلةً بسيطةً، فإنْ لم يَرجِعوا عن طُغيانِهم فإنّ معركةَ بدرٍ قريبة، حيث سيُذَلُّ فيها أولئك الأثرياءُ، ويَنتظرُهم في الآخِرة عذابٌ أليم.

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾

١١ - يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، الذين لن يَرجِعوا عن طُغيانِهم سوف نُقيِّدُهم

بأغلالٍ من حديد، ونُلقي بهم في نارِ جهنَّم، وفي جهنَّمَ سوف يُطعَمونَ الزَّقُّومَ وغيـرَه، ممّـا يقفُ في حلوقِهم، فلا يَنزِلُ إلى بطونِهم، ولا يَخرُجُ من حُلوقِهم، وإنما سيظَلُّونَ مُبْتَلَيْنَ بهذا العذابِ الأليم، وسوف يُعذَّبونَ هكذا في يوم القيامة، يعني: في اليوم الذي ستتزَلزَلُ فيه الأرضُ والجبال، وتصبحُ الجبالُ مِثلَ ذَرّاتِ الرِّمال متفرِّقةً ولا قيمةَ لها، يُطيِّرُها الهواءُ كما تُطيِّرُ العاصفةُ ذَرّاتِ الرمال.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾

١٢ ـ هنا تنبيهٌ لأهل مكّةَ بأنّ سيّدَنا محمدًا ﷺ ليس رسُولًا لم يأتِ من قبلِه مِثلُه، بل إنّنا أرسَلْناهُ إليكم كما أرسَلْنا سيّدَنا موسى عليه السَّلام من قبلُ إلى فَرعَونَ وقومِه، وسوف يشهَدُ يومَ القيامة مَن مِنكم آمَنَ به، ومَن مِنكم كذَّبه.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾

١٣ ـ عندَما عصَى فِرعونُ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ أخَذْناهُ أَخْذًا بحيث أَغْرقناهُ هو وجيوشَه في البحر، والآنَ إذا عَصيتُم أنتُم أيضًا سيّدَنا محمدًا ﷺ فسيَنزِلُ عليكم مِثلُ هذا العذاب.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾

١٤ ـ ألم تتفكَّروا ذاتَ يوم بأنّكم إذا بَقِيتُم على كُفرِكم، ونَجَوْتُم من العذابِ في هذه الدُّنيا، فكيف ستُفلِتُونَ من العذابِ في ذلك اليوم الذي تَشِيبُ الوِلدانِ من أهوالِه، وتنشَقُّ السَّماءُ من الرُّعبِ منه؟ فلْتتفكَّروا قليلًا، كيف سيكونُ حالُ المخلوقِ البسيطِ في ذلك اليوم الذي ينشَقُّ من هَوْلِه مخلوقٌ عظيمٌ قويٌّ مِثلُ السَّماء، وتَذكَّروا أنّ ذلك اليومَ قادمٌ لا مَحالةَ؛ لأنّ اللهَ وَعَد بذلك، واللهُ مُتِمٌّ وعدِه يقينًا.

يومَ القيامةِ لن يَصيرَ الأطفالُ شِيبًا في الحقيقة، وإنّما ضُرِبَ هذا المثالُ

لبيانِ شِدّةِ هذا اليوم وقَسْوتِه، باعتبارِ أنّ الإنسانَ يَشِيبُ سريعًا من كثرةِ الهموم والفِكْر، ويتبدَّلُ شبابُه ضعفًا، كذلك سيكونُ كلُّ إنسانٍ مُنهَكًا غايةَ الإنهاكِ عندما يَرى أهوالَ يوم القيامة.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾

١٥ ـ القرآنُ المَجِيدُ نصيحةٌ كلُّه، وجاء فيه التوضيحُ الشَّديدُ لطريقَي: الحقِّ والباطل، فأمّا الذين انحَرفوا عن طريقِ ربِّهم، فقد جاء بيانُ المصيرِ الذي سيَئُولونَ إليه، ولهذا من شاءَ منكم فلْيَختَرِ الطريقَ الذي يأخُذُ به إلى رضا الله تعالى، ومَن شاء فلْيَختَرِ الطريقَ الذي يأخُذُ به إلى جهنَّم.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾

١٦ ـ في بدايةِ هذه السُّورةِ عندما نزَل الأمرُ إلى النبيِّ ﷺ أنّ عليكَ أن تُصلِّيَ صلاةَ التهجُّدِ في منتصَفِ اللَّيل أو قبلَه أو بعدَه بقليل، بَدَأ بعضُ الصَّحابةِ الكرام رضي الله عنهم في الانتظام في صَلاةِ التهجُّدِ معَه أيضًا، وقيامُ اللّيلِ هذا كان يمتَدُّ أحيانًا إلى ثُلُثِ اللّيل، وأحيانًا إلى نصفِه، وأحيانًا أخرى إلى ثُلُثَيْه. يقولُ العلّامةُ القُرطبي: «شَقَّ ذلك عليهم، وكان الرّجلُ لا يدري متى نصفُ اللّيلِ من ثُلُثِه، فيقومُ

حتّى يصبحَ مخافةَ أن يخطئَ، فانتَفَخت أقدامُهم، وامتُقِعَتْ ألوانُهم، فرَحِمَهم اللهُ وخفَّفَ عنهم»(١).

يعني: يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، اللهُ تعالى يَعلمُ تمامَ العلم أنك أنتَ وأصحابَك تقومونَ لصلاةِ التهجُّدِ لثُلُثَي اللَّيل أحيانًا، واللهُ تعالى يَعلمُ تمامَ العلم أيضًا أنّ قيامَ اللَّيل إلى هذا الحدِّ دائمًا كان أمرًا صعبًا عليكم من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ اللهُ تعالى يَعلمُ تمامَ العلم كم منَ اللَّيل قد مضَى، ولكنْ نظرًا لعَدَمِ وجودِ السّاعاتِ التي تُحدِّدُ الوقتَ إذْ ذاك، لا تستطيعونَ معرفةَ كم مضَى من اللَّيل بشكل صحيح، ولهذا فإنّ اللهَ تعالى قد تفضَّلَ عليكم بأنْ أنهَى فَرْضيّةَ صلاةِ التهجُّد، كما أنهَى الالتزامَ بالقيام لنصفِ اللَّيل أو لأقلَّ منه أو أكثرَ قليلًا، والآنَ هذه صلاةٌ مستَحبَّة، فبقَدْرِ ما يتيسَّرُ لكم صلاتُها فصَلُّوها.

وصلاةُ التهجُّدِ في أقلِّها ركعتانِ، وفي أكثرِها اثنتا عشْرةَ ركعةً، وهذه الصّلاةُ نافلةٌ على الأُمّةِ المسلمة، لكنّها كانت بالنِّسبة للنبيِّ ﷺ صلاةً خاصّةً التزَمَ بها وأدَّاها بانتظام.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾

١٧ ـ من بينِ أسبابِ إنهاءِ فَرْضيّةِ صلاةِ التهجُّدِ والقيام الطَّويل باللَّيل لها أيضًا: أنّ بعضَ الناسَ يكونونَ مرضَى، والبعضَ الآخَرَ يمشُونَ في الأرضِ بحثًا عن أرزاقِهم، والبعضَ الثالثَ يشاركونَ في الجهادِ بشكل مستمرٍّ، ويكونونَ في حاجةٍ إلى مزيدٍ من الراحةِ في اللَّيل، ولهذا رَخَّص اللهُ تعالى لكم بأنْ جَعَل هذه الصّلاةَ صلاةً مستحَبّةً، وبقَدْرِ ما يتيسَّرُ لكم صَلُّوها.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة المزمل (٧٣): الآية ٢٠.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

١٨ ـ عندما فُرِضَتِ الصَّلواتُ الخمسُ ليلةَ المعراج نَسَخت فَرْضيّةَ صلاةِ التهجُّدِ بهذه الآية، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما: «إنّ هذه الآيَةَ نَسَخت الّذي كان اللهُ قد أوجَبَه على المسلمينَ أوّلًا من قيام اللّيل»[١].

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

١٩ ـ رَغْمَ أنّ الزَّكاةَ فُرِضَت في المدينة، لكنّ الحافظَ ابنَ كثيرٍ يقولُ: «وقولُه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أقيموا صلاتَكم الواجبةَ عليكم، وآتُوا الزّكاةَ المفروضةَ. وهذا يدُلُّ لمن قال: إنّ فَرْضَ الزّكاةِ نَزَل بمكّةَ، لكنّ مقاديرَ النُّصُبِ والمُخرَج لم تُبيَّنْ إلّا بالمدينة. واللهُ أعلم»[٢].

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ﴾

٢٠ ـ ما المرادُ بالقَرْضِ الحَسَن؟ لمعرفةِ ذلك تفصيلًا راجع الحاشيةَ رقم ١٨ للآية رقم ١٧ من سُورة التغابُن (٦٤).

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾

٢١ ـ ينبغي للإنسانِ أن يَجمَعَ في حياتِه الدُّنيويّةِ الفانيةِ هذه ثروةً من الصّلاةِ والصِّيام والصَّدَقاتِ والزَّكَواتِ وغيرِها من الحسَنات، حتى يستفيدَ من الأَجْرِ العظيم عليها في الحياةِ الآخِرة.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «يقولُ العبدُ: مالي

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة المزمل (٧٣): الآية ٢٠.

(٢) المرجع السابق، سورة المزمل (٧٣): الآية ٢٠.

مالي! إنّما له من مالِه ثلاثٌ: ما أَكَل فأفنَى، أو لَبِس فأبلَى، أو أعطَى فاقتَنى (للآخِرة)، وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتاركُه للنّاس»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: جاء رجلٌ إلى النّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أيُّ الصَّدَقةِ أعظمُ أجرًا؟ قال: «أن تصَدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيحٌ، تخشَى الفقرَ وتأمُلُ الغنى، ولا تُمهِلْ حتّى إذا بَلَغَتِ الحُلقومَ قلتَ: لفلانٍ كذا، ولفلانٍ كذا، وقد كان لفلانٍ»[٢].

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ أُمُّ المؤمنينَ رضي الله عنها: إنّهم ذَبَحوا شاةً (وقَسَّموا لحومَها بينَ المساكين) فقال النّبيُّ ﷺ: «ما بقي منها؟». قالت: ما بقَي منها إلّا كَتِفُها. قال: «بقي كلُّها غيرَ كتَفِها»[٣]، يعني: أنّ الذي تم تقسيمُه في سَبيل الله هو الذي حُفِظ في الآخِرةِ لنا، أمّا لحمُ الكَتِفِ فهو الذي سيفنَى لأنّنا سنأكلُه.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أيُّكم مالُ وارثِه أحبُّ إليه من مالِه؟»، قالوا: يا رسولَ الله، ما منّا أحدٌ إلّا مالُه أحبُّ إليه. قال: «فإنّ مالَه ما قَدَّم (أي: للآخِرة)، ومالُ وارثِه ما أخَّر»[٤].

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعدَ صلاة الفجر من يوم الثلاثاء ٢٣ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ١٦ ذي الحجة ١٤٣١هـ.**

---

(١) مسلم، كتاب الزهد، باب ١ برقم ٧٤٢٢.

(٢) البخاري، كتاب الزكاة، باب ١١ برقم ١٤١٩.

(٣) الترمذي، صفة القيامة، باب ٣٣ برقم ٢٤٧٠.

(٤) البخاري، كتاب الرقاق، باب ١٢ برقم ٦٤٤٢.

**هذا، وقد اكتَمل بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «المزَمِّل» في ثلاثةِ أيام فقط، أي: من ٢٠ إلى ٢٣ نوفمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسلامُ على سيّد المرسَلين، وعلى آله وأصحابِه أجمعين.**

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

# (٧٤) سورة المدثر

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «المُدَّثِّر»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

## تبليغ القرآن

نَزَلتِ الآياتُ الخمسُ الأُولى من سُورة العَلَق (٩٦) أولًا، ثم توقَّفَ الوحيُ بعدَها لفترة، وهو ما يطلَقُ عليه «فترةُ الوَحْي»، ثم نَزَلت بعدَ ذلك الآياتُ الأُولى من هذه السُّورة، وهي التي أمَرَ اللهُ تعالى فيها سيِّدَنا محمدًا ﷺ بتبليغ القرآنِ الكريم بشكلٍ منتظَمٍ، يعني: يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ المتدثِّرُ بردائه ﷺ، لقد حانَ الوقتُ الذي تنطلقُ فيه لتبليغ القرآنِ الكريم، وتُبيِّنُ فيه عظَمةَ ربِّك، وتُنذِرُ الناسَ بعذابِ الله تعالى، وتدعوهم إلى أن يتجنَّبوا الأصنام، ويُطهِّروا ملابسَهم من القاذُورات.

## الوليد بن المغيرة

في الآياتِ من ١١ إلى ٢٦ جاء بيانٌ لأحوالِ عدوٍّ من أعداءِ الإسلام، يعني: ذلك الذي أعطاه اللهُ وَفْرةً في الأموالِ والأولادِ والأرزاق، ولكنْ عندَما أنكَرَ آياتِ القرآنِ الكريم، وقال عن النبيِّ الكريم ﷺ إنه ساحرٌ، توعَّده اللهُ تعالى بجهنَّم.

## أحوال جهنم

في الآياتِ من ٢٧ إلى ٤٨ جاء بيانٌ لأحوالِ جهنَّمَ والقيامة، حتى يخافَ المجرمونَ من عذابِ جهنَّم، ويَرجِعوا عن عصيانِهم لله تعالى.

### القرآنُ نصيحةٌ كلُّه

جاء التوضيحُ في نهايةِ السُّورةِ بأنّ القرآنَ الكريمَ نصيحةٌ كلُّه، ولهذا مَن يريدُ الحصُولَ على النَّصيحةِ عليه أن يَحصُلَ عليها من القرآنِ الكريم، وأن يتَّقيَ اللهَ.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعدَ صلاة العشاء من يوم الثلاثاء ٢٣ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ١٦ ذي القَعْدة ١٤٣١هـ.**

* * *

# سُورَةُ المُدَّثِّر (٧٤)،

## مكية (٤)، آياتها (٥٦)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴿٥﴾ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ﴿١٠﴾ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾

١ ـ كان أهلُ الجزيرةِ العربيّةِ إذا أرادوا مُلاطَفةَ أحدٍ وإظهارَ الحبِّ له، خاطَبوه بصفةٍ مشتقَّةٍ من الحالةِ التي هو عليها وقتَ الخطابِ، مثلَما نادى النبيُّ ﷺ

على سيِّدِنا عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قائلًا: «يا أبا تُراب»، وتفصيل ذلك فيما يَرويه سيّدُنا سَهْلُ بنُ سَعْدٍ رضي الله عنه قائلًا: ما كان لعليٍّ اسمٌ أحبَّ إليه من أبي تُرابٍ، وإن كان لَيفرَحُ به إذا دُعيَ به، جاء رسولُ الله ﷺ بيتَ فاطمةَ ـ عليها السّلامُ ـ فلم يَجِدْ عليًّا في البيتِ، فقال: «أين ابنُ عمِّك؟». فقالت: كان بيني وبينَه شيءٌ، فغاضَبَني فخَرَج فلم يَقِلْ عندي. فقال رسولُ الله ﷺ لإنسانٍ: «انظُرْ أين هو» فجاء فقال: يا رسولَ الله، هو في المسجدِ راقدٌ. فجاء رسولُ الله ﷺ وهو مُضْطَجِعٌ قد سَقَط رداؤه عن شِقِّه، فأصابَه ترابٌ، فجَعَل رسولُ الله ﷺ يمسَحُه عنه وهو يقول: «قُمْ أبا تُرابٍ، قُمْ أبا تُرابٍ»[1]، وهكذا عندما نَزَلت هذه الآيةُ كان النبيُّ ﷺ مُستلقيًا متدثِّرًا بردائه، فقال اللهُ تعالى له بمحبّةٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾

٢ ـ كان أولَ وحيٍ نَزَل هو الخمسُ آياتٍ الأُولى من سُورة العَلَق (٩٦)، ثم توقَّف نزولُ الوحي بعدَها لفترة، وهي التي يقالُ عنها: «زمنُ فترةِ الوحي»، وقدِ اضْطَربَ النبيُّ ﷺ كثيرًا بسببِ توقُّفِ نزولِ الوحي، وفي اليوم الأخيرِ من هذه الفترة حَدَثت هذه الواقعةُ:

يقولُ سيّدُنا جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه عن فترةِ توقُّفِ نزولِ الوحي: إنّ النبيَّ ﷺ قال في حديثِه: «بَيْنا أنا أمشي، إذْ سَمِعتُ صوتًا من السّماء، فرَفَعتُ بَصَري، فإذا المَلَكُ الّذي جاءني بحِراءٍ جالسٌ على كُرسيٍّ بينَ السّماءِ والأرض، فرُعِبتُ منه، فرَجَعتُ فقلتُ: زَمِّلوني. فأَنزلَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾، فحَمِي الوحيُ وتَتابَع»[2].

---

(١) البخاري، كتاب الاستئذان، باب ٤٠ برقم ٦٢٨٠.

(٢) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٣ برقم ٤.

في هذه الآياتِ أمَرَ اللهُ تعالى النبيَّ الكريمَ ﷺ بتبليغ القرآنِ الكريم بشكل منتظَمٍ، يعني: يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ المتدثِّرُ بردائه ﷺ، لقد حان الوقتُ الذي تنطلقُ فيه لتبليغ القرآنِ الكريم، وتُبيِّنُ فيه عظَمةَ ربِّك، وتُنذِرُ الناسَ بعذابِ الله تعالى، وتدعوهم إلى أن يتجنَّبوا الأصنامَ، ويُطهِّروا ملابسَهم من القاذُورات.

والاضْطرابُ الذي جاء بيانُه في هذا الحديثِ لم يكنْ راجعًا إلى ذاتِ سيّدِنا جِبريلَ الأمينِ عليه السَّلام؛ لأنّ النبيَّ ﷺ قد رأى سيّدَنا جِبريلَ عليه السَّلامُ مراتٍ عديدةً في غارِ حِراءٍ، بل وعانَقَه مِرارًا أيضًا، ومعَ ذلك لم يَضْطربْ بسببِه، وإنما قال بكلِّ طُمَأْنينة: «ما أنا بقارئ»، ولهذا لم يكنِ السببُ في هذا الاضْطرابِ والخوفِ هو سيّدَنا جِبريلَ عليه السَّلام، وإنّما كان رؤيتَه بغيرِ وحي؛ لأنّ النبيّ ﷺ كان مشتاقًا إلى الوحي.

ويُعلَمُ منه أنّ أولَ ما نَزَل من الوحي هو الخمسُ آياتِ الأُولى من سُورةِ العلق (٩٦)، وأولُ ما نَزَل من الوحي بعدَ زمنِ الفترةِ هو الخمسُ آياتِ الأُولى من سُورة المدَّثِّر (٧٤)[1]، وعندَ البعض: كان أولَ ما نَزَل بعدَ زمنِ الفترةِ هو ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾» (٦٨).

﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾

٣ ـ لم يكنْ في قلبِ النبيِّ ﷺ أيُّ طَمَع في مالِ الدُّنيا وثَرواتِها، بل إنه كثيرًا ما عُرِضَتْ عليه ﷺ أموالُ الدُّنيا وثَرواتُها، لكنّه فَضَّل اعتزالَها، وفي هذا الإطارِ تأمَّل الحديثَيْنِ التاليَيْن:

---

(١) «وعن الزّهريّ: أوّل ما نزل سورة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ ـ إلى قوله: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، فحزن رسول الله ﷺ، وجعل يعلو شواهق الجبال، فأتاه جبريل فقال له: «إنّك نبيّ الله» فرجع إلى خديجة وقال: «دثّروني وصبّوا عليّ ماءً باردًا» فنزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾». تفسير القرطبي، سورة المدثر (٧٤): الآية ١.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «عَرَض عليَّ ربِّي ليجعَلَ لي بطحاءَ مكّةَ ذهبًا، قلت: لا يا ربِّ، ولكنْ أشبَعُ يومًا وأجوعُ يومًا»، أو قال: «ثلاثًا» أو نحوَ هذا، «فإذا جُعتُ تضَرَّعتُ إليك وذَكَرتُك، وإذا شَبعتُ شكرتُك وحَمِدتُك»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: نام رسولُ الله ﷺ على حَصِيرٍ، فقام وقد أثَّر في جَنْبِه، فقلنا: يا رسولَ الله، لوِ اتَّخَذْنا لكَ وِطاءً. فقال: «ما لي وما للدّنيا؟ ما أنا في الدّنيا إلّا كراكبٍ استظَلَّ تحتَ شجرةٍ ثمّ راح وتَرَكَها»[2].

ويقولُ العلّامةُ غُلام رسُول سَعِيدي: «المَنْعُ من المَنِّ في هذه الآيةِ ليس للنبيِّ ﷺ، وإنّما المقصودُ به أُمةُ النبيِّ الكريم ﷺ»[3]، ولهذا جاء في هذه الآيةِ تعليمُ ثلاثةِ أشياءَ لهذه الأُمّة وإرشادُهم إليها عن طريقِ النبيِّ ﷺ:

### ١ ـ قبلَ الإحسانِ إلى أحدٍ

عندَما يُحسِنُ الإنسانُ إلى أحدٍ من مالِ اللهِ الذي أَنْعم به عليه، فلا ينبغي أن يكونَ هذا الإحسانُ لطَمَع في أنّ هذا الشخصَ سيرُدُّ إليه إحسانَه بأكثرَ منه، وإنّما ينبغي أن يفعَلَ ذلك بغَرَضِ إرضاءِ الله تعالى، وفي هذه الحالة ستكونُ فائدتُه مضاعفةً، فمِن جانبٍ سيرضَى اللهُ عنه، ومن جانبٍ آخَرَ سيرُدُّ إليه ذلك الشَّخصُ الإحسانَ بأفضلِ طريق.

### ٢ ـ بعدَ الإحسانِ إلى أحدٍ

ينبغي للمسلم أن لا يمُنَّ على أحدٍ أحسَنَ إليه فيؤْذيَ مشاعرَه؛ لأنّ المَنَّ يُضيِّعُ أَجْرَ الإحسانِ وثوابَه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ

---

(١) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٣٥ برقم ٢٣٤٧.

(٢) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٤٤ برقم ٢٣٧٧.

(٣) تفسير تبيان القرآن، سورة المدثر (٧٤): الآية ٦، ١٢ : ٣٦٧.

صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

### ٣ ـ الرِّياء

الذين يعمَلونَ الصّالحاتِ في هذه الدُّنيا، ولا يكونُ هدَفُهم هو الحصُولَ على رضا اللهِ تعالى والأَجْرَ والثوابَ في الآخِرة، وإنّما يعمَلونَها رياءً، يعني: للمنفَعة الدُّنيويّة والمكانةِ وذيوعِ الصِّيت، فإنّ اللهَ تعالى يُعطيهم أَجْرَ هذه الأعمال الصّالحةِ في هذه الدُّنيا، ولا ينقُصُ منهم شيئًا، لكنَّهم لا يحصُلونَ على أيِّ مقابلٍ لهذه الأعمالِ في الآخِرة؛ لأنّهم حَصَلوا على أَجْرِها في الدُّنيا طِبقًا لنيَّتِهم ورغبتِهم، وبالتالي أصبحَتْ أعمالُهم هذه لا قيمةَ لها في الآخِرة، لكنَّهم ـ بالتأكيد ـ سيُعذَّبونَ على أعمالِهم السيِّئة وعصيانِهم لله تعالى في الآخِرة، وسيكونُ هذا العذابُ بمقدارِ سيّئاتِهم، والأحاديثُ التاليةُ تستحِقُّ التدبُّرَ فيما يتعلَّقُ بالمُرائين:

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «إنّ أوّلَ النّاس يُقضَى يومَ القيامة عليه: رجلٌ استُشهِدَ فأُتِيَ به فعَرَّفَه نِعَمَه فعَرَفَها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتّى استُشهِدتُ. قال: كذَبتَ، ولكنّك قاتلتَ لأن يُقالَ: جريءٌ. فقد قيل. ثمّ أُمِر به فسُحِبَ على وجهِه حتّى أُلقِيَ في النّار. ورجلٌ تَعلَّمَ العلمَ وعَلَّمه وقَرأَ القرآنَ، فأُتيَ به فعَرَّفَه نِعَمَه فعَرَفَها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلمَ وعلَّمتُه وقرأتُ فيك القرآنَ، قال: كذبتَ، ولكنّك تعلَّمتَ العلمَ ليقالَ: عالمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليقالَ: هو قارئٌ، فقد قيل، ثمّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهِه حتّى أُلقيَ في النّار. ورجلٌ وَسَّع اللهُ عليه وأعطاهُ من أصنافِ المال كلِّه، فأُتيَ به فعَرَّفَه نِعَمَه فعَرَفَها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سَبيلٍ تحبُّ أن يُنفَقَ فيها إلّا أنفقتُ

فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنّك فَعَلتَ ليُقالَ: هو جَوادٌ، فقد قيل، ثمّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهِه ثمّ أُلقيَ في النّار»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ رضيَ اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامةِ صارت أُمّتي ثلاثَ فِرَقٍ: فِرقةٌ يعبُدونَ اللهَ عزَّ وجلّ خالصًا، وفرقةٌ يعبُدونَ اللهَ عزَّ وجلّ رياءً، وفِرقةٌ يعبُدونَ اللهَ يصيبونَ به دُنيا. قال: فيقولُ للّذي كان يعبدُ اللهَ عزّ وجلّ للدّنيا: بعِزّتي وجلالي، ما أردتَ بعبادتي؟ فيقول: الدّنيا. فيقول: لا جَـرَم، لا ينـفَعُكَ ما جمَعتَ ولا تَرجِعُ إليه، انطلِقـوا به إلى النّار. قال: ويقولُ للّذي يعبدُ اللهَ عزّ وجلّ رياءً: بعزّتي وجلالي، ما أردتَ بعبادتي؟ قال: الرّياءَ. قال: يقول: إنّما كانت عبادتُك الّتي كنتَ تُرائي بها لا يَصعَدُ إليّ منها شيءٌ، ولا ينفَعُك اليومَ، انطَلِقوا به إلى النّار. قال: ويقولُ للّذي كان يعبدُ اللهَ عزّ وجلّ خالصًا: بعِزّتي وجلالي، ما أردتَ بعبادتي؟ فيقول: بعِزّتِك وجَلالِك، لَأنت أعلمُ به منّي، كنتُ أعبدُك لوجهِك ولدارِك، قال: صَدَق عبدي، انطلِقوا به إلى الجنّة»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا محمودُ بن لَبيد رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ أخوَفَ ما أخافُ عليكم الشِّركُ الأصغر»، قالوا: وما الشّركُ الأصغرُ يا رسولَ الله؟ قال: «الرّياء، يقولُ اللهُ عزّ وجلّ لهم يومَ القيامةِ إذا جُزِيَ النّاسُ بأعمالِهم: اذهَبوا إلى الّذين كنتُم تُراءُونَ في الدّنيا فانظُروا هل تَجِدونَ عندَهم جزاءً؟»[3].

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾

٤ ـ في هذه الآيةِ إرشادٌ عن طريقِ النبيِّ ﷺ إلى رجالِ الدَّعوةِ في الإسلام

(١) مسلم، كتاب الإمارة، باب ٤٣ برقم ٤٩٢٣.

(٢) شعب الإيمان، ٥: ٣٢٧ برقم ٦٨٠٨.

(٣) شعب الإيمان، ٥: ٣٣٣ برقم ٦٨٣١.

وتعليمٌ لهم بأنه مثلَما صَبَر النبيُّ ﷺ من أَجْل إرضاءِ الله تعالى، بالرَّغم من خوفِ الكفّارِ وطَمَعِهم وظُلمِهم، وظَلَّ ثابتًا في طريق المهمّةِ التي كَلَّفه اللهُ بها، عليهم أيضًا أن يَصبِروا على المصاعبِ التي تواجِهُهم في طريقِ الدَّعوةِ إلى الإسلام، وأن يثبُتوا في طريقِ المهمّةِ التي يحمِلونَها على عاتقِهم.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾

٥ ـ عندَما يُنفَخُ في الصُّورِ للمرةِ الثانية، وينهَضُ الموتَى من قبورِهم أحياءً، سيكونُ ذلك اليومُ في غايةِ الشِّدةِ بالنِّسبةِ للكفّار، ولن يبدوَ لهم أيُّ شُعاعِ أمَلٍ أو أيُّ سهولةٍ ويسرٍ، وإنّما ستَسْوَدُّ وجوهُهم من اليأسِ يومئذٍ، وتنحني رءوسُهم ندمًا.

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾

٦ ـ يقولُ المفسِّرون: إنّ هذه الآياتِ نَزَلت في ذمِّ الوليدِ بن المُغيرة، فقد توغَّل في الظُّلم والطُّغيانِ اغترارًا بكثرةِ مالِه وأولادِه، بحيث كان يَسخَرُ من آياتِ القرآنِ المَجِيد، وقد جاء ذمُّ الوليدِ بن المُغيرة من قبلُ في الآيات من ١٠ إلى ١٦ من سُورة القَلَم (٦٨).

في هذه الآيةِ تسريةٌ من اللهِ تعالى عن قلبِ النبيِّ الكريم ﷺ بأنْ لا تنزعجْ يا رسولَ الله من عداوةِ الوليدِ بن المُغيرةِ للإسلام، واترُكْ أمرَه إليَّ أنا، وأنا سأنتقمُ منه بنَفْسي، فلقد خلَقْتُه وحيدًا، يعني: أنه وحيدُ أبوَيْه من جانبٍ، وليس له أَخٌ أو أختٌ؛ لأنّ أباه كان عِنِّينًا، وأنجَبَتْه أُمُّه من نُطفةِ حرام، ومن ناحيةٍ أخرى لم يكنْ لديهِ عندَما وُلدَ مالٌ أو أولادٌ، مَثَلُه مَثَلُ باقي الأطفال، وقد أَنْعمتُ أنا عليه بالمال والثَّروة، ورزَقتُه اثنَيْ عشَرَ ولدًا، يعمَلونَ دائمًا على إجلالِه وحمايتِه، ولكنْ بدلًا من أن يشكرَني فإنه طَغَى وتجبَّر. على أيِّ حال، لا تحزَنْ ولا تغتمَّ، وإذا لم يَرجِعْ

هذا عن طُغيانِه فسوف أُذيقُه الذُّلَّ والخِزيَ. هذا وقد أَسْلَم ثلاثةٌ من أبنائه فيما بعدُ، ومنهم الصَّحابيُّ المشهورُ سيّدُنا خالدُ بنُ الوليد رضي اللهُ عنه وأرضاه.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾

٧ ـ يعني: أنّي أَنْعمتُ عليه بمقام عظيم باعتبارِ المالِ والثَّروةِ والمكانةِ والسِّيادة، لكنّه معَ ذلك كان في غايةِ الطَّمع، وظَلَّ يطلُبُ المزيدَ من المالِ والثَّروةِ رَغْمَ عصيانِه لي، لكنّه الآنَ لن يُعطَى مزيدًا من النِّعم؛ لأنه يأكلُ نِعَمَنا نحن، ومعَ ذلك ويُخالفُ آياتِنا. يقولُ العلّامةُ الخازن: «فما زال الوليدُ بعدَ نزولِ هذه الآيةِ في نُقصانِ مالِه ووَلَدِه حتى هَلَك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ أي: مُعانِدًا، والمعنى: أنه كان مُعاندًا في جميع دلائلِ التوحيدِ والقُدرةِ والبَعْثِ والنُّبوّة مُنكِرًا للكلِّ، وقيل: كان كُفرُه كُفرَ عناد، وهو أنه كان يَعرِفُ هذا بقلبِه ويُنكرُه بلسانِه، وهو أقبَحُ الكُفرِ وأفحشُه»[(١)].

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾

٨ ـ سوف نَبتليه في الآخِرة بعذابٍ شديد، يعني: سنجعَلُه يصعَدُ مرارًا فوقَ جبالٍ في جهنَّم، مثلَما يقولُ سيِّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه «﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ يعني: سأُكلِّفُه مشقّةً من العذابِ لا راحةَ له فيها. وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الصَّعودُ: عَقَبةٌ في النار يتصعَّدُ فيها الكافرُ سبعينَ خريفًا ثم يَهْوي فيها سبعينَ خريفًا، فهو كذلك أبدًا»[(٢)].

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾

٩ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: عنِ الواقعةِ التي جاءتِ الإشارةُ إليها في هذه

---

(١) تفسير الخازن، سورة المدثر (٧٤): الآية ١٦.
(٢) المرجع السابق، سورة المدثر (٧٤): الآية ١٦.

الآيات «لمّا نزَل ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١-٢] إلى قولِه: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ سَمِعَه الوليدُ يقرَأُها فقال: واللهِ لقد سَمِعتُ منه كلامًا ما هو من كلام الإنسِ ولا من كلام الجِنّ، وإنّ له لَحلاوةً، وإنّ عليه لَطلاوةً، وإنّ أعلاه لَمثمِرٌ، وإنّ أسفَلَه لَمُغدِقٌ، وإنّه لَيعلو ولا يُعلَى عليه، وما يقولُ هذا بشَرٌ. فقالت قُريشٌ: صَبَأَ الوليدُ، لَتصبُؤَنّ قُريشٌ كلُّها. وكان يقالُ للوليد: رَيْحانةُ قُريشٍ، فقال أبو جهل: أنا أكفِيكُمُوه. فمَضى إليه، فقال له: ما لي أراك حزينًا؟ فقال له: وما لي لا أحزَنُ وهذه قُريشٌ يجمَعونَ لك نفقةً يُعينونَك بها على كِبَرِ سِنِّك ويَزعُمونَ أنّك زَيَّنتَ كلامَ محمّدٍ، وتَدخُلُ على ابنِ أبي كَبْشةَ وابن أبي قُحافةَ لتنالَ من فَضْلِ طعامِهما، فغَضِبَ الوليدُ وتكبَّر، وقال: أنا أحتاجُ إلى كِسَرِ محمّدٍ وصاحبِه؟ فأنتم تعرِفونَ قَدْرَ مالي، واللّاتِ والعُزَّى، ما بي حاجةٌ إلى ذلك، وإنّما أنتم تَزعُمونَ أنّ محمّدًا مجنونٌ، فهل رأيتُموه قطُّ يخنق؟ قالوا: لا والله، قال: وتَزعُمونَ أنّه شاعرٌ، فهل رأيتُموه نَطَق بشِعرٍ قطُّ؟ قالوا: لا والله. قال: فتَزعُمونَ أنّه كذّابٌ، فهل جَرَّبتُم عليه كذبًا قطُّ؟ قالوا: لا والله. قال: فتَزعُمونَ أنّه كاهنٌ، فهل رأيتُموه تكهَّنَ قطُّ؟ ولقد رأينا للكَهَنةِ أَسْجاعًا وتَخالُجًا، فهل رأيتُموه كذلك؟ قالوا: لا والله. وكان النّبيُّ ﷺ يُسمَّى الصّادقَ الأمينَ من كثرةِ صِدقِه. فقالت قُريشٌ للوليد: فما هو (وكيف نُبعدُ الناسَ عنه)؟ ففكَّر في نفسِه، ثمّ نَظَر، ثمّ عَبَس، فقال: ما هو إلّا ساحرٌ! أَما رأيتُموهُ يُفرِّقُ بينَ الرّجُل وأهلِه ووَلَده ومَواليه؟! فذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ أي: في أمرِ محمّدٍ والقرآن»[1].

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾

١٠ ـ عندَما قيل للوليد: أخبِرْنا، ماذا نقولُ عن هذا القرآنِ الذي فَرَّق بيوتَنا؟

---

(١) تفسير القرطبي، سورة المدثر (٧٤): الآية ١٨.

فكَّر كثيرًا، ومعَ ذلك لم يعرِفْ ماذا يمكنُ أن يُقالَ في مخالفةِ هذا الكلام الصَّادق، وقد ظَهَرت آثارُ هذا الانزعاج على وجهِه، وفي النِّهاية عَبَس بوجهِه وبَسَر، وأظهَرَ امتعاضًا، ثم قال وهو يديرُ ظهرَه متكبِّرًا: هذا ليس كلامَ الله تعالى، وإنّما هو سِحرٌ ينتقلُ من السابقينَ إلى اللاحِقين. وبعدَ أن فكَّر مِرارًا قرَّر ـ أهلَكَه الله ـ أن يُخالفَ ضميرَه، معَ أنه كان يقولُ من قبلُ: إنّ هذا القرآنَ ليس كلامَ بشَر.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾

١١ ـ من بينِ أسماءِ جهنَّم أو درجاتِها: «سَقَرُ»، وقد جاء السُّؤالُ بأسلوبٍ استفهاميٍّ لبيانِ شدّةِ «سَقَر»، يعني: مَن يَعرِفُ ما هي سَقَرُ؟ في الحقيقةِ هذه نارٌ غايةٌ في الشِّدّة، تَحرقُ جلدَ الإنسانِ فتُحيلُه أسودَ حالكَ السَّواد، بل وتجعَلُه ينتفضُ بينَ الحياةِ والموت، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣].

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾

١٢ ـ عندَما سَمِع كفّارُ مكّةَ أنّ هناك نارًا عظيمةً سيُلقَى فيها المجرمونَ جميعًا من البدايةِ حتى قيام السَّاعة، وأنّ الحُرّاسَ عليهم سيكونونَ تسعةَ عشَرَ مَلَاكًا فقط، عندَئذٍ قال أبو جَهْل: يا معشَرَ قُريشٍ، أمَا يستطيعُ كلُّ عشَرةٍ منكم لواحدٍ منهم فتَغلِبونهم؟[١] وهذا يعني أنّ مائةً وتسعينَ من شبابِنا سيتغلَّبونَ على هؤلاءِ الملائكةِ التّسعةَ عشَرَ. يقولُ السُّدِّي: فقال أبو الأسودَ بنُ كِلْدةَ الجُمَحيّ: لا يَهُولَنَّكم التّسعةَ عشَرَ، أنا أدفعُ بمَنكِبي الأيمنِ عشَرةً من الملائكة، وبمنكِبي الأيسرِ التِّسعةَ، ثم تَمُرُّونَ إلى الجنة. يقولها مستهزئًا[٢]!

(١) تفسير ابن كثير، سورة المدثر (٧٤): الآية ٣١.

(٢) تفسير القرطبي، الموضع السابق.

كان الكفّارُ يعتقِدونَ أنّ مائةً وتسعينَ شابًّا، أو حتى رجُلًا قويًّا وحدَه، يُمكنُهم التغلُّبُ على الملائكةِ التِّسعةَ عشَرَ، لكنّهم لم يَستوعبوا أنّ الملائكةَ ليسوا بشَرًا من لحم ودم مِثلَهم، وإنّما هم مخلوقاتٌ نُورانيّة، وأنهم لا يستطيعونَ تصوُّرَ مدى قوَّتِهم، ولو أراد اللهُ لَاستطاع مَلَكٌ واحدٌ التحكُّمَ في جهنَّمَ كلِّها، مثلَما يقولُ العلّامةُ القُرطبي: «فإذا كان مَلَكٌ واحدٌ يَقبِضُ أرواحَ جميع الخلائق، كان أحرى أن يكونَ تسعةَ عَشَر على عذابِ بعضِ الخلائق»[1]، يعني: أنّ بني الإنسانِ لن يَدخُلوا جميعًا جهنَّمَ، ولهذا إذا كان مَلَكٌ واحدٌ من الملائكةِ يستطيعُ قَبْضَ أرواح بني البشَرِ جميعًا، فكيف لا يُمكنُ لتسعةَ عشَرَ من الملائكةِ تعذيبُ أهل جهنَّمَ فقط؟

وهكذا يَنقُلُ أبو الفَرَج الجَوْزيُّ في تفسيرِه، أنّ سيّدَنا جِبريلَ عليه السَّلامُ «اقتَلَع الأرضَ من سبع أَرضِين، فاحتَمَلَها حتى بَلَغ بها إلى أهل السَّماءِ الدُّنيا، حتى سَمِع أهلُ السَّماءِ نُباحَ كلابِهم، ثم قَلَبَها. كانت خمسَ قُرًى، وكان القومُ أربعةَ آلافِ ألفٍ»[2].

والآن، يُمكنُكَ أنت أن تتصوَّرَ مدى القوّةِ التي أعطاها اللهُ تعالى لمَلَكٍ واحدٍ، بحيثُ يستطيعُ أن يَحمِلَ - وحدَه - خمسَ قُرًى معَ الأرضِ التي تحتَها، وأربعةَ ملايينَ فردًا من البشَرِ إلى الفضاء، ثم يُلقي بهم إلى الأرضِ بكلِّ قوة، فكيف يمكنُ لأهل جهنَّم الهروبُ من حراسةِ تسعةَ عشَرَ ملاكًا؟ وهذا العددُ، أي: التِّسعةَ عشَرَ، قرَّره اللهُ تعالى لحِكمةٍ عندَه هو، ولكنّه في الحقيقةِ لا يحتاجُ إلى أيِّ مَلَكٍ، فلو أراد لَعذَّبَ أهلَ جهنَّمَ جميعًا بكلمةِ «كُنْ» فقطْ.

كما يقولُ المفسِّرون: إنّ حُرّاسَ جهنَّمَ ليسوا تسعةَ عشَرَ مَلَكًا فقطْ، وإنّما هؤلاءِ الملائكةُ التِّسعةَ عشَرَ هم الرُّؤساءُ والنُّقَباءُ في جهنَّم، وكلٌّ منهم يَعمَلُ تحتَ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة المدثر (٧٤): الآية ٣٠.

(٢) تفسير زاد المسير، سورة هود (١١): الآية ٨٢، ٤: ١١٠.

إمرتِه ملائكةٌ لا حصرَ لهم، مثلَما يقولُ العلّامةُ القُرطبي: «قلتُ: والصَّحيحُ ـ إن شاء الله ـ أنّ هؤلاءِ التّسعةَ عشَرَ، هم الرُّؤساءُ والنُّقَباءُ، وأمّا جُملتُهم فالعبارةُ تعجِزُ عنها، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]»(١).

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «يُؤتَى بجهنَّمَ يَومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمامٍ، معَ كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَها»(٢).

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

١٣ ـ لمَّا سَمِع المشركونَ عددَ ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ من الملائكة، سَخِروا قائلينَ: إنّنا بالآلافِ، فماذا يمكنُ أن يفعَلَ تسعةَ عشَرَ لنا؟ فنَزَلت هذه الآيةُ ردًّا عليهم بأنّهم ليسوا تسعةَ عشَرَ من البشَر، وإنّما هم ملائكةٌ، وقوّةُ الملائكةَ تفُوقُ الإنسَ والجِنَّ، ولهذا فإنّ مَلَكًا واحدًا من هؤلاءِ الملائكةِ يستطيعُ التحكُّمَ في جهنَّمَ كلِّها، مثلَما قَرأتَ في الحاشيةِ السّابقةِ عن قوّةِ مَلَكِ الموتِ وقوّةِ سيّدِنا جِبريلَ عليه السَّلام، فإذا كانت لدى واحدٍ من الملائكةِ هذه القوّةُ الهائلةُ، فكم تكونُ قوةُ تسعةَ عشَرَ منهم؟

ولأنّ أهلَ الكتابِ يَعرِفونَ مدى قُدرةِ الله تعالى وقوّةِ الملائكة، لهذا كانوا على يقينٍ من أنّ تسعةَ عشَرَ من الملائكةِ يستطيعونَ التحكُّمَ في جهنَّم، وأهلُ الإيمانِ حين يسمَعونَ بحُكم من أحكام الله تعالى يزدادُ إيمانُهم قوةً وصَلابةً، وبالتالي لم يكنْ لدى أهل الكتابِ ولا لدى أهل الإيمانِ أيُّ شكٍّ أو اعتراضٍ على هذا الأمر، أمّا الكفّارُ فلأنّهم لم يكونوا يَعرِفونَ حقيقةَ قُدرةِ اللهِ تعالى وقوّةِ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة المدثر (٧٤): الآية ٣٠.

(٢) مسلم، كتاب الجنة، باب ١٢ برقم ٧١٦٤.

الملائكة، لهذا أصبحت مسألةُ العَددِ هذه مُربِكةً لهم وابتلاءً، واعتَقَدوا بأنه يستحيلُ على هذا العَددِ من الملائكةِ التحكُّمُ في جهنَّم.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾

١٤ ـ الذين في قلوبِهم مرضُ الشكِّ تُجاهَ الإسلام، أو الذين يُنكِرونَ الإسلامَ علَانيةً، تجِدُهم يَسْخَرونَ من هذا المثالِ قائلينَ: ما المرادُ من بيانِ عَددِ تسعةَ عشَرَ؟ والحقيقةُ أنّ المعارِضينَ لأيِّ شيءٍ أو لأيِّ نظريّةٍ يحاولونَ دائمًا أن يَجِدوا فيها عيبًا أو نَقْصًا ليُشوِّهوها، ولو قال اللهُ تعالى عددًا آخَرَ ـ بدلًا من تسعةَ عشَرَ ـ لَما آمَن هؤلاءِ أيضًا، وإنّما سيُحاولونَ محاوَلاتٍ فاشلةً للعثورِ على أيِّ عيبٍ أو نَقْصٍ فيه، ولكنْ ينبغي لهم أن يعلَموا أنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَق، ومختارٌ مطلَقٌ، ولا يَخْلو أيُّ فعلٍ من أفعالِه من حِكمة، ولهذا لا يمكنُ سؤالُه عن أيِّ قولٍ من أقوالِه أو أيِّ فعلٍ من أفعالِه، واللهُ تعالى ـ أيضًا ـ هو حاكمُ الكلِّ، ولا يَحكُمُه أحدٌ بحيث يمكنُه أن يُحاسبَه، في حينَ أنّ بني الإنسانِ عبادٌ له، وطاعتُه فَرْضٌ عليهم، ولهذا سيُسأَلُ بنو الإنسانِ عن أقوالِهم وأفعالِهم، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾

١٥ ـ الذين يتفكَّرونَ في قُدرةِ اللهِ تعالى من خلالِ هذه الأمثالِ، يُرشِدُهم اللهُ تعالى إلى طريقِ الهداية، والذين لا يتفكَّرونَ في قُدرةِ الله تعالى، ويظَلُّونَ مُصِرِّينَ على التمسُّكِ بالضَّلالِ عامِدينَ، يترُكُهم اللهُ تعالى يَعمَهُونَ في الضَّلال، فاللهُ تعالى لا يُجبِرُ أحدًا على قَبولِ الهداية، وإلّا لَانتفَى الهدفُ منَ الابتلاءِ أصلًا.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾

١٦ ـ عندما سَخِرَ الكُفّارُ من عدَدِ ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قائلين: كيف يمكنُ لتسعةَ عشَرَ مَلَكًا السَّيطرةُ على أهل جهنَّمَ الذين لا حَصْرَ لهم؟ قال اللهُ تعالى ردًّا عليهم ما معناه: أنّ هؤلاءِ التِّسعةَ عشَرَ إنّما هم الرُّؤساءُ والنُّقباءُ المختَصُّونَ بأمورِ جهنَّم، وما عدا ذلك فإنّ جنودَ ربِّك كثيرونَ بحيث لا يمكنُ أن يَتصوَّرَ عددَهم أحدٌ، وعدَدُ الملائكةِ ـ فقطْ ـ كثيرٌ للغاية، بحيث أنّ كلَّ يوم يَعبُدُ اللهَ تعالى في البيتِ المعمورِ سبعونَ ألفًا منهم، فإذا خَرَجوا لم يأتِ دَوْرُهم ثانيةً حتى يوم القيامة[1].

والآنَ، يمكنُكَ أن تتَصوَّرَ منذُ متى خَلَق اللهُ تعالى الدُّنيا، وإلى متى ستستمرُّ؟ وكلَّ يوم يَدخُلُ سبعونَ ألفًا من الملائكةِ إلى البيتِ المعمور، وهذا مجرَّدُ جانبٍ من تَعدادِ الملائكة، وهي واحدةٌ من مخلوقاتِ الله تعالى، في حينَ أنّ دائرةَ مخلوقاتِ الله تعالى واسعةٌ للغاية، بحيث لا يستطيعُ الإنسانُ وحدَه أن يُحصيَ هذه الأقسامَ كلَّها، فكيف يمكنُ أن يُحصيَ عدَدَ كلِّ مخلوقٍ منهم؟

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾

١٧ ـ في الحديثِ عن جهنَّمَ وأحوالِها، الذي جاء في الآياتِ السابقة، نصيحةٌ وعبرةٌ للناسِ حتى يخافوا النارَ ويتَّقُوها، ولا يرتكبوا فعلًا يكونُ سببًا في دخولِهم جهنَّمَ.

كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ

---

(١) «فقال جبريل: هذا البيت المعمور يصلّي فيه كلّ يوم سبعون ألف ملكٍ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم». البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ٦ برقم ٣٢٠٧.

نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾

١٨ ـ كان كفّارُ مكّةَ يعتقدونَ أنه لن تقومَ السّاعةُ، ولن تكونَ هناك جهنَّمُ، وفي هذه الآياتِ تفنيدٌ وإبطالٌ لهذا الاعتقاد، بأنّ الأمرَ ليس كما تعتقِدونَ، وأنّ السّاعةَ آتيةٌ لا مَحالةَ، وقد أَقْسم اللهُ تعالى بثلاثةِ أشياءَ مهمّةٍ، يعني: بالقمر، واللّيل إذا غابَ وأدبَر، والصُّبح إذا طَلَع وأَسْفَر، مؤكِّدًا على أنّ جهنَّمَ واحدةٌ من الآفاتِ الكبرى القادمة، وسوف تأتي لا مَحالةَ.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾

١٩ ـ إنّ شدّةَ يوم القيامة، وبصفةٍ خاصّةٍ شدّةُ نارِ جهنَّمَ، لَأمرٌ مُرعِبٌ يكفي لإرعابِ الإنسان، ولهذا فالأمرُ يتوقَّفُ عليكم أنتُم، منِ السَّعيدُ منكم والذي سيعمَلُ الصّالحاتِ ليحظَى بالقُربِ من الله تعالى، ومنِ التَّعيسُ منكم والذي سيعمَلُ السيِّئاتِ فيُطرَدُ من رحمةِ الله تعالى ويُصبحُ ملعونًا.

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾

٢٠ ـ يقولُ مُقاتلٌ: «كلُّ امرِئٍ كافرٍ بما عَمِل من الشِّركِ مُرتَهَنٌ في النار»[١]؛

---

(١) تفسير البغوي، سورة الطور (٥٢): الآية ٢١.

لأنّ الله تعالى قدِ استثنَى من الحُكم السابقِ أصحابَ اليمين، أي: الذين ستكونُ صُحُفُ أعمالِهم في أَيْمانِهم، ولهذا فإنّ هؤلاءِ سيكونونَ في الجنَّة.

﴿مَاسَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾

٢١ ـ سيَلتفِتُ أهلُ الجنّةِ في الدَّرجاتِ العُلى ناحيةَ جهنَّم، ويَسألونَ المجرِمينَ قائلين: أيُّ جرائمَ جاءتْ بكم إلى جهنَّمَ لتُعاقَبوا عليها؟ وعندَئذٍ سيعترِفونَ بأربع جرائمَ دَخَلوا بسببِها النار، وهي:

١ ـ لم نكن نُصلِّي.

٢ ـ لم نكنْ نُطعِمُ المِسكينَ.

٣ ـ كنّا نَخُوضُ معَ التافهينَ في أحاديثَ تافهة.

٤ ـ كنا نُنكرُ يومَ القيامةِ ولا نؤمنُ به.

فالذين تجتمعُ فيهم هذه الجرائمُ الأربعُ سيَدخُلونَ جهنَّمَ؛ لأنّ من بَيْنِها واحدةً هي: إنكارُ يوم القيامة، وهو ـ في ذاتِه ـ كُفرٌ صَريح، والذين يموتونَ على الكُفرِ لا يُسمَحُ لأحدٍ بأنْ يَشفَعَ لهم، حتى وإن تَشفَّعَ لهم أحدٌ فلن تُقبَلَ شفاعتُه؛ لأنّ الذين يستحِقُّونَ الشَّفاعةَ هم أولئك الذين يموتونَ على الإيمانِ فقطْ.

ـ يقولُ سيّدُنا زَيْدُ بن الأرقَم رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «شَفاعتي يومَ القيامة حقٌّ، فمَن لم يؤمنْ بها لم يكنْ من أهلِها»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الرَّحمن بنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «شَفاعتي مُباحةٌ إلّا لمَن سَبَّ أصحابي»(٢).

---

(١) التفسير المظهري، سورة المدثر (٧٤): الآية ٤٨.

(٢) المرجع السابق، سورة المدثر (٧٤): الآية ٤٨.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾

٢٢ ـ ماذا دَهَى الكفّارَ، إذْ يُعرِضونَ عن القرآنِ الكريم حتى بعدَ سَماع أهوالِ جهنَّم، ولا يحاولونَ النَّجاةَ من عذابِها، ويَفِرُّونَ من نصائح القرآنِ المجيد فِرارَ الحِميرِ في الغابةِ خوفًا من الأُسُد؟

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾

٢٣ ـ يقولُ المفسِّرونَ: «إنّ كفّارَ قُريش قالوا لرسولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: لِيصبحْ عندَ رأسِ كلِّ رجُل منّا كتابٌ منشورٌ من اللهِ أنك رسولُه نؤمَرُ فيه باتِّباعِك»[١]، يعني: أنّ كفّارَ مكّةَ كانوا يَرغَبونَ أن تَنزلَ صحيفةٌ من الله تعالى لكلِّ واحدٍ منهم بشكل مباشِر، لكنّ مِثلَ هذا لا يُمكنُ أبدًا؛ لأنّهم غيرُ مؤهَّلينَ لأنْ تُنزَّلَ عليهم صُحُفٌ بشكل مباشِر، والسَّببُ الأَصْليُّ في هذا الجِدال كلِّه هو أنّهم لا يؤمنونَ بالآخِرة، ولو كانوا يؤمنونَ بالآخِرة لَخافوا من عذابِها، ولَما جادَلوا بهذا الشَّكل.

﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾

٢٤ ـ أكَّد اللهُ تعالى ثانيةً على أنه لا يمكنُ أبدًا أن تُنزَّلَ عليهم صُحُفٌ بشكل مباشِر، والآنَ فإنّ هذا القرآنَ يكفي للنَّصيحةِ حتى يوم القيامة، ولهذا فإنّ مَن يريدُ الحصُولَ على النَّصيحةِ يستطيعُ أن يَحصُلَ عليها من القرآنِ الكريم.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾

٢٥ ـ لا يمكنُ لأحدٍ أن يَحصُلَ على النَّصيحةِ إلّا بتوفيقٍ من اللهِ تعالى، واللهُ تعالى يَمنَحُ توفيقَه للذين يُريدونَ الحصُولَ على النَّصيحةِ بكلِّ إخلاصِ نيّة، ولهذا

---

(١) تفسير الخازن، سورة المدثر (٧٤): الآية ٥٢.

ينبغي للناسِ أن يَرجِعوا بكلِّ إخلاصِ نيّةٍ إلى اللهِ تعالى؛ لأنه هو الذي يستحِقُّ أن يتَّقيَه الناسُ، وشأنُ عظَمتِه هو أنه يَعفو عمَّن يَرجِعُ إليه بإخلاصِ النِّية مهما كثُرت ذنُوبه.

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال في تفسيرِ هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ قال: «قال اللهُ عزّ وجلّ: أنا أهلٌ أن أُتَّقى، فمنِ اتَّقاني فلم يجعَلْ معي إلهًا، فأنا أهلٌ أن أَغفِرَ له»(١).

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعدَ صلاة العشاء من يوم الجمعة ٢٦ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ١٩ ذي الحجة ١٤٣١هـ.**

**هذا، وقد اكتَمل ـ بفضل الله تعالى وكرَمِه ـ تفسيرُ سُورة «المدَّثِّر» في ثلاثة أيام فقط، أي: من ٢٣ إلى ٢٦ نوفمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسَّلام على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.**

* * *

---

(١) الترمذي، تفسير القرآن، سورة المدثر (٧٤): برقم ٣٣٢٨.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# (٧٥) سُورَةُ القِيَامَةِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «القيامةُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

## قيام الساعة

كان الكفّارُ يعتقِدونَ أنه لا يمكنُ إحياءُ الإنسانِ من جديدٍ بعدَ أن يموتَ ويصيرَ ترابًا، وفي بدايةِ هذه السُّورةِ وآخِرِها جاء دليلٌ بسيطٌ مفهومٌ على قيام السّاعة، يعني: ألم يُفكِّرِ الإنسانُ أبدًا؛ هل كانت تبدو له من قطرةِ الماءِ العاديّةِ هذه، والتي خُلِق منها، عيونٌ وآذانٌ وأيدٍ وأرجُلٌ وقلبٌ وعقلٌ وغيرُها؟ فكما خَلَق اللهُ تعالى الإنسانَ من هذه القَطْرة، فإنه أيضًا قادرٌ على أن يُعيدَ خَلْقَه بعدَ موتِه.

## أحوال القيامة

في الآيات من ٧ إلى ١٥ من السُّورةِ جاء أولًا بيانُ علاماتِ القيامةِ للمنكِرين، يعني: أنّ البَرقَ سيَبرَقُ في ذلك اليوم بحيثُ يكادُ يذهَبُ بالأبصار، وسينطفئُ نورُ الشّمسِ والقمر، ثم تقومُ السّاعةُ، وعندَما يُعطَوْنَ صحائفَ أعمالِهم في أيديهم، ويَرَوْنَ عاقبتَهم الوخيمةَ، يَفِرُّونَ ويُهَرولونَ هنا وهناك، ويحاولونَ اختلاقَ الأعذار، ولكنْ لن تنفَعَ الكافرَ في ذلك اليوم أيُّ حيلةٍ أو عُذر؛ لأنّ أعمالَ كلِّ إنسانٍ ستُكشَفُ أمامَ الناس جميعًا، وستَشهَدُ أعضاءُ بدَنِه عليه أيضًا.

## حفظ القرآن المجيد

في الآياتِ من ١٦ إلى ١٩ جاء الإعلانُ عن حِفظِ القرآنِ المَجِيد، يعني: يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لا تتجشَّمْ مشقّةَ ترديدِ الوحي سريعًا، وإنّما اسمَعْه بكلِّ اطمئنان، ولا تخشَ من نسيانِه؛ لأنّ جَمْعَ القرآنِ الكريم حرفًا حرفًا في صدرِك المبارك، ثم إجراءَ تلاوتِه على لسانِك المباركِ كما هو تمامًا، هو مسئوليتُنا نحن، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: «فكان رسولُ الله ﷺ بعدَ ذلك إذا أتاهُ جِبريلُ استَمَع، فإذا انطَلَقَ جِبريلُ قَرَأه النّبيُّ ﷺ كما قَرَأ»[1]، وهكذا حَفِظ النبيُّ ﷺ القرآنَ الكريمَ شَفاهةً، وبعدَ ذلك حَفِظَه كثيرٌ من الصَّحابةِ الكرام رضي اللهُ عنهم شَفاهةً أيضًا بسَماعِه من رسولِ الله ﷺ، وهذه عظَمةٌ مميِّزةٌ لحِفظِ القرآنِ المجيد، لا تتيسَّرُ لأيِّ كتابٍ آخَرَ في الدُّنيا، ولهذا لو حَدَث ـ لا قدَّر اللهُ ـ أنِ اختَفَت كلُّ النُّسَخ المكتوبةِ للقرآنِ المَجِيد من الدُّنيا، فإنّه يمكنُ كتابتُه كاملًا وراءَ طفل في الثامنةِ من عمُرِه يحفَظُه، بحيث لن يحدُثَ فيه أيُّ تغييرٍ ولو في فتحةٍ أو كسرة.

## أحوال ميدان الحشر

وبعدَ ذلك جاء بيانٌ لأحوالِ الناس في ميدانِ الحَشْر، يعني: أنّ وجوهَ أهل الإيمانِ ستكونُ يومَ القيامة وَضّاءةً بفَضْل حسَناتِهم، وسيَحظَوْنَ برُؤيةِ الله تعالى، بينَما يُغطي النَّحْسُ وجوهَ المُنكِرينَ بسببِ ذنوبِهم، وسيكونونَ في غايةِ الخوفِ والانزعاج.

## أبو جهل

في الآياتِ من ٣١ إلى ٣٥ جاء ذِكرُ سلوكِ أبي جَهْل ومَقتَلِه في ذُلٍّ وخِزْي،

---

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٤ برقم ٥.

يعني: أنه كان يكذِّبُ النبيَّ الكريمَ ﷺ ويتكبَّرُ عليه، فكان عِقابُه أنه قُتلَ ذليلًا مَخْزِيًّا يومَ بدر، وسيكونُ ذليلًا ومَخْزِيًّا أيضًا في كلِّ مرحلةٍ من مراحل الآخِرةِ أيضًا.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعدَ صلاة العصر من يوم السبت ٢٧ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٠ ذي الحجة ١٤٣١هـ.**

❃ ❃ ❃

# سُورَةُ القِيَامَة (٧٥)،

## مكية (٣١)، آياتها (٤٠)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

١ ـ كان المشركونَ يعتقِدونَ أنّ الإنسانَ عندما يموتُ يتعفَّنُ جسَدُه ويتَحلَّلُ في التُّرابِ والماءِ والهواء، فكيف يمكنُ عندَئذٍ إحياؤه من جديد؟ فأَقْسم اللهُ تعالى قَسميْنِ مؤكِّدًا على أنّ اعتقادَهم هذا خاطئٌ تمامًا، فكما خَلَقْنا الإنسانَ أولَ مرةٍ يمكنُنا خَلْقُه من جديد، ونحن قادرونَ ليس على هذا فقط، وإنّما على تهيئَةِ لحمِه وجِلدِه

وعِظامه من جديد، بل وإصلاح حتى عُقلاتِ أصابعِه، وستكونُ خطوطُ وبَصَماتُ عُقلاتِ أصابع كلِّ إنسانٍ هناك مختلفةً عن الآخَرِ كما كانت في الدُّنيا تمامًا.

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾

٢ ـ هناك ثلاثةُ أقسام للنَّفْس:

**١ ـ النَّفسُ الأَمّارة** ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، والمرادُ بها تلك النَّفسُ التي تَأمُرُ صاحبَها بالسُّوءِ كلَّ وقت، ومَن يُطيعُ النَّفسَ الأَمّارةَ بالسُّوءِ سيكونُ عاصيًا وطاغيًا.

**٢ ـ النَّفسُ اللَّوّامة** ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، والمرادُ بها: تلك النَّفسُ التي تَلُومُ صاحبَها كلَّ وقتٍ على تقصيرِه وغَفْلتِه، ومن يتدبَّرْ تنبيهَ هذه النَّفسِ اللَّوّامة سيتُوبُ بصِدقٍ ويصبحُ من الصَّالحين.

**٣ ـ النَّفسُ المطمئنّة** ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، والمرادُ بها: تلك النَّفسُ التي تطمئنُّ بذِكرِ الله تعالى وتَحُلُّ بها السَّكينةُ منه، ومنِ اصطَبَغَ بصِبغةِ النَّفسِ المطمئنّة يرضَى اللهُ تعالى عنه.

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾

٣ ـ في هذه الآيةِ جاء بيانُ سببِ إنكارِ المُنكِرينَ ليوم القيامة، يعني: أنّهم أصبحوا عبيدًا لشَهَواتِهم ورَغَباتِهم النَّفْسانيّة، بحيث أنّهم يريدونَ أن يظَلُّوا مُبْتَلَيْنَ مستقبَلًا بالفجورِ والفُحشِ الذي ظَلُّوا يرتكبونَه من قبلُ، ولكنْ إذا آمَنوا بيوم القيامةِ فسوف يكونُ عليهم التخَلِّي عن هذا الفجورِ من خوفِ الحساب، وهم ليسوا على استعدادٍ لذلك.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾

٤ - يقولُ مُنكِرو القيامة: إنْ كنتَ صادقًا فأخبَرْنا متى يأتينا يومُ القيامة؟ وهنا بَيَّن اللهُ تعالى ثلاثَ علاماتٍ من علاماتِ يوم القيامة، يعني: في المرحلةِ الأُولى من القيامة سيَبرَقُ البرقُ بحيث يكادُ يذهَبُ بالأبصارِ من خوفِه، وسينطفئُ نورُ الشمسِ والقمر، وباختصارٍ سينقلبُ كلُّ نظام الكائناتِ رأسًا على عَقِب.

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾

٥ - عندَما يَرى مُنكِرو القيامةِ مشاهدَها المُرعبةَ سيَسأَلونَ: أخبِرونا عن مكانٍ يمكنُنا أن نهرُبَ إليه ونَحتميَ به، وسيأتيهم صوتٌ يرُدُّ عليهم قائلًا: لا ملاذَ لكمُ اليومَ، وليس هناك اليومَ سوى مكانٍ واحدٍ على الجميع الذهابُ إليه، وهو عدالةُ الله تعالى، حيث سيُحاسَبُ كلُّ إنسانٍ على أعمالِه في وجودِه وأمامَ عينَيْه.

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾

٦ - يومَ القيامة سيُخبَرُ كلُّ شخصٍ ماذا فَعَل من حسَناتٍ أو سيِّئات من قبلُ لتكونَ له ذُخرًا اليومَ، وماذا خَلَّف وراءه من سُنّةٍ حَسنةٍ أو سيِّئة.

### سلسلةُ الحَسناتِ بعدَ الموت

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا ماتَ الإنسانُ انقَطَع عنه عمَلُه إلّا من ثلاثةٍ: إلّا من صَدَقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفَعُ به، أو وَلَدٍ صالحٍ يدعو له»[1]، فالعَملانِ الأَوّلانِ للميِّت دَخْلٌ فيهما، أمّا دعاءُ الولدِ فهو فعلٌ خاصٌّ به هو، ومعَ ذلكَ ينتفعُ به الميِّت.

---

(١) مسلم، كتاب الوصية، باب ٣ برقم ٤٢٢٣.

ـ يقولُ سيّدُنا جَريرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن سَنَّ في الإسلام سُنّةً حسَنةً، فعُمِل بها بعدَه، كُتِب له مِثلُ أَجْرِ من عَمِل بها (أي: لأنه هو الذي أسَّس هذه السُّنةَ الحسَنةَ)، ولا يَنقُصُ من أُجورِهم شيءٌ، ومَن سَنَّ في الإسلام سُنّةً سيّئةً، فعُمِل بها بعدَه، كُتِب عليه مِثلُ وِزرِ مَن عَمِل بها (أي: لأنه هو الذي أسَّس هذه السُّنةَ السيِّئةَ)، ولا يَنقُصُ من أوزارِهم شيءٌ»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ ممّا يَلحَقُ المؤمنَ من عَمَلِه وحسَناتِه بعدَ موتِه: علمًا عَلَّمه ونشَرَه، وولدًا صالحًا تَرَكَه، ومُصحَفًا وَرَّثه أو مسجدًا بناه أو بيتًا لابن السَّبيل بناه أو نَهَرًا أَجْراه أو صَدَقةً أَخْرجَها من مالِه في صحّتِه وحياتِه، يلحَقُه من بعدِ موتِه»[2].

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾

٧ ـ في الآيةِ السابقة جاء بيانٌ أنّ الإنسانَ سيُخبَرُ بكلِّ أعمالِه السابقة، وستوضَعُ أمامَه صحيفةُ أعمالِه مكتوبًا فيها كلُّ شيء، وفي هذه الآيةِ جاء بيانُ أنّ الإنسانَ أيضًا سيكونُ على عِلم تامٍّ بأعمالِه؛ لأنه هو نفسُه الذي قام بها.

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾

٨ ـ سيُحاولُ مُنكِرو القيامةِ يومَها اختلاقَ الحِيَل والأعذارِ للنَّجاةِ من العذاب، ولكنْ لن تنجَحَ حِيَلُهم ولن تنفَعَ أعذارُهم، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧]، يعني:

---

(١) مسلم، كتاب العلم، باب ٦ برقم ٦٨٠٠.

(٢) ابن ماجه، كتاب السنة، باب ٢٠ برقم ٢٤٢.

عندَما يرَى الظالمونَ مصيرَهم السيِّئَ يومَ القيامة سيَصرُخونَ قائلين: لقد أخطَأْنا، ونحن نتُوبُ الآنَ، ولهذا لِيغفِرْ لنا اللهُ، أو لِيمنَحْنا فُرصةً أخرى للعودةِ إلى الحياةِ الدُّنيا، ولن نَعصِيَه أبدًا، ولكنّ الوقتَ حينَئذٍ يكونُ قد فات، ولن يُقبَلَ عُذرٌ من معتذِرٍ.

في هذه الدُّنيا أيضًا كلُّ إنسانٍ يعلَمُ جيِّدًا ماذا ارتَكبَ من أفعالٍ قبيحة، ويبحَثُ عن حِيَل متعدِّدةٍ ليَخدَعَ بها الناسَ، ولكنْ لن تَنجحَ حِيْلةٌ يومَ القيامة؛ لأنّ أعمالَ كلِّ إنسانٍ سيتِمُّ كشفُها أمامَ الجميع، وستَشهَدُ على الإنسانِ أعضاءُ بَدَنِه كذلك.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾

٩ ـ عندما كان الوحيُ يَنزِلُ في البداية، ويبدَأُ سيّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ في قراءةِ الكلام الإلهيِّ، فإنّ النبيَّ ﷺ كان يُحرِّكُ لسانَه بسُرعة، ويقرَأُ معَ سيّدِنا جِبريلَ الأمين عليه السلام، حتى يتمكَّنَ مِن حِفظِ كلِّ ما يقولُ من وحي، ولا يفوتَه منه شيءٌ، ولكنّ سَماعَ الوحي، وفَهْمَه، وترديدَه على الفَوْر، أعمالٌ ثلاثةٌ يكونُ القيامُ بها في وقتٍ واحد أمرًا مُرهِقًا للغاية، ولهذا أَنْزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ، يعني: يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لا تتجشَّمْ مشَقّةَ ترديدِ الوحي سريعًا، وإنّما اسمَعْه بكلِّ اطمئنان، ولا تخشَ من نسيانِه؛ لأنّ جَمْعَ القرآنِ الكريم حرفًا حرفًا في صدرِك المبارك، ثم إجراءَ تلاوتِه على لسانِك المبارَك كما هو تمامًا، هو مسئوليَّتُنا نحن، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «فكان رسولُ الله ﷺ بعدَ ذلك إذا أتاه جِبريلُ استَمعَ، فإذا انطَلقَ جِبريلُ قرَأَه النّبيُّ ﷺ كما قرَأَ»[1].

---

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٤ برقم ٥.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾

١٠ ـ يُعلَمُ من هذه الآيـةِ أنه كمـا أنّ ألفـاظَ القرآنِ الكريـم وَحْيٌ من اللهِ تعالى، كذلك بيانُ القرآنِ المَجِيد وَحْيٌ من الله تعالى أيضًا، وهو الذي نقولُ له: «الحديثُ»، فهذا أيضًا إلهامٌ من الله تعالى، ولهذا ينبغي الإيمانُ به مِثلَ القرآن، فإذا لم نؤمنْ بالحديثِ سيُصبحُ العمَلُ بالقرآنِ في غايةِ الصُّعوبة، وعلى سَبيل المثال: نجدُ أحكامَ الصّلاةِ والحجِّ في القرآنِ الكريم، ولكنّ التعرُّفَ على طريقةِ أدائها يستحيلُ بغيرِ الحديث.

﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾

١١ ـ في هذه الآيةِ تنبيهٌ لمُنكِري القيامةِ بأنه ليس لديكُم أيُّ دليل مطلقًا على إنكارِ القيامة، وإنما أنتُم الذين تَعتبِرونَ الحياةَ الدُّنيا هي كلَّ شيء، وتُحبُّونَها كثيرًا؛ لأنّ أَجْرَ كلِّ عملٍ فيها يتحقَّقُ سريعًا، وتترُكونَ الآخِرةَ؛ لأنه لا يزالُ أمامَها وقتٌ طويلٌ حتى تأتيَ، والإنسانُ بصفةٍ عامّة متعجِّلٌ، لكنه لا يُفكِّرُ ماذا يمكنُ أن يكونَ مصيرُ هذه التّعجُّل؟

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾

١٢ ـ الذين يتَّقُونَ اللهَ تعالى في الدُّنيا، ولا يرتكبونَ من الأعمالِ ما يكونُ سببًا في عصيانِ الله تعـالى، ستكـونُ وجوهُهم نَضْرةً متفتِّحةً يومَ القيـامة، وسيكونُ اللهُ تعالى راضيًا عنهم، وسيَحظَوْنَ برؤيةِ الله تعالى.

## رؤية الله تعالى

ـ يقولُ سيّدُنا صُهَيبٌ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا دَخَل أهلُ الجنّةِ

الجنّةَ ـ قال ـ يقولُ اللهُ تبارك وتعالى: تريدونَ شيئًا أَزِيدُكم؟ فيقولونَ: ألم تُبيِّضْ وجوهَنا، ألم تُدخِلْنا الجنَّة وتُنجِّنا من النّار؟ قال: فيَكشِفُ الحِجابَ، فما أُعطُوا شيئًا أحبَّ إليهم من النَّظَرِ إلى ربِّهم عزَّ وجلّ»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ أدنى أهلِ الجنّةِ منزِلةً لمن يَنظُرُ إلى جِنانِه وأزواجِه ونعيمِه وخَدَمِه وسُرُرِه مسيرةُ ألفِ سنةٍ، وأكرَمُهم على الله مَن يَنظُرُ إلى وجهِه غُدوةً وعَشِيّةً». ثمّ قرأَ رسولُ الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[2].

ـ يقولُ سيّدُنا جَريرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه: كنّا عندَ النّبيِّ ﷺ، فنَظَر إلى القمرِ ليلةً ـ يعني: البدرَ ـ فقال: «إنّكم ستَرَوْنَ ربَّكم كما تَرَوْنَ هذا القمرَ لا تُضامُّونَ في رؤيتِه»[3].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «تُضامُّونَ في رؤيةِ القمرِ ليلةَ البدر، وتُضامُّونَ في رؤيةِ الشّمس؟». قالوا: لا. قال: «فإنّكم ستَرَوْنَ ربَّكم كما تَرَوْنَ القمرَ ليلةَ البدر، لا تُضامُّونَ في رؤيتِه»[4].

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾

١٣ ـ الذين لا يؤمنونَ بالله تعالى، ويُضيِّعونَ حياتَهم في عصيانِه، سيَعُمُّ وجوهَهم يومَ القيامةِ الحُزْنُ والقَلَقُ، وسيتأكّدونَ أنّهم سيُعذَّبونَ عذابًا يَقصِمُ ظهورَهم.

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٠ برقم ٤٤٩.

(٢) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب رقم ١٧ برقم ٢٥٥٣.

(٣) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ١٦ برقم ٥٥٤.

(٤) الترمذي، صفة الجنة، باب ١٧ برقم ٢٥٥٤.

﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾

١٤ ـ يَظُنُّ مُنكِرو القيامةِ أنّهم عندَما يموتونَ ويَصيرونَ ترابًا، كيف سيَذهبونَ عندَ الله تعالى؟ وفي هذه الآيةِ إبطالٌ لِما يظُنُّونَه، يعني: ليس من الممكنِ أن تُفلِتوا من الوقوفِ في ميدانِ الحَشْر أو من العقابِ على أفعالِكم القبيحة، وكما أنه إذا وَصَلت أرواحُكم إلى حُلْقُومِكم عندَ الموت، لا يستطيعُ طبيبٌ أو دَجّالٌ أن يمنَعَها من الخروج، كذلك إذا أَمَر اللهُ تعالى بأن تقومَ السّاعةُ، لا يستطيعُ أحدٌ مَنْعَ مجيئها.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾

١٥ ـ عندَما لا تَنفعُ كلُّ حِيَل الدُّنيا ويَبطُلُ مفعولُها، يتيقَّنُ الإنسانُ عندَئذٍ من أنّ ساعةَ مفارقتِه للدُّنيا قد حانَتْ، ويصبحُ عاجِزًا لا حِيلةَ له، بحيثُ إذا التَصقت إحدى ساقَيْهِ بالأخرى لم يستطعْ أن يُحرِّكَها بعيدًا ليَفصِلَ بينَهما.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾

١٦ ـ سيكونُ على كلِّ شخصٍ أن يَمثُلَ بينَ يدَي اللهِ تعالى يومَ القيامة، ولكنّ المحطةَ الأُولى في هذا هي الموتُ؛ لأنه إنْ لم يَمُتْ فكيف يحيا من جديد؟

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾

١٧ ـ هذه الآيةُ نَزَلت في أبي جَهْل، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «أي: لم يُصدِّقْ أبو جَهْل بالرِّسالة ولم يُصَلِّ»(١)، بل إنه عندما

---

(١) تفسير القرطبي.

كان النبيُّ ﷺ يدعو الناسَ إلى الإسلام، كان أبو جَهْل يأتي إليه ليُكذِّبَه، ويُظهِرَ كراهيَتَه للقرآنِ المجيد، وحين ينتهي المجلسُ كان أبو جَهْلٍ يعودُ إلى بيتِه مُتبختِرًا وسعيدًا بأنه أدَّى حقَّ إفشالِ دعوةِ النبيِّ ﷺ.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾

١٨ ـ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ جاء الوعيدُ إلى أبي جَهْل بأنه إن لم يَرجِعْ عن طُغيانِه، فسيكونُ حالُه في غايةِ السُّوءِ، سواءٌ عندَ الموتِ، أم في القبرِ، أم في الحَشْرِ أم في جهنَّم. وقد نَقَل العَلّامةُ القُرطبيُّ هذا القولَ بأنّ «رسولَ الله ﷺ خَرَج من المسجد ذاتَ يومٍ، فاستقبَلَه أبو جهلٍ على بابِ المسجد، ممّا يلي بابَ بني مخزومٍ، فأخَذَ رسولُ الله ﷺ بيدِه، فهَزَّه مرّةً أو مرّتَيْن ثمّ قال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فقال له أبو جهلٍ: أتُهدِّدُني؟ فو الله، إنّي لَأعَزُّ أهلِ الوادي وأكرَمُه. ونَزَل على رسولِ الله ﷺ كما قال لأبي جهلٍ»[1].

ويقولُ سيِّدُنا قَتادةُ رضي الله عنه: «أَقْبلَ أبو جَهْل بنُ هشامٍ يتبختَر، فأخَذَ النّبيُّ ﷺ بيدِه فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾. فقال: ما تستطيعُ أنت ولا ربُّك لي شيئًا، إنّي لَأَعزُّ مَن بيْنَ جَبَليْها. فلمّا كان يومُ بدرٍ أَشْرفَ على المسلمينَ فقال: لا يُعبَدُ اللهُ بعدَ هذا اليوم أبدًا. فضَرَب اللهُ عُنقَه، وقَتَله شرَّ قِتلةٍ»[2].

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾

١٩ ـ هل يظُنُّ الإنسانُ أنّ اللهَ خَلَقَه وجَعَلَه أشرفَ المخلوقاتِ وتَرَكَه هكذا عبثًا؟ بالقَطْع لا، فلقد جَعَل الإنسانَ مسئولًا في هذه الدُّنيا عن حقوقِ الله وحقوقِ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة القيامة (٧٥): الآية ٣٤.

(٢) المرجع السابق، سورة القيامة (٧٥): الآية ٣٤.

العباد، وسوف يُسأَلُ في الآخِرةِ عن هذه المسئوليّات، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسئولٌ عن رعيّتِه، الإمامُ راعٍ ومسئولٌ عن رعيّتِه، والرّجلُ راعٍ في أهلِه وهو مسئولٌ عن رعيّتِه، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسئولةٌ عن رعيّتِها، والخادمُ راعٍ في مالِ سيّدِه ومسئولٌ عن رعيّتِه ـ قال: وحَسِبتُ أنْ قد قال ـ والرّجلُ راعٍ في مالِ أبيه ومسئولٌ عن رعيّتِه، وكلُّكم راعٍ ومسئولٌ عن رعيّتِه»[1].

وقد جاء هذا المفهومُ قبلَ ذلك في سُورة «المؤمنون»، حيث يقولُ اللهُ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، يعني: أنّ اللهَ تعالى لم يَخلُقْ ولو ذَرّةً واحدةً عبثًا، فكيف يُعقَلُ أن يَخلُقَ اللهُ تعالى أشرفَ المخلوقاتِ السيِّدَ الإنسانَ هكذا عبثًا وبلا هدف؟ لقد أعطَى اللهُ تعالى الإنسانَ مقدَّراتٍ عظيمةً مِثلَ: العقل والفَهْم، والتي يُسخِّر من خلالِها كلَّ الأحياءِ ويُخضِعُها له، ولهذا سوف يُسأَلُ الإنسانُ عن كلِّ هذه النِّعَم العظيمة.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾

٢٠ ـ في هذه الآياتِ دعوةُ فكرٍ لمُنكري القيامة؛ ألم يُفكِّروا أبدًا ماذا كانت حقيقتُهم؟ مجرَّدَ قطرةِ ماءٍ عاديّة وُضِعَت في رَحِم الأُمِّ، ثم خَلَق اللهُ منها مُضغةً، ومنها خَلَق اللهُ تعالى أعضاءَ الإنسانِ المختلفةَ، يعني: خَلَق منها العَيْنَ واليدَ والقَدَمَ والقلبَ والعقلَ والذِّهنَ وغيرَها، ووَضَعَها في مكانِها الصَّحيح، فجَعَل منها الإنسانَ الذي يَحكُمُ اليومَ كلَّ الكائنات، ثم إنه أَوْدعَ في هذه القَطْرةِ من الماءِ إمكانيةَ أن يكونَ منها رجلٌ، وأن يكونَ منها امرأةٌ أيضًا، وذلك حتى يتواصلَ النَّسلُ الإنسانيُّ،

---

(١) البخاري، كتاب الجمعة، باب ١١ برقم ٨٩٣.

وبالتالي أليس اللهُ تعالى الذي خَلَق مِثلَ هذا الإنسانِ العظيم من قَطْرةِ الماء العاديّةِ هذه، بقادرٍ على أن يَخلُقَ مِثلَ هذا الإنسانِ بعدَ موتِـه؟ بلا شكٍّ، اللهُ تعالى قادرٌ على كلِّ هذا، ولن يستطيعَ المُنكِرونَ جميعًا إنكارَ هذه الحقيقةِ يومَ القيامة.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعدَ صلاة العصر من يوم الثلاثاء ٣٠ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٣ ذي الحجة ١٤٣١هـ.**

**هذا، وقدِ اكتملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «القيامة» في ثلاثةِ أيام فقط، أي: من ٢٧ إلى ٣٠ نوفمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسلامُ على سيّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.**

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# (٧٦) سُورَةُ الإِنسَانِ

هذه السُّورةُ مكِّية، ولها اسمانِ؛ «الدَّهرُ» و«الإنسانُ»، وكلاهما مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها، وهناك اختلافٌ حولَ زمنِ نزولِ هذه السُّورة، فيَرى البعضُ أنها مَدَنيّةٌ، ويَرى البعضُ الآخَرُ أنّ بعضَ آياتِها مكيٌّ، وبعضُها مَدَنيٌّ، بينَما يَرى جمهورُ العلماءِ أنها مكِّيّة[1].

## حقيقة الإنسان

في بدايةِ هذه السُّورةِ تذكيرٌ للإنسانِ بحقيقتِه، يعني: يا أيُّها الإنسانُ، يا مَن أنت أشرَفُ المخلوقاتِ، وتَحكُمُها جميعًا، إنك لم تكنْ هكذا دائمًا، بل ولم تكنْ شيئًا من قبلُ، ثم كانت بدايتُك بنُطفةٍ مختلطةٍ من الأبِ والأُمِّ، ثم أَنْعمتُ عليكَ بقُدرةٍ خاصّةٍ على السَّمع والرُّؤية بقَصْدِ ابتلائك، وذلك حتى تسمعَ الدَّلائلَ، وتَرى آياتِ القُدرةِ الإلهيَّة، فتؤمنَ بالله تعالى، وتكونَ له عبدًا شكورًا.

## صفات الصالحين

في الآياتِ من ٧ إلى ٩ جاء بيانُ صفاتِ الصَّالحينَ، يعني: أنّهم يُوفُونَ نذورَهم،

(١) «وهي مكية عند الجمهور» تفسيرروح المعاني.

ويخشَوْنَ اللهَ تعالى فيما يتعلَّقُ بيوم القيامة، ويُطعِمُونَ المساكينَ واليتامَى والأَسْرى إرضاءً لله تعالى.

## الأجر العظيم للصالحين

في الآياتِ من ١٠ إلى ٢٢ جاء ذِكرُ الأَجْرِ العظيم للصَّالحين، يعني: أنّ اللهَ تعالى سيُنجِيهم من عذابِ يوم القيامة، ويُدخِلُهم جناتٍ يستمتعونَ فيها بنِعَم اللهِ المختلفة، وهو ما سيأتي الحديثُ عنه تفصيلًا في الآياتِ المشارِ إليها.

## القرآن المجيد نصيحة كله

في نهايةِ السُّورةِ جاء بيانُ أهميّةِ القرآنِ المجيد بأنه نصيحةٌ كلُّه، وفيه توضيحٌ كاملٌ لطُرُقِ الحقِّ والباطل، كما جاء فيه بيانٌ للمصيرِ السيِّئ الذي سيَلقاهُ الذين انحرَفوا عن طريقِ ربِّهم، ولهذا لِيَختَرْ مَن شاء منكم الطريقَ الذي ينتهي به إلى رضا ربِّه، ومن شاء فلْيختَرِ الطريقَ الذي ينتهي به إلى جهنَّمَ.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعدَ صلاة العشاء من يوم الثلاثاء ٣٠ نوفمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٣ ذي الحجة ١٤٣١هـ.**

* * *

# سُورَةُ الإِنسَانِ (٧٦)،

## مكية (٩٨)، آياتها (٣١)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾

١ - نَقَل العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآيةِ قولًا هو: «الإنسانُ في قولِه تعالى

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٌ﴾ عُني به الجِنسُ من ذُرّيّةِ آدمَ، وأنّ الحينَ: تسعةُ أشهرٍ، مدّةُ حَمْلِ الإنسانِ في بطنِ أُمِّه»[1]، يعني: أنّ الإنسانَ كان معدومًا قبلَ استقرارِه حَمْلاً في بطنِ أُمِّه، ولهذا لا تكونُ هناك حاجةٌ أصلًا إلى ذِكرِه، لكنْ بعدَ أن يستقرَّ الحملُ في بطنِ الأُمِّ، تكونُ هناك فترةُ تسعةِ أشهُر لا يكونُ الإنسانُ فيها شيئًا يستحِقُّ الذِّكرَ، رَغْمَ أنّ المرحلةَ الأُولى من وجودِه تكونُ قد بَدأت، ففي البدايةِ نُطفة، ثم عَلَقة، ثم مُضْغة، وهكذا تتبدَّلُ مراحلُ خَلْقِه تدريجيًّا، ولكنْ لا يَعلمُ أحدٌ كيف ستكونُ عَيْناه أو أنفُه؟ كيف سيكونُ عقلُه وسُلوكُه؟ وهل سينفَعُ وطَنه بعدَ مولدِه أم سيكونُ سببًا في تشويهِ سُمعتِه؟ فهذه فترةٌ لا يمكنُ أن يُقالَ فيها شيءٌ حَتْميٌّ أو قاطعٌ أو حتى يستحِقُّ الذّكرَ فيما يتعلَّقُ به.

وفي هذه الآيةِ تنبيهٌ للإنسانِ بأنه عندما يولَدُ في صُورةِ إنسانٍ مكتمِل حَسَن الصُّورة، عليه أن يتذكَّرَ أيضًا حقيقةَ أنه مخلوقٌ من نُطفةٍ وعَلَقة، وينبغي عليه ألّا ينسى اللهَ تعالى الذي خَلَقَه إنسانًا مكتملًا.

﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾

٢ ـ لقد خَلقْنا الإنسانَ من نُطفةٍ مختلطةٍ من الرَّجُل والمرأة، وقَصَدْنا بخَلْقِه ابتلاءَه، ولهذا أَنْعمنا عليه بقُدرةٍ خاصّةٍ على السَّمع والرُّؤية، حتى يستمعَ إلى الدَّلائل، ويُشاهدَ آياتِ القُدرةِ الإلهيَّة، ثم يأخُذَ القرارَ الصَّحيحَ. وقد جاء بيانُ هذا المفهوم في سُورةِ المُلكِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، يعني: أنّ اللهَ تعالى خَلَق الموتَ والحياةَ كلَيْهما حتى يَبتلِيَكم ويَختبرَكم؛ من مِنكم يعمَلُ الصّالحات، ومَن مِنكم غيرُ ذلك، واللهُ تعالى

(١) تفسير القرطبي.

عالِمُ الغَيْب، ويَعلمُ تمامَ العلم أعمالَ كلِّ إنسانٍ منذُ الأَزَل، ولكنّ الهدفَ منَ الابتلاءِ هو أن يَعرِفَ الآخَرونَ من الناسِ أعمالَ هذا الإنسان، ولا يَعترِضَ أحدٌ عندَ الثَّوابِ والعقاب.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾

٣ ـ لقد أَنْعَمنا على الإنسانِ بالمقدِرة على السَّمع والرُّؤية، وهما الوسيلةُ الأساسيّةُ والهامّةُ في تحصيل العِلم، وأرسَلْنا إليه الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ لهدايتِه إلى الطريقِ المستقيم، وقد أوضَحوا له طريقَي الحقِّ والباطل بالفعل، كما أَخْبَروه كذلك بالعاقبةِ والمصير، بأنه لوِ اختارَ طريقَ الحقِّ سيَدخُلُ الجنّةَ، وإنِ اختارَ طريقَ الباطل سيَدخُلُ جهنَّم. وبالتالي فإنّ القرارَ بيدِ الإنسان، إن شاء أطاع الحقَّ وأصبح من الشاكرين، وإن شاء أطاع الباطلَ وأصبح من الجاحِدين.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾

٤ ـ الذين اختاروا طريقَ الباطل عامِدينَ، وأضاعوا حياتَهم في جُحودِ الله تعالى، تنتظرُهم السَّلاسلُ والأغلالُ ونارُ جهنَّم، وما أن يَفرُغوا من ميزانِ العدل، حتى يتمَّ تقييدُهم في السَّلاسل، ويُلقَى بهم في نارِ جهنَّم.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾

٥ ـ سيُقدَّمُ للصّالحينَ في الجنّةِ شرابٌ ممزوجٌ بماءٍ من عَيْن الكافور، وتَفُوحُ من هذا الشّرابِ رائحةٌ مِثلُ رائحةِ الكافور.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾

٦ ـ في الجنّةِ عينٌ يقالُ لها: كافورٌ، وماؤها أبيضُ اللونِ كالكافور، وتَفُوحُ

منه رائحةُ الكافور، وطعمُه لذيذٌ للغاية، وقد أَجْرى اللهُ تعالى هذه العَيْنَ لعبادِه في الجنّة، وحيثما يريدونَ ستكونُ مياهُ هذه العَيْنِ حاضرةً أمامَهم، مثلَما أنّ الفاكهةَ التي يَرغَبُ أهلُ الجنّةِ في تناوُلِها ستَتَدلَّى أمامَهم وتقتربُ منهم، ولحمُ الطَّيرِ الذي يريدونَ تناوُلَه، سيأتيهم مَشْويًّا أمامَهم.

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾

٧ـ في هذه الآياتِ جاء بيانٌ لبعضِ صفاتِ العبادِ الصَّالحين، والتي يستحِقُّونَ بفَضْلِها الجنةَ، وأولُ صفةٍ من هذه الصِّفاتِ هي: أنّهم عندما يَنذِرونَ نَذْرًا يُوفُونَ به.

### تعريفُ النَّذْر

النَّذرُ يقالُ للشيءِ الجائزِ الذي يُلزِمُ أحدٌ به نفسَه ولم تُلزِمْه به الشَّريعةُ، على سَبيل المثال: لو قال شخصٌ: إنّني سأتصَدَّقُ بمبلغ كذا، أو سأفعَلُ الحسَنةَ كذا إرضاءً لله تعالى، أو قال: إذا تّحقَّق العمَلُ كذا لي، أو إذا يسَّرَ اللهُ لي المشكلةَ كذا سأتصَدَّقُ بكذا في سَبيل اللهِ تعالى، أو سأفعَلُ العمَلَ الصّالحَ كذا، فهذا هو النَّذرُ، ومن الضَّروريِّ الوفاءُ به.

## شروط النذر

ـ أن لا يَنذِرَ شيئًا ألزَمَه اللهُ تعالى به من قبلُ، مثلًا: لو قال شخصٌ: إذا تحقَّقَ العمَلُ كذا لي سأُصلِّي الفجرَ، أو سأؤدِّي الزّكاةَ، فهذا النَّذرُ لَغْوٌ؛ لأنّ الصلاةَ والزَّكاةَ مفروضتانِ أصلًا، وعليه أن يؤدِّيَهما في كلِّ صورةٍ من الصُّوَر.

ـ أن يَنذِرَ شيئًا حَلالًا وجائزًا، أمّا إذا نَذَر شيئًا غيرَ جائزٍ أو فيه معصيةٌ، فعليه أن يتوبَ منه، وأن لا يَفيَ به، وإنّما يحنَثُ في يمينِه، ثم يؤدِّي الكَفّارةَ، وللتعرُّفِ

على كفّارةِ اليمين راجع الحاشيةَ رقم ٢ للآية رقم ٢ من سُورة التحريم (٦٦).

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن نَذَر أن يُطيعَ اللهَ فلْيُطِعْه (أي: يُوفِ بنَذْرِه)، ومَن نَذَر أن يعصيَه فلا يَعْصِه (أي: لا يوفِ بنَذْرِه)»[1].

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾

٨ ـ الصِّفةُ الثانيةُ من صفاتِ الصّالحينَ هي: أنهم يَخافونَ من يوم القيامة، ذلك اليومِ الذي سيكونُ الخوفُ والشَّرُّ فيه منتشرَيْنِ في كلِّ اتّجاه، وسوف يُجيرُ اللهُ تعالى من هذا الشرِّ أولئك الذين يَخافونَ من شرِّ ذلك اليوم، ولا يَعصُونَ اللهَ تعالى.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾

٩ ـ الصِّفةُ الثالثةُ من صفاتِ الصّالحينَ: أنّهم إذا سَأَلَهم مِسكينٌ أو يتيمٌ أو أسيرٌ طعامًا، فإنّهم يؤْثِرونَهم على أنفُسِهم، حتى وإن كانوا هم أنفُسُهم في حاجةٍ إلى هذا الطعام، فيُطعِمُونَهم، ويقولونَ لهم: إنّنا لا نُحسنُ إليكم بغَرَضِ أن تُقدِّموا لنا عِوَضًا عنه، أو أن تَشكرونا، وإنّما نحن نُطعِمُكم إرضاءً لله تعالى فقطْ.

## أفضل الصدقات

ـ يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: جاء رجلٌ إلى النّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أيُّ الصَّدَقةِ أعظمُ أجرًا؟ قال: «أن تَصدّقَ وأنت صحيحٌ شحيحٌ، تخشَى الفقرَ وتأمُلُ الغِنى، ولا تُمهِلْ حتّى إذا بَلَغتِ الحُلقومَ قلتَ: لفلانٍ كذا، ولفلانٍ كذا، وقد كان لفلانٍ»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أيُّما مسلمٍ

(١) البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب ٢٨ برقم ٦٦٩٦.

(٢) البخاري، كتاب الزكاة، باب ١١ برقم ١٤١٩.

كَسَا مسلمًا ثوبًا على عُرْيٍ كَسَاهُ اللهُ من خُضْرِ الجنّة، وأيُّما مسلمٍ أَطْعَم مسلمًا على جُوعٍ أطعَمَه اللهُ من ثمارِ الجنّة، وأيّما مسلمٍ سَقَى مسلمًا على ظَمَإٍ سَقَاهُ اللهُ من الرَّحيقِ المختوم»[١].

## المسكين

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «السّاعي على الأَرملةِ والمِسكينِ كالمُجاهدِ في سَبيل الله، أوالقائم اللّيلَ الصّائم النّهارَ»[٢].

ـ جاء في الإسرائيليّاتِ أنّ سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ «كان لا يَأكُلُ وحدَه، فإذا حَضَر طعامُه أَرسَلَ يطلُبُ مَن يأكُلُ معه، فلقيَ يومًا رجلًا، فلمّا جلسَ معَه على الطّعام، قال له إبراهيمُ: سَمِّ اللهَ، قال الرّجلُ: لا أدري ما الله؟ فقال له: فاخرُجْ عن طعامي، فلمّا خَرَج نَزَل إليه جِبريلُ فقال له: يقولُ اللهُ: إنّه يَرزُقُه على كُفرِه مدى عمُره، وأنت بَخِلتَ عليه بلُقمةٍ؟ فخَرَج إبراهيمُ فَزِعًا يَجُرُّ رداءه، وقال: ارجِعْ، فقال: لا أرجِعُ حتّى تُخبرَني لمَ ترُدُّني لغيرِ معنًى؟ فأَخْبَره بالأمرِ، فقال: هذا رَبٌّ كريمٌ، آمَنتُ، ودَخل وسَمَّى اللهَ وأكلَ مؤمنًا»[٣].

ـ رُويَ عن سيّدِنا أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «أوحَى اللهُ إلى إبراهيمَ: يا خليلي، حَسِّنْ خُلُقَك، ولو معَ الكافر، تَدخُلْ مُدخَلَ الأبرار، فإنّ كلمتي سَبَقتْ لمَن حَسُن خُلُقُه أنْ أُظِلَّه تحتَ عرشي، وأن أَسقيَه من حظيرةِ قُدُسي، وأن أُدنيَه من جِواري»[٤].

---

(١) أبو داود، كتاب الزكاة، باب ٤١ برقم ١٦٨٢.

(٢) البخاري، كتاب النفقات، باب ١ برقم ٥٣٥٣.

(٣) تفسير القرطبي، سورة هود (١١): الآية ٦٩.

(٤) المعجم الأوسط، الإمام الطبراني، ٧: ٢٦١ برقم ٦٥٠٢، والترغيب والترهيب، ٣: ٤٠٧، الترغيب في الخلق الحسن.

## اليتيم

- يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن مَسَح رأسَ يتيمٍ لم يَمسَحْه الّا لله، كان له بكلِّ شَعَرةٍ مَرَّت عليها يدُه حسَناتٌ، ومن أحسَنَ إلى يتيمةٍ أو يتيمٍ عندَه كنتُ أنا وهو في الجنّةِ كهاتَيْنِ» وفَرَّق بينَ أُصبَعيْه: السَّبَّابةِ والوُسطى[1].

## الأسير

نَقَل الحافظُ ابنُ كَثيرٍ في تفسيرِ هذه الآيةِ حديثًا عن سيِّدِنا عبدِ الله بن عَبّاس رضي الله عنهما يقولُ فيه «كان أُسَراؤهم يومَئذٍ (أي: في غزوةِ بدر) مشركين. ويَشهَدُ لهذا أنّ رسولَ اللهِ ﷺ أمَرَ أصحابَه يومَ بدرٍ أن يُكرِموا الأُسارى، فكانوا يُقدِّمونَهم على أنفُسِهم عندَ الغَداء»[2].

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةً وَسُرُورًا﴾

١٠ - لأنّ الصّالحينَ كانوا يخافونَ اللهَ تعالى من أَجْل قَسْوةِ يوم القيامة، ولم يكونوا يَعصُونَه، لهذا سيُنجِيهمُ اللهُ تعالى من شرِّ يوم القيامةِ ومن خَوْفِه، وستكونُ وجوهُهم نَضِرةً مُستبشِرةً بسببِ هذه الفرحة.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾

١١ - صَبَر الصَّالحونَ على كلِّ المصاعبِ التي واجهَتْهم في طريقِ الدِّين، وثَبَتوا على دِينِهم، وسيُثِيبُهم اللهُ تعالى على هذا بإدخالِهمُ الجنةَ، وإلباسِهمُ الحريرَ فيها.

---

(١) مسند أحمد، ٥: ٢٥٠.

(٢) تفسير ابن كثير، سورة الإنسان (٧٦): الآية ٨.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾

١٢ ـ سوف يجلسُ الصَّالحونَ في الجنّةِ على أَسِرّةٍ مُذَهَّبةٍ متَّكئينَ عليها، وليس في الجنّةِ حَرٌّ ولا بردٌ، وإنّما طَقْسٌ معتدلٌ لطيف.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾

١٣ ـ رَغْم أنّ الجنّةَ لن يكونَ فيها شمسٌ، لكنْ سيكونُ فيها نُورُ القُدرةِ الإلهيَّة، وإذا رَغِبَ أحدٌ من أهلِ الجنّة في ظلٍّ، ستكونُ الأشجارُ منتظِرةً على أُهبةِ الاستعدادِ لتلقِّي أمرِ أهل الجنّةِ بالتظليل عليهم، كما أنّ قطوفَ الفاكهةِ والثِّمارِ أيضًا ستكونُ في انتظارِ إشارةٍ من أهلِ الجنّة، وما أن يَرغَبُ أهلُ الجنّةِ فيها حتى تَتدلَّى أمامَهم وتقتربُ منهم.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «تَدنو الشّجرةُ حتّى يَجتنيَها وليُّ الله إن شاء قائمًا وإن شاء قاعدًا وإن شاء مُضْطجِعًا، لا يَرُدُّ يدَه بُعدٌ ولا شَوْك»[١].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾

١٤ ـ جاء ذِكرُ آنيةِ الذَّهبِ في الآيةِ رقم ٧١ من سُورة الزُّخرُف (٤٣)، وهنا جاء ذِكرُ آنيةِ الفضّة، ويُعلَمُ منه أنّ الطعامَ سيُقدَّمُ لأهل الجنّةِ في آنيةٍ من الذَّهَبِ أحيانًا، وأحيانًا أُخرى في آنيةٍ من الفضَّة.

﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾

١٥ ـ القواريرُ والأكوابُ التي سيُقدَّمُ فيها الشرابُ الطَّهورُ لأهل الجنّةِ ستكونُ مصنوعةً من الفضَّة، وسيكونُ الخَدَمُ الذين سيُقدِّمونَ لهمُ الشرابَ على

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٥٤.

قَدْرٍ كبيرٍ من الفِطنةِ والمعرفة بطبائع أهلِ الجنّة، بحيث يَضَعُونَ في كأسِ كلٍّ فردٍ فيها بقَدْرِ ما يرغَبُ ويُحبُّ.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾

١٦ ـ سيُقدَّمُ لأهل الجنّةِ مشروباتٌ مختلفةٌ في أوقاتٍ مختلفة، مثلَما جاء في الآيةِ رقم ٥ من السُّورة، بأنّ أهلَ الجنّةِ سيَشربونَ كؤوسًا من الشرابِ ممزوجةً بالكافور، وفي هذه الآيةِ جاء أنّهم سيُسقَوْنَ كؤوسًا ممتزجةً بالزَّنْجَبيل، يعني: أنّ الشرابَ في هذه الكؤوس سيكونُ ممزوجًا بماءٍ من عَيْن الزَّنْجبيل، فيَفوحُ منه رائحةُ الزَّنْجبيل، لكنّ طعمَه سيكونُ لذيذًا للغاية، والزَّنْجبِيلُ: عَيْنٌ في الجنةِ يقالُ لها: السَّلسَبِيل.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾

١٧ ـ الفِتيانُ الذين يَطُوفونَ حولَ أهل الجنّةِ خِدمةً لهم سيكونونَ فِتْيانًا دائمًا، وسيكونُ حُسنُهم وبَراءةُ وجوهِهم إلى الأبد، ولن تُصيبَهم الشَّيخوخةُ أبدًا، وسيكونونَ كاللآلئ في الصَّفاءِ والنَّقاءِ والبريق، وعندَما يَطُوفونَ بأهل الجنّةِ في خِدمتِهم، سيَبدُونَ وكأنّهم لآلئُ تتناثرُ هنا وهناك.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾

١٨ ـ جاء في هذه الآيةِ ذِكرُ النِّعَم والمُلْكِ الذي سيُنعِمُ اللهُ تعالى به على عبادِه في الجنّة.

## نعم الجنة

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «قال اللهُ عزّ وجلّ:

أعدَدْتُ لعباديَ الصّالحينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعتْ، ولا خَطَر على قلبِ بشَر»[١].

## ملك الجنة

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ أدنى أهل الجنّة منزِلةً لمَن يَنظُرُ في مُلكِه مسيرةُ ألفَيْ سَنَةٍ، يَنظُرُ إلى أقصاهُ كما يَنظُرُ إلى أدناه»[٢]، ويقولُ الحافظُ ابنُ كثير في شرح هذا الحديثِ: «فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنَى من يكونُ في الجنّة، فما ظَنُّكَ بما هو أعلى منزلةً، وأحظَى عندَه تعالى؟»[٣].

ويقولُ الكَلْبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «هو: أن يأتيَ الرّسولُ من عندِ الله بكرامةٍ من الكُسوةِ والطّعام والشّرابِ والتُّحَفِ إلى وليِّ الله وهو في منزِله، فيَستأذِنُ عليه، فذلك المُلكُ العظيم»[٤].

﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾

١٩ ـ سيَلبَسُ أهلُ الجنّةِ على أبدانِهم لباسًا من الحريرِ الرَّقيقِ أحيانًا، وأحيانًا أخرى من الحريرِ السَّميكِ طبقًا لرغبتِهم. كما أنّهم سيُحَلَّوْنَ بأساورَ من فضّةٍ، وقد جاء ذِكرُ الأساورِ الذَّهبيّة في الآية رقم ٣١ من سُورة الكهفِ (١٨)، وهنا جاء ذِكرُ الأساورِ الفِضّيّة، ويُعلَمُ منه أنّ أهلَ الجنّةِ سيَلبَسُونَ أساورَ من ذهبٍ أحيانًا، وأحيانًا أخرى أساورَ من فضّة.

﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾

٢٠ ـ مَرَّ ذِكرُ نوعَيْنِ من الشرابِ قبلَ ذلك هما[٥]: شرابٌ ممتزجٌ بماءٍ من عَيْنِ

---

(١) مسلم، كتاب الجنة: باب ١ برقم ١٧٣٢.
(٢) تفسير ابن كثير، سورة الإنسان (٧٦): الآية ٢٠.
(٣) المرجع السابق، سورة الإنسان (٧٦): الآية ٢٠.
(٤) تفسير القرطبي، سورة الإنسان (٧٦): الآية ٢٠..
(٥) في الآية (٥)، ثم الآية (١٧) من هذه الآية.

الكافور، والشرابُ الثاني هو الممزوجُ بماءٍ من عَيْنِ الزَّنجَبيل، وسوف يُقدِّمُ الغِلمانُ أو الملائكةُ هذَيْنِ الشَّرابَيْنِ لهم، وهنا النوعُ الثالثُ من الشراب، وهو: الذي سُمِّي بالشرابِ الطَّهور، وهذا نوعٌ أعلى من النَّوعَيْنِ السابقَيْنِ؛ لأنّ اللهَ تعالى نَسَبَه إليه، يعني: أنّ اللهَ تعالى سيَسقي عبادَه هذا الشرابَ بيدِ قُدرتِه بما يناسبُ شأنَه وعظَمَته.

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾

٢١ ـ عندما يَدخُلُ الصّالحونَ الجنةَ، ويَستمتِعونَ بأنواع النِّعَم المختلفة، سيقالُ لهم: هذه النِّعَمُ في الجنّةِ ثوابٌ لكم على أعمالِكم الصَّالحة، فمباركٌ عليكم أنْ قَبِلَ اللهُ تعالى بفَضْلِه وكرَمِه سعيَكم، وعندَما يسمَعُ أهلُ الجنّةِ هذا الصوتَ الخالبَ للُّبِّ، تزدادُ معَه سعادتُهم وأفراحُهم.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾

٢٢ ـ الكتُبُ والصُّحفُ السَّماويةُ التي نَزَلتْ على الأنبياءِ الكرام السابِقينَ عليهم السَّلام، نَزَلت دَفْعةً واحدةً، لكنَّنا أَنْزلنا القرآنَ الكريم منجَّمًا في شكل سُوَرٍ وآياتٍ مختلفة، حتى يَسهُلَ على الناس تلاوتُه وحِفظُه، كما أنّ عليكَ أنت أيضًا أن تتلوَ القرآنَ على الناس بتَأنٍّ ومَهَلٍ وفَصْل بينَ آياتِه، حتى يستطيعَ الناسُ فهمَه بسهولةٍ ويُسر، وقد أَنْزلناهُ في ثلاثةٍ وعشرينَ عامًا تدريجيًّا طِبقًا للأحوالِ

والظروف، حتى يستطيعَ الناسُ أن يستوعبوا آياتِه وأحكامَه طِبقًا لسياقِ الظروفِ والأحوال، ويبحثوا فيها عن حُلولٍ لمشاكلِهم.

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾

٢٣ ـ يعني: اثبُتْ على أحكام ربِّك، واصبِرْ على إيذاءِ المُنكِرينَ لكَ، ولا تنخَدِعْ بكلام جاحدٍ مُذنب.

وفي هذه الآيةِ إرشادٌ لرجالِ الدَّعوةِ الإسلاميَّة عن طريقِ النبيِّ ﷺ بأنه كما أنّ النبيَّ ﷺ صَبَر إرضاءً لربِّه، برَغْم الخوفِ من الكفارِ وطمَعِهم وظُلمِهم، وثَبَت على طريقِ دعوتِه، عليهم أيضًا أن يَصبِروا على المصاعبِ التي تواجِهُهم في طريقِ الدَّعوةِ إلى الإسلام، وأن يَثبُتوا على مُهمَّتِهم ودعوتِهم.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾

٢٤ ـ يعني: أدِّ صلاةَ التهجُّدِ في جزءٍ من اللَّيل، بالإضافةِ إلى الصَّلَواتِ المفروضة، وسبِّحْ باسم ربِّك واذكُرْهُ صباحًا ومساءً وفي جزءٍ طويل من اللَّيل.

ـ يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: «لم يَفرِضِ اللهُ عزَّ وجَلّ على عبادِه فريضةً إلّا جَعَل لها حدًّا معلومًا (مثلًا: الصَّلواتُ الخمسُ في أوقاتٍ مخصوصة، وصيامُ رمضانَ في وقتٍ مخصوص، والحَجُّ مرةً في العمُر، والزَّكاةُ مرّةً في العام) ثم عَذَر أهلَها في حالِ العُذرِ، غيرَ الذِّكْر، فإنه لم يجعَلْ له حدًّا ينتهي إليه ولم يَعذِرْ أحدًا في تَرْكِه إلّا مغلوبًا على عقلِه، وأمَرَهم به في الأحوالِ كلِّها فقال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ [النساء: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، يعني: باللَّيل والنهارِ، في البَرِّ والبحر، وفي الصّحةِ والسُّقْم، وفي السرِّ والعلانيَة»[1].

---

(١) تفسير الخازن، سورة الأحزاب (٣٣): الآية ٤١.

- يقولُ سيّدُنا جابرُ بنُ عبدِ الله رضي الله عنهما: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقول: «أفضَلُ الذِّكرِ لا إلهَ إلّا الله، وأفضَلُ الدُّعاءِ: الحمدُ لله»[1].

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرِو بن العاصِ رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ القلوبَ تصدأُ كما يصدأُ الحديدُ»، قيل: فما جِلاؤها يا رسولَ الله؟ قال: «كثرةُ تلاوةِ كتابِ الله تعالى وكثرةُ الذِّكرِ لله عزَّ وجَل»[2]، ولمزيد من التفصيل عن تلاوةِ كتابِ الله تعالى وذِكرِه راجع الحاشيةَ رقم ٣٨ للآيةِ رقم ٢٨ من سُورة الرَّعدِ (١٣)، وكذا الحاشيةُ رقم ٤١ للآية رقم ٤٥ من سُورة العنكبوت (٢٩).

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا ﴾

٢٥ - في هذه الآيةِ تنبيهٌ لمُنكِري القيامةِ بأنّكم ليس لَدَيْكُم أيُّ دليلٍ على إنكارِكمُ القيامةَ، بل إنّكم اعتقَدتُم أنّ هذه الحياةَ الدُّنيا هي كلُّ شيءٍ، وأحبَبْتُموها لأنّ أجرَ العمَلِ فيها يكونُ سريعًا، وأعرَضتُم عن الآخِرةِ لأنه لا يزال هناك متَّسَعٌ من الوقتِ حتى مجيئِها، والإنسانُ بصفةٍ عامّة عَجُولٌ بطبعِه، لكنّه لا يُفكِّرُ ماذا سيكونُ مصيرُ تعجُّلِه هذا؟

﴿ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴾

٢٦ - لقد خَلَقْنا الإنسانَ، وأحكَمْنا أوصالَه بالأعصابِ والأوردة، بحيث تبقَى متَّصلةً بعضُها ببعضٍ طيلةَ العمُر، ألا يُفكِّرُ كفّارُ مكّةَ أنّنا مثلَما خَلَقْنا بني الإنسانِ أقوياءَ، يمكنُنا أن نُهلِكَهم ونأتيَ بغيرِهم إذا لم يَرجِعوا عن عصيانِهم، وظَلُّوا يَستنزِلونَ غضبَ الله عليهم هكذا.

---

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٩ برقم ٣٣٨٣.

(٢) كنز العمال، ٢: ٢٤١ برقم ٣٩٢٤.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾

٢٧ ـ هذا القرآنُ المَجِيدُ نصيحةٌ كلُّه، وفيه توضيحٌ كاملٌ لطُرُقِ الحقِّ والباطل، كما جاء فيه بيانٌ للمصيرِ السيِّئ الذي سيَلقاهُ الذين انحَرَفوا عن طريقِ ربِّهم، ولهذا لِيختَرْ من شاءَ مِنكم الطريقَ الذي ينتهي به إلى رضا ربِّه، ومَن شاء فلْيختَرِ الطريقَ الذي ينتهي به إلى جهنَّم.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾

٢٨ ـ لا يمكنُ أن يَهتديَ أحدٌ إلّا بمشيئةِ الله وتوفيقِه، واللهُ تعالى لا يُعطي توفيقَه، ولا يُدخِلُ جنتَه، إلّا لذلك الذي يَرجِعُ إلى الله تعالى بكلِّ إخلاصِ نيَّة، أمّا الذين يُنكِرونَ اللهَ تعالى، ويَعِيشونَ في الأرضِ فسادًا وظلمًا، فإنَّ اللهَ تعالى قد أعَدَّ لهم عذابًا أليمًا.

**الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،**
**جامعةُ الكرَم، بريطانيا**
**بعدَ صلاة العشاء من يوم الجمُعة ٣ ديسمبر ٢٠١٠م**
**الموافق ٢٦ ذي الحجة ١٤٣١هـ.**

**هذا، وقدِ اكتَملَ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه تفسيرُ سُورة «الإنسان» في ثلاثةِ أيام فقط، أي: من ٣٠ نوفمبر إلى ٣ ديسمبر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّد المرسَلين، وعلى آله وأصحابِه أجمعين.**

* * *

# فهرس المطالب التفصيلي
## للمجلد السادس
## (من سورة الطور إلى سورة الإنسان)

| المضمون | السورة | الآية | الحاشية | الصفحة |
|---|---|---|---|---|
| لم يكن خوف النبي ﷺ من رؤية جبريل الأمين | ٧٤ | ٢ | ٢ | ٤٨٠ |
| النبي ﷺ ليس شاعرًا ولا مجنونًا ولا كاذبًا | ٧٤ | ١٨ | ٩ | ٤٨٦ |
| **النبوة والرسالة** | | | | |
| أربع فرائض للنبوة | ٦٢ | ٢ | ٢ | ٢٦١ |
| تلاوة القرآن وتزكية النفس وتعليم الكتاب والحكمة | ٦٢ | ٢ | ٢ | ٢٦١ |
| العرق على الجبهة عند نزول الوحي | ٧٣ | ٥ | ٤ | ٤٦٤ |
| خطر خروج الروح عند نزول الوحي | ٧٣ | ٥ | ٤ | ٤٦٤ |
| تكاد الناقة تسقط من ثِقَلِ الوحي | ٧٣ | ٥ | ٤ | ٤٦٤ |
| يكاد فخذي يتمزق من ثِقَلِ الوحي | ٧٣ | ٥ | ٤ | ٤٦٤ |
| **الحاجة إلى القرآن والسنة** | | | | |
| لا يخرج من لسان النبي ﷺ إلا الحق | ٥٣ | ٤ | ٣ | ٣٢ |
| اكتب، فإني لا أنطق إلا الحق | ٦٨ | ١ | ٢ | ٣٦٦ |
| الله تعالى أنزل الحديث والسنة أيضًا | ٧٥ | ١٩ | ١٠ | ٥٠٦ |
| **علم النبي ﷺ** | | | | |
| علم النبي ﷺ بالغيب والنبوءة | ٥٤ | ٤٥ | ٣٦ | ٨٢ |
| في القرآن الكريم تفصيل كل شيء | ٥٥ | ٤ | ٣ | ٩٧ |
| **الشفاعة** | | | | |
| منكر شفاعتي سيُحْرَمُ منها يوم القيامة | ٧٤ | ٤٢ | ٢١ | ٤٩٤ |
| من سبَّ صحابتي حُرِمَ شفاعتي | ٧٤ | ٤٢ | ٢١ | ٤٩٤ |
| **تواضع النبي ﷺ** | | | | |
| كان النبي ﷺ يتوب إلى الله ويستغفره في اليوم سبعين مرة | ٧١ | ١٠ | ٥ | ٤٣١ |

| المضمون | السورة | الآية | الحاشية | الصفحة |
|---|---|---|---|---|
| سيدنا أبو بكر رضي الله عنه مقدمٌ على سيدنا علي رضي الله عنه | ٥٧ | ١٠ | ١٣ | ١٦٠ |
| لا يؤم الناس أحدٌ في الصلاة في وجود سيدنا أبي بكر رضي الله عنه | ٥٧ | ١٠ | ١٣ | ١٦٠ |
| الله تعالى سيجزي سيدنا أبا بكر رضي الله عنه على إحسانه | ٥٧ | ١٠ | ١٣ | ١٦٠ |
| لو اتخذت أحدًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً | ٥٧ | ١٠ | ١٣ | ١٦٠ |
| أمَرَ النبي ﷺ سيدنا أبا بكر يصلي بالناس | ٥٧ | ١٠ | ١٣ | ١٦٠ |
| ابتعد سيدنا أبو بكر عن الإمامة لما رأى النبي الكريم ﷺ | ٥٧ | ١٠ | ١٣ | ١٦٠ |
| لبست الملائكة أيضًا مثل أبي بكر رضي الله عنه | ٥٧ | ١٠ | ١٣ | ١٦٠ |
| الصحابة الكرام هم الواسطة بين النبي ﷺ والأمة | ٥٧ | ١٠ | ١٤ | ١٦٣ |
| قبضة شعير يتصدق بها صحابي أفضل من ذهب يتصدق به غيره | ٥٧ | ١٠ | ١٤ | ١٦٣ |
| قتل سيدنا أبو عبيدة أباه الكافر في غزوة بدر | ٥٨ | ٢٢ | ٢١ | ١٩٥ |
| صفع سيدنا أبو بكر رضي الله عنه أباه | ٥٨ | ٢٢ | ٢١ | ١٩٥ |
| كان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ بمثابة العين والأذن | ٥٨ | ٢٢ | ٢١ | ١٩٥ |
| كان المهاجرون مسلمين مخلصين | ٥٩ | ٨ | ٨ | ٢١١ |
| اتهام المهاجرين بالنفاق إنكار للقرآن | ٥٩ | ٨ | ٨ | ٢١١ |
| دعا النبي ﷺ بوسيلة المهاجرين | ٥٩ | ٨ | ٨ | ٢١١ |
| كان الأنصار ثابتين على إيمانهم | ٥٩ | ٩ | ٩ | ٢١٢ |

# المصادر والمراجع

## أولًا: كتب التفاسير

(١) تفسير ضياء القرآن: الشيخ محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٩٩٥م (٥ مجلدات).
(٢) الدر المنثور: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م (٨ مجلدات).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
(٤) التفسير الكبير: الإمام فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٦ مجلدًا).
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين: الشيخ أحمد الصاوي المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(٦) في ظلال القرآن: الشهيد سيد قطب، دار الشروق، مدينة نصر، القاهرة، مصر (٦ مجلدات).
(٧) جامع البيان (تفسير الطبري/ تفسير ابن جرير): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٤م (١٥ مجلدًا).
(٨) تفسير روح البيان: الإمام إسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
(٩) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان ١٩٨١م (٣ مجلدات).
(١٠) تفسير البيضاوي: الإمام ناصر الدين البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (مجلدان).
(١١) تفسير فتح العزيز (تفسير عزيزي: أردو)، شاه عبد العزيز الدهلوي، مطبعة عليمي، دهلي، الهند.
(١٢) تفسير ابن كثير: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار القلم، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(١٣) التفسير المظهري: القاضي محمد ثناء الله باني بتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٤) تفسير نعيمي: المفتي أحمد يار خان نعيمي، المكتبة الإسلامية، الكجرات، باكستان.

(١٥) تفسير روح المعاني: الإمام شهاب الدين السيد محمود البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٨م (١٠ مجلدات).

(١٦) تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، مصر ١٩٩١م (١٤ مجلدًا).

(١٧) تفسير الحسنات: العلامة أبو الحسنات القادري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان (٧ مجلدات).

(١٨) تفسير الخازن: الإمام علاء الدين البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م (٧ مجلدات).

(١٩) تنوير المقياس: عبد الله بن عباس، المكتبة الشعبية، القاهرة، مصر ١٩٧٢م.

(٢٠) البحر المحيط: محمد بن يوسف الغرناطي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).

(٢١) مدارك التنزيل (تفسير النسفي): الإمام عبد الله بن أحمد النسفي، دار النفائس، بيروت، لبنان ١٩٩٦م.

(٢٢) خزائن العرفان: سيد محمد نعيم الدين مرادآبادي، حفيظ بك دبو، الهند.

(٢٣) أحكام القرآن: الإمام أحمد بن علي الجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢٤) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

(٢٥) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٢٦) تفسير الكشاف: محمود بن عمر الزمخشري: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.

(٢٧) فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢٨) تفسير القرآن العظيم، حافظ بن أبي حاتم، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان (١٤ مجلدًا).

(٢٩) تفسير الجيلاني: محي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني، شركة التمام، بيروت، لبنان.

(٣٠) التفسير المنير: دكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام (١٧ مجلدًا).

(٣١) زاد المسير: عبد الرحمن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٨ مجلدات).

(٣٢) تفسير الماجدي: عبد الماجد دريا آبادي، تاج كمپنى لميتد، لاهور، كراتشي، باكستان (مجلدان).

(٣٣) تفسير أحكام القرآن: أبو بكر بن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).

(٣٤) تفسير معارف القرآن: مفتي محمد شفيع، إدارة المعارف، كراتشي، باكستان (٨ مجلدات).

(٣٥) تفهيم القرآن: سيد أبو الأعلى المودودي، مركزى مكتبه إسلامى ببلشرز، نيو دلهي، الهند (٦ مجلدات).
(٣٦) تفسير عثماني: شبير أحمد عثماني، دار الإشاعت، أردو بازار، كراتشي، باكستان (مجلدان).
(٣٧) تفسير البغوي: الحسين بن مسعود البغوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، حاشية تفسير الخازن (٧ مجلدات).
(٣٨) تفسير تبيان القرآن: العلامة غلام رسول سعيدي، فريد بك ستال، اردو بازار، كراتشي، باكستان.
(٣٩) تفسير أبي السعود: القاضي محمد بن محمد، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٤٠) تفسير حقاني: العلامة عبد الحق حقاني، مير محمد كتب خانه، آرام باغ، كراتشي، باكستان.
(٤١) تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

## ثانيًا: كتب الأحاديث

(٤٢) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٣) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، دار الدعاء، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٤) سنن الترمذي: محمد بن عيسى، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٥) سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٦) سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٧) سنن النسائي: أحمد بن شعيب، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٨) مسند أحمد: الإمام أحمد بن حنبل، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٩) الموطأ: الإمام مالك بن أنس، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٥٠) مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله التبريزي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٥١) المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني، مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل، العراق ١٩٨٤م (٢٥ مجلدًا).
(٥٢) المستدرك: الإمام الحاكم النيشابوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م (٤ مجلدات).
(٥٣) الجامع الصغير: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م (مجلدان).

(٥٤) رياض الصالحين: يحيى بن شرف النووي الشافعي، دار القلم، بيروت، لبنان ١٩٧٠م.
(٥٥) سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني، عالم الكتب، بيروت، لبنان ١٩٩٣م (٤ مجلدات).
(٥٦) شعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م.
(٥٧) الترغيب والترهيب: عبد العظيم المنذري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٩٦٨م.
(٥٨) السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي، نشر السنة، الملتان، باكستان (١٠ مجلدات).
(٥٩) المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية (١١ مجلدًا).
(٦٠) صحيح ابن حبان: دار الفكر، بيروت، لبنان (٦ مجلدات).
(٦١) سنن الدارمي: الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، دار الدعوة، استنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٦٢) مصنف عبد الرزاق: الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).
(٦٣) مصنف ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٤) المعجم الصغير: الإمام الطبراني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٥) جمع الجوامع: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٦٦) الجامع الصغير: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

## مراجع أخرى:

(٦٧) معجزات الرسول: محمد متولي الشعراوي، المكتبة الإسلامية الشعراوية، القاهرة، مصر.
(٦٨) الخصائص الكبرى: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٧٥م (مجلدان).
(٦٩) السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام، دار الجيل، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(٧٠) البداية والنهاية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (٧ مجلدات).
(٧١) المفردات: الإمام راغب الأصفهاني، مكتبة مصطفى البابي، مصر ١٩٦١م.
(٧٢) لسان العرب: ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، مصر (٨ مجلدات).

(٧٣) المنجد: دار المشرق، بيروت، لبنان ١٩٧٥م.
(٧٤) شرح المواهب اللدنية: الإمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٧٥) دلائل النبوة: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م (٧ مجلدات).
(٧٦) كتاب المبسوط: شمس الدين السرخسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٩٨٠م (١٥ مجلدًا).
(٧٧) الفتاوى العالمگيرية: العلامة نظام الدين، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوشستان، باكستان ١٩٨٥م (٦ مجلدات).
(٧٨) فتاوى قاضي خان: حسن بن منصور الفرغاني الحنفي، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوشستان، باكستان ١٩٨٥م (٦ مجلدات).
(٧٩) رد المحتار: ابن عابدين، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م (٨ مجلدات).
(٨٠) حاشية الطحطاوي: الإمام أحمد الطحطاوي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
(٨١) مراقي الفلاح: حسن بن عمار الحنفي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
(٨٢) فتاوى أفريقيه: الإمام أحمد رضا القادري، مدينه پبلشنگ كمپنى، كراتشي، باكستان.
(٨٣) بهارِ شريعت: ربيع الشريعة: العلامة محمد أمجد علي، شيخ غلام علي ايند سنز، لاهور، باكستان.
(٨٤) إمداد الفقه: محمد إمداد حسين بيرزاده، دار السلام، القاهرة، مصر ٢٠٠٣م.
(٨٥) اسلامى عقائد: العقائد الإسلامية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة ١٩٩٩م.
(٨٦) كنز العمال: العلامة علاء الدين البرهانبورى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ١٩٨٥م (١٦ مجلدًا).
(٨٧) مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (١٠ مجلدات).
(٨٨) نزهة المجالس: عبد الرحمن الصفوري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٨٩) نور الإيضاح: الشيخ حسن بن علي، كتب خانه مجيديه، ملتان، باكستان.
(٩٠) قصيدة البردة: الإمام البوصيري، الترجمة الإنجليزية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة.

(٩١) السيرة النبوية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٩٢) ضياء النبي: بير محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٤١٥هـ (٧ مجلدات).
(٩٣) الصراط المستقيم: شاه إسماعيل الدهلوي، اسلامي اكيدمي، لاهور، باكستان.
(٩٤) القول الجميل (أردو): شاه ولي الله، مدينه پبلشنگ كمپنى، كراتشي، باكستان.
(٩٥) سبل الهدى والرشاد: الإمام محمد بن يوسف الشامي، وزارة الأوقاف، القاهرة، مصر (١٢ مجلدًا).
(٩٦) المنتظم في تواريخ الملوك والأمم: الإمام عبد الرحمن الجوزي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
(٩٧) تاريخ الإسلام: المؤرخ شمس الدين الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (٥٢ مجلدًا).
(٩٨) إمتاع الأسماع: تقي الدين المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٥ مجلدًا).
(٩٩) حلية الأولياء: الإمام أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٢ مجلدًا).
(١٠٠) الفقه الإسلامي وأدلته: وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام ١٩٨٩م (٨ مجلدات).
(١٠١) الفقه الحنفي وأدلته: الشيخ صاغر جي، دار الكلم الطيب، دمشق، الشام ٢٠٠٠م (٣ مجلدات).
(١٠٢) الفقه على المذاهب الأربعة: عبد الرحمن الجزيري، دار الفكر، بيروت، لبنان (٥ مجلدات).
(١٠٣) لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م، (١٠ مجلدات).
(١٠٤) الأدب المفرد: الإمام البخاري، مكتبة الآداب.
(١٠٥) السيرة الحلبية: نور الدين الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(١٠٦) شرح الشفاء: القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(١٠٧) طبقات ابن سعد: مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر ٢٠٠١م، (١١ مجلدًا).
(١٠٨) بدائع الصنائع: علاء الدين الكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٣م (١٠ مجلدات).
(١٠٩) الموسوعة الإسلامية: الفيصل ناشران، اردو بازار، لاهور، باكستان (مجلدان).

(١١٠) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، (١٠ مجلدات).
(١١١) الهداية: علي بن أبي بكر الفرغاني، مكتبة شركة علمية، خارج بوابة بوهر، الملتان، باكستان (مجلدان).
(١١٢) فقه السنة: السيد سابق، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (ثلاث مجلدات).
(١١٣) عمدة القاري، العلامة بدر الدين عيني، دار الفكر، بيروت، لبنان (٢٥ مجلدًا).
(١١٤) فتح الباري: الإمام ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
(١١٥) الأحكام الفقهية: أحمد محمد عساف، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان.
(١١٦) جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد الله القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٠م.
(١١٧) المقاصد الحسنة: شمس الدين السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.
(١١٨) الفاروق: العلامة شبلي النعماني، مشتاق بك كارنر، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١١٩) المواهب اللدنية: الإمام أحمد القسطلاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(١٢٠) الحاوي للفتاوي: الإمام جلال الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(١٢١) الكواكب السائرة: الشيخ نجم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(١٢٢) الفوائد المجموعة: محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٣) حقوق الأولاد: محمد شريف الصواف، دار الفكر، دمشق، الشام.
(١٢٤) الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (٤ مجلدات).
(١٢٥) سيرة النبي: سيد سليمان الندوي، ناشران قرآن لميتد، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١٢٦) الخطبة العصرية: إبراهيم محمد الجمل، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر.
(١٢٧) كتاب الخراج: الإمام أبو يوسف، مكتبة الأزهر للتراث، القاهرة، مصر.
(١٢٨) شرح شمائل الترمذي: سليمان بن عمر الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٩) البدر المنير: الإمام الشعراني، مكتبة عالم الفكر، القاهرة، مصر.
(١٣٠) الكامل لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
(١٣١) إرشاد العباد: عبد العزيز محمد سلمان، مطابع الخالد، الرياض، المملكة العربية السعودية.
(١٣٢) نسيم الرياض: شهاب الدين خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(١٣٣) أسد الغابة: أبو الحسن الجزري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(١٣٤) الإصابة: الحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(١٣٥) جلاء الأفهام: ابن قيم الجوزية، دار الحديث، القاهرة، مصر.

(١٣٦) سيرة عمر بن الخطاب: أبو الفرج بن الجوزي، دار الدعوة الإسلامية، القاهرة، مصر.

(١٣٧) الفاروق عمر: محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، مصر.

(١٣٨) فيوض القرآن: سيد حامد حسن بلكرامي، فيروز سنز لميتيد، لاهور، باكستان.

(١٣٩) نزهة القاري شرح البخاري: مفتي محمد شريف الحق أمجدي، دائرة البركات، كهوسي، اعظم كرهـ، يوبي، الهند.

(١٤٠) منهاج البخاري: محمد معراج الإسلام، عرفان القرآن، أعوان تاون، لاهور، باكستان.

(١٤١) إرشاد الساري شرح البخاري: شهاب الدين قسطلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(١٤٢) أيها الولد: الإمام الغزالي، Awakening Publications 200 UK Swansea.

(١٤٣) دلائل النبوة: أبو نعيم الأصبهاني، دار ابن كثير، بيروت.

## ثالثًا: المراجع الإنجليزية

(144) Miracles of the Qur'an: Muhammad Mutawali ash-Sha'raawi, published by Daar-ul-Taqwa Ltd. London.

(145) Encyclopedia Britannica: peter B. Norton, Joseph Espsito, USA, 1995.

(146) Islam & the West: H.R.H. Charles Prince of Wales, printed by Uniskill Ltd. Eynsham, Oxford, UK.

(147) Muhammad at Madinah: Montgomery Watts. Oxford University Press, 2006.

(148) Oxford Encyclopedia Dictionary: published by Oxford University Press, USA, 1991.

(149) Shari'ah the Islamic Law: Abdur Rahman Doi (Zia-un-Nabi).

(150) The Holy Bible: published by Collins, London, 1954.

(151) The Living Bible: British Edition, 1975.

(152) The Hutchinson Encyclopedia: 1999 Edition.

(153) The New Universal Encyclopedia: Caxton publishing Co, Ltd, London.

(154) The English Pig: published by The Hambledon Press, London 1998.

(155) American Government: Lowi & Ginsberg. Published by W.W. Norton Publication 1998.

(156) Fream's Agriculture: printed by Butler & Tanner Ltd, London. 16th Edition 1983.

(157) Oxford Advanced Learner's Dictionary: 4th Edition 1989.

(158) The Hans Wehr Dictionary of Modern Written Arabic: Edited by J. M. Cowan, 3rd Edition.

(159) The 100: Michael H. Hart, Citadel Press, 1987, New Jersey, USA.

(160) The Bible, the Qur'an and Science: Maurice, 1979, North America, Trust Publication, USA.

